

نحو إسلام الرسول

القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم

الكتاب و القرآن

محمد شحرور نموذجًا

نقض المنهجية

محمد السعيد مشتهري





نقض منهجية

القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

مشتهري، محمد السعيد
القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم:(الكتاب والقرآن) محمد شحرور نموذجًا نقض: المنهجية/
نيوبوك للنشر والتوزيع
17 × 24 سم
تدمك: 9789779960355
رقم الإيداع: 28088/2019
1ـ القرآن والفلسفة
2ـ شحرور، محمد، ١٩٣٨ ـ ٢٠١٩
أ ـ العنوان ٢٢٩,٤١

دار النشر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم «الكتاب والقرآن» محمد شحرور نموذجًا نقض المنهجية
الكاتب: محمد السعيد مشتهري
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2020



NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmail.com

القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم

«الكتاب والقرآن»
محمد شحرور نموذجًا
نقض المنهجية

محمد السعيد مشتهري



الإهـــداء

إلى كل من يبحث

عن الطريق الحق

إلى دين الإسلام

المحتويات

الباب الأول

نحو إسلام الرسول

نحو: المنهجية العلمية

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف / ٣]

تمهيد
١ ـ منهجية القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم

لقد أقام د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم على أساس «مصدر معرفي فلسفي» لا علاقة له مطلقًا بقراءة معاصرة للتنزيل الحكيم، تستمد حجيتها من أمر الله المسلمين بالشهادة على الناس، وهي شهادة «معاصرة»، يقول الله تعالى «الحج/ ٧٨»:

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

وتنطلق الشهادة على الناس من فعالية «نصوص الآية القرآنية العقلية» المعاصرة لهم، بهدف إخراجهم من الظلمات إلى النور، لقول الله تعالى «إبراهيم / ١»:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

ويستحيل أن يكون تفعيل أمر الله بإخراج الناس من الظلمات إلى النور عن طريق فلسفة يكفر أصحابها بوجود الله، ويقولون «لا إله والحياة مادة».

وتقوم قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم» على هذه المرجعيات:

١ ـ المرجعية الإلهية:

«آيات التنزيل الحكيم»: يستقطعها د. شحرور من سياقاتها، ويجمعها جمعًا عشوائيًّا شغل معظم صفحات «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة» لإظهار أن معظم استدلالاته من التنزيل الحكيم.

٢ ـ المرجعية اللغوية:

يجب أن يكون صاحبها من منكري الترادف في اللغة، ولذلك اختار د. شحرور «معجم مقاييس اللغة لابن فارس»، وإن لم نشهد له وجودًا في كتابه إلا نادرًا.

٣ ـ الفلسفة المادية للوجود:

لقد أقام د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم على مبادئ وأصول «الفلسفة المادية للوجود» التي ترى أن هذا الوجود يتطور ذاتيًّا ويرتقي إلى الأفضل والأكمل عن طريق نظرية «صراع المتناقضات» التي كانت فكرة تخيلية افتراضية عند الفيلسوف «هيجل»، أراد أن يجعلها أساسًا لحركة الكون، بَدَلَ الإيمان بالله الخالق وفعاليات أسمائه الحسنى في الوجود.

وجاء «تشارلز داروين» بنظرية «النشوء والارتقاء» في المخلوقات، وهي أيضًا فكرة تخيُّلية افتراضية غير مقترنة بأدلة واقعية، بدليل اعتراف داروين نفسه بأن أهم حلقة في نظريته وهي «نفخ الروح» الذي حوّل «البشر» إلى إنسان مفقودة.

ثم جاء «كارل ماركس» وجمع بين الفكرتين ليخرج بـ «الفلسفة المادية للوجود» بهدف إبعاد الناس عن الإيمان بوجود إله واحد أحد، هو خالق كل شيء، والإيمان بأنه «لا إله والحياة مادة».

ولم يستطع عالم، إلى يومنا هذا، أن يثبت صحة هذه النظريات، لا بالبرهان العقلي، ولا بالعلم التجريبي، ومع ذلك ظلت «الفلسفة الماركسية المادية للوجود» تنتشر بين الشعوب، وتسجل في الكتب، ومن هذه الكتب «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة» لصاحبه د. شحرور.

٤ ـ نظرية النشوء والارتقاء:

وصاحبها «تشارلز داروين»، الذي يقول إن أصل الإنسان فصيلة حيوانية اسمها «بشر»، مع اعترافه بوجود حلقة مفقودة في نظريته وهي حلقة «نفخ الروح» التي حولت البشر إلى إنسان.

٥ ـ المنهجية الهرمنيوطيقية:

«الهرمنيوطيقا»: كلمة يونانية الأصل، ترتبط بالفعل اليوناني «Hermeneuein»، الذي يقوم معناه على دلالات ثلاث:

أ: التلفظ والنطق وتحويل المكتوب إلى منطوق: «عالم السمعيات».

ب: الشرح والكشف عن الدلالات الباطنة في المكتوب: «عالم التأويل».

ج: ترجمة المنطوق أو المكتوب إلى لغة أخرى: «عالم الإنسان».

ولقد ظهرت «الهرمنيوطيقا» لتفسير الكتاب المقدس، بعد عملية الإصلاح البروتستانتي، الهدف منها تفسير الكتاب المقدس دون الحاجة إلى سلطة الكنيسة، أي أن يعتمد الناس على أنفسهم في تفسير النص الديني، وأول كتاب ألف لعرض هذه النظرية كان «عام ١٦٥٤م» واسمه «الهرمنيوطيقا» لمؤلفه «دان هاور».

وبهذه النظرية الجديدة انهارت قداسة الكتاب المقدس، وأصبح كأي كتاب أدبي يُدرس من «منظور إنساني» دون أي اعتبار للبعد الغيبي الإلهي، وأصبح تأويل النص يخضع لهوى المفسر، وكان من الطبيعي ألا تعد كلمات اللغة قوالب للمعاني التي تحملها قواميس اللغة، وإنما أصبحت رموزًا وكنايات قابلة لأي تأويل ولأي معنى يريده المفسر.

وعندما تعددت التفسيرات لنصوص الإنجيل، دعتهم الحاجة إلى تأسيس مبادئ أو معايير للتفسير الصحيح من وجهة نظر «الهرمنيوطيقيّن»، تنطلق من قاعدة تأويل «النص الإلهي» بما يوافق ما هو كائن في حياة الناس المتطورة، وليس تغيير حياة الناس لتوافق «النص الإلهي».

وهذه «المنهجية الهرمنيوطيقية» هي التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم»، فبدأ بتأسيس قواعد هذه المنهجية من خلال تحديد المصطلحات المستخدمة في قراءته المعاصرة، والتي كان فيها صادقًا معبرًا عن «توجهه الهرمنيوطيقي» الذي دفعه إلى الإلحاد في كل الآيات التي حملها كتابه «الكتاب والقرآن» استنادًا إلى «المنهج اللغوي» الذي اتبعه.

أولًا:

يقول د. شحرور تحت عنوان «المنهج المتبع في هذا الكتاب «ص ٤٢»:

١ ـ «البند ١»:

«من حق القارئ أن يسأل ما هو المنهج المتبع في هذا الكتاب، وكيف تم التوصل إلى هذه النتائج التي لا توجد في كتب السلف؟!

إن المنهج المتبع هو ما يلي:

إن العلاقة بين الوعي والوجود المادي هي المسألة الأساسية في الفلسفة، وقد انطلقنا في تحديد تلك العلاقة من أن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية.

ويعني ذلك أن المعرفة الحقيقية «غير الوهمية» ليست مجرد صور ذهنية بل تقابلها أشياء في الواقع؛ لأن وجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها، لذا فإننا نرفض قول الفلاسفة المثاليين: أن المعرفة الإنسانية ما هي إلا استعادة أفكار موجودة مسبقًا، وقد أكد القرآن الكريم هذا المنطق بقوله «النحل / ٧٨»:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

*** أقول:**

إن قول د. شحرور: «إن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية» يعني أنه لا يؤمن بوجود عالم غير المادي «عالم الغيب» كمصدر للمعرفة الإنسانية، ومما يُثبت تهافت هذا الادعاء، قول الله تعالى «الأعراف ١٧٢»:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ـ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ـ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ ـ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾:

ـ ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ـ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

ـ ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ ـ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ـ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾.

ـ ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؟!

فقد حملت هذه الآية أهم «معرفة غيبية» آمن بها بنو آدم من قبل أن يخرجوا من بطون أمهاتهم، وهي الإقرار بالربوبية وبفعالية أسماء الله الحسنى في هذا الوجود: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ ـ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾.

ومع استحالة أن يتذكر الناس هذه «المعرفة الغيبية»، فقد بيّن الله أنهم محاسبون

عليها يوم القيامة، وأن الله لن يقبل عذر أحد بدعوى «الغفلة» عن هذا الإقرار، لقوله تعالى:

﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾.

كما لن يقبل الله عذر «الآبائية»، لقوله تعالى بعدها:

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؟!

وعقب عز وجل على هذه الأعذار بقوله تعالى بعدها «الأعراف / ١٧٤»:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي يرجعون إلى هذه المعرفة الغيبية اليقينية التي تتفاعل مع دلائل الوحدانية في العالم المشاهد خارج الذات الإنسانية، ويعملون بمقتضاها.

إذن فعلى أي أساس يحصر د. شحرور المعرفة الإنسانية في مصدر واحد فقط هو «العالم المادي خارج الذات الإنسانية»؟!

وعليه يسقط «البند ١» لعدم وجود علاقة بينه وبين القراءة المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم».

٢ ـ «البند ٢»:

يقول د. شحرور، انطلاقًا من الآية «النحل / ٧٨»:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

«إن المعرفة تأتي من خارج الذات الإنسانية، فإننا ندعو إلى فلسفة إسلامية معاصرة، تعتمد المعرفة العقلية التي تنطلق من المحسوسات عن طريق الحواس وعلى رأسها السمع والبصر».

*** أقول:**

ويسقط «البند ٢» لاستحالة أن تقوم فلسفة «إسلامية» معاصرة على فلسفة مادية «ماركسية» قوامها التفسير الجدلي المادي للحياة والتاريخ.

٣ ـ «البند ٣»:

ينطلق د. شحرور في هذا البند من قاعدة «الجدلية المادية» فيقول:

أ: «الكون مادي ـ والعقل الإنساني قادر على إدراكه ومعرفته ـ ولا توجد حدود يتوقف العقل عندها».

ب: «تتصف المعرفة الإنسانية بالتواصل ـ وترتبط بدرجة التطور التي بلغتها العلوم في عصر من العصور».

ج: «كل ما في الكون مادي ـ وما ندعوه الآن فراغًا كونيًا هو فراغ مادي ـ أي أن الفراغ شكل من أشكال المادة».

د: «لا يعترف العلم بوجود عالم غير مادي يعجز العقل عن إدراكه».

❊ أقول:

وواضح سقوط «البند ٣» لاستحالة أن تقوم قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم على الفلسفة الجدلية المادية.

٤ ـ «البند ٤»:

وفي «البند ٤» لا يعترف د. شحرور بوجود غيب غير مادي، فيقول:

«بدأت المعرفة الإنسانية بـ«التفكير المشخص» المحدد بحاستي السمع والبصر، وارتفعت ببلوغها التفكير المجرد العام، لذا كان عالم الشهادة يعني في البداية «العالم المادي» الذي تعرف عليه الإنسان بحواسه، ثم توسع ليشمل ما أدركه بعقله لا بحواسه، وعليه فإن عالم الشهادة وعالم الغيب ماديان».

❊ أقول:

كيف يكون «عالم الغيب» ماديًا تدركه الحواس كـ «عالم الشهادة» بدعوى أن مفهوم الغيب، كما يدعي د. شحرور، هو «ما غاب عنك»، فكيف تدرك الحواس ما غاب عنا، وهو موجود في الغرفة المجاورة؟!

ثم كيف نفهم قول د. شحرور بعدها في نفس «البند ٤»:

«وتاريخ تقدم المعارف الإنسانية والعلوم، هو توسع مستمر لما يدخل في عالم الشهادة، وتقلص مستمر لما يدخل في عالم الغيب».

فكيف يكون تاريخ تقدم المعارف الإنسانية والعلوم في توسع مستمر، فيما يتعلق بعالم الشهادة، وفي نفس الوقت في تقلص مستمر، فيما يتعلق بعالم الغيب، والعالمان عند د. شحرور ماديّان، ومعلوم أن خصائص المادة واحدة، إذا توسعت تتوسع كلها، وإذا تقلصت تتقلص كلها؟!

وبناء على هذا التناقض يسقط «البند ٤».

٥ ـ «البند ٥»:

حيث يقول د. شحرور:

«لا يوجد تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين الفلسفة التي هي أم العلوم، وتنحصر بفئة الراسخين في العلم مهمة تأويل القرآن طبقًا لما أدى إليه البرهان العلمي، وذلك وفق قانون التأويل في اللسان العربي... وفي ضوء أحدث المنجزات العلمية».

*** أقول:**

إن «القرآن الكريم» عند د. شحرور ليس هو «التنزيل الحكيم» كله، وإنما جزء منه، كما سأبين ذلك في موضعه، وهذا الجزء «القرآن»، هو الذي:

ـ لا يتناقض مع «الفلسفة المادية للوجود».

ـ ولا يستطيع تأويله إلا «الراسخون في العلم».

فماذا عن بقية أجزاء «التنزيل الحكيم»، هل تتناقض مع «الفلسفة المادية للوجود» ولا يستطيع غير الراسخ في العلم أن يقوم بتأويلها؟!

وإذا كان «الراسخون في العلم»، كما يدعي د. شحرور، لا يعترفون بوجود «عالم غير مادي» يعجز العقل عن إدراكه، فهذا معناه أنهم لا يعترفون بـ «وجود الله» لأن حواسهم لا تدركه:

فعلى أي أساس منطقي يقرأ د. شحرور التنزيل الحكيم قراءة معاصرة والله تعالى يقول عن الراسخين في العلم «آل عمران / ٧»:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾؟!

أي آمنا بـ ﴿الآيـات المحكمات﴾ التي هي ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وبالآيات ﴿المُتَشَابِهَات﴾ التي لا يتبعها إلا ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾؟!

إنه منطق «الفلسفة المادية للوجود» التي تُنكر وجود الله، وترى أن الكون والوجود مادة تتطور ذاتيًا، وأن الفكر ما هو إلا انعكاس المادة على الدماغ.

إن «الرَّاسِخُينَ فِي الْعِلْمِ» هم الذين يُقرّون بأن آيات التنزيل الحكيم كلها حق، سواء فهموا معناها أم لم يفهموه، ويقولون ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾، ولا يخوضون في تأويل «مَا تَشَابَهَ مِنْه» لقول الله تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾.

وغير صحيح عطف جملة «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» على لفظ الجلالة «اللّهُ» ليصبح معنى الآية:

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾.

لأن هذا معناه أن الله تعالى والراسخين في العلم «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا»، فكيف يقول الله تعالى ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾؟!

وهذا لا يقول به مسلم عاقل يعلم معنى الشرك بالله.

إن واو العطف في لفظ «وَالرَّاسِخُونَ»، جاءت لتفصل بين جملة «إِلاَّ اللّهُ» وجملة «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...»، لذلك كان الوقف على كلمة «الله» عند تلاوة هذه الآية وقفًا لازمًا.

لقد قال الله تعالى للرد على الذين يثيرون الشبهات حول «الآيات المُتَشَابِهَات»، وما لم يقفوا على تأويله في عصر التنزيل، أو في أي عصر بعده، وإلى يوم الدين:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾.

إذن فالحكمة من وجود «الآيات المُتَشَابِهَات» ضمن «آيات الكتاب» أن تكون «فتنة» لـ «الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ»، ذلك أن كتاب الله الخاتم ليس كالكتب التي سبقته، لأنه يحمل في ذاته «الآية الإلهية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد.

ولذلك فإن القاعدة الأساس التي يجب أن ينطلق منها من يريد الدخول في «دين الإسلام» هي الإيمان أولًا بأن كتاب الله الخاتم ليس «جملًا قرآنية» حملها كتاب مسطور، وإنما «آيات إلهية» تتفاعل مع «كون منظور».

وهنا تظهر حكمة أن يحمل سياق الآية قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾.

ذلك أن التفاعل بين «الآيات المسطورة» و«الآيات المنظورة» قائم بين الناس إلى يوم الدين، وما لم يُعلم تأويله في وقت سيعلم في وقت آخر، الأمر الذي علمه ويعلمه «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» فكان هذا هو موقفهم من «آيات الكتاب» كلها:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾.

ولكنها «أزمة فهم»، ولذلك عقب الله على ما سبق بقوله تعالى:

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

وعندما تكون هذه الآية «آل عمران / ٧» هي الآية الوحيدة من آيات الكتاب كله، التي انطلق منها د. شحرور، وأقام عليها بدعة التفريق بين «الكتاب» و«القرآن»، فإن الأمر يستلزم أن نقول له:

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

ـ فمن هم «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» من وجهة نظر د. شحرور؟!

يقول د. شحرور «ص ١٩٢»:

«وهنا يجب أن نفهم أن الراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون وعلماء الفضاء وكبار علماء التاريخ مجتمعين... وأن الله وضع تعريفًا للراسخين في العلم فقال «العنكبوت / ٤٩»:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ - فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

ثم عقّب بقوله: «هنا نلاحظ التشابه الكبير بقوله: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ فالصدر هنا ليس جوف الصدر، ولا جوف الرأس الجمجمة... وإنما يعني الصدارة، كأن نقول إن «إسحاق نيوتن» يحتل مركز الصدارة على علماء الرياضيات، وإن «أينشتاين» يحتل مركز الصدارة بين علماء الفيزياء».

❋ أقول:

إن د. شحرور لا يعلم الفرق بين:

«الرَّاسِخين فِي الْعِلْمِ» في قوله تعالى «آل عمران / ٧»:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ في قوله تعالى «العنكبوت / ٤٩»:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

وأن «الرسوخ في العلم» يأتي بعد «إيتاء العلم»، ولذلك يسقط ادعاؤه أن الله وضع تعريفًا للراسخين في العلم فقال «العنكبوت / ٤٩»:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ - فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

لقد وجد د. شحرور كلمة «الصدر» في هذه الآية فاعتبرها بيانًا من الله لمعنى «الراسخين في العلم»، ثم ألحد في معناها اللغوي والسياقي ليوافق «الفلسفة المادية للوجود» ليصل إلى أنها تعني صدارة «مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون».

ولذلك لم يكن غريبًا، بعد إلحاده هذا، أن يقول د. شحرور بعدها:

إن هؤلاء الراسخين في العلم هم بالضرورة من المؤمنين لأنهم «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا».

والسؤال:

هل أصحاب «الفلسفة المادية للوجود»، الذين اتبع د. شحرور أفكارهم في قراءته

المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»، من المؤمنين الذين: «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا»، والذين «الإسراء: ١٠٨ ـ ١٠٧»:

﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾؟!

إذن فكيف تكون «الفلسفة المادية للوجود»، التي ابتدعها علماء من القرون الماضية، الذين كفروا بالله وألحدوا في آياته الكونية، أمثال داروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء، وماركس صاحب «الفلسفة المادية للوجود»، كيف تكون هي القاعدة التي ينطلق منها د. شحرور في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم؟!

وعليه يسقط «البند ٥» الذي كشف عن إلحاد القراءة المعاصرة في آيات التنزيل الحكيم، وفي مقدمتها آية «آل عمران / ٧» التي اتخذها د. شحرور القاعدة التي انطلق منها في مشروعه كله الذي يدعي أنه قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم.

٦ ـ «البند ٦»:

وفيه يقول د. شحرور:

«إننا نتبنى النظرية العلمية القائلة: إن ظهور الكون المادي كان نتيجة انفجار هائل، أدى إلى تغير طبيعة المادة... ويعني ذلك أن الكون لم ينشأ من عدم، مع التأكيد أنه لا قديم إلا الله بل من مادة ذات طبيعة أخرى».

❊ أقول:

بأي منطق علمي، قبل أن يكون شرعيًّا، تقوم قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم على وصف الله تعالى بـ «القدم» كما يدعي د. شحرور بقوله «مع التأكيد أنه لا قديم إلا الله»؟!

وعليه، يسقط «البند ٦» بسبب عدم تنزيه الخالق عز وجل عما يتصف به المخلوق، وبسقوط كل بنود المنهج المتبع في القراءة المعاصرة، يسقط من «الجولة الأولى» كتاب د. شحرور «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة» كله.

ثانيًا:

ذكر د. شحرور أن اللسان العربي مرجعه الأساسي في قراءته المعاصرة للتنزيل

الحكيم، أي أنه سيرجع في فهم معاني كلمات التنزيل الحكيم إلى معاجم اللغة العربية، فلماذا اختار المعاجم التي تنفي وجود «الترادف» في اللغة العربية «حسب ظنه» وفي مقدمتها معجم «مقاييس اللغة لابن فارس»؟!

يقول د. شحرور «ص ٤٤»:

«لقد استعرضنا معاجم اللغة فوجدنا أن أنسبها هو معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تلميذ ثعلب، الذي ينفي وجود الترادف في اللغة، فقد تم الاعتماد عليه بشكل أساسي دون إغفال بقية المعاجم».

*** أقول:**

لقد أراد د. شحرور أن يكون حرًّا في تعامله مع الكلمة القرآنية بعيدًا عن فقه اللغة وأساليبها البيانية، ولا شك أنه يعلم أن «مسألة الترادف» مسألة خلافية، ليس في وجودها من عدمه، وإنما في تعريفها أصلًا، وهل الاختلاف حولها اختلاف شكلي أم موضوعي؟!

مثال: يقول الله تعالى «الفتح / ٢٩»:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾.

ويقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام «الصف / ٦»:

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ﴾.

فهل الرسول «أحمد»، الذي جاء بعد «عيسى»، غير الرسول «محمد» الوارد ذكره في الآية الأولى؟!

إن إيمان د. شحرور بعدم وجود ترادف في كلمات التنزيل الحكيم، بالإضافة إلى عدم الاستعانة بـ «علم السياق» لتحديد المعنى المناسب للكلمة، أوقعه في إشكاليات كثيرة منها:

أ: التفريق بين «الكتاب، والقرآن، والنبي، والرسول، وأم الكتاب، والسبع المثاني...» إلى آخر ما ذكره في كتابه.

ب: حصر معنى «القرآن» في «الآيات المتشابهات والسبع المثاني».

ج: حصر معنى «أم الكتاب» في رسالة رسول الله محمد، عليه السلام.

د: تفسير كلمة «الفجر» بالانفجار الكوني الأول:

يقول د. شحرور «ص ٢٣٥»: «فالخلق الأول بدأ بانفجار كوني هائل حيث قال تعالى «الفجر / ١ ـ ٣»:

﴿وَالْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③﴾.

حيث إن «الفجر»:

هو «الانفجار الكوني الأول»، «وَلَيَالٍ عَشْرٍ»: معناه أن المادة مرت بعشر مراحل للتطور حتى أصبحت شفافة للضوء، لذا أتبعها قوله، «وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ»: حيث إن أول عنصر تكون في هذا الوجود وهو «الهيدروجين»، وفيه «الشفع» في النواة و«الوتر» في المدار.

هـ: تفسير كلمة «الجيب» الواردة في قوله تعالى في سورة «النور / ٣١»، فيقول «ص ٦٠٥»:

فالجيوب في المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق وهي:

«ما بين الثديين ـ وتحت الثديين ـ وتحت الإبطين ـ والفرج ـ والآليتين».

فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها، لذا قال تعالى «النور / ٣١»:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وغير ذلك من البراهين الدالة على «المنهجية العشوائية الإلحادية» التي قامت عليها قراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم، وعلى الإهمال شبه الكامل لـ«علم السياق القرآني»، والتي سيأتي بيانها في موضعها.

ثالثًا:

يقول د. شحرور، في كتابه «تجفيف منابع الإرهاب» ص ٢٦»:

«وعلينا أن نعي حقيقة تاريخية هامة جدًّا وهي أن التاريخ الإنساني، حسب التنزيل الحكيم، يمكن أن يقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى:

مرحلة الرسالات التي انتهت برسالة محمد (ﷺ).

المرحلة الثانية:

مرحلة ما بعد الرسالات والتي نعيشها نحن.

أي أن الإنسانية الآن لا تحتاج إلى أية رسالة أو نبوة، بل هي قادرة على اكتشاف الوجود بنفسها بدون نبوات، وقادرة على التشريع بنفسها بدون رسالات».

ثم قال:

«ونحن قرأنا التنزيل الحكيم على أنه خاتم الرسالات بعيون وعقل عصر ما بعد الرسالات، على أساس أنه جاء للأولين بمستوى، أي قرؤوه بعيونهم وبمستوى معارفهم، ولنا بمستوى آخر نقرأه بعيوننا وبمستوى معارفنا، ولا يمكن أن تكون الصلاحية إلا هكذا».

*** أقول:**

إن د. شحرور يتعامل مع «التنزيل الحكيم» باعتباره رسالة من الرسالات، حملتها الأجيال المسلمة على مر العصور، إلى أن وصلت إلينا اليوم، وعلينا أن نتعامل معها بعيوننا وبمستوى معارفنا.

والسؤال:

إذا كانت الإنسانية الآن: «لا تحتاج إلى أية رسالة أو نبوة، بل هي قادرة على اكتشاف الوجود بنفسها بدون نبوات، وقادرة على التشريع بنفسها بدون رسالات».

إذن فلماذا أجهد د. شحرور نفسه، وكتب «٨٢٥ صفحة» في قراءة «التنزيل الحكيم» قراءة معاصرة في كتابه «الكتاب والقرآن»، وهو يؤمن بأن الإنسانية ليست في حاجة اليوم إلى هذا «التنزيل الحكيم» الذي هو «رسالة» النبي محمد، عليه السلام؟!

والجواب:

لأن د. شحرور لا يؤمن أصلًا بأن هذا «التنزيل الحكيم» يحمل في ذاته «الآية

القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، و«المعاصرة» للناس جميعًا إلى يوم الدين.

إن د. شحرور لا يعلم أن حجية وصلاحية «التنزيل الحكيم» قائمة بين الناس، ليس بسبب قراءتهم لـ «التنزيل الحكيم» بعيون ومستوى معارفهم، كما يدعي، وإنما بسبب أنه يحمل «الآية الإلهية العقلية»، التي لولاها لورثه المسلمون كما ورث اليهود والنصارى التوراة والإنجيل.

رابعًا:

وعن «المعاصرة» يقول د. شحرور «ص ٣٢»:

«تفاعل الإنسان المعاصر مع النتاج المادي والفكري... بهذا المعنى يكون التراث والمعاصرة مفهومين متداخلين، تفصل بينهما لحظة الآن المتحركة باستمرار... ولكننا نستطيع أن نختار بأنفسنا منه ما يلزم حاضرنا ومستقبلنا».

ثم قال بعدها:

«إن القرآن الكريم قد نهانا عن أن نقف من التراث موقف الانصياع الأعمى والتقديس ... هذا الموقف يدعو إلى أن نحترم تراثنا لا أن نقدسه... وقد آن لنا أن نصنع تراثًا لأجيالنا القادمة بملء إرادتنا وبدون حرج، وهذه هي عين المعاصرة».

❊ أقول:

إن «عين المعاصرة»، عند د. شحرور، أن تصنع الأجيال بأنفسها تراثًا جديدًا، إذن فلماذا استند في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم إلى تراث قديم لفلاسفة التفسير المادي للوجود، ولم يستند إلى إنجازات علماء عصره، وهو الذي نسف كل ما هو قديم وأن الناس عليها أن تنطلق من «الصفر» فقال في كتابه «أمُّ الكتاب وتَفصيلُها / ص ٢٠»:

«وما قمنا به في كتابنا هذا وغيره من كتبنا، هو ما ينطبق عليه تسمية القراءة المعاصرة، لأننا وضعنا كل التراث جانبا، (وباشرنا العمل من الصفر)، انطلاقًا من قناعتنا بأن نصوص التنزيل الحكيم بحاجة إلى قراءة واعية ومتبصرة».

❊ أقول:

إذن فأين هي «المنهجية العلمية الجديدة» التي وضعها د. شحرور على صفحة بيضاء، «من الصفر»، والتي حملت معالم الطريق الذي يريد أن يسير فيه، وزاد المسير الموصل إلى قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم، بعيدًا عن كل ما هو قديم؟!

وكيف يكون «زاد المسير» إلى قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم هو:

١ ـ «كارل ماركس»:

صاحب «النظرية المادية للوجود» و«التفسير الجدلي المادي» للحياة وللتاريخ، والذي يقوم على حصر مصادر المعرفة فيما هو «مادة» خارج الذات الإنسانية، أي على «المحسوسات».

٢ ـ «تشارلز داروين»:

صاحب «نظرية النشوء والارتقاء» ومؤلف كتاب «أصل الأنواع»، والذي ينطلق من أن الجنس البشري نشأ وارتقى بشكل مادي تطوري.

إن هذه الفقرة التي حملها كتاب د. شحرور «أمُّ الكتاب وتَفصيلُها / ص ٢٠» تكفي وحدها لإسقاط «المنهجية العشوائية» التي قامت عليها قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، كما تكفي لإسقاط جميع مؤلفاته وفي مقدمتها كتابه «الكتاب والقرآن»، وذلك بسبب هذا التناقض غير المقبول منطقيًّا بين ما يقوله في كتابه، وما يكتبه في كتابه!!

ولذلك أقول:

إن طوق النجاة من السقوط في إشكاليات القراءات المعاصرة للتنزيل الحكيم أن نؤمن إيمانًا يقينيًّا:

أ: أن هذا التنزيل الحكيم هو الذي حمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام.

ب: أن منهجية التعامل مع هذه «الآية القرآنية العقلية» وأدوات فهم نصوصها يجب أن تستنبط من ذات النص القرآني.

ج: أن هذه «الآية القرآنية العقلية» معاصرة للناس جميعًا اليوم.

٢ ـ منهجية التوجه «نحو إسلام الرسول»

لقد دخل الناس، في عصر التنزيل، في «دين الإسلام» أفواجًا من باب الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية» التي أيد الله تعالى بها رسوله محمدًا، عليه السلام، والدالة على صدق «نبوته»، والتي تعهد الله تعالى بحفظها، لتظل فعاليتها قائمة بين الناس إلى يوم الدين.

لم يعد لميراث «الآبائية» الديني وجود في حياة الناس إلا إذا كان موافقا لما جاءت به نصوص «الآية القرآنية العقلية» من أصول الإيمان وأحكام «دين الإسلام»، فالله تعالى يقول «الأعراف/ ٢ ـ ٣»:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ... ﴿٣﴾﴾.

ولقد بيّن الله تعالى أن من مقتضيات «وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» إسلام الوجه لله تعالى للتأكيد على التلاحم القائم بين الإيمان «وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» و«الإسلام»، فقال تعالى «الأنبياء/ ١٠٨»:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ... ﴿١٠٨﴾﴾؟!

وهذا ما كان عليه رسول الله محمد، عليه السلام، وصحبه الذين رضي الله عنهم، وما أنا عليه في توجهي «نحو إسلام الرسول».

ولذلك كان من الضروري أن تكون المنهجية الناقضة لمنهجية القراءات المعاصرة للتنزيل الحكيم وما تحملها من أدوات لفهم آياته، أن تكون مستنبطة من ذات الآيات، وليس من خارجها كما فعل د. شحرور في منهجيته ومرجعياته.

لقد انطلقت منهجية التوجه «نحو إسلام الرسول» من قاعدة الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية» المعاصرة للناس جميعًا اليوم، والتي تحمل في ذاتها أدوات فهم نصوصها، وهذه الأدوات هي:

١ ـ منظومة التواصل المعرفي.

٢ ـ اللسان العربي.

٣ ـ السياق القرآني.

٤ ـ آليات عمل القلب.

٥ ـ آيات الآفاق والأنفس.

هذه «المنهجية العلمية» القائمة على التفاعل القائم بين نصوص «الآية القرآنية العقلية» المعاصرة للناس جميعًا اليوم، و«مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، والقادرة على مواجهة شبهات الملحدين المشككين في صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، وفي صدق «آيته القرآنية العقلية».

يقول الله تعالى «فصلت / ٤٠»:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ـ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ـ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

لقد تمكن الإلحاد من قلوب الملحدين إلى درجة يعبر عنها السياق بحرف «في» الوارد في جملة «يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا»، لبيان أن شبهاتهم وصلت إلى داخل هذا التفاعل القائم بين الآيات المقروءة والآيات المنظورة، وهذا ما أفاده قوله تعالى «الأعراف: ١٨٠»:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

إن فعالية أسماء الله الحسنى ليست في الكتاب المقروء وإنما في تفاعله مع الكتاب المنظور في الآفق والأنفس، وإن مجيء فعل «يُلْحِدُونَ» في الآيتين يستلزم أن نبيّن الفرق بين «الإلحاد» و«الكفر» في اللسان العربي:

يقول ابن فارس في مقاييس اللغة عن معنى «الإلحاد»:

«اللام والحاء والدال أصلٌ يدلُّ على ميل عن استقامة... قوله تعالى: الحج/ ٢٥»: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ»، أَي انحرافٍ بظلم... وأصل الإلحاد الميل والعدول عن الشيء».

*** أقول:**

إن أصل «الإلحاد» في كلام العرب «العدول عن القصد والجور عنه والإعراض»، ثم استعمل في كل معوج غير مستقيم، ولذلك قيل للحد القبر «لحد» لأنه في ناحية من القبر وليس في وسطه.

ويقول ابن فارس عن معنى «الكفر»:

«الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد، وهو الستر والتغطية، وإذا أطلق الكفر في الدين فيعني الجحود والعصيان».

وأنا عندما أذكر «الإلحاد» في هذا الكتاب فأعني به «الميل» عن الفهم الواعي لآيات التنزيل الحكيم وما حملته من أحكام، وقد يؤدي هذا الميل إلى الانحراف عن صراط الله المستقيم المفضي إلى «الكفر» بالله تعالى.

الفصل الأول

«منظومة التواصل المعرفي»

«منظومة التواصل المعرفي»

وهي المحور الأساسي الذي تدور حوله الأدوات الأربع الأخرى:

«اللسان العربي ـ السياق القرآني ـ آليات عمل القلب ـ آيات الآفاق والأنفس».

وهي التي انفرد بها توجهي الديني «نحو إسلام الرسول» عن سائر التوجهات الدينية التي حملتها منظومة الفكر الديني، ذلك أنها التي حملت «مُسَمّيات» كلمات ألسن الناس المختلفة، ومنها «مُسَمّيات» اللسان العربي الذي نزل به «التنزيل الحكيم».

ولذلك سأقوم ببيان هذه المنظومة المعرفية بشيء من التفصيل، وتوضيح الفرق بينها وبين ما اصطلح أئمة الفرق الإسلامية على تسميته بـ «التواتر العملي».

أولًا:

لقد خاطب الله الناس برسالات تفاعلت كلماتها وتواصلت مع ما ورثوه من معارف وثقافات وكيفيات أداء عملية لما أجملته هذه الرسالات من أحكام، وذلك من لدن آدم عليه السلام، فقال تعالى «البقرة / ٣١-٣٢»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ... ﴿٣٢﴾ ﴾.

ولما كان «الاسم» لا يكون إلا لـ «مُسَمّى»، وقد قال الله تعالى عن «الأسماء» التي تعلمها آدم: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ»، وليس ثم «عَرَضَهَا»، نفهم من ذلك أن آدم، عليه السلام، لم يتعلم «الأسماء» بمعزل عن «مُسَمّياتها»، وإنما شاهد ذوات الأشياء «المُسَمّيات»، وذلك بقرينة كلمة «هَؤُلاء» الواردة في قوله تعالى للملائكة:

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

ولقد نقل الناس أسماء ومسميات الكلمات بلغاتهم المختلفة، من لدن آدم عليه السلام، عن طريق «منظومة التواصل المعرفي».

ثانيًا:

إن «منظومة التواصل المعرفي» هي تلك المعارف التي تواصلت حلقاتها حاملة معها الأسماء والمسميات، وكيفيات أداء الأفعال، والخبرات والمهن...، من لدن آدم عليه السلام، والتي لولاها ما نشأت العلاقات الاجتماعية والإنسانية بين الناس، وما تعارفت الشعوب وتواصلت ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، وما تطورت العلوم وتقدمت الحضارات.

وتنقسم المعارف التي حملتها «منظومة التواصل المعرفي» إلى:

١ ـ معارف عالمية:

وهي المعارف التي تواصلت معاني ومُسَمّيات كلماتها بين شعوب العالم مع اختلاف لغاتها ولهجاتها، ومن ذلك:

الكلمات: مثل أبيض ـ ساخن ـ حزين ـ تفاحة ـ كرسي ـ سحاب ـ شجرة ـ بحر ـ كلب ـ شمس... إلى آخره.

الأفعال: مثل يأكل ـ يمشي ـ يضرب ـ يذبح ـ يرمي ـ يقوم ـ يركع ـ يسجد... إلى آخره.

إن الأرض تنبت زرعا قبل أن يعرف الإنسان الزراعة، بل هي التي علمته كيف يزرع، وأصبحت علوم الزراعة تشكل منظومة معرفية عالمية، وتعلم الإنسان كيف يدفن الموتى بمواراة الجسد في باطن الأرض، ثم تواصلت هذه الكيفية عبر «منظومة التواصل المعرفي»، يقول الله تعالى «المائدة / ٣١»:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِى ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِى سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ ... ﴿٣١﴾﴾.

٢ ـ معارف أممية:

وهي المعارف التي تواصلت معاني ومُسَمّيات كلماتها بين أفراد الأمة الواحدة، ومن ذلك: لغة القوم ـ الشعائر التعبدية وكيفية أدائها ـ العادات والتقاليد ـ المهارات الفنية والصناعات التي تتميز بها أمة عن أخرى.

فإذا تحدثنا عن «الأمة الإسلامية»، وتحديدا عن كيفية أداء العبادات، وخاصة إقامة الصلاة، نجد أن «القرآن» لم يأت ببيان كيفية إقامة الصلاة، مع ورود كلمة الصلاة ومشتقاتها «صلاة ـ الصلاة ـ صل» في «٩٣ آية»، وتعلم المسلمون هذه الكيفية بـ «التقليد والمحاكاة» نقلا عن رسول الله محمد، عليه السلام.

ولقد كان «المسجد»، الذي صلى فيه رسول الله والذين آمنوا معه، هو القرينة الدالة على حفظ الله لـ«الأصول العامة» لكيفية أداء الصلاة، ولعددها وعدد ركعاتها، ولمواقيتها، ولهيئتها من قيام وركوع وسجود، ولم يستطع أحد اختراق حلقات التواصل المعرفي لهذه الكيفية أو تحريفها إلى يومنا هذا.

لقد عرفت شعوب العالم «أيام الأسبوع» عن طريق «منظومة التواصل المعرفي»، وعرف المسلمون في عصر الرسالة «يوم الجمعة» عن طريق «منظومة التواصل المعرفي»، وصلوا في «المسجد» مع رسول الله «صلاة الجمعة» في قت صلاة الظهر، تنفيذا لقول الله تعالى «الجمعة / ٩»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

ومنذ عصر الرسالة وإلى يومنا هذا، والمسلمون يصلّون «صلاة الجمعة» في المساجد في قت صلاة الظهر، ذلك أنها محفوظة بحفظ الله للآية التي أمرت بإقامتها.

إن القرآن الكريم لم يذكر من أيام الأسبوع غير «الجمعة والسبت»، فهل معنى هذا أن الأسبوع يومان فقط، وأن الله لم يفرض على المسلمين إلا «صلاة الفجر وصلاة العشاء» فقط، كما يدعي «التنويريون» وأصحاب بدعة «القرآن وكفى»، استنادا إلى آية لا علاقة لها أصلًا بأحكام الصلاة وإنما جاءت لبيان آداب استئذان الأطفال في أوقات العورات، وهي قوله تعالى «النور / ٥٨»:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ... (٥٨)﴾؟!

إننا نرى الطفل يتعلم معاني الأسماء ممن حوله من قبل أن يتعلمها من الكتاب المدرسي، ويعرف الشمس من الواقع المشاهد من قبل أن يرى صورتها في الكتاب، ويمارس الصلاة محاكاة وتقليدًا لوالديه من قبل أن يتعلمها من الكتاب المدرسي، ولن يعرف الكعبة «بيت الله الحرام» مهما تخيلها أو وصفت له إلا إذا شاهد «مُسَمّاها» بنفسه.

وعلى هذا الأساس قامت حجية «منظومة التواصل المعرفي» على العالمين.

ثالثًا:

لقد حملت «منظومة التواصل المعرفي» الحق والباطل، ونزلت الرسالات الإلهية لبيان الحق وإزهاق الباطل، ومن الحق الذي حملته هذه المنظومة المعرفية «مُسَمّيات» كلمات لغات شعوب العالم، وعلى أساس هذا الحق قامت حجية الرسالات الإلهية.

ولقد قامت حجية الرسالة الإلهية الخاتمة «القرآن الكريم» على فعالية «الحق» الذي حملته وتفاعلت كلماته العربية مع «مُسَمّياتها» العالمية والأمية الموجودة في الواقع الخارجي، وفي إطار هذا الحق كان من الضروري مواجهة «الباطل» الذي حملته «منظومة التواصل المعرفي» وكشفه للناس بنصوص قطعية الدلالة.

وهذه بعض الأمثلة لبيان تفاعل النص القرآني مع منظومة التواصل المعرفي في عصر التنزيل، لإظهار الحق وإزهاق الباطل:

١ـ إن «اللسان العربي» الذي نزل به القرآن، يستحيل أن تُفهم كلماته بمعزل عن «مُسَمّياتها» ومقابلها الكوني الموجود في الآفاق والأنفس، والذي تعرفه شعوب العالم إذا تُرجم بلغاتها، الأمر الذي يفتح الطريق أمام شعوب العالم لتعلم اللغة العربية للوقوف على منظومة المعارف الأمية المتعلقة بالأمة الإسلامية وما حملته من أحكام شريعتها.

وهنا سنجد أنفسنا نتعامل مع الواقع المشاهد خارج النص القرآني، والمحفوظ بحفظ الله له، وإلا سقطت حجية «الآية القرآنية العقلية» على العالمين.

أ: يقول الله تعالى في بيان فريضة الحج «البقرة / ١٩٦»:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ... ﴿١٩٦﴾﴾.

ثم جاء بعدها بيان ميقات أداء مناسك الحج فقال تعالى «البقرة / ١٩٧»:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ... ﴿١٩٧﴾﴾.

فإذا بحثنا في القرآن كله عن أسماء هذه «الأشهر المعلومات» التي تبدأ معها مناسك الحج فلن نجد لها أي وجود، في الوقت الذي نص الله صراحة على اسم شهر واحد من الأشهر العربية، وهو «شهر رمضان»، التي جاء ذكرها في قوله تعالى «التوبة / ٣٦»:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ... ﴿٣٦﴾﴾.

وهل في القرآن بيان بأسماء الأشهر الأربعة الحرم؟!

إن القرآن الكريم نزل لتصحيح ما هو كائن من مناسك الحج وشعائره، التي كانت تؤدى في الجزيرة العربية من لدن إبراهيم عليه السلام، وقام المشركون بتحريفها والتوجه بها لآلهتهم.

لقد نزل القرآن يُصحح التوجه بالمناسك والشعائر إلى الله تعالى وحده، وأن على الذين دخلوا في «دين الإسلام» أن يتوجهوا بقلوبهم لله تعالى وحده لا شريك له أثناء أدائهم مناسك الحج وشعائره.

ولقد بيّن الله تعالى للمسلمين مناسك الحج وشعائره الموروثة عن إبراهيم عليه السلام بنصوص تشير إلى ما عرفوه عنها على أرض الواقع زمانًا ومكانًا، كقوله تعالى بعد الإفاضة من عرفات «البقرة / ١٩٨ ـ ١٩٩»:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ... ﴿١٩٩﴾ ﴾.

وليس في القرآن خريطة جغرافية تبين موقع «عَرَفَات» ولا موقع «الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ»، ولا معنى «الإفاضة»، ولا اسم المكان الذي تكون منه الإفاضة، ثم من هم النَّاس الذين أشارت إليهم الآية، ولا في أي بلد من بلاد العالم يوجد «البيت الحرام» قبلة المسلمين؟!

لقد حفظ الله تعالى عن طريق «منظومة التواصل المعرفي» الأصول العامة لـ «الشعائر التعبدية» كما حفظ «مُسَمّيات» كلمات الأحكام المتعلقة بها، وليس عن طريق ما يُعرف بـ «التواتر العملي» الذي هو جزء من «منظومة التواصل المعرفي».

ب: بالنسبة لأحكام النساء:

كيف يفهم المسلمون من القرآن وحده كلمة «قُرُوء» وما هذا الذي يتربصه المطلقات، في قوله تعالى «البقرة ٢٢٨»:

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ ﴾؟!

وعندما يقول الله تعالى «البقرة / ٢٢٢»:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ ... ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

إن معنى كلمة «الْمَحِيضِ» لا وجود له في القرآن، ولا لبيان كيفية تحقق فعل «فَأْتُوهُنَّ»، ولا أمر الله الذي ورد في الآية «مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ»، فكيف عرف المسلمون «أحكام النساء» ولا وجود لـ «مُسَمّيات» كلماتها في القرآن؟!

وغير ذلك من «أحكام النساء» التي وردت في السياق القرآني.

ج: وبالنسبة لما أحلّ الله وما حرّم من الطعام:

يقول الله تعالى «المائدة / ١»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

فكيف يفهم المسلمون هذه الآية بمعزل عما حملته لهم «منظومة التواصل المعرفي» من معلومات ومعانٍ كلماتها، ولماذا وردت كلمة «بَهِيمَةُ» في سياق هذه الآية ولم ترد في سياق الآية «الحج / ٣٠»:

﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؟!

ويقول الله تعالى «المائدة / ٣»:

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾.

ثم قال الله تعالى بعدها:

﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ... ③﴾.

وعاد السياق لبيان حكم الاضطرار: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

فلماذا لم يأت «حكم الاضطرار» في سياقه الطبيعي بعد قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾، وجاء بعد قوله تعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾؟!

إن معظم كلمات الآية «المائدة / ٣» ليست من الكلمات المتداولة على الألسن خاصة ما ورد في «حكم الاضطرار»، الأمر الذي يفرض على الناس الاستعانة بمراجع اللغة العربية التي حملتها «منظومة التواصل المعرفي».

٢ ـ ومن الباطل الذي حملته «منظومة التواصل المعرفي»، وكان يشكل في عصر التنزيل منظومة معرفية متصلة الحلقات قرونًا من الزمن:

أ: مسألة صلب المسيح عيسى، عليه السلام، التي يؤمن بها النصارى إيمانًا راسخًا باعتبارها جزءًا من دين الله الذي يتبعونه، والله تعالى يقول «النساء / ١٥٧»:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

إن قوله تعالى ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾ هو القاعدة التي يتم على أساسها التفريق بين الحق والباطل مما حملته «منظومة التواصل المعرفي».

فـ «الباطل» في مسألة قتل المسيح وصلبه أنه لا يوجد وحي إلهي يثبتها، وإنما تداولتها ألسن أتباع المسيح حتى «تواتر» خبر القتل والصلب واستفاض وأصبح يُشكل بين الناس منظومة معرفية نزل القرآن يثبت بطلانها.

فالذين صدّقوا خبر قتل المسيح وصلبه استندوا إلى تراث ديني ومرويات، والذين كذبوا هذا الخبر، وهم المسلمون، استندوا إلى الوحي الإلهي ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾؟!

ب: لقد ذكر العهد القديم «الإصحاح السابع والثلاثون من السفر الأول التكوين» قصة يوسف، عليه السلام، بتفصيلات بعضها لا يليق بمقام النبوة، كما أنه أغفل حقائق مهمة ذكرها القرآن.

فيحكي العهد القديم أن امرأة العزيز كانت تراود يوسف، عليه السلام، كل يوم، وذات يوم تعلقت بقميصه «فتركه في يدها وهرب فخرج إلى السوق»، فدعت أهل بيتها وقالت لهم: انظروا إنه أتانا رجل عبراني ليفضحنا، لأنه دخل عليَّ يريد مضاجعتي، فلما رفعت صوتي وهتفت «ترك قميصه في يدي وهرب إلى السوق».

وحفظت امرأة العزيز قميص يوسف، عليه السلام، عندها حتى دخل سيدها البيت فقالت له مثل هذه الأقاويل، فلما سمع سيده كلام امرأته استشاط غيظًا فأمر به سيده فقذف في الحبس الذي كان أسرى الملك فيه محبوسين..، إلى آخر هذه الرواية المفتراة.

والمتدبر لهذه الرواية المفتراة يجد أنها ذكرت واقعة لم يذكرها القرآن وهي:

ـ هروب يوسف، عليه السلام، إلى السوق.

ولم تذكر واقعة ذكرها القرآن وهي:

ـ أن العزيز شاهد امرأته مع يوسف عند الباب بعد أن قطعت قميصه من دبر.

ـ ولم تذكر رواية العهد القديم شهادة الشاهد من أهلها الدالة على براءة يوسف، والتي على أساسها قال العزيز لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

ـ وذكر العهد القديم أن العزيز حبس يوسف بعد أن كذبه وصدقها، بينما القرآن يذكر أن العزيز قد قَطَع بصدق يوسف وكذبها، كما سبق بيانه.

رابعًا:

الفرق بين «التواصل العملي» و«التواتر العملي»:

«**التواصل العملي**»: بالنسبة لـ «المنظومة الأممية» فهو تواصل حلقات المعارف على مستوى الأمة الإسلامية دون انقطاع، وتتعلق حجيته بالأصول العامة لكيفيات الأداء العملي لما أجمله القرآن من أحكام، أدّاها ويؤديها المسلمون جميعًا منذ عصر الرسالة وإلى يومنا هذا دون أي خلاف بينهم في كيفية الأداء.

مثال: هيئة الصلاة، من قيام وركوع وسجود، وعدد الصلوات الخمس، وعدد ركعات كل صلاة، ومواقيت الصلاة.

«**التواتر العملي**»: تواصل حلقات المعارف وكيفيات الأداء، على مستوى فرقة أو جماعة أو مذهب معين، دون انقطاع، ومثال ذلك الخلاف حول مسألة رفع اليدين في الصلاة، وحول صيغ التشهد... إلى آخر ما هو مفصل في كتب الفقه المقارن.

خامسًا:

إن كيفية الأداء العملي للشعائر التعبدية «كالصلاة» هي الصورة العملية للنص التشريعي المجمل الذي أمر بها، «أقيموا الصلاة»، والتي تعلمها المسلمون بالتقليد والمحاكاة خارج القرآن، ولذلك علينا أن نفرق بين:

ـ ما هو واجب الاتباع شرعًا، وهو ما يشكل «منظومة معرفية عالمية أو أممية» ويستند إلى نص قرآني.

ـ ما ليس بواجب الاتباع شرعًا، وهو ما يشكل «تواترًا عمليًا مذهبيًا» تواصلت

حلقاته بين أتباع مذهب من المذاهب، وكان محل خلاف بين أصحاب هذه المذاهب.

فـ«التواتر العملي المذهبي» وإن كان جزءًا من «منظومة التواصل المعرفي» إلا أن تواصل حلقاته كان بين طائفة من المسلمين دون غيرهم، الأمر الذي يجعل فعله مباحًا وليس واجبًا، بشرط ألا يخالف نصًّا قرآنيًّا، أو مقصدًا من مقاصد القرآن.

فإذا نظرنا إلى «القرآن الكريم» نجد أن حلقاته المعرفية تواصلت بين المسلمين جميعًا، منذ عصر الرسالة وإلى يومنا هذا، عن طريق «التواصل المعرفي» المفتوح على العالم أجمع، وليس عن طريق «التواتر المذهبي» المغلق على أتباع فرقة من الفرق، أو على أتباع مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة.

لقد تعلم العرب «اللسان العربي» الذي نزل به القرآن من قبل نزوله عن طريق «منظومة التواصل المعرفي»، ويتعلمه الناس من بعد نزول القرآن وإلى يوم الدين عن طريق هذه المنظومة المعرفية، الأمر الذي يثبت حجيتها.

١ ـ مثال «الصلاة»:

أ: هناك حقائق معرفية لا يمكن لعاقل أن ينكرها، وهي «مُسَمّيات» الأشياء التي انطبعت صورها الذهنية في قلوب الناس، ونزلت الرسالات الإلهية تتفاعل معها وتخاطبهم على أساس معرفتهم بها، وحفظها الله لتكون حجة على الناس إلى يوم الدين.

ومن هذه الحقائق «المساجد» التي جعلها الله حافظة للأصول العامة لـ «الصلاة» من هيئة وعدد الصلوات وعدد الركعات، والمواقيت، ولذلك تعالوا نتعرف على ورود كلمة «مسجد» في كتاب الله:

ـ ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

ـ ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾.

ـ ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ـ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ـ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

ـ ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ـ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ ـ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾.

ـ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ـ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾.

ـ ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾.

ـ ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾.

ـ ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ ﴾.

فإذا تدبرنا هذه الآيات فلن نجد آية واحدة يُفهم منها معنى كلمة «المسجد».

فتعالوا نفترض أن الله تعالى محى الصورة الذهنية لـ «المسجد الحرام» من قلوب الناس وأزاله من على وجه الأرض من قرون مضت، فهل كان المسلمون سيجدون لهم مرجعية لقبلة الصلاة الوارد ذكرها في الآية «البقرة / ١٤٤»:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... ﴿١٨﴾ ﴾؟!

ب: لقد أمر الله رسوله محمدًا باتباع ملة إبراهيم، عليه السلام، فقال تعالى «النحل / ١٢٣»: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

واتباع ملة إبراهيم يشمل تطهير البيت الحرام «لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»، والمقصود بهذا التطهير المعنى المعنوي قبل المادي، أي تطهيره من مظاهر الشرك، تدبر قول الله تعالى في سورة التوبة «١٧ ـ ١٨»:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ... ﴿١٨﴾ ﴾.

فما الذي كان يفعله المسلمون لتعمير «مَسَاجِدَ اللَّهِ» والذي يدخل في سياق تعهد الله بحفظ «الذكر الحكيم»، لأنه يستحيل أن يحفظ الله النص:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ولا يحفظ فعاليته على أرض الواقع؟!

ج: إن «الْبَيْتَ الْحَرَامَ» هو «الكعبة»، يقول الله تعالى «المائدة / ٩٧»:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾.

وهذه «الكعبة» موجودة على مر العصور في بلد اسمه «مكة»، وهذا البلد موجود في دولة اسمها «السعودية»، ويعلمها العالم أجمع.

وهذه «الكعبة»، التي هي قبلة المسلمين في الصلاة، والتي هي «البيت الحرام»، موجودة داخل «المسجد الحرام» لقوله تعالى «البقرة / ١٤٤»:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

ولا شك أن المسلمين في «مكة» عندما كانوا يسمعون النداء لصلاة «الجمعة» بعد نزول قوله تعالى «الجمعة / ٩»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

كانوا يسارعون إلى «صلاة الجمعة» مع رسول الله، ويستحيل أن يحفظ الله تعالى النص «إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» ولا يحفظ كيفية أداء هذه الصلاة «مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» على أرض الواقع؟!

إذن مما لا شك فيه، أن «الأصول العامة» لكيفية أداء «الصلاة» التي نراها اليوم تقام «جماعة» داخل آلاف المساجد حول العالم:

من هيئة واحدة من قيام وركوع وسجود، وخمس صلوات في اليوم وفي مواقيت محددة، بعدد ركعات ثابتة.

لا شك أن هذه «الصلاة» متصلة الحلقات عبر «منظومة التواصل المعرفي» من أول حلقة لها وهي عصر التنزيل، وخاصة بـ «المسجد الحرام» الذي كان النبي عليه السلام والذين آمنوا معه يقيمون فيه «الصلاة».

د: يقولون إن قول الله تعالى «الأعراف / ٣١»:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

دليل على أن «المسجد» ليس هو مكان العبادة الذي عرفه المسلمون، لأن الخطاب هنا لبني آدم، وليس للمسلمين فقط.

وهنا تظهر أهمية، بل وجوب، أن يكون دارس القرآن على دراية بعلم «السياق القرآني» وبعلم «البيان»، فهناك ما يُسمى بالتعبير عن الكل بالجزء، وبالجزء عن الكل، كقوله تعالى «البقرة / ١٩»:

﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾.

ومعلوم أن المقصود جزء من الأصابع «الأنامل» وليس كل الأصابع، وكذلك فإن قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

المقصود الذين آمنوا من بني آدم، لتذكيرهم بأصلهم، وتعالوا نتدبر سياق الآية الذي بدأ بقوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا ... يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ... وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ ...﴾.

ثم تحول الخطاب إلى المسلمين، فقال تعالى:

﴿ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ... فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ... يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

ويقولون إن معنى الصلاة وجوهرها في قول الله تعالى «طه / ١٤»:

﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

فـ «الصلاة» ذكر من العبد لربّه، يقول «فيها» ما يُفتح به عليه من ذكر الله وتعظيمه.

والسؤال:

أين ذكر الله تعالى في كتابه معنى «الصلاة»، وأنها تعني «ذكرًا من العبد لربه»؟!

إن «اللامّ» التي وردت في «لِذِكْرِي» لام التّعليل، أي أقم «الصلاة»، التي تعلم معناها من خارج التنزيل الحكيم، لأجل أن تذْكُرني، فما هي «الصلاة» أصلًا؟!

إن الذين يقولون إن التنزيل الحكيم جاء ببيان وتفصيل كل شيء، ويستدلون بهذه الآيات:

* «النحل / ٨٩»: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

* «الإسراء / ١٢»: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

* «الأنعام / ٣٨»: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

نقول لهم: وأين بيان وتفصيل كيفية أداء الصلاة في كتاب الله؟!

ويقولون إن الله تعالى فرض صلاتين فقط هما «صلاة الفجر» و«صلاة العشاء» اللتين وردتا في قوله تعالى «النور / ٥٨»:

﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾.

*** أقول:**

إن سياق هذه الآية لا يتحدث عن أحكام الصلاة وإنما عن آداب الاستئذان في أوقات معينة ارتبطت بمواقيت صلاتين كان المسلمون يعلمون كل شيء عنهما من قبل نزول هذه الآية، ولذلك لا يصح أن تكون هذه الآية دليلًا على أن الصلوات اثنان: الفجر والعشاء.

ويقولون إن «كتاب الله» هو «الصلاة» فيكفي المسلم تلاوة بعض الآيات بالغدو والآصال، لأن الله تعالى يقول «الأعراف / ١٧٠»:

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

*** أقول:**

إذا كان المسلمون يعلمون معنى «يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ» فإنهم لا يعلمون أصلًا من داخل الكتاب كيف يقيمون الصلاة.

هـ: إذن تعالوا نتدبر الآيات التي وردت فيها كلمة «الصلاة»، لنعلم هل جاءت آية واحدة تبين ما هي هذه «الصلاة» وكيفية أدائها؟!

١ ـ البقرة / ٣: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢ ـ البقرة / ٤٣: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣ ـ البقرة / ٤٥: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٤ ـ البقرة / ٨٣: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٥ ـ البقرة / ١١٠: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٦ ـ البقرة / ١٢٥: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

٧ ـ البقرة / ١٥٣: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٨ ـ البقرة / ١٥٧: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

٩ ـ البقرة / ١٧٧: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٠ ـ البقرة / ٢٣٨: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

١١ ـ البقرة / ٢٧٧: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٢ ـ آل عمران / ٣٩: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾.

١٣ ـ النساء / ٤٣: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٤ ـ النساء / ٧٧: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

١٥ ـ النساء / ١٠١: ﴿أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

١٦ ـ النساء / ١٠٢: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ .. فَإِذَا سَجَدُواْ﴾.

١٧ ـ النساء / ١٠٣: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ .. فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

١٨ ـ النساء / ١٤٢: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

١٩ ـ النساء / ١٦٢: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٠ ـ المائدة / ٦: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٢١ ـ المائدة / ١٢: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٢ ـ المائدة / ٥٥: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٣ ـ المائدة / ٥٨: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٢٤ ـ المائدة / ٩١: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٢٥ ـ المائدة / ١٠٦: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٢٦ ـ الأنعام / ٧٢: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٢٧ ـ الأنعام / ٩٢: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٢٨ ـ الأنعام / ١٦٢: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾.

٢٩ ـ الأعراف / ١٧٠: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣٠ ـ الأنفال / ٣: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣١ ـ الأنفال / ٣٥: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾.

٣٢ ـ التوبة / ٥: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣٣ ـ التوبة / ١١: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣٤ ـ التوبة / ١٨: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣٥ ـ التوبة / ٥٤: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾.

٣٦ ـ التوبة / ٧١: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣٧ ـ التوبة ٨٤: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾.

٣٨ ـ التوبة / ٩٩: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

٣٩ ـ التوبة / ١٠٣: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ﴾.

٤٠ ـ يونس / ٨٧: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤١ ـ هود / ٨٧: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾.

٤٢ ـ هود / ١١٤: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤٣ ـ الرعد / ٢٢: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤٤ ـ إبراهيم / ٣١: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤٥ ـ إبراهيم / ٣٧: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤٦ ـ إبراهيم / ٤٠: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٤٧ ـ الإسراء / ٧٨: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾.

٤٨ ـ الإسراء / ١١٠: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

٤٩ ـ مريم / ٣١: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥٠ ـ مريم / ٥٥: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥١ ـ مريم / ٥٩: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٥٢ ـ طه / ١٤: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾.

٥٣ ـ طه / ١٣٢: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥٤ ـ الأنبياء / ٧٣: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥٥ ـ الحج / ٣٥: ﴿وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

٥٦ ـ الحج / ٤٠: ﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾.

٥٧ ـ الحج / ٤١: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٥٨ ـ الحج / ٧٨: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٥٩ ـ المؤمنون / ٢: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

٦٠ ـ المؤمنون / ٩: ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٦١ ـ النور / ٣٧: ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾.

٦٢ ـ النور / ٤١: ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ﴾.

٦٣ ـ النور / ٥٦: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

٦٤ ـ النور / ٥٨: ﴿صَلَاةِ الْفَجْرِ.. صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾.

٦٥ ـ النمل / ٣: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

٦٦ ـ العنكبوت / ٤٥: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ﴾.

٦٧ ـ الروم / ٣١: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

٦٨ ـ لقمان / ٤: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

٦٩ ـ لقمان / ١٧: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.

٧٠ ـ الأحزاب / ٣٣: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾.

٧١ ـ الأحزاب / ٤٣: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾.

٧٢ ـ الأحزاب / ٥٦: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. صَلُّوا عَلَيْهِ﴾.

٧٣ ـ فاطر / ١٨: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

٧٤ ـ فاطر / ٢٩: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

٧٥ ـ الشورى / ٣٨: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

٧٦ ـ المجادلة / ١٣: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

٧٧ ـ الجمعة / ٩: إ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾.

٧٨ ـ الجمعة / ١٠: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾.

٧٩ ـ المعارج / ٢٢: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

٨٠ ـ المعارج / ٢٣: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾.

٨١ ـ المعارج / ٣٤: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

٨٢ ـ المزمل / ٢٠: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٨٣ ـ المدثر / ٤٣: ﴿مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

٨٤ ـ القيامة / ٣١: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾.

٨٥ ـ الأعلى / ١٥: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

٨٦ ـ العلق / ١٠: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

٨٧ ـ البينة / ٥: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٨٨ ـ الماعون / ٤: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾.

٨٩ ـ الماعون / ٥: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

٩٠ ـ الكوثر / ٢: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾.

* فهل أشارت آية واحدة من هذه الآيات إلى كيفية أداء الصلاة؟!

و: الذي يقول بحدوث انقطاع في سلسلة حلقات تواصل «الكلمة» و«مُسمّاها» من لدن آدم، على مر العصور، بالنسبة لجميع الشعوب، عليه أن يأتي بالبرهان الموثق على ذلك.

إن الذي آمن بالنبي الخاتم محمد، عليه السلام، واتبع «النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ»، وتدبر آياته، يعلم أن النبي أقام الصلاة في البيت الحرام هو والذين آمنوا معه بالكيفية التي أمره الله «بوحي غير قرآني» أن يؤديها.

وقد صل الآلاف مع النبي خلال فترة التنزيل، ونقلوا كيفية هذه الصلاة إلى غيرهم، وهذا برهان عقلي.

فإذا نظرنا إلى الإشارات الفلكية التي حددت مواقيت الصلاة، والواردة في سورتي هود والإسراء، علمنا أن هناك أكثر من صلاة كانت تقام في اليوم.

وعليه، فما الذي يجعل العاقل يشك في صحة تواصل حلقات «الأصول العامة» للصلوات الخمس عبر «منظومة التواصل المعرفي»؟!

وهذا برهان عقلي يُضاف إلى السابق، ذلك أن الصورة الذهنية لهذه الصلوات ظلت ثابتة في قلوب الأجيال المسلمة على مر العصور، وملايين المسلمين يُصلّون يوميًا خمس صلوات.

٢ ـ مثال «الحج»:

إن الإيمان بوجوب أداء فريضة «الحج» يقتضي الإيمان بحفظ الله لأماكن أداء شعائره، ومنها المسجد الحرام، والكعبة، والصفا والمروة، وجبل عرفة.

إن آيات التنزيل الحكيم لا تحمل غير «الكلمات» المتعلقة بشعائر ومناسك الحج، أما مُسمّياتها فموجودة في بلد اسمه السعودية، و«الأشهر المعلومات» التي تؤدى خلالها مناسك الحج موجودة في مراجع اللغة العربية، ومعروفة للمسلمين.

ومن هذه الآيات «البقرة / ١٥٨»:

* ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾.

وقول الله تعالى «البقرة / ١٩٧»:

* ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾.

وقول الله تعالى «آل عمران / ٩٧»:

* ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ .. وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾.

لقد فهم بعض أصحاب القراءات المستنيرة المعاصرة أن قول الله تعالى «البقرة/ ١٩٧»:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾.

يُبيح للمسلم أن يؤدي فريضة الحج في أي وقت شاء من «الأشهر المعلومات»، وهذا فهم غير صحيح، لمخالفته قواعد اللسان العربي، وعلم السياق القرآني.

إن السياق القرآني الذي وردت فيه جملة ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ يبدأ من الآية «البقرة/ ١٨٩» حيث يقول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾.

وإلى الآية «البقرة/ ٢٠٠» وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾.

أ: وبتدبر «الآية ١٨٩» نجد أنها وردت بعد بيان فريضة الصيام، وأن على المسلمين الذين حل هلال شهر رمضان على بلادهم، أن يصوموا هذا الشهر المعلوم بدايته ونهايته.

وكما أن لفريضة الصيام توقيتا محددا يلتزم به المسلمون، لا يتقدم ولا يتأخر، وكذلك وقت الصلاة له بداية ونهاية، فإن لأعمال الحج بداية ونهاية كان يعلمها الناس في عصر التنزيل؛ لأنه يستحيل أن يخاطب الله الناس بشيء لا يعلمونه، قال تعالى «الحج / ٢٧»:

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

إن الاجتماع العام من أهداف الحج الرئيسة، حيث فيه يشهد الناس منافع كثيرة «الحج / ٢٨»: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

فإذا لم يُحدد وقت لأعمال الحج، لجاء الناس متخالفين، ولم يتحقق هذا الاجتماع العام الذي حدد الله تعالى مكانه تحديدا وهو «عرفة».

ب: بعد بيان بعض أحكام القتال «البقرة / ١٩٤ـ ١٩٥» قال الله تعالى «البقرة / ١٩٦»:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ﴾.

وعندما يخاطب الله تعالى المسلمين بقوله «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» فهذا معناه أنهم يعلمون كيف ومتى وأين يُؤدون أعمال الحج والعمرة، أي أن هذه الآية تتحدث عن المساحة الزمنية لأعمال الحج، والتي وصفتها الآية التالية «البقرة / ١٩٧» بـ «الأشهر المعلومات»:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

ثم جاء بعدها بيان لمكان الاجتماع العام وهو «عرفة»، فقال الله تعالى «البقرة/ ١٩٨»:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وبعد أن بيّن الله أن «عرفة» مكان الاجتماع العام، قال بعدها «البقرة / ١٩٩»:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي يفيض الحجيج من مكان أفاض الناس «قديمًا» منه، ويفيضون منه إلى يوم الدين، وهو «عرفة».

وإن إحالة الإفاضة إلى الناس دليل على أن هناك مصدرًا معرفيًا سيحفظ الله تعالى خلاله هذه المناسك وهو «منظومة التواصل المعرفي».

ج: نعود إلى الآية «البقرة / ١٩٦»:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ﴾.

وقول الله تعالى بعدها:

﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ﴾.

إذن فلو كانت أعمال الحج يمكن أن تؤدى في أي وقت خلال أشهر الحج، ما كان لتقديم الهدي نتيجة الإحصار معنى، ولا لقوله تعالى بعدها:

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾.

ثم نتدبر قول الله تعالى بعدها:

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾.

أي إذا زالت الموانع، ووصل الحاج إلى البيت الحرام قبل بداية أعمال الحج، وأراد أن يتمتع بالعمرة، أي يتحلل من إحرامه بعد أداء العمرة إلى وقت الحج، فعليه في هذه الحالة هدي «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنْ الْهَدْيِ».

ولذلك علينا أن نتدبر جيدًا أهمية حرف «إِلَى» في قوله تعالى:

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾.

إن الحاج المتمتع، يكون متمتعًا بمحظورات الإحرام، فيما بين تحلله من العمرة، إلى وقت إحرامه مرة أخرى بالحج، فلو كانت أعمال الحج يمكن أن تؤدى في أي وقت من أشهر الحج، إذن فلماذا لا يذهب الحاج مباشرة إلى عرفات بعد أداء العمرة؟!

لماذا يجب عليه «إذا تمتع» أن ينتظر «متمتعًا» حتى الموعد المحدد لأعمال الحج، ثم يُحرم مرة أخرى بالحج، ويذهب مع الحجيج إلى عرفات؟!

إن أعمال الحج، لو كان يمكن أن تؤدى في أي وقت من أشهره، ما كان لقول الله تعالى «إِلَى الْحَجِّ» معنى، وما جعل الله تعالى على المتمتع هديًا لانتظاره «متمتعًا» إلى وقت الحج، فانتظار الحاج في حالة تربص إلى وقت الحج يعني أن أعمال الحج لها وقت محدد، لا يمكن تقديمه أو تأخيره.

د: إن قول الله تعالى «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» ليس تشريعًا لميقات الحج، وإنما جاء في سياق ضبط الفرائض المرتبط تأديتها بالأهلة، وللرد على الذين أرادوا تحريك هذه الأشهر بالتقديم أو التأخير عن طريق ما يُعرف بـ «النسيء».

فبعد الحديث عن عدة الشهور والأشهر الحرم «التوبة / ٣٦»:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾.

قال تعالى «التوبة / ٣٧»:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾.

فهل يعقل، أن نفهم «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» بمعزل عن كل السياقات المتعلقة بهذه الفريضة، وعن قوله تعالى بعدها:

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾؟!

لقد وصف الله أشهر الحج بـ «المعلومات»، الأمر الذي نفهم منه أن هذه الأشهر كانت «معلومة» للعرب من قبل نزول هذه الآيات، فمن أين عرف العرب أسماء هذه الأشهر، وآيات الذكر الحكيم لم تأت أصلًا ببيانها؟!

عرفوا ذلك عن طريق «منظومة التواصل المعرفي»، بداية برفع إبراهيم القواعد وإلى بعثة النبي محمد، عليهما السلام، وظلت الأشهر العربية، ومنها أشهر الحج والأشهر الحرم، معلومة للناس «التوبة / ٣٦».

إن قول الله تعالى: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» يستحيل معه أن تُخترق مناسك الحج وشعائره وهي تتواصل على مر العصور عبر «منظومة التواصل المعرفي».

هـ: إننا كي نفهم قوله تعالى: «الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ» علينا أن نفرق بين «الشعائر» التي تؤدى في أيام «معدودات ـ معلومات» من أشهر الحج، يقول الله تعالى «البقرة/ ٢٠٣»:

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾.

ويقول الله تعالى «الحج / ٢٨»:

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾.

أن نفرق بين الفترة الزمنية التي تؤدى فيها أعمال الحج، وبين «الإحرام بالحج» الذي يسبق بداية أعمال الحج والذي قد يبدأ قبلها بشهر أو أكثر يظل الحاج «محرما».

وإن من الآيات الدالة على الإحرام قول الله تعالى «المائدة / ١»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

وقول الله تعالى بعدها «المائدة / ٢»: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ﴾.

أي أن الحاج يكون محرما، ثم يتحلل من إحرامه.

إذن فـ «الإحرام» من أعمال الحج، ولا يمكن أداء فريضة الحج بدون إحرام، ويحرم على الحاج أن يفعل محظورات الإحرام التي وردت في قوله تعالى «البقرة/ ١٩٧»:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ﴾.

إن قول الله تعالى ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ يبين معنى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ﴾ باعتبار أن الإحرام يدخل ضمن أعمال الحج، وقد يظل الحاج على إحرامه شهرًا أو يزيد، حسب وسيلة النقل التي كانت متوافرة وقتها، لذلك قال تعالى «أشهرا» لتشمل فترة السفر، وأداء المناسك.

و: إن من رحمة الله بالناس أن قيد فريضة الحج بالاستطاعة، والاستطاعة ليست مالية فقط، وإنما تشمل الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصحية التي قد تراها «السعودية» مانعة لأداء الحج في عام معين.

إن «الحج» فرض على «المستطيع» وذلك مرة واحدة في حياته، وليس من المعقول شرعًا أن نجعل ما يحدث في واقع الأمر من تكرار المسلمين لأداء هذه الفريضة كل عام، أن نجعله السبب في أن يؤدّون هذه الفريضة على دفعات خلال أشهر الحج، بدعوى أن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ﴾ تعني «الْحَجُّ (في) أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ».

فمن أين جاءوا بحرف «في»؟!

تعالوا نفهم قول الله تعالى ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ من الناحية اللغوية:

«الحج»: مبتدأ، و«أشهر»: خبر المبتدأ مرفوع، والمبتدأ والخبر لا بدّ أن يصدقا على ذاتٍ واحدٍ.

و«الحج» فعلٌ يؤدى، و«أشهر» زمن أداء الفعل، فإذا أضفنا حرف «في» إلى النص، أصبحت كلمة أشهر مجرورة «أَشْهُرٍ» وهي أصلًا نزلت مرفوعة «أَشْهُرٌ» لبيان أن أعمال الحج نفسها «أَشْهُرٌ»، باعتبار «الإحرام منها»، وليست «في أَشْهُرٍ».

وبصرف النظر عن هذا الإلحاد في آيات الله، فإن السؤال الذي يفرض نفسه:

إن آيات التنزيل الحكيم لا تحمل أسماء الأشهر العربية، ولا أسماء الأشهر الحرم، والمرجع الوحيد في بيان ذلك هو «منظومة التواصل المعرفي»، فإذا كان الذين يُلحدون في آيات الحج وأحكامه سيؤدون أعمال الحج استنادًا إلى هذه المنظومة المعرفية، فلماذا يأخذون منها ما يوافق هواهم، ويتركون ما يخالف هواهم؟!

منظومة التواصل المعرفي ونقض منهجية القراءة المعاصرة

لقد أرسل الله رسوله محمدًا، عليه السلام، إلى قومه ليقوم بمهمة ذكرها الله تعالى في قوله «إبراهيم / ٤»:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

إذن فمهمة الرسل هي «بيان» ما أنزله الله تعالى للناس، ويستحيل أن ينزل الله رسالته بكلمات لا يعلم الناس معناها، بل يحب أن يكونوا على علم بمعاني هذه الكلمات من قبل إرسال الرسالة.

والسؤال:

هل كان قوم رسول الله محمد، عليه السلام، يعلمون معنى الكلمات التالية من قبل نزولها: «الكتاب ـ القرآن ـ الفرقان ـ الذكر ـ الحكمة ـ النور ـ الهدى»؟!

أم كانت مهمة الرسول أن يقوم أولًا بشرح معنى كل كلمة من كلمات «التنزيل الحكيم»؟!

كيف يقول الله تعالى إنه أنزل كتابه الخاتم بـ «لسان عربي مبين» كي يفهم أهل اللسان العربي كلماته، ثم لا يحفظ الله تعالى معاني هذه الكلمات إلى يوم الدين عن طريق «منظومة التواصل المعرفي»، تفعيلًا لقوله تعالى «الحجر / ٩»:

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾؟!

إنه لولا تعهد الله تعالى:

ـ بحفظ كلمات «التنزيل الحكيم».

ـ بحفظ «مسميات» الكلمات و«مقابلها الكوني» الموجود في الواقع الخارجي المشاهد.

ـ بحفظ معاني كلمات «التنزيل الحكيم» في مراجع اللغة العربية.

لولا ذلك لضاعت لغة التنزيل العربية، ولم نجد لها أية فعالية على أرض الواقع، وضاع وصف الله للقرآن بالعربي «فصلت / ٣»:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

«لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»: فكيف يعلم قوم القرن الواحد والعشرين معاني:

«الكتاب ـ القرآن ـ الفرقان ـ الذكر ـ الحكمة ـ النور ـ الهدى».

دون أن تحملها لهم اليوم مراجع اللغة العربية، محفوظة بحفظ الله لها، عن طريق «منظومة التواصل المعرفي»؟!

إن أول إشكالية تواجهها قراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم هي إشكالية عدم وجود «منهجية علمية» أقام عليها هذه القراءة، الأمر الذي جعله يتصرف بكامل حريته في التعامل مع التنزيل الحكيم دون أي ضوابط تحكمه.

أولًا:

ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول إنه يجب أن يبدأ تعامله مع التنزيل الحكيم من الصفر، ليضع بحريته أصولًا وقواعد ومفاهيم وأحكامًا جديدة لدين جديد اسمه «أسلمة الفلسفة المادية للوجود»، وهذا ما قال في كتابه «أمُّ الكتاب وتَفصيلُها / ص ٢٠»:

«وما قمنا به في كتابنا هذا وغيره من كتبنا، هو ما ينطبق عليه تسمية القراءة المعاصرة، لأننا وضعنا كل التراث جانبا، وباشرنا العمل من الصفر، انطلاقا من قناعتنا بأن نصوص التنزيل الحكيم بحاجة إلى قراءة واعية ومتبصرة».

والسؤال:

أليست مراجع ومعاجم اللغة العربية من التراث الذي قرر د. شحرور أن يضعه جانبًا ويبدأ من الصفر؟!

كما لم يكن غريبًا على مثل هذه «المنهجية العشوائية» أن نجد صاحبها د. شحرور يقول «ص / ٤٤»:

«إذا كان الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان، فيجب الانطلاق من فرضية أن الكتاب تنزل علينا، وأنه جاء لجيلنا في النصف الثاني من القرن العشرين، وكأن النبي ﷺ توفي حديثًا وبلغنا هذا الكتاب».

❊ أقول:

صحيح ما قاله د. شحرور: «فيجب الانطلاق من فرضية أن الكتاب تنزل علينا»، وغير صحيح قوله بعدها: «وكأن النبي توفي حديثًا وبلغنا هذا الكتاب».

فإذا افترضنا أن الله تعالى بعث رسوله محمدًا في «التسعينيات»، وقت أن كتب د. شحرور كتابه «الكتاب والقرآن»، فهل كان سيكتب كتابه هذا وأول حلقة في «منظومة التواصل المعرفي» المتعلقة بـ «نبوة» رسول الله وبـ «دين الإسلام» تبدأ مع قراءة رسول الله، عليه السلام، التنزيل الحكيم قراءة معاصرة وفق إمكانات العصر العلمية والمعرفية؟!

ولذلك لم يكن غريبًا أيضًا على مثل هذه «المنهجية العشوائية» أن نجد د. شحرور يقول بعدها مباشرة:

«لذا فإن القارئ يلاحظ بشكل واضح أننا في فهمنا للكتاب:

أ: نقف على أرضية القرن العشرين.

ب: دون إغفال التطور التاريخي لتفاعل الأجيال المتعاقبة مع الكتاب: التفاسير والمذاهب الفقهية.

ج: حيث كانت نظرتنا لهذه الأدبيات على أنها تفاعل تاريخي مع الكتاب.

د: ولذا فإنها تدخل ضمن التراث العربي الإسلامي».

*** أقول:**

كيف ينطلق د. شحرور من قاعدة التعامل مع التنزيل الحكيم على أساس: «أن النبي ﷺ توفي حديثًا وبلغنا هذا الكتاب»؟!

وأنا افترضت أن «حديثًا» يمكن أن نعتبرها في التسعينيات، فإذا بالدكتور شحرور يريد وهو يتبع الكتاب الذي بلغه الرسول حديثًا، أن يتبع أيضًا: «التطور التاريخي لتفاعل الأجيال المتعاقبة مع الكتاب: التفاسير والمذاهب الفقهية».

والمفترض أنه لا يوجد أصلًا تطور تاريخي لهذه الكتب، ولا لـ «التراث العربي الإسلامي»؛ لأن كل هذا لم يكن له وجود يوم بعث الله رسوله في التسعينيات!!

إن الله تعالى لو بعث رسوله محمدًا، عليه السلام، في أي عصر، فهي قراءة واحدة لـ «التنزيل الحكيم»، «معاصرة»، تخاطب الناس جميعًا بلغة العصر، وتتفاعل مع تحدّياته ومستجدات تقدمه وتطوره الحضاري.

وعليه، فما كان للدكتور شحرور أن يجعل من الأسس التي تجعل الإسلام صالحًا لكل زمان ومكان، افتراض وجود النبي معنا في القرن العشرين، ثم في نفس الوقت يقول:

«دون إغفال التطور التاريخي لتفاعل الأجيال المتعاقبة مع الكتاب: التفاسير والمذاهب الفقهية».

الأمر الذي يُسقط الأسس التي اعتمد عليها د. شحرور في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، والتي تضع «منظومة التواصل المعرفي» في حيرة:

هل تبدأ من «عصر التدوين» أم تبدأ من «القرن العشرين»؟!

ثانيًا:

فماذا يقول د. شحرور عن لباس المرأة المسلمة إذا بدأت «منظومة التواصل المعرفي» من القرن العشرين؟!

١ ـ يقول د. شحرور «ص ٦٠٥»:

نضع الآن تعريفًا للزينة:

فزينة المرأة في الآية «النور / ٣١» تقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الزينة الظاهرة.

والقسم الثاني: الزينة المخفية.

ولكن ما هي زينة المرأة المقصودة هنا بحيث تنسجم مع الآية نفسها، وتنسجم مع بقية الآيات الواردة في الكتاب، وخاصة آيات المحارم الواردة في «النساء / ٢٢ـ٢٣»؟! فالزينة لها ثلاثة أنواع:

أ: زينة الأشياء: إن زينة الأشياء هي إضافة أشياء لشيء أو لمكان ما لتزيينه، مثال على ذلك الديكورات في الغرف والنجف والدهان والملابس وتسريحة الشعر للرجل والمرأة والحلي والمكياج للنساء.

كل هذه الأشياء تضاف للتزيين، وقد جاءت الزينة الشيئية في قوله تعالى «النحل/ ٨»:

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

وقوله تعالى «الأعراف / ٣١»:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

ب: زينة المواقع أو الزينة المكانية: وهذا واضح في المدن، فالبلديات في المدن تبقي على ساحات خضراء تسمى حدائق.. هذه الأماكن للزينة يقصدها الناس وهي تنتسب إلى الزينة المكانية، أي أن تبقى أماكن على طبيعتها أو نضيف عليها أشياء طبيعية كالشجر والورد وهذا ما جاء في الآية «النور / ٣١»، أي حتى تنسجم هذه الآية مع آيات المحارم في سورة النساء، يجب أن تكون الزينة مكانية لا شيئية.

ثم يقول د. شحرور «ص ٦٠٦»:

عن الزينة المكانية والشيئية معًا: فإذا كانت الزينة مكانية فجسد المرأة كله زينة، والزينة هنا حتمًّا ليست المكياج والحلي وما شابه ذلك، وإنما هي جسد المرأة كله، هذا الجسد يقسم إلى قسمين:

أ: قسم ظاهر بالخلق، لذا قال «النور / ٣١»:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

فهذا يعني أن هناك بالضرورة زينة مخفية في جسد المرأة.

فالزينة الظاهرة هي ما ظهر من جسد المرأة بالخلق، أي ما أظهره الله سبحانه وتعالى في خلقها، كالرأس والبطن والظهر والرجلين واليدين.

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الرجل والمرأة عراة دون ملابس.

ب: قسم غير ظاهر بالخلق: أي أخفاه الله في بنية المرأة وتصميمها:

هذا القسم المخفي هو «الجيوب»، و«الجيب» جاء من «جيب» كقولنا جبت القميص أي قورت جيبه، وجيبته أي جعلت له جيبًا.

و«الجيب»، كما نعلم، هو فتحة لها طبقتان لا طبقة واحدة، لأن الأساس في «جيب» هو فعل «جوب» في اللسان العربي له أصل واحد وهو الخرق في الشيء، ومراجعة الكلام «السؤال والجواب».

فـ «الجيوب» في المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق وهي:

«ما بين الثديين ـ وتحت الثديين ـ وتحت الإبطين ـ والفرج ـ والآليتين».

فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها لذا قال «النور / ٣١»:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

*** أقول:**

إن بيان معنى «الجيب» أساس لتحديد ما هو «الخمار» الذي كانت المرأة العربية تلبسه، وعليه يتضح لباسها بوجه عام.

وحسب تعريف د. شحرور لـ «الجيب»، وأنه «فتحة لها طبقتان» يصبح ما ذكره عن جيوب المرأة غير صحيح، ذلك أن:

أ: «ما بين الثديين»:

إن كل ثدي شيء مستقلُ بذاته عن الآخر، وبينهما فراغ، وليس «فتحة لها طبقتان» ولا «خرقًا في شيء».

ب: «تحت الثديين»:

لا توجد «فتحة لها طبقتان» ولا «خرقًا في شيء»، الثدي بطبيعته يغطي جزءًا من صدر المرأة.

ج: «تحت الإبطين»:

أين الفتحة التي لها طبقتان، وأين الخرق في الشيء؟!

إن ذراع الإنسان عضوٌ مستقلٌ بذاته، يتحرك في جميع الاتجاهات، ومنها أن يكون إلى أسفل يغطي الإبط.

د: «الفرج»:

إن الفتحة التي في فرج المرأة فتحة داخلية غير ظاهرة أصلًا وليس لها طبقتان، ويمكن أن نقول إنها «خرق في شيء»، ولا علاقة لها بالشكل الخارجي للفرج.

هـ: «الإليتان»:

نقول عنهما ما قلناه عن الفرج، ففتحة الشرج داخلية غير ظاهرة أصلًا، وكل إلية منفصلة عن الأخرى، وبينهما فراغ توجد فيه فتحة الشرج.

فإذا ذهبنا إلى آيات التنزيل الحكيم، نجد ورود كلمة «الجيب» في قول الله تعالى «النمل / ١٢»:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ويقول الله تعالى «القصص / ٣٢»:

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾.

فقول الله تعالى لموسى عليه السلام «وَأَدْخِلْ ـ اسْلُكْ ـ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» يبيّن أن للإنسان جيبًا واحدًا، وأن ورود «الجيب» بصيغة الجمع في قوله تعالى: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ» ذلك لأن الخطاب لـ «المؤمنات» جميعًا.

والسؤال:

كيف يُدخل موسى، عليه السلام، يده «في جيبه» باعتبار أن «الجيب» بالمعنى الذي ذكره د. شحرور:

«ما بين الثديين ـ وتحت الثديين ـ وتحت الإبطين ـ والفرج ـ والآليتين»؟!

هل يمكن إدخال اليد «في» أي جزء من هذه الأجزاء التي ذكرها د. شحرور؟!

هذا أمر مستحيل عقلًا وشرعًا، إذن لا بد من الأخذ بمفهوم «الجيب» الذي حملته «منظومة التواصل المعرفي» للناس، ودونته معاجم اللغة العربية، والذي كانت تعرفه النساء اللاتي أمرهن الله بضرب الخمار على جيوبهن، وهو «فتحة الثوب» التي تدخل منها رأس الإنسان.

وهنا تظهر فعالية «منظومة التواصل المعرفي» في حفظ «مُسَمّيات» الكلمات التي كان العرب يعلمونها من قبل نزول آيات الذكر الحكيم، ومن ذلك كلمة «الجيب» وكلمة «الخمار»، فيستحيل أن يأمر الله تعالى النساء «النور / ٣١»:

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وهن لا يعلمن ما معنى «الضرب» وما هو «الخمار» وأين يوجد «الجيب»؟!

وبعد بيان ما هو «الخمار» وأين يوجد الجيب، يكون السؤال:

لماذا استخدم سياق آية «النور / ٣١» فعل «الضرب» للتعبير عن الستر والتغطية؟!

يأتي فعل «ضرب» في السياق القرآني بأكثر من معنى، ومن ذلك «الحجب والتغطية الشاملة»، ويحتاج إلى حرف الجر «على»، كما في قوله تعالى «النور / ٣١»: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وفي بيان معنى «التغطية الشاملة» يقول الله تعالى «آل عمران / ١١٢»:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

أي غطت الذلة والمسكنة حياتهم كلها، كما يقولون «ضربت الخيمة» أي تم شد أوتادها لتغطي المساحة المطلوبة.

ولذلك استخدم السياق فعل «ضرب» في ضرب خمار المرأة على جيبها ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ لبيان أن المقصود ليس ستر وتغطية العنق ومنطقة ما بين الثديين بقطعة قماش، وإنما إسدال الخمار «من أعلى الرأس» على الكتفين لحجب وتغطية الشعر والأذنين والعنق والصدر، باستثناء «الوجه» لعدم تعطيل الوظيفة التي خلقه الله من أجلها، وبمقتضى الضرورة المعيشية.

مع ملاحظة أن الله تعالى لم يُنزل تشريعًا للباس المرأة المسلمة، وإنما أنزل تصحيحًا لما كانت تلبسه المرأة العربية في عصر الجاهلية، فقد كانت تلبس «الخمار» و«الجلباب» ولكن بسفور وتبرج يُظهر مفاتنها، فنزلت الآيات لتصحيح وضعهما، فقال الله تعالى «النور / ٣١»: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وقال تعالى «الأحزاب / ٥٩»:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

٢ ـ ويقول د. شحرور «ص ٦٠٧»:

«فهذه الجيوب يجب على المرأة المؤمنة أن تغطيها لذا قال: وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ، والخمار جاءت من خمر، وهو الغطاء، والخمر سميت خمرًا لأنها تغطي العقل، وليس الخمار هو خمار الرأس فقط، وإنما هو أي غطاء للرأس وغير الرأس».

❊ أقول:

إذن د. شحرور يُقر بأن الخمار «غطاء للرأس وغير الرأس»، وهذا صحيح من الناحية اللغوية ولكن بمعزل عن سياق الآية التي ذكرها قبله، وبمعزل عما حملته «منظومة التواصل المعرفي» لمعنى الآية على مر العصور.

فـ «خمار المرأة» في معاجم اللغة العربية، «تاج العروس للزبيدي، وغيره»، هو:

«ثوب تغطِّي به المرأة رأسها، ومنه العِمامة، لأن الرجل يغطِّي بها رأسَه، فالمرأة تغطي رأسها بالخمار، والرجل يغطي رأسه بالعمامة».

وهناك معاجم جمعت بين المعنى اللغوي والسياقي، كـ «معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر» الذي قال في كلمة «خِمار» بكسر الخاء:

«خِمار، مفرد، جمعه أَخْمِرة وخُمُر وخُمْر: ثوبُ تغطّي به المرأة رأسَهَا وعنقَها، وتسدله على رقبتها وظهرها وأكتافها: وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ـ».

إذن فمن الخطأ التعامل مع آيات التنزيل الحكيم استنادًا إلى مراجع اللغة العربية وحدها بمعزل عن:

ـ «منظومة التواصل المعرفي» التي حملت للناس جميعًا «مُسمّيات» هذه الكلمات.

ـ «السياق» الذي وردت فيه الكلمة، والذي يحدد المعنى المختار من مراجع اللغة العربية.

فتعالوا نطبق هذه الأدوات، للوقوف على طبيعة وحدود «اللباس» الذي أمر الله المرأة المسلمة الالتزام به.

أ: هل كانت النساء المؤمنات يعلمن ما هي الزينة التي جاء الضمير يشير إلى التصاقها بهن، في قوله تعالى «النور / ٣١»:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؟!

لا شك أنهن كن يعلمن ذلك لاستحالة أن يأمرهن الله تعالى بشيء لا يعلمون ما هو.

إننا إذا تدبرنا قوله تعالى بعدها: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

وجدناه يقع بين نهيين:

النهي الأول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

النهي الثاني: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ ...﴾.

عن النهي الأول: لقد جاء بعده قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

نفهم من ذلك أن ضرب «خمار المرأة» على «جيبها» لا يشمل «مَا ظَهَرَ مِنْهَا» بحكم الضرورة، وهو «الوجه» الذي فيه الفم والأنف والعينان، فيستر «الخمار» فقط الشعر والأذن والعنق وأعلى الصدر «الجيب».

ومما يدخل في الاستثناء «إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا» ويشترك مع «الوجه» في علة الكشف، «الكفان والقدمان» وذلك لأن في سترهما تعطيلًا لوظيفتهما، أما غيرها من الأعضاء فلن تتعطل وظيفته بستره.

وعن النهي الثاني: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ..﴾.

فإن حكمة ذكر الزوج في هذا السياق، وهو الذي يحل له رؤية ما شاء من جسد زوجه، هي بيان أن المقصود بـ «زِينَتَهُنَّ» في النهيين الأول والثاني «الزينة الخِلْقِية» التي خُلقت المرأة بها، وهي معظم جسدها الذي يُباح للزوج رؤيته، ولكن أوجبت الفطرة السليمة إخفاء هذه الزينة عن الذين استثنتهم الآية بعد البعل، فلا شك أن ما تبديه المرأة لبعلها غير ما تبديه لأبيها غير ما تبديه لأبنائها وأخواتها.

ولا يصح القول بأن المراد بالزينة ما يُزيّن به الشيء وليس من أصل خلقته، ذلك أن كل شيء تتزين به المرأة وليس من أصل خلقتها، بداية بتزيين شعرها وحتى ما تضعه على قدميها، هو مما «أظهرته» ووضعته بإرادتها، والله تعالى لم يقل «إلا ما أظهرن منها» وإنما قال «إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا» بمقتضى الأداء الوظيفي له.

هنا نعلم الفرق بين الاستثناء الأول الذي ورد فيه «إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا»:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ - إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

والاستثناء الثاني الذي ورد بدون «إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا»:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ - إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾.

وهو أن هناك مستثنيين من هذا النهي المطلق الوارد في الاستثناء الأول، وهم الذين يُباح للمرأة أن تتعامل معهم بدون «خمار» وبدون «جلباب» بشرط ألا تُظهر الملابس التي تحت الجلباب من زينتها الخفية شيئًا.

وعندما نتدبر الذين استثناهم الله من النهي المطلق، نجد أن هذا الاستثناء يتوقف على درجة القرب والصلة بالمرأة، أي أن هناك تدرجًا في إظهار المرأة لما تحت خمارها وجلبابها.

فالذي يجوز للمرأة إظهاره من ثيابها لمن هم أبعدهم عنها قرابة وصلة، يجوز لها بلا شك أن تظهره لأقربهم.

ومن اللباس الذي يجوز لها أن تظهره لأقربهم، لا يجوز لها أن تظهره لأبعدهم.

ب: يقول الله تعالى «الأحزاب / ٥٩»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾.

وتأتي هذه الآية في إطار وضع الضوابط للباس المرأة المؤمنة، وهي تتحدث عن الجزء الثاني من هذا اللباس وهو «الجلباب» فتأمر المرأة بإدنائه.

فإذا ذهبنا إلى معاجم اللسان العربي نجد أنها أجمعت على أن:

الإدناء: الدنو القرب، ودانيت بين الأمرين وأدنيت أحدهما من الآخر، أي قاربت بينهما، ومنه أدنت المرأة ثوبها عليها إذا أرخته وأسدلته وتسترت به.

الجلباب: ما يتغطى به من ثوب فوق اللباس الأصلي، بغرض ستر ملامح الجسد، وأصل مادة جلبب يفيد التجمع والإحاطة، وتجلببت المرأة أي لبست الجلباب.

فـ «الجلباب»: ثوب تلبسه المرأة فوق لباسها الأصلي، الساتر لزينتها الخفية، تستر به ملامح جسدها.

و«**الخمار**»: ثوب تلبسه المرأة تستر به رأسها وعنقها وجيبها، باستثناء وجهها.

ج: ويقول الله تعالى «النور / ٣١»:

﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾.

وجاءت هذه الآية في سياق نهي المرأة عن إبداء زينتها الخفية، وهي تؤكد ما ذهبنا إليه من أن المقصود من هذه الزينة «الزينة الخِلْقِية» التي هي في الأصل مستورة «مخفية»، فأمر الله النساء ألا يضربن بأرجلهن الأرض «كالرقص» الذي يظهر مواضع زينتها الخفية، لذلك جعل علة النهي: ﴿**لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ**﴾.

د: ويقول الله تعالى «النور / ٦٠»:

﴿ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

فإذا ذهبنا إلى معاجم اللسان العربي، لنقف على معنى «تبرج» المرأة، نجد أنه يعني إظهار زينتها ومحاسنها، وأصله من الثوب المبرج الذي صورت عليه بروج واعتبر حسنه، فقيل تبرجت المرأة أي تشبهت به في إظهار محاسنها.

لقد جاءت هذه الآية أيضًا في سياق إغلاق باب إثارة الشهوات إلى حد شمل المرأة التي أقعدتها الشيخوخة فلم تعد لها رغبة في النكاح ولم يعد للرجال رغبة فيها، أي لم تعد محل إثارة للشهوات.

لقد رخص الله لهذه المرأة أن تضع عنها «الخمار» كاشفة شعرها، وأن تضع «جلبابها» أي اللباس الذي تخرج به وتتعامل مع الناس، بشرط أن يكون الثياب الذي تحته لا يُظهر شيئًا من زينتها الخفية «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ».

ومع أن الحديث عن نساء أقعدتهن الشيخوخة، إلا أن هناك احتمالًا أن تجد هذه المرأة من يشتهيها بعد أن وضعت الخمار والجلباب، لذلك عقب الله تعالى بقوله:

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

أي أن الخير لها أن تتعفف عن الأخذ بهذه الرخصة، وتلتزم بضرب الخمار على الجيب، ولبس الجلباب.

فإذا كانت هذه هي حال القواعد من النساء اللاتي أقعدتهن الشيخوخة من حيث الالتزام بأحكام الشريعة، فكيف بحال غيرهن؟!

هـ: ويقول الله تعالى «النور / ٣١»:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾.

فما الذي بقي من زينة المرأة، حتى يأمر الله الرجال أن يغضوا أبصارهم عنه، بعد أن ضربت المرأة الخمار على جيبها، وسترت بالجلباب زينتها الخفية، ولم تقم بحركات تُظهر ملامح جسدها؟!

إن ما بقي، ويجب غض البصر عنه، هو «مَا ظَهَرَ مِنْهَا»، أي الوجه والكفان والقدمان.

ز: لقد أمر الله تعالى الرجال والنساء بستر العورات، والالتزام بضوابط اللباس

التي تحافظ على كرامة الإنسان وتقواه، فقال تعالى «الأعراف / ٢٦»، مخاطبًا الناس جميعًا:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

إن ستر العورات فريضة شرعية، حملها قوله تعالى: «أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا»، وليست عادة أو عرفًا، ولقد وصف الله هذا اللباس بأنه: «يُوَارِي سَوْآتِكُمْ»، ثم قال بعدها «وَرِيشًا»، لبيان الصورة العامة التي يجب أن يكون عليها هذا اللباس، والضوابط التي يجب أن تحكمه، وذلك على النحو التالي:

ـ لباس لستر العورات: «يُوَارِي سَوْآتِكُمْ»، وهو ما نسميه بالملابس الداخلية.

ـ لباس لحماية الجسم من المؤثرات الخارجية، ويسميه العرب القميص، وقال عنه الله تعالى «وَرِيشًا»، لأنه يغطي معظم جسد الطير باستثناء وجهه ورجليه.

ـ لباس فوق القميص وهو «الجلباب» ليستر ما قد يظهره القميص من ملامح ومفاتن المرأة.

لقد جاءت أحكام الشريعة الإسلامية لضبط الشهوات المباحة، ولحفظ القلوب من الشهوات المحرمة، وتوجيه الشهوات الفطرية إلى مصارفها الآمنة.

ولذلك أمرت الرجال والنساء بغض البصر، وأمرت المرأة بستر زينتها الخفية، إلا ما ظهر منها، للقيام بدورها في الحياة دون مشقة أو حرج، وليس لحجبها عن هذا الدور بالقرار في البيت، أو بعزلها عمن حولها بتعطيل وظائف أعضائها بالنقاب، أو تركها تثير شهوات الرجال بإظهار مفاتنها.

إن المرأة لها مطلق الحرية أن تختار اللباس الذي يعينها على أداء عملها، في إطار الأوامر والنواهي التي وردت في الآيات السابق ذكرها، ولن تتعطل إنتاجيتها ولا مشاركتها الفاعلة في جميع مجالات العمل المختلفة، بستر ما حرم الله كشفه.

٣ ـ يقول د. شحرور «ص ٦١٩»:

أ: «إن العلاقة العائلية بين الرجل والمرأة تقسم إلى بابين رئيسيين هما:

ـ العلاقة العاطفية:

علاقة الود والحب والوفاء بين الرجل والمرأة فالرجل لباس المرأة، والمرأة لباس الرجل، واللباس جاءت من «لبس» وتعني في اللسان العربي الاختلاط والتداخل، وهذا في قوله تعالى «البقرة / ١٨٧»:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

فعلاقة الحب والود والرحمة علاقة متكافئة بين الرجل والمرأة، كلاهما مليء بالأحاسيس والمشاعر لا تمييز لأحدهما على الآخر، ويجب أن نفهم أن المرأة ليست متاعًا للرجل والرجل ليس متاعًا للمرأة.

ـ العلاقة الاقتصادية الموضوعية، والعلاقة الاجتماعية الناتجة عنها، والمرتبطة بها:

جاءت هذه العلاقة في الآية «النساء / ٣٤»:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

بدأت بصيغة الخبر: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

هنا وضع علاقة موضوعية بأن الرجال لهم القوامة على المرأة، وذكر القوامية بين الرجال والنساء ولم يذكر القوامية بين المؤمنين والمؤمنات، أي لم يقل: «المؤمنون قوامون على المؤمنات».

لذا فإن هذا الخبر يجب أن يكون صادقًا في كل أنحاء الأرض، ولذلك ذكر علة القوامية، وبما أنه ذكر علة القوامية فبذهاب العلة يذهب المعلول، وبتبديل العلة يبدل المعلول.

والعناصر التي تشكل علة القوامية هي:

ـ القوة الفيزيائية: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ـ القوة المالية الاقتصادية: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾.

وبما أنه قال «بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» فهي تعني أنها قابلة لتكون عكسية بانعكاس العلة، أي قابلة للعمل موضوعيًّا باتجاهين:

فلنر كيف تعمل في الاتجاه المعاكس: إذا كان الرجل مريضًا كأن يكون أعمى أو مشلولًا وزوجه تخدمه، في هذه الحالة موضوعيًّا لها القوامية «الأمر والنهي».

وإذا كان الرجل فقيرًا وزوجه تنفق عليه فتصبح لها القوامية موضوعيًّا، وهذه العلاقة هي العلاقة الموضوعية حتى بين الدول، فالقوي من الدول له الأفضلية على الضعيف.

ب: ويقول د. شحرور:

«وعندما تصبح المرأة عاملة أو لها دخل ما وتنفق على العائلة كالرجل تصبح متكافئة معه في القوامية من الناحية المالية وفي الأمور التي تحتاج إلى قوة فيزيائية «قوة في الخلق» فتبقى القوامية للرجل في هذه الأمور دون الأمور المالية، هذا إذا كان أقوى منها فيزيائيًّا فعلًا».

ويقول:

«فإذا لم تتحقق هذه العلاقة بين الرجل والمرأة على حد سواء يمكن أن يحصل وضع هو النشوز من المرأة أو الرجل على حد سواء.

فـ «النشوز» جاء من «نشز»، والذي يعني في اللسان العربي البروز والاستعلاء والتكبر من الناحية الاجتماعية أو الشذوذ من الناحية الجنسية.

فعندما ينشز أحد الزوجين اجتماعيًّا على الآخر، تكون البداية بالموعظة ثم بالهجر في المضاجع فقط من الزوج الآخر، وهذان الإجراءان خاصان جدًّا أي دون العلن.

ج: ويقول د. شحرور:

«ثم يأتي الحل الثالث وهو «وَاضْرِبُوهُنَّ».

هنا نرجو ألا يفهم «الضرب» بمعناه المباشر، كما فهموه معنى مباشرا في قوله تعالى «النور / ٣١»: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾.

ففعل «ضرب» معناه الضرب، ويحمل عليه كقوله تعالى «النحل / ١١٢، التحريم/ ١١»: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾.

فعندما نقول «ضرب» نحمل عليه مباشرة، فنقول: الضرب على الوجه هو من فعل «صك» كقوله تعالى «الذاريات / ٢٩»:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

وعندما يكون الضرب على الخد فنستعمل فعل «لطم».

وعندما يكون الضرب على القفا فنقول «صفع».

وعندما يكون الضرب بالرجل نقول «ركل ـ رفس».

وعندما قتل موسى الرجل قال «القصص / ١٥»: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، ولم يقل «فضربه».

وعندما سأل الله موسى عن العصا قال «طه / ١٧ـ١٨»:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

ونستعمله من الناحية الاقتصادية، فنقول ضرب الأسعار، ومنه جاءت المضاربة، ونقول ضربت الدولة المتلاعبين بالأسعار، أي اتخذت منهم موقفًا حازمًا وحجرتهم عن المضاربة.

*** أقول:**

وهنا تظهر «المنهجية الهرمنيوطيقية» بوضح، كاشفة «المنهجية الانتقائية» التي اتبعها د. شحرور في قراءته المعاصرة كلها، وأنه ينتقي من الآيات ومن معاجم اللغة ما يحقق أهداف «الفلسفة المادية للوجود».

ولذلك كان من الطبيعي أن يبني باطلًا على باطل ويقول:

د: «وهنا نفهم معنى وَاضْرِبُوهُنَّ، أي عندما لا تفيد الموعظة والهجر في المضاجع،

فيأتي الحل العلني، وهو اتخاذ موقف حازم علني من الرجل تجاه المرأة، أو من المرأة تجاه الرجل بحيث يمنع أحدهما الآخر من النشوز الاجتماعي.

لأن النشوز من أحد الزوجين يتسبب بإهانة كبيرة للآخر ومع ذلك لم يقترح الطلاق، علما بأنه عندما يتخذ أحد الزوجين موقفًا علنيًا حازمًا تجاه الآخر فإن هذا قد يتسبب في الطلاق.

ولتبيان هذه الحالة جاءت الآية التي بعدها تقول «النساء / ٣٥»:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

هذه الآية تبين تمامًا أن النشوز قد يحصل من أحد الطرفين وهو اجتماعي بحت لا جنسي.

*** أقول:**

إن استدلال د. شحرور بهذه الآية لا محل له من الإعراب، فمن أين جاء بأن سبب الشقاق بين الزوجين اجتماعي لا جنسي؟!

لقد خاطب الله الرجال، في حالة نشوز أزواجهن، بقوله تعالى «النساء / ٣٤»:

﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ...﴾.

فجعل التعامل مع هذا النشوز، بالعلاجات الثلاثة، في يد الرجال.

أما في حالة نشوز الرجال، فقد خاطب الله أهل الزوجين بقوله تعالى «النساء/ ١٢٨»:

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾.

ونلاحظ هنا أن الله تعالى لم يوجه الخطاب للمرأة، كما وجهه للرجل في حالة نشوز امرأته.

هـ: ثم يتحدث د. شحرور عن مسألة «الضرب» فيقول:

والضرب هو موقف علني حازم، لا الضرب باليد أو العصا كما فهمه البعض، هذا الموقف قد يتسبب في الطلاق، في هذه الحالة أمر الله تعالى بالإصلاح بينهما قبل الطلاق وهذا الإصلاح يتم عن طريق حكم من طرفه وحكم من طرفها وهذا ما نسميه اليوم بالمصطلح الحديث لجنة التحكيم.

وهذه الممارسة شائعة جدًّا اليوم في العلاقات الاقتصادية والتعاقدية بين الأفراد والمؤسسات والدول».

ثم يأتي د. شحرور بعد ذلك بما يؤكد أنه جاهل بعلوم اللغة العربية وجاهل بعلم السياق، فيقول عن الآية «النساء / ١٢٨»:

«أما النشوز بمعنى الشذوذ الجنسي من الرجل، فقد جاء في قوله تعالى «النساء/ ١٢٨»:

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

*** أقول:**

يبدو أن المصحف الذي يتعامل معه د. شحرور محذوف منه كلمة «نُشُوزًا» وكلمة «أَوْ»، فعلم من جملة «إِعْرَاضًا» أن المقصود إعراض الرجل عن زوجه «جنسيًا».

والفرق واضح تمامًا في الآيتين:

الآية الأولى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ...﴾.

تحدثت عن «النشوز» فقط، ولم تتحدث عن «الإعراض».

الآية الثانية: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا ...﴾.

تحدثت عن «النشوز» وعن «الإعراض».

و: نأتي الآن لمسألة «الضرب» التي يقول د. شحرور إن معناها: «والضرب هو موقف علني حازم».

فهل ورد هذا المعنى في آيات التنزيل الحكيم التي حملت فعل «ضَرَبَ»؟!

لقد وردت مادة «ضَرَبَ» في آيات التنزيل الحكيم بأكثر من معنى:

* «**الأمثال**»: يقول الله تعالى «النحل / ٧٤»:

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ويقول الله تعالى «النور / ٣٥»:

﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

ويقول الله تعالى «يس / ١٣»:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

* «**التحرك من مكان إلى آخر**»:

ونلاحظ وجود حرف «في» في سياق الآيات:

يقول الله تعالى «النساء / ١٠١»:

﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

ويقول الله تعالى «المائدة / ١٠٦»:

﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾.

ويقول الله تعالى «المزمل / ٢٠»:

﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾.

* «**الستر والتغطية**»:

ونلاحظ وجود حرف «على»، و«عن» و«بين» في سياق الآيات: يقول الله تعالى «النور / ٣١»:

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾.

ويقول الله تعالى «الزخرف / ٥»:

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾.

ويقول الله تعالى «الحديد / ١٣»:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

* «**الجعل والانتقال**»:

يقول الله تعالى «طه / ٧٧»:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾.

* «إحداث ضرر أو منفعة بأداة»:

يقول الله تعالى «البقرة / ٦٠»:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾.

وجاء الضرب هنا للمنفعة.

ويقول الله تعالى «النساء/ ٣٤»:

﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾.

وجاء الضرب هنا ضمن وسائل من المفترض أن تعود على المرأة بالمنفعة.

فالنساء يختلفن في طبائعهن، فهناك من تستجيب لزوجها خلال فترة الموعظة وتنتهي القضية، وهناك من تستجيب خلال فترة الهجر، وهناك من لا تنفع معها موعظة ولا يؤثر فيها هجر، فهل يطلقها زوجها، ويهدم بيت الزوجية؟!

أحيانًا تكون هناك نساء تربت في طفولتها على أن الرجولة في أن يستخدم الرجل مع زوجه العنف وتكون سعيدة به، ولا ترى فيه أية إهانة لكرامتها، ويعرف ذلك علماء النفس.

ولكن كيف يكتشف الزوج ذلك؟!

إذا ضرب امرأته مرة بعد استنفاد فترة الموعظة وفترة الهجر، ووجد أن ضربها قد زاد الأزمة اشتعالًا، إذن فلن يجدي معها علاج، وعليه أن يبحث موضوع طلاقها،

وإذا كان قد أحدث بجسدها أية إصابات، فإنه يعاقب على ذلك عن طريق «محكمة الأسرة».

ويقول الله تعالى «الأنفال / ١٢»:

﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾.

وهنا جاء الضرب للضرر.

الفصل الثاني

«اللسان العربي»

«اللسان العربي»

لقد لفت نظري استخدام كلمة «الذكر»، في سياق بيان تعهد الله بحفظ «كتابه الخاتم»، وقوله تعالى «الحجر/ ٩»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

فسألت نفسي: لماذا لم يستخدم السياق كلمة «الكتاب» أو «القرآن» فيقول تعالى:

* ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ـ الكِتَابَ ـ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾؟!

* ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ـ القُرْآنَ ـ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾؟!

هل استخدم لفظ «الذكر» لأن الآية جاءت في سياق الرد على قول المكذبين قبلها «الحجر / ٦»:

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾؟!

إذن فلماذا كان يُسمي قوم النبي محمد التنزيل الحكيم بـ «الذكر»؟!

عندما اطلعت على علوم اللغة العربية علمت أن كلمة «الذِّكْر» مصدر ذَكَرَ، وأصل مادته «التذكر» المقابل للغفلة والنسيان، سواء كان «ذِكْرًا» بالقلب أو باللسان، وأن الذي يجعل الإنسان يتذكر الكلمة ومعناها، هو «مُسُمّاها» الموجود خارجها في الوقع المشاهد، وأسميه «المقابل الكوني» الذي يجب أن تكون صورته مطبوعة في ذهن الإنسان «الصورة الذهنية» من قبل التعامل مع الكلمة.

ولما كانت «الكلمة»، في أي لغة في العالم، يستحيل فهم معناها و«تذكرها» بمعزل عن «مُسَمّاها»، استحال فهم معاني «كلمات» التنزيل الحكيم «وتذكرها» بمعزل عن «مُسَمّاها»، من أجل ذلك سُمّي التنزيل الحكيم بـ «الذكر» عل» أساس تفاعل كلماته

المكتوبة «الكتاب» المقروءة «القرآن»، مع «مُسَمّياتها»، أي مع «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس.

ولذلك علينا أن نعلم أن هذه المصطلحات «اللسان العربي، اللغة العربية، اللغة العامية» لا تعني «الكلمات» المقروءة أو المسموعة بمعزل عن «مُسَمّاها» و«مقابلها الكوني».

لقد أردت بهذه المقدمة أن أبيّن، أننا عندما نتعامل مع «اللسان العربي» الذي حملته معاجم اللغة العربية فإننا نتعامل مع كلمة غير منفصلة عن «مُسَمّاها» الموجود في الواقع المشاهد، والذي حملته «منظومة التواصل المعرفي» من لدن آدم، عليه السلام، وإلى يوم الدين.

وهذا هو معنى «اللسان العربي» المستخدم في هذا الكتاب.

أولًا:

لقد ولد «اللسان العربي» من قبل أن ينزل القرآن، ومن قبل أن يولد أئمة وفقهاء اللغة العربية، ومن قبل ظهور ما اصطلحوا عليه من مصطلحات ومنها «الترادف»، وقد كان العرب يُعبّرون عن المعاني بأساليبهم البيانية البلاغية بصورة تلقائية، فتختلف الألفاظ وتتلاقى المعاني دون معرفة هذه المصطلحات التي ظهرت بعد قرنين من وفاة رسول الله محمد على أقل تقدير.

لقد نزل القرآن على قوم هم أهل «اللسان العربي» الذي نزل به، ودخلوا في دين الله أفواجًا بناء على معرفتهم بلغة القرآن العربية، وإقرارهم بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والتي لم يستطع الإنس والجن أن يأتوا بسورة من سورها.

لقد تعَلّمَ آدم، عليه السلام، الأسماء ومُسَمّياتها ليقوم وذريته بمهمة الاستخلاف في الأرض على خير وجه «البقرة / ٣١»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

فلا علم بلا تعلم، ولا تعلم دون أن تكون «مُسَمّيات» الأشياء وصورها الذهنية مطبوعة في قلوب الناس، ولقد تعلم الأبناء «مُسَمّيات» الأشياء من البيئة التي ولدوا فيها، وأنزل الله الرسالات والناس يعلمون «مُسَمّيات» كلماتها من قبل بعثة الرسل، فيقول الله تعالى «إبراهيم / ٤»:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ـ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ـ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

فماذا يعني قول الله تعالى: «إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ»؟!

هل أرسل الله مع كل رسول «لسان قومه»، أي «قطعة اللحم» المعروفة، الذي يُميّز قومه عن الأقوام الأخرى؟!

وعندما قال موسى، عليه السلام، لربه «طه / ٢٧ ـ ٢٨»:

﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ ﴾.

هل كان هناك من ربط لسان موسى بحبل وعقده حتى لا يستطيع حلّه، فطلب موسى من ربه فك هذه العقدة من لسانه؟!

فإذا نظرنا إلى «اللسان» من الناحية التشريحية نجد أن هناك ما يُسمى بـ «اللَّهاة» وهي اللُّحمة المشرِفة على الحَلْق والتي تسمى «لسان المزمار»، فإذا وضعنا حرف «الغين» مكان الـ «ها» كانت «اللغة»، فإذا علمنا أن الهاء في «لَهَاة» والغين في «لُغة» من حروف «الحلق» التي يحل بعضها مكان بعض، تصبح كلمة «اللغة» دالة على عضو من أعضاء النطق بها وهو «اللسان»، باعتباره «آية» من آيات الأنفس، وليس فقط «آلة للنطق».

يقول الله تعالى «الروم / ٢٢»:

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ـ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ ـ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾.

والمقصود بـ «اخْتِلاَف أَلْسِنَتِكُمْ» اختلاف «اللغات» التي تنطق بها «ألسنتكم» وليس اختلاف خصائص «اللسان» المادية، فنجد مثلًا لسان بمواصفات إنجليزية،

وآخر بمواصفات ألمانية أو روسية، وهنا تكون «الألسن» قد استخدمت استخدامًا «مجازيًا».

ثانيًا:

فإذا ذهبنا إلى «مقاييس اللغة» نجد أن «ابن فارس، ت ٣٩٥ هـ» يقول في مادة «ل غ و» عن القول الثاني:

«لَغِيَ بالأمر، إذا لَهِجَ به، ويقال إنَّ اشتقاق اللُّغة منه، أي يَلْهَجُ صاحبُها بها».

ويقول ابن جني «ت ٣٩٢ هـ» في «الخصائص، باب القول على اللغة وما هي»:

«أما حدّها: فإنها أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم، هذا حدها».

واستخدم ابن جني كلمة «اللغة» عند حديثه عن أهم لغات العرب فقال:

«لغة أهل الحجاز، وهي اللغة الفصحى القدمى».

ويقول ابن منظور في «لسان العرب» مادة «لغو»:

«واللُّغة: اللِّسْنُ، وحَدُّها أَنها أَصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أَغراضِهم... ولَغا فلان عن الصواب وعن الطريق إِذا مالَ عنه؛ قاله ابن الأَعرابي، قال: واللُّغَةُ أُخِذَت من هذا لأَن هؤلاء تكلموا بكلام مالُوا فيه عن لُغةِ هؤلاء الآخرين، واللَّغْو: النُّطق يقال: هذه لُغَتهم التي يَلْغُون بها أَي يَنْطِقُون».

ولذلك يجب أن نُفرّق بين:

١ ـ «**اللغة**»: التي هي أصوات تحمل كلمات «اسمًا، فعلًا، حرفًا» يُعبر كل قوم بها عن أفكارهم ومشاعرهم وأغراضهم.

٢ ـ «**اللغو**»: الذي تحمله أي «لغة» من لغات الشعوب، يُعبر عن الكلام غير الصحيح، أو الذي لا معنى له، وفي هذا السياق يقول الله تعالى «الفرقان / ٧٢»:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ـ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ ـ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾.

ويقول الله تعالى عن أهل الجنة «الواقعة / ٢٥-٢٦»:

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

ولذلك عندما أراد الكافرون التشويش على رسول الله وهو يقرأ القرآن «فصلت/ ٢٦»: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾.

فنجد أن معنى «اللغو» هنا ليس الكلام الذي لا معنى له ولا فائدة منه؛ لأن فعل «وَالْغَوْا» معناه إحداث أي نوع من أنواع التشويش والإزعاج الصوتي الذي يجعل الكافرين لا يسمعون القرآن، بقرينة كلمة «فِيهِ» الظرفية العائدة على القرآن، «وَالْغَوْا فِيهِ»، ولو كانت هذه الأصوات المرتفعة، بكلام فصيح مفهوم.

ثالثًا:

ولما كان كتاب الله، القرآن الكريم، قد حمل في ذاته «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، لم يكن مناسبًا لمقام هذه «الآية القرآنية» أن تستخدم كلمة اللغة، ذلك أن اللغة تحمل حقًّا وباطلًا، وتحمل لغوًا، وكلام الله منزه عن «اللغو»، ولذلك لم يقل الله تعالى عن إنزال القرآن: «نزل بلغة عربية مبينة». وإنما قال تعالى «الشعراء/ ١٩٣ ـ ١٩٥»:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ (١٩٥)﴾.

لقد جاء استخدام كلمة «اللسان» في موضعه المحكم باعتباره آية من آيات الأنفس التي حملتها «الآية القرآنية العقلية» والتي قال الله تعالى فيها «فصلت/ ٥٣»:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

إن تبيّن «الحق» في الآفاق والأنفس لا يكون إلا بأدوات علمية وآليات معرفية، حسب لغة القوم وإمكانات عصرهم، ولذلك كانت مهمة الرسل «البيان»، قال تعالى «إبراهيم/ ٤»:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾.

أن مهمة اللغة «البيان»، والبيان ليس قاصرًا على قواعد النحو وعلى تركيب جملة مفيدة، وإنما يشمل الأساليب البلاغية المختلفة التي تعطي للجملة قيمة بيانية واتساعًا في المعنى، كالمجاز، والتعبير عن الشيء باسم «الآلة» التي يحصل بها، كما نعبر عن «اللغة» باسم الآلة التي تنطق بها وهي «اللسان».

فمن «المجاز» قول الله تعالى «النور / ١٥»:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

فالتلقي يُطلق على الأخذ باليد، «تلقيت رسالة»، والألسن ليست آلة استماع الأخبار والشائعات، فعندما تُشبه «الألسن» بالأيدي، يكون ذلك لبيان عِظم جريمة تداول الشائعات بغير علم، وهو استخدام «مجازي» لآلة النطق «اللسان».

ولذلك لا فرق بين أن تقول «أنا أتحدث باللسان العربي» أو «أنا أتحدث باللغة العربية» لأن في الحالتين أنت تقصد «الكلام المنطوق»، وليس «الآلة الناطقة» التي تقوم بعملية «البيان» والتي تعتبر آية من آيات الأنفس.

وعندما نقول إن «البيان» آية من آيات الأنفس فذلك لأنه لا يعتمد على قدرات الإنسان اللسانية والبلاغية فقط، وإنما على ما وراء هذه القدرات من آيات وآليات عجز العلم عن الوقوف عليها.

إننا نرى الطفل، ما بين الثانية والثالثة من عمره، ينطق بكلمات وجمل يفهمها من حوله وهم في حالة ذهول، فكيف يقوم ابن الثالثة بتركيب الكلمات والجمل التي ينطق بها لسانه، فإذا علمنا أن هناك أطفالًا يتعلمون أكثر من لغة، لغة الأب ولغة الأم، فكيف لا تختلط كلماتها أثناء حديثه وبيانه لما يريد أن يقول، وتخرج كل كلمة من مستودعها في القلب لحظة استدعائها؟!

والإجابة عن هذا السؤال في قول الله تعالى «الرحمن / ١ ـ ٤»:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾.

إن وراء جملة «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ» آيات من آيات الأنفس، ومنها «آية النطق»، وعمدتها «اللسان» الذي ورد في سياق بيان نعم الله «المادية» على الإنسان، فقال تعالى «البلد/ ٨ ـ ٩»:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾.

«إن اللسان آية وليس آلة».

رابعًا:

وماذا بعد أن قال الله تعالى «إبراهيم / ٤»:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾؟!

يقول الله تعالى:

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ـ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ـ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؟!

إن الهدى والضلال مرتبطان بإنزال الرسالة الإلهية باللغة التي تنطق بها ألسن الناس، ومع إيماننا بأن «اللغة» ليست قاصرة على «لغة الكلام» فقط، وإنما هناك على سبيل المثال «لغة الإشارة» و«لغة الآلة» و«لغة الجسد»، وحسب القاعدة التي تقول: «إن عدم الوجدان ليس دليلًا على عدم الوجود».

فإن عدم وجدان «كلمة اللغة» صراحة في السياق القرآني، ليس دليلًا على عدم وجودها كمنظومة صوتية قرآنية تتفاعل مع ما تعلمه الإنسان في طفولته من أحرف الهجاء وأصواتها.

إن ارتباط الهدى والضلال «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» بلغة البيان التي كانت تنطق بها ألسن العرب من قبل بعثة رسول الله محمد، عليه السلام، يفرض على كل المسلمين أن يكونوا على دراية بلغة القرآن العربية وعلومها البيانية، حتى لا تتمكن القراءات القرآنية الشاذة من اختراق قلوبهم.

اللسان العربي
ونقض منهجية القراءة المعاصرة

لقد أقام د. شحرور قراءته المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم» على أساس نفي الترادف في اللغة العربية، وهي مسألة خلافية، ويكفينا أن نعلم أن فقهاء اللغة العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، لم يتفقوا على مفهوم محدد لـ «الترادف»، ولا على الضوابط الحاكمة له، بل نجد أن منهم من أنكر الترادف وأثبته في نفس الوقت، دون أن يقصد طبعًا، ومنهم «ابن فارس» صاحب «مقاييس اللغة» الذي يعتمد عليه د. شحرور اعتمادًا رئيسًا، فيقول عند حديثه عن «المنهج المتبع / ص ٤٢»:

«لقد استعرضنا معاجم اللغة فوجدنا أن أنسبها هو معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تلميذ ثعلب، الذي ينفي وجود الترادف في اللغة، فقد تم الاعتماد عليه بشكل أساسي دون إغفال بقية المعاجم».

أولًا:

هل كان «ابن فارس» ينكر فعلًا الترادف في اللغة بوجه عام، كما يدعي د. شحرور، أم أنه أثبته في كثير من المسائل؟!

بالبحث في معجم مقاييس اللغة، نجد «ابن فارس» يقول:

١ ـ مادة «فرق»:

الفاء والراء والقاف أُصَيلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييز وتزييلٍ بين شيئين، من ذلك الفَرْق: فرق الشعر. يقال: فرَقْتُه فَرَقًا، و«الفُرْقانُ» كتاب الله تعالى، فَرَقَ به بين الحقِّ والباطل.

* إذن «ابن فارس» يقول كما يقول المسلمون، وكما حملت «منظومة التواصل المعرفي»، إن «الفرقان» هو نفسه «كتاب الله».

٢ ـ مادة «أمّ»:

وأمّا الهمزة والميم فأصلٌ واحدٌ، يتفرّع منه أربعة أبواب...، و«أمُّ القُرآن»: فاتحة «الكتاب»، و«أمُّ الكتاب»: ما في «اللّوح المحفوظ».

* وهنا يؤكد «ابن فارس» بقوله السابق أن «القرآن» هو نفسه «الكتاب».

٣ ـ مادة «حزب»:

الحاء والزاء والباء أصلٌ واحد، وهو تجمُّع الشيء....، والطائفة من كلِّ شيءٍ حِزْبٌ، يقال قرأَ حِزْبَهُ من «القرآن».

* يحتوي «القرآن الكريم» على «٣٠ جزءًا» بـ «٦٠ حزبًا»، فعندما يقول ابن فارس: «يقال قرأَ حِزْبَهُ من القرآن»، فإنه يقصد بالقرآن «التنزيل الحكيم كله»، وليس جزءًا أو حزبًا منه.

٤ ـ مادة «عضو»:

العين والضاد والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تجزئةِ الشَّيء....، قال الخليل: وقوله تعالى: «الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ»، أي عِضَة عِضة، ففرَّقوه، آمنوا ببعضه وكَفَرُوا ببعضه.

* فهل كان الخليل يقصد أن «الهاء» التي في كلمة «بعضه» تعود على القرآن كله، من سورة الفاتحة وحتى سورة الناس، أم على جزء منه؟!

٥ ـ مادة «غسق»:

الغين والسين والقاف أصلٌ صحيح يدل على ظُلْمة، فالغَسَق: الظلمة، والغاسِق: الليل، ويقال: غَسَقت عينُه: أظلمت...، وأمّا الغَسَّاق الذي جاء في «القرآن»، فقال المفسِّرون: ما تقطَّرَ من جلود أهل النار.

ويتحدث «ابن فارس» عن القرآن باعتباره «التنزيل الحكيم»، ويثبت وجود «الترادف» في آياته فيقول:

«فالغَسَق: الظلمة»، ثم يقول بعدها: «والغاسق: الليل».

إن قول «ابن فارس»:

❋ «الغسق = الظلمة، والغاسق = الليل».

معناه أنه مع وجود ترادف في كلمات القرآن؛ لأنه يعلم «فلكيًا» أن ظلمة الليل درجات، وأشدها «الغسق»، ولو كان من منكري الترادف لقال:

❋ «الغسق = شدة الظلمة، والغاسق = الليل المظلم».

ويجعل سنده في ذلك قول الله تعالى «الإسراء / ٧٨»:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾.

ثانيًا:

وماذا حملت معاجم اللغة العربية بالنسبة لمعاني الكلمات: «الكتاب ـ القرآن ـ الفرقان»؟!

١ـ إن «الخليل بن أحمد الفراهيدي ـ ت ١٧٠هـ» و«سيبويه ـ ت ١٨٠هـ» لم ينكرا الترادف في اللغة العربية، وهما من علماء «القرن الثاني الهجري»، فإذا ذهبنا إلى علماء «القرن الرابع الهجري» نجد أن «أبي علي الفارسي ـ ت ٣٧٧هـ» لم ينكر «الترادف»، ثم جاء «ابن فارس ـ ت ٣٩٥هـ»، الذي عاصر «الفارسي»، وأنكر «الترادف».

فتعالوا نبدأ الطريق من أوله مع الخليل بن أحمد الفراهيدي «ت ١٧٠هـ» الذي ألف أول معجم ينقل فيه كيف كان الناس يفهمون كلمات «التنزيل الحكيم» في عصره، واعتمد في ترتيب كلماته على «مخارج الحروف»، من أعمق نقطة في الحلق وهي حرف «العين».

أ: «القرآن»:

فعلى سبيل المثال نجده يقول عند الحروف «ق ـ ر ـ ء»:

«وقَرَأْتُ القرآن عن ظهر قلْبٍ أو نظرت فيه... وقَرَأ فلان قِراءةً حسنة، فالقرآن مقروءٌ، وأنا قارئٌ، ورجل قارئٌ عابد ناسك وفعله التَّقَرّي والقِراءة.

وتقول: قَرَأتِ المرأة قُرءًا إذا رأت دمًا، وأَقرأَتْ إذا حاضت فهي مُقْرئٌ، ولا يقال: أَقرَأَتْ إلا للمرأة خاصة... وقال الله عز وجل «ثلاثة قُروءٍ» لغة، والقياس أَقرُءٌ». اهـ.

والسؤال:

هل عندما قال «الفراهيدي» في القرن الثاني الهجري «وقَرَأْتُ القرآن عن ظهر قلْبٍ»، كان يقصد «التنزيل الحكيم» كله، بداية بسورة الفاتحة وإلى سورة الناس، أم كان يقصد «القرآن» الذي يؤمن به د. شحرور وهو «الآيات المتشابهات» فقط؟!

إذن فلا صحة لما ذهب إليه د. شحرور من أن «القرآن» جزء من «التنزيل الحكيم».

ب: «**الذكر**»:

وهل كان الناس في «القرن الثاني الهجري» يفهمون كلمة «الذكر» كما يفهمها د. شحرور في القرن «الخامس عشر الهجري»؟!

يقول «الفراهيدي» في كتابه «العين» عند حديثه عن الحروف «ذ ـ ك ـ ر»:

«مستعمل فقط ذكر: الذِّكْرُ: الحفظ للشيء تذكره... والذِّكرُ: جري الشيء على لسانك، تقول جرى منه ذِكر، والذِّكر: الشرف والصوت، قال الله عز وجل «الزخرف/ ٤٤»: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾، والذِّكْرُ: الكتاب الذي فيه تفصيل الدين. وكل كتاب للأنبياء: ذِكرٌ».

والسؤال:

فعلى أي أساس لغوي فرّق د. شحرور بين «التنزيل الحكيم» و«القرآن» و«الذكر»؟!

٢ ـ والآن تعالوا إلى ما قاله علماء «القرن الرابع الهجري» عن معنى هذه الكلمات: «الكتاب ـ القرآن ـ الفرقان».

أ: «**الكتاب**»:

يقول «أبو علي الفارسي»، تحت عنوان «القول في الكِتاب»، «ص ٣٠٣»:

«فأما الكِتاب فهو مصدر قولك كَتَبْت، والدلالة على كونه مصدرًا انتصابه عمّا قبله في نحو قوله تعالى «النساء / ٢٤»: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

وقوله «آل عمران / ١٤٥»:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾.

فمذهب سيبويه في هذا النحو أنه لما قال «النساء / ٢٣»:

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾.

دل هذا الكلام على «كَتَبَ عليكم».

وكذلك دلّ قوله «آل عمران / ١٤٥»:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾.

دل على كَتَبَ الله موتَه ومدةَ حياته، فانتصب بـ كَتَبَ الذي دل عليه الفعل المُظْهَر.

ثم قال: وسُمِّي به «التنزيل» بدلالة قوله تعالى «الكهف / ١»:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾.

ويقول «ابن فارس» في مقاييس اللغة: «كتب»:

الكاف والتاء والباء أصلٌ صحيحٌ واحد يدل على جمع شيء إلى شيء. من ذلك الكِتَابُ والكتابة. يقال: كتبت الكتابَ أكْتبه كَتْبًا... ومن الباب الكِتَابُ وهو الفَرْضُ.

قال الله تعالى «البقرة / ١٨٣»: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

ويقال للحُكْم: الكتاب، قال تعالى «البينة / ٢-٣»

﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾.

أي أحكام مستقيمة.

ونلاحظ هنا قول ابن فارس عن فعل «كَتَبَ»: أصلٌ صحيحٌ واحد يدل على جمع شيء إلى شيء ومن ذلك الكِتَابُ... وليس معنى أنه لم يذكر الآيات الدالة على أن «التنزيل الحكيم» يُسمى كتابًا، أنه ينكر ذلك، لأن الآيات التي ذكرها كانت تتعلق بقوله: «ومن الباب الكِتَابُ وهو الفَرْضُ».

ب: «**القرآن**»:

يقول «أبو علي الفارسي»، في كتابه «المسائل الحلبيات»، تحت عنوان «مسألة في تأويل أسماء كتاب الله تعالى»: قد ثبت بقوله تعالى «يوسف / ٣»:

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

أن القرآن اسم لكتاب الله عز وجل.

وبعد تفصيل لغوي لا يتسع المقام لذكره، يقول أبو علي الفارسي «ص ٢٩٧»:

«وزعم بعض أهل التأويل أن القرآن من قَرَنْتُ الشيء بالشيء، وهذا سهو منه، وذلك أن لام الفعل من قَرَأْت همزة، ومن قَرَنْت نون، فالنون في (قُرْآن) ليس كالذي في قَرَنَ لأنها في قُرْآن زائدة، وفي قَرَنَ لام الفعل».

ثم قال: وأما قوله تعالى «الإسراء / ١٠٦»:

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾.

فهو عبارة عن «التنزيل»، وليس كقوله: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ»، لمكان قوله: «لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ».

وكذلك قوله تعالى «الزمر / ٢٨»: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾، هو حال من «القُرْآن» في قوله «الزمر / ٢٧»: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾.

ويقول «ابن فارس»، في معجم مقاييس اللغة، «مادة قرى»: «قرى»:

القاف والراء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على جمع واجتماع، ومن ذلك القرية، سميت قرية لاجتماع الناس فيها... وإذا همز هذا الباب كان هو والأول «أي قرى» سواء.

يقولون: ما قرأَتْ هذه الناقة سَلىً، كأنه يراد أنها ما حَمَلَتْ قط.

قالوا: ومنه «القرآن»، كأنه سمي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك». اهـ

ج: «**الفرقان**»:

يقول «أبو علي الفارسي» تحت عنوان «القول في الفُرْقان»، «ص ٢٩٩»:

«قد ثبت أن الفُرْقَان اسم «القرآن»، بدلالة قوله تعالى «الفرقان / ١»:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وقال «ص ٣٠١»: فأما قوله تعالى «البقرة / ٥٣»:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فقال أبو عبيدة: الفرقان ما فَرَّق بين الحق والباطل.

ويقول «ابن فارس» في معجم مقاييس اللغة «مادة فرق»: «فرق»:

الفاء والراء والقاف أصلٌ صحيحٌ يدل على تمييز وتزييل بين شيئين التزييل: التفريق، وفي الأصل: وترتيل... والفُرْقان: كتاب الله تعالى فَرَقَ به بين الحق والباطل».

*** أقول:**

فها هو ابن فارس، صاحب مقاييس اللغة، الذي لم يأت في سياق حديثه عن «الكتاب» بآية دالة على أن «الكتاب» يعني «التنزيل الحكيم» ويعني «القرآن»، يأتي هنا ويقول: «والفُرْقان: كتاب الله تعالى فَرَقَ به بين الحق والباطل».

إن مراجع اللغة العربية كلها تشهد بأن الكلمات «الكتاب ـ القرآن ـ الفرقان» أسماء أو صفات لـ «التنزيل الحكيم» من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، فالله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ هو سبحانه الذي أنزل القرآن «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» وهو سبحانه الذي أنزل الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

والسؤال:

عندما يقول «د. جعفر دك الباب» في مقدمة كتاب «الكتاب والقرآن» مبينًا المنهج اللغوي الذي تبناه د. شحرور في قراءته المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»:

«لذا اختار الباحث معجم مقاييس اللغة لابن فارس، واعتمده مرجعا هاما يستند إليه في تحديد فروق معاني الألفاظ التي بحث فيها».

وعندما يقول د. شحرور في سياق حديثه عن المنهج الذي اتبعه: إنه اتخذ «أبي علي الفارسي»، و«ابن فارس» مرجعًا أساسًا في قراءته المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم».

فأين ما وعد د. شحرور به القارئ من احترام عقله عندما قال «ص ٤٥»:

«وعليه فإننا حاولنا جاهدين في كتابنا احترام عقل القارئ أكثر من احترامنا لعواطفه، كما ذكرنا في أول هذه المقدمة»؟!

ثالثًا:

يدعي د. شحرور أن قراءته «المعاصرة» للتنزيل الحكيم ستأخذ بأيدي المسلمين إلى العالمية، والسؤال:

هل يمكن أن تصل إلى العالمية قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم تقوم على منهجية عشوائية تنتقي من بين مراجع اللغة العربية مرجعًا يوافق هوى صاحبها «د. شحرور» في إنكار الترادف في التنزيل الحكيم؟!

لقد عاش ابن فارس، الذي يقول د. شحرور إنه «ينكر الترادف في القرآن»، عاش في القرن الرابع الهجري «ت ٣٩٥ هـ»، وكان معاصرًا لأئمة اللغة الذين «يُثبتون الترادف»، ومنهم ابن جني «ت ٣٩٢ هـ».

والسؤال:

لماذا اتبع د. شحرور «ابن فارس» وغيره من أئمة اللغة الذين كانوا يُنكرون الترادف في القرن الرابع الهجري، ولم يتبع «ابن جني» وغيره من الذين كانوا يثبتون الترادف وعاصروا «ابن فارس»، بل ولماذا لم يتبع شيخهم «سيبويه»، الذي كان يثبت أيضًا الترادف في القرن الثاني الهجري «ت ١٨٠ هـ»؟!

والجواب:

أن د. شحرور لم يجد في اللغة العربية قاعدة ينطلق منها إلى تقسيم التنزيل الحكيم إلى «كتاب» و«قرآن» و«فرقان» و«ذكر»... إلى آخر تقسيماته، غير أن يتبنى مذهب القائلين بإنكار الترادف، دون أن يشير إلى أنها مسألة خلافية؛ لأنه لو أشار إلى ذلك ما كان له أن يستنبط حكمًا واحدًا من أحكام القرآن «بدلالة قطعية» على مسألة خلافية.

إن قوم رسول الله محمد، عليه السلام، كانوا يثبتون الترادف في كلامهم وفي أشعارهم، ولا يقصدون إثبات صحة أو عدم صحة هذا المصطلح الذي ظهر بعد قرنين من الزمن.

ـ فإذا قالوا الكلمات: «أسد ـ ليث ـ غضنفر».

عرفوا أن المقصود بهذه الكلمات الثلاث «مسمى» واحد هو الذي تعرفه شعوب العالم، والمطبوع صورته في قلوبهم.

ـ وإذا قالوا الكلمات: «الكتاب ـ القرآن ـ الذكر».

عرفوا أن المقصود بهذه الكلمات «التنزيل الحكيم».

وبرهان ذلك فهمهم، وهم أهل اللسان العربي، للآيات القرآنية التالية:

ـ فعن «الكتاب»: يقول الله تعالى «العنكبوت / ٥١»:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾.

ـ وعن «القرآن»: يقول الله تعالى «طه / ٢»:

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾.

ـ وعن «الفرقان»: «يقول الله تعالى «الفرقان / ١»:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

ـ وعن «الذكر»: يقول الله تعالى «الحجر / ٦»:

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾.

والسؤال:

من أين جاء د. شحرور ببدعة تقسيم «التنزيل الحكيم» إلى «كتاب» و«قرآن» و«فرقان» و«ذكر»...، وإذا كان «الترادف» يعني وجود ألفاظ كثيرة تدل على معنى واحد، و«المجاز» يعني دلالة اللفظ الواحد على معان متعددة، إذن فلماذا أخذ د. شحرور بـ «الترادف» ولم يأخذ بـ «المجاز» الذي كان سيقوده إلى القول:

إن كلمة «القرآن» اسم لـ «كتاب الله»، وأن هذا الاسم يستحيل أن يُسمى به غيره، ومعناه جَمْع وضم سور الكتاب، و«مجازه» في قوله تعالى: «إنَّ علَينا جَمْعَه وقُرْآنَه» أي تأليف بعضه إلى بعض، وعلى هذا الأساس يقيم د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم؟!

ويستند د. شحرور في التفريق بين الكتاب والقرآن إلى أن:

١ ـ الكتاب:

جاء هدى للمتقين: لأن في الكتاب أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق، أي فيه التقوى بالإضافة إلى القرآن.

٢ ـ القرآن:

جاء هدى للناس: ولفظة الناس تشمل المتقين وغير المتقين.

ولأن د. شحرور يهمل «السياق القرآني» في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، لا يعلم أن هناك آيات ورد فيها لفظ الكتاب باعتباره هدى للناس وليس للمتقين فقط، كقوله تعالى «البقرة / ١٥٩»:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾.

وآيات ورد فيها لفظ القرآن هدى وبشرى للمؤمنين وليس للناس فقط، كقوله تعالى «الإسراء / ٩»:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾.

رابعًا:

فتعالوا نلقي نظرة سريعة ومختصرة على مذاهب فقهاء اللغة في مسألة الترادف:

١ ـ فريق يُنكر الترادف مطلقًا:

وهؤلاء يفرقون بين الأسماء والصفات، ويعتبرون الألفاظ المترادفة للمسمى الواحد «صفات» محضة، وأن بين الألفاظ لفظًا واحدًا هو الموضوع للمعنى الأصلي للكلمة، وباقي الألفاظ صفات وليست أسماءً.

فعلى سبيل المثال: «كتاب الله»: هو الاسم الأصلي، ومن صفاته: كتاب ـ قرآن ـ فرقان ـ ذكر ـ نور، ومن هذا الفريق: «أبو علي الفارسي».

٢ ـ فريق لا ينكر الترادف مطلقًا:

وهؤلاء يعتبرون كثرة الألفاظ «المترادفة» للمسمى الواحد «أسماءً» تحمل صفات مختلفة تزيد من قدر المسمى وأهميته.

فعلى سبيل المثال: أسماء «كتاب الله» هي: الكتاب والقرآن والفرقان والذكر والنور، وكلها جاءت لبيان شرف الكتاب وكماله، ومن هذا الفريق: «ابن فارس».

٣ ـ فريق يثبت الترادف بشرط:

أن تكون معاني الألفاظ تدور حول معنى واحد، وهو مذهب غير مشهور.

٤ ـ فريق يثبت الترادف مطلقًا:

وهو الأكثر انتشارًا واعتبارًا، استنادًا إلى كلام العرب «أهل اللسان العربي» الذين خاطبهم الله بالأساليب البيانية التي اعتادوها من قبل نزول القرآن ومن قبل أن يولد فقهاء اللغة العربية ومن قبل أن تظهر مؤلفاتهم ومصطلحاتهم، حيث كانوا يستعملون ألفاظًا مختلفة للتعبير عن مسمى واحد، حسب مقتضى الحال، وحسب ما تريد النفس التعبير عنه.

لقد فهم أهل «اللسان العربي» قول الله تعالى «فصلت / ٣»:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

بمعنى أن «الكتاب» الذي أنزله الله على رسوله محمد، عليه السلام، يحمل آيات مفصلة مبينة «مقروءة» باللغة العربية التي كان يعلمها قومه، وكانت تنطق بها ألسنتهم من قبل بعثته.

ومعنى أن الكتاب «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» أي جاءت مبينة واضحة «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» اللغة العربية التي نزلت بها، وهذا ما أكده الله تعالى بقوله «الزخرف / ١ ـ ٣»:

﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③﴾.

وبمقارنة الآيتين نعلم أن «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» هو نفسه الكتاب الذي «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» الذي جعله الله مقروءا «قُرْآنًا» بلغة قوم النبي العربية، لعلهم «يَعْلَمُونَ ـ يَعْقِلُونَ».

لقد فهم أهل «اللسان العربي» أن تعدد أسماء «التنزيل الحكيم» هو تعدد صفات وليس تعدد ذوات، فمن صفات «التنزيل الحكيم» أنه «كتاب»، فقال تعالى «فصلت/ ٣»:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

وأنه «قرآن»، فقال تعالى «فصلت / ٣، الزخرف / ٣»: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

وأنه «فرقان»، فقال تعالى «الفرقان / ١»: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

وأنه «نور»، فقال تعالى «النساء / ١٧٤»: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.

ولقد حفظ الله تعالى «مُسَمّيات» كلمات التنزيل الحكيم في مصدر معرفي لا تقل حجيته في «دين الإسلام» عن حجية التنزيل الحكيم نفسه، وهذا المصدر هو «منظومة التواصل المعرفي» التي حملت اتفاق المسلمين جميعًا منذ عصر التنزيل وإلى يومنا هذا، على أن الكتاب هو القرآن، وهو الفرقان، وهو النور، وهو الحكمة، وهو «التنزيل الحكيم» الذي يبدأ بسورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس.

فإذا علمنا أن قراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم، من أولها إلى آخرها، قائمة على قاعدة «لا ترادف في التنزيل الحكيم»، ولذلك جعل اسم كتابه الأول «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة» وذهب إلى أن الكتاب شيء، والقرآن شيء، والفرقان شيء، والنور شيء، هنا تسقط قراءته من قواعدها.

خامسًا:

وتعالوا نبيّن أثر الجهل بعلوم اللغة العربية على فهم د. شحرور لأحكام القرآن، بضرب مثل واحد يتعلق بـ «الإحسان للوالدين»:

يقول د. شحرور «ص ٥٠٢»:

«إن أساس الحياة الإنسانية هو التقدم والتطور وزيادة المعارف، فالأبوان يعطيان الأولاد معارفهم وخبراتهم المتراكمة، فيأخذا لأولاد هذه الخبرة والمعارف ليزيدوا عليها ويطوروها، وهنا تحصل المأساة والمصادمة بين الآباء والأبناء بصراع متصالح هو صراع الأجيال.

فالأب والأم ينتميان إلى جيل، والأولاد ينتمون إلى جيل آخر، والأب والأم يحاولان جاهدين أن يلزما الأولاد بطريقة المعاش والأعراف والتفكير التي كانت سائدة عندما كانوا شبابًا، والأولاد يرفضون هذه الطريقة، ولو أطاع الأولاد الوالدين في هذه المشكلة لوقف تطور الإنسانية عند حد معين، ورجعنا إلى المملكة الحيوانية، حيث إن الأبناء في المملكة الحيوانية يقلدون الآباء تقليدًا طبق الأصل تمامًا».

*** أقول:**

وماذا لو أن الوالدين مؤمنان مسلمان يأمران الأولاد بطاعتهما فيما أمر الله به، هل يجب على الأولاد طاعة الوالدين؟!

لقد تعامل د. شحرور مع هذه المسألة بطريقة عكسية وهي ماذا لو كان الوالدان مشركين، فيقول: «وقد حسم الله سبحانه وتعالى هذا الموقف لصالح التطور والتقدم ولم يعتبره عقوقًا للوالدين بقوله «العنكبوت / ٨»:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

ويقول الله تعالى «لقمان / ١٥»:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

لقد جاء هذا الحسم في الآيتين «العنكبوت / ٨» و«لقمان / ١٥» وفي كلتا الآيتين جاء فعل «جاهداك»، فهنا الجهاد لا يعني الأمر أو الطلب، وإنما هو أكثر من ذلك، فالجهاد عملية مستمرة يومية يبذل فيها جهد، ولكنه مرة قال:

﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾.

والمرة الثانية:

﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾.

ففي الحالة الأولى جاء خبر صراع الأجيال، كأن يقول الوالدان كنا نلبس هكذا

وكنا نفعل هكذا وكانت معلوماتنا عن الطبيعة هكذا، أي المستوى المعرفي القديم ويطلبان من الأبناء التقيد بذلك «شرك ربوبية» لذا قال «فلا تطعهما»، وحسمت لصالح الأبناء».

٭ أقول:

ما علاقة «صراع الأجيال»، بين القديم والحديث، بهذا النهي قطعي الدلالة على تحريم طاعة الوالدين في «الشرك بالله»؟!

ثم يستكمل د. شحرور حديثه ويقول:

«وفي الحال الثانية يجاهد الوالدان الأولاد على ثبات الطاعة المطلقة لهما، أي إشراك أوامرهم بحدود الله بدون أي مجال للاختيار والتصرف «شرك ظاهر» ويضعانها شرطًا للغضب والرضا فهنا أيضًا حسمت لصالح الأبناء بقوله: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ثم أضاف على ذلك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾.

أي على الأولاد أن يتبعوا الأعراف السائدة في محاولة الطاعة الوالدين وأن يحسنوا إليهما، وألَّا يقولوا لهما أف، ولا أن يطردوهما «ولا تنهرهما»، ولكن على الأبناء أن يكونوا أذكياء، عندهم حلم وكياسة في معالجة القضية.

لذا فقد حسم سبحانه وتعالى قضية صراع الأجيال لصلاح الأبناء من ناحية التطور والتقدم في الأعراف وطرق المعاش والعلم، وحسمها لصالح الآباء من الناحية الأخلاقية، وفي هاتين الناحيتين يوجد تمييز عن الحيوان، أي أن الإنسان يجب عليه أن يتطور ويتقدم ولا يكون صورة طبق الأصل لوالديه، وعليه أيضًا أن يحمل قيما أخلاقية تجاه والديه، وهاتان الناحيتان مفقودتان في المملكة الحيوانية».

٭ أقول:

لجهل د. شحرور بمسألة لغوية، قسّم الشرك إلى قسمين: «شرك ربوبية»، و«شرك ظاهر»، وهذه المسألة هي الفرق بين:

ـ «لام التعليل» التي وردت في الآية «العنكبوت / ٨»:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

ـ والتعبير بـ «عَلى أَن» الذي ورد في الآية «لقمان / ١٥»:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

ذلك أن «عَلى أَن» تفيد شرطًا وتعهدًا، كما في قوله تعالى «القصص / ٢٧»:

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ ـ عَلَىٰٓ أَن ـ تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾.

الأمر الذي يبيّن أن الوالدين في هذه الحالة أشد كفرا ومجاهدة؛ لأنهما يشترطان على الابن الكفر.

أما «لام التعليل» التي وردت في «لِتُشْرِكَ بِي» في الآية «العنكبوت / ٨»، فجاءت لبيان أن المجاهدة كانت أقل.

والسؤال:

ما علاقة الفرق اللغوي البلاغي بين «عَلى أَن تُشْرِكَ بِي» و«لِتُشْرِكَ بِي» بكل ما ذكره د. شحرور عن «صراع الأجيال» وعن «شرك الربوبية» و«شرك ظاهر»، و«مملكة حيوانية» و«ومملكة إنسانية»؟!

*** أقول:**

تعالوا نلقي نظرة سريعة على وصية الله للأبناء الإحسان بالوالدين:

أ: استحالة أن يعمل بهذه الوصية إلا من تربى على الفهم الواعي لحقيقة «الوحدانية» ولم يعرف «الشرك» إلى قلبه طريقا.

ب: أن الدعاء بالرحمة للوالدين ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ يبيّن الدور الذي تقوم به البيئة الصالحة في تربية الأولاد.

ج: إن كلمة «وَهُوَ يَعِظُهُۥ» التي وردت في وصية لقمان عليه السلام لابنه «لقمان/ ١٣-١٩»:

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ـ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ـ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

تشير إلى أن الموعظة لا تفارق البيت الذي يتربى فيه الأولاد، وأن الأساس الذي تقوم عليه هذه الموعظة هو الفهم الواعي لحقيقة الوحدانية ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾.

د: أن قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

جاء لربط عالم الغيب بعالم الشهادة، لربط الشكر بمعاييره الإيمانية «أَنِ اشْكُرْ لِي»، بـ «الشكر المادي» بمعاييره الدنيوية «وَلِوَالِدَيْكَ»، في إطار تفعيل الفهم الواعي لحقيقة الوحدانية في حياة الناس، وليس كما ذهب إليه د. شحرور في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

هـ: أن «الإحسان بالوالدين» منظومة إيمانية متكاملة تربط بين الوالدين والأولاد:

* ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

الفصل الثالث

«السياق القرآني»

«السياق القرآني»

لا شك أن قوم النبي كانوا يعلمون معنى كل كلمة من كلمات «كتاب الله» من قبل نزوله، ثم نقلت الأجيال المسلمة هذه المعاني على مر العصور عن طريق «منظومة التواصل المعرفي»، وتدوينها في مراجع اللغة العربية، حتى وصلت إلينا بحفظ الله لها كما عرفها قوم النبي في عصر التنزيل.

ويقوم «علم السياق القرآني» بالدور الأساس في اختيار المعنى المناسب للكلمة من مراجع اللغة العربية الذي يتناغم مع السياق الذي وردت فيه، لذلك كان على من يريد التعامل مع «كتاب الله» أن يكون على دراية بعلوم «اللغة العربية» وبعلم «السياق القرآني».

إن «سياق الكلام»: هو الصورة التي يكون عليها نسق الكلام المترابط المُعبّر عن المعنى المراد إيصاله للناس، والذي قد يحتاج استنباطه إلى النظر في أكثر من سياق للوصول إلى الوجه الصحيح.

و«سياق القرآن»: هو الصورة التي يكون عليها نسق آيات التنزيل الحكيم، التي تحمل خطاب الله تعالى للناس جميعًا، والتي قد يحتاج استنباط معاني كلماتها إلى النظر في أكثر من سياق مرتبط بهذه الكلمات.

فالكلمة تفهم في سياق الآية، والآية تفهم في سياق ما قبلها وما بعدها من آيات، والسورة تفهم في سياق سور القرآن وبنائها المحكم...، وهكذا يكون الفهم الواعي لكيفية التعامل مع «التنزيل الحكيم».

وإن كثيرًا من الكلمات العربية لها أكثر من معنى، والذي يحدد المعنى الصحيح هو السياق الذي وردت فيه الكلمة، فعلى سبيل المثال:

فإن كلمة «أسْوَد» إذا أطلقت بمعزل عن أي سياق فإنها تعني اللون الأسود المعروف للناس جميعًا، فإذا ارتبط هذا اللون بسياق تحذيري، كأن توضع راية «سوداء» على شاطئ البحر، يصبح لهذا السياق تأثير على تغير دلالة الكلمة من مجرد أنها «لون» إلى «تحذير» من نزول البحر.

ولذلك يجب على من يريد التعامل مع «التنزيل الحكيم» أن يكون على دراية بعلوم اللغة العربية التي حفظت «اللسان العربي» الذي نزل به القرآن، وعلى دراية بـ «علم السياق القرآني»، ذلك أن «دلالة اللفظ» في كل موضع بحسب سياقه.

ولما كان «علم السياق» تؤلف فيه المجلدات، سأكتفي بضرب بعض الأمثلة لإلقاء الضوء عليه.

أولًا:

يقول الله تعالى «الأعراف / ١٦٣»:

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾.

فالمعنى الظاهر من سياق هذه الجملة أن «الْقَرْيَةِ» كانت «حَاضِرَةَ الْبَحْرِ» وهذا أمر مستحيل تحققه، إذن فاستخدام كلمة «القرية» هنا استخدام «مجازي»، نفهم حقيقته من الجملة التي بعدها وهي «إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ» والمراد بـ «يَعْدُونَ» هم أهل القرية، ليكون المعنى الحقيقي «وليس المجازي» وهو «وَاسْأَلْهُمْ عَنْ (أهل) الْقَرْيَةِ».

ثانيًا:

إن كلمة البلوغ لفظ مشترك، يطلق في اللغة على المقاربة، وعلى الانتهاء إلى الشيء، وقد ورد هذا اللفظ في آيتين متجاورين، كان للسياق الفضل في اختيار المعنى المناسب لهذه اللفظة في الموضعين.

فعندما نقرأ قول الله تعالى مخاطبًا الأزواج «البقرة / ٢٣١»:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

نفهم أن المقصود بـ «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» مشارفة بلوغ الأجل، أي قرب انتهاء العدة، بقرينة تخيير الزوج بين إطلاق سراح زوجه أو إمساكها، دون حاجة إلى عقد نكاح جديد.

فإذا ذهبنا إلى الآية التالية «البقرة / ٢٣٢» نجدها تخاطب الأولياء:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ـ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ـ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ...﴾.

ونفهم من السياق أن المقصود بـ «فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ» انتهاء العدة، بقرينة أمر الأولياء بعدم منع المرأة أن تنكح مطلقها بعقد جديد إذا رغب الطرفان العودة.

ثالثًا:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٠٦»:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إن هذه الآية لا علاقة لها مطلقًا بعلم «الناسخ والمنسوخ» الذي حمله التراث الديني للفرق والمذاهب العقدية والفقهية المختلفة، ذلك أن كلمة «الآية» في هذا السياق تعني «البرهان» الدال على صدق «نبوة» الرسل.

فإذا تدبرنا سياق الآيات التي قبل وبعد هذه الآية، نجد أن قول الله تعالى «البقرة/ ١٠٥»:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

يتحدث عن ملل الكفر التي كانت تحسد المسلمين على أي خير يأتيهم من ربهم في عصر التنزيل، وفي مقدمة ذلك «الآية القرآنية العقلية» التي حملها كتاب الله الخاتم «القرآن الكريم» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد ﷺ، والقائمة بين الناس إلى يوم الدين.

لقد كانت الآيات الدالة على صدق «نبوة» الرسل السابقين «آيات حسية» تنتهي فعاليتها بوفاة الرسول، فلما جاء الكتاب الخاتم يحمل «آية عقلية» فكان ذلك محل حسد وغضب واستنكار من أهل الكتاب، وخاصة اليهود.

ثم عندما يكون الحديث في ختام آية النسخ «البقرة / ١٠٦» عن مقام العلم والقدرة الإلهية، فيقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم يتبعها قوله تعالى «البقرة / ١٠٧»:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

فإن ذلك يعني أن الحديث عن دلائل «النبوة» القائمة على فعالية أسماء الله الحسنى في هذا الوجود، ولذلك توجه السياق يخاطب ملل الكفر وليس المسلمين وأحكام شريعتهم.

رابعًا:

تكشف سور الأنفال والتوبة والحشر عن خلاف حدث بين صحابة رسول الله حول توزيع الأنفال والفيء، فنزل القرآن يحسم هذا الخلاف، ونبدأ بقول الله تعالى «الأنفال / ٤١»:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولقد كان للمنافقين موقف من توزيع رسول الله لهذه الأموال، فإذا رأوها توزع على غيرهم، طعنوا ولمزوا، فيقول الله تعالى «التوبة / ٥٨»:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

ثم تدبر قول الله تعالى بعدها «التوبة / ٥٩»:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾.

ونتدبر جيدًا سياق الآيات السابقة، وخاصة قول الله تعالى «وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، لأنه مفتاح فهم قوله تعالى «الحشر / ٧»:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

نلاحظ أنها نفس المصارف التي خصص الله لها خُمس الغنائم في آية الأنفال، وأن الله تعالى يأمر صحابة رسول الله بالرضا بما قسمه الله لهم، والتسليم بما أعطاه الرسول، كي لا يتركز المال في أيدي فئة من أغنياء الأمة، دون الالتزام بحق ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي سبيل الله.

ثم تعالوا نتدبر سياق الآيات التالية لنعلم حقيقة معنى قوله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

يقول الله تعالى «الحشر / ٨»:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

ثم قوله تعالى «الحشر / ٩»:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ونتدبر العلاقة بين قوله تعالى في «التوبة / ٥٩»:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ...﴾.

وقوله تعالى «الحشر / ٩»:

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ...﴾.

لنعلم أن فعل «الإيتاء» الوارد في قوله تعالى «الحشر / ٧»:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

يتعلق بالغنائم وبأموال الفيء، التي قام الرسول بتوزيعها على صحابته الذين رضي الله عنهم، ولا علاقة له بـ «المرويات» التي نسبها الرواة إلى رسول الله محمد، عليه السلام.

فإذا نظرنا إلى قول الله تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

بالمنظار العام المتعلق بمهمة «الرسول» الحامل لـ «رسالة ربه»، نفهم أن فعل «آتَاكُمْ» وفعل «نَهَاكُمْ» يخصان كل أمر وكل نهي صدر عن رسول الله لمن عاصروه، هؤلاء الذين كان بإمكانهم الرجوع إليه للتأكد من صحة ما صدر عنه.

خامسًا:

عندما نتدبر الآيات التي جاءت تبين أحكام الصيام، والتي تبدأ بالآية «البقرة / ١٨٣»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وتنتهي عند الآية «البقرة / ١٨٧»:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ...﴾.

نلاحظ أن الآية «البقرة / ١٨٦»:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

دخلت ضمن أحكام الصيام، في الوقت الذي تتحدث عن «حكمة الدعاء»، أي لا علاقة لها بهذه الأحكام، فما الحكمة من وجودها في هذا السياق؟!

إن الحكمة تكمن في أسلوب «الالتفات والتنبيه» الذي يتميز به اللسان العربي

الذي نزل به القرآن، والذي يجعلك تقف كما تقف أمام إشارة المرور الحمراء، لتفكر وتتدبر وتبحث عن سبب بيان حكمة الدعاء في سياق أحكام الصيام، لعلك تصل إلى فهم العلاقة الوثيقة بين الإقرار بالوحدانية، وتفعيل هذا الإقرار سلوكًا عمليًّا بالإحساس بمعية الله وأنت تقيم أحكام القرآن في حياتك.

ولذلك نلاحظ عند تدبر سياق الآيات «البقرة / ١٨٣-١٨٧» أن هناك إشارات بيانية يتناغم بعضها مع بعض، مثل الربط بين فعل الأمر وأسلوب التمني في قوله تعالى «البقرة / ١٨٥»:

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وفعل الأمر وأسلوب التمني في قوله تعالى بعدها «البقرة / ١٨٦»:

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

ليصل متدبر القرآن إلى أن العبادة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى﴾ منظومة من الأوامر والتوجيهات الإلهية التي يقوم المؤمن بتنفيذها ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ على أساس أن «الله أكبر» من كل شيء في هذا الوجود ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

سادسًا:

نعلم أن الكلمة «اسم وفعل وحرف»، فإذا أخذنا حرفًا واحدًا من حروف الهجاء وهو على سبيل المثال حرف «على»، والذي يعني بالمفهوم العام «وضع شيء فوق شيء»، نجد أن هذا المعنى العام يختلف تمامًا حسب السياق الذي ورد فيه، ومثال ذلك: قول الله تعالى «مريم / ١١»: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾.

قول الله تعالى «التوبة / ١٥»: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

قول الله تعالى «يوسف / ٦٩»: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

قول الله تعالى «الإنسان / ١٩»: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

قول الله تعالى «القصص / ١٥»: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

قول الله تعالى «البقرة / ١٨٥»: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

قول الله تعالى «البقرة / ١٧٧»: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى﴾.

قول الله تعالى «آل عمران / ١٢٢»: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قول الله تعالى «الكهف / ٦٦»: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

قول الله تعالى «المائدة / ١٠٥»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

السياق القرآني
ونقض منهجية القراءة المعاصرة

أولًا:

مفهوم د. شحرور لمعنى «الكتاب».

يقول د. شحرور «ص ٣٥»:

«من هذا المنطلق نصل إلى نقطة مهمة في البحث وهي: هل الكتاب الذي أوحي إلى محمد، عليه السلام، والذي يحتوي على رسالته ونبوته، هو من التراث أم لا يدخل في التراث؟!».

إن قول د. شحرور إن «كتاب الله» هو الذي يحتوي على:

«رسالة رسول الله محمد + نبوة رسول الله محمد».

يحمل تناقضًا لا يُتوقع أن يصدر عمن يتصدى لقراءة كتاب الله قراءة معاصرة، فكيف تنفصل «الرسالة» عن «النبوة»، فتكون:

«الرسالة + النبوة» وليس «الرسالة = النبوة»؟!

إنه لولا «النبوة» لما كانت «الرسالة»، وعليه لا يصح أن يُقسم د. شحرور كتاب الله إلى كتابين كما ذكر ذلك «ص ٥٥»:

١ ـ «كتاب النبوة»:

«النبوة» من «نبأ»: ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي، ومجموعة المواضيع التي تحتوي على المعلومات الكونية والتاريخية، ويفرق بين الحق والباطل، أي الحقيقة والوهم».

٢ ـ «كتاب الرسالة»:

«ويشتمل على قواعد السلوك الإنساني الواعي، وهي مجموعة التعليمات التي يجب على الإنسان التقيد بها «عبادات، معاملات، أخلاق» والتي تفرق بين الحلال والحرام، وهي مناط التكليف».

*** أقول:**

إن «النبوة» من «نبَّأ» يُنبِّئ تَنْبيئًا وتنْبِئةً، وعندما تتعلق بالتنزيل الحكيم فتعني «وحي الله إلى النبي محمد»، وقد أقر د. شحرور بذلك عندما قال «ص ٥٤»:

«هذا الكتاب هو مجموعة المواضيع التي أوحيت إلى محمد ﷺ من الله في النص والمحتوى، والتي تؤلف في مجموعها كل آيات المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس».

والنتيجة: أن «كتاب الله» = «رسالة رسول الله» = «نبوة رسول الله».

ثانيًا:

يقول د. شحرور «ص ٥١»:

«وهكذا فعندما نقول إن الصلاة كتاب فهذا يعني أن الصلاة هي من المواضيع التعبدية التي وجب على المسلم القيام بها ... وبما أنه أوحي إلى محمد ﷺ عدة مواضيع مختلفة، كل موضوع منها كتاب، قال «البينة / ٢-٣»:

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

فمن هذه الكتب القيمة: «كتاب الخلق، كتاب الساعة، كتاب الصلاة، كتاب الصوم، كتاب الحج، كتاب المعاملات ... كل هذه المواضيع هي كتب».

*** أقول:**

إن قول د. شحرور إن الله تعالى:

«أوحي إلى محمد ﷺ عدة مواضيع مختلفة، كل موضوع منها كتاب».

لا يُخرج هذه المواضيع «الكتب» التي ابتدعها د. شحرور عن أنها وحي «تنبيئ»

من الله إلى رسوله، وهذا ما أكدته سورة النجم دفاعًا عن «كتاب الله» وعن رسول الله، فقال تعالى «النجم / ٣-٤»:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾.

إن أزمة قراءة د. شحرور الفكرية والعقدية، أنه يتعامل مع «كتاب الله» باعتباره كتابًا فقهيًا يحمل كتبًا لكل «كتاب» موضوعه المستقل، وهذا ما أكده بقوله بعد ذلك:

«هذا الكتاب يحتوي على مواضيع رئيسية هي:

١ ـ كتاب الغيب: لقول الله تعالى «البقرة / ٣»: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

٢ ـ كتاب العبادات والسلوك: لقول الله تعالى بعدها: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

أي أن هناك نوعين من الكتب:

النوع الأول:

هو الذي يتعلق بسلوك الإنسان، ككتاب الصلاة الذي يتألف من الوضوء والقيام والركوع والسجود:

وهذه الكتب غير مفروضة على الإنسان حتمًا، بل له القدرة على اختيار الالتزام بها أو عدم التقيد بها.

ويعني ذلك أن الإنسان هو الذي يقضي «يختار» موقفه منها، وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح «القضاء».

النوع الثاني:

هو قوانين الكون وحياة الإنسان، ككتاب الموت وكتاب خلق الكون والتطور والساعة والبعث:

وهذه الكتب مفروضة على الإنسان حتمًا، وليست له القدرة على عدم الخضوع لها، وأطلق على هذا النوع في المصحف مصطلح «القدر»، ويتوجب على الإنسان أن يكتشف هذه القوانين ويتعلمها ليستفيد من معرفته لها.

❋ أقول:

أ: إن «كتاب الله» لا يحمل فهرسًا بتبويب مواضيعه، كما فعل أئمة السلف عند تدوين أمهات الكتب، ولذلك لا نجد في «كتاب الله» فهرسًا يحمل هذه «الكتب» التي ذكرها د. شحرور سابقًا، إذن من أين جاء د. شحرور بأن آيات التنزيل الحكيم مقسمة إلى مواضيع، ولكل موضوع «كتاب»؟!

فإذا نظرنا إلى مواضيع هذه الكتب، فلن نجدها في مكان واحد، وإنما موزعة على «كتاب الله» كله:

ـ فنجد الآيات المتعلقة بما يُسميه بـ «كتاب التطور» موجودة في: قول الله تعالى «نوح / ١٣-١٤»:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

ثم جاء بيان أطوار «آية خلق الإنسان» في أكثر من مكان آخر، ومن ذلك قوله تعالى «غافر / ٦٧»:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقوله تعالى «الحج / ٥»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

ونفهم من ذلك أن قوله تعالى «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا» يعني أن الله خلق آدم، عليه السلام، بكلمة كن «مريم / ٣٥»: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ثم خلق بني آدم في بطون أمهاتهم «أَطْوَارًا».

ـ ونجد الآيات المتعلقة بالساعة والبعث في قول الله تعالى «الأنعام / ٣١»:

﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ...﴾.

وقوله تعالى «الزخرف / ٨٥»:

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

فلا يعلم «عِلْمُ السَّاعَةِ» إلا الله تعالى «النمل / ٦٥»:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾.

ولا رسول الله نفسه يعلم وقت الساعة «النازعات / ٤٢-٤٤»:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾.

ب: يقول د. شحرور عن النوع الأول من الكتب والمتعلق بحجية «أحكام القرآن»:

«وهذه الكتب غير مفروضة على الإنسان حتمًا، بل له القدرة على اختيار الالتزام بها أو عدم التقيد بها».

والسؤال:

ـ عندما يقول الله تعالى «النساء / ١٠٣»:

﴿.. فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾.

فماذا يعني فعل «فَأَقِيمُواْ»، وأن الصلاة «كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا»، وقول الله تعالى «البينة / ٥»:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾؟!

ألم يفرض الله تعالى على المؤمنين في هذه الآيات إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؟! إذن فكيف يقول د. شحرور:

«وهذه الكتب غير مفروضة على الإنسان حتمًا»؟!

ـ هل يخاطب الله تعالى بـ «أحكام القرآن» الناس جميعًا أم الذين آمنوا منهم؟!

إن الله تعالى لا يخاطب «الإنسان» بأحكام القرآن، وإنما يخاطب الذين دخلوا في «دين الإسلام»، وأصبحت أحكامه مفروضة عليهم، ويُعاقبون إذا لم يلتزموا بها، فهم ليسوا أحرارًا كما يدعي د. شحرور في الالتزام بأحكام القرآن، وإنما كانوا أحرارًا في دخول «دين الإسلام» أو عدم دخوله.

وقول د. شحرور إن المصحف أطلق على هذا النوع الأول من الكتب مصطلح «القضاء» وَهْمٌ من أوهام «المنهجية العشوائية».

ج: عندما يتحدث د. شحرور عن النوع الثاني ويقول إنه «قوانين الكون وحياة الإنسان» فهو ينطلق من قاعدة «الفلسفة المادية للوجود» التي انطلق منها فلاسفة الإلحاد ومنهم «داروين» صاحب نظرية النشوء والارتقاء، ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول إن هذه المسألة:

«مفروضة على الإنسان حتمًا، وليست له القدرة على عدم الخضوع لها».

ولكن الغريب أن يطلب من الإنسان:

«أن يكتشف هذه القوانين ويتعلمها ليستفيد من معرفته لها».

فكيف يستطيع الإنسان أن يكتشف قوانين «غيبية» ليس له «القدرة على عدم الخضوع لها»، إلا إذا كان يرى «كما يرى د. شحرور» أنها ليست غيبية بمفهوم «الغيب» في التنزيل الحكيم، وإنما «مادية» صنعت نفسها بنفسها.

والنتيجة:

أن د. شحرور يُقر بنفسه أن: «كتاب الله» = «رسالة رسول الله» = «نبوة رسول الله» = «وحي الله».

ثالثًا:

يقول د. شحرور «ص ٥٣»:

«وعندما قال تعالى «هود / ١»: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، فهذا لا يعني كل آيات المصحف، وإنما يعني مجموعة «الآيات المحكمات».

وعندما قال «الزمر / ٢٣»: «كِتَابًا مُّتَشَابِهًا»، فإنه لا يعني كل المصحف، وإنما يعني مجموعة «آيات متشابهات».

وعليه، فمن الخطأ الفاحش أن نظن عندما ترد كلمة كتاب في المصحف أنها تعني كل المصحف؛ لأن الآيات الموجودة بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس تحتوي على عدة كتب «مواضيع»، وكل كتاب من هذه الكتب يحتوي على عدة كتب».

ويقول د. شحرور «ص ٥٤»:

«أما عندما تأتي كلمة كتاب معرفة بأل التعريف «الكتاب» فأصبح معرفًا عندما قال «البقرة / ٢»:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

قالها معرفة ولم يقل: كتاب لا ريب فيه، لأنه لو قالها لوجب تعريف هذا الكتاب».

❊ **أقول:**

إن د. شحرور هو الذي صنع «كتب» قراءته المعاصرة بيديه، وجمع مادتها حسب هواه، وحاول أن يقلد أصحاب «التفسير الموضوعي» في تجميع الآيات المتعلقة بكل موضوع، وفشل بسبب «منهجيته العشوائية» المتهافتة.

١ ـ فماذا عن كلمة «كِتَاب» التي لم تأت معرفة في قوله تعالى «فصلت / ١»:

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

هل تعني «جزءًا» من التنزيل الحكيم قد «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» بعد أن «أحكمت»؟!

٢ ـ وهل عندما يقول الله تعالى «المائدة / ١٥»:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾.

فهل المقصود بـ «كِتَابٌ مُّبِينٌ» جزء من «التنزيل الحكيم» وليس كله، لأن كلمة «كِتَاب» لم تأت مُعرفة؟!

٣ ـ وعندما يقول الله تعالى «الأنبياء / ١٠»:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

فهل كان الله تعالى يخاطبهم بجزء من «التنزيل الحكيم» وليس كله؟!

د: ثم ما الفرق، في سياق وصف الله لـ «التنزيل الحكيم»، بين «كِتَابٌ مُّبِينٌ»، وبين «كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ»، وبين قوله تعالى «البقرة / ٢»:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾؟!

رابعًا:

عندما فرق د. شحرور بين الرسالة والنبوة، «ص ٣٥، ٥١» لم يأت بالدليل على هذا التفريق إلا «ص ٥٥»، وهو قول الله تعالى «آل عمران الآية ٧»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وهذه الآية هي القاعدة التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، فتعالوا نبيّن كيف سقطت هذه القراءة المعاصرة من قواعدها:

لقد جاءت هذه الآية «آل عمران / ٧» لبيان ما أجملته الآيتان:

١ ـ قول الله في وصف آيات الكتاب، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، بـ«الإحكام» فقال تعالى «هود/ ١»:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

٢ ـ قول الله في وصف آيات الكتاب، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، بـ«التشابه» فقال تعالى «الزمر / ٢٣»:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...﴾.

ويستحيل أن تتناقض آيات «الكتاب» فيفهم د. شحرور من الآية «آل عمران / ٧» أن الله قسّم آياته إلى جزء محكم وجزء متشابه، بدعوى أن كلمة «أُخَر» التي وردت في جملة «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» قد أفادت ذلك.

والحقيقة أن آية «آل عمران / ٧» لا تتناقض مطلقًا مع الآيتين «هود / ١»، و«الزمر/ ١»، لأنها جاءت تتحدث عن موضوع يتعلق بطبيعة الآيات وهو ما أفاده لفظ «أُمُّ الْكِتَابِ» الذي جاء يفصل بين الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، وإلا لقال الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾.

دون أن يصف «الآيات المحكمات» بـ «هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ».

٣ ـ لقد ورد لفظ «أُمُّ الْكِتَابِ» في التنزيل الحكيم بمعنيين، والذي يحدد المعنى هو السياق الذي ورد فيه اللفظ:

أ: المعنى الأول:

وهو شيء مقدس، عالي المنزلة عند الله تعالى.

وهذا ما أفاده قول الله تعالى «الرعد / ٣٨-٣٩»:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

فـ «أُمُّ الْكِتَابِ» يحوي كل الرسالات والآيات البينات التي جاء بها الرسل، ومنها ما محاه الله تعالى، ومنها ما أثبته في رسالات تالية.

وقول الله تعالى «الزخرف / ١-٤»:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

ومن الرسالات الموجودة في «أُمِّ الْكِتَابِ»: «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» الذي جعله الله «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» ليخاطب به قوم النبي الخاتم محمد، عليه السلام، أهل اللسان العربي، لعلهم يعقلون.

ب: المعنى الثاني:

وهو وصف «الكتاب»، أي آيات التنزيل الحكيم، بـ «الإحكام» الأمر الذي يقتضي أن تكون هي الأم «هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ» التي يُرجع إليها، في حالة وجود التباس في فهم آياته المتشابهات «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»، وهذا ما أفاده قول الله تعالى «آل عمران / ٧»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ـ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ـ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾.

مع بيان أن هذه «الآيات المتشابهات» لا يتبعها إلا الذين في قلوبهم زيغ:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

ج: لقد خلط د. شحرور بين المعنيين فَضَلّ وأَضَلّ عندما قال «ص ١١٢»:

«أم الكتاب هي رسالة محمد ﷺ، وهي كتاب الله، وقد جاء القرآن تصديقًا لها».

ود. شحرور يعني برسالة محمد، التي هي «أُمُّ الْكِتَابِ»، يعني «الآيات المحكمات» التي هي «أحكام القرآن»، والتي هي من وجهة نظره ليست حقًّا، لأن الحق في «القرآن» فقط، أي في «الآيات المتشابهات» لأنها «آيات النبوة»، وهذا ما قاله «ص ٥٧» عند حديثه عن قول الله تعالى «الرعد / ١»:

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول د. شحرور:

«ونلاحظ أنه في سورة الرعد عطف الحق على الكتاب، فهذا يعني أن الحق شيء، والكتاب شيء آخر، أو أن الحق هو جزء من الكتاب وليس كل الكتاب».

ثم قال تعقيبًا على قول الله تعالى «فاطر / ٣١»:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

«هنا أعطى الجواب القاطع بأن الحق جزء من الكتاب وليس كل الكتاب، وأن الحق جاء معرفًا، أي أن الحقيقة الموضوعية بأكملها غير منقوصة، الحقيقة المطلقة، موجودة في الكتاب، ولكن ليست كل الكتاب، حيث إنه في الكتاب توجد:

- الآيات المحكمات «آيات الرسالة»، وهي ليست حقًّا.
- الآيات المتشابهات «آيات النبوة» وآيات تفصيل الكتاب، وهي الحق.

❋ أقول:

هل يمكن أن يقول مسلم عاقل ما قاله د. شحرور «ص ١١٢» من أن «أم الكتاب هي رسالة محمد»، ثم إذا به يقول «ص ٥٧» إن «آيات الرسالة» ليست حقًّا، أي أن «أم الكتاب» ليست حقًّا؟!

خامسًا:

يقول د. شحرور «ص ١١٣»:

«أريد أن أبين نقطة وهي أن الآيات من أم الكتاب، والتي تبدأ بقوله تعالى« يا أيها النبي»، ليست أحكامًا شرعية، بل هي تعليمات أو حالات خاصة للنبي ﷺ، أو هي تعليمات عامة وليست تشريعات، أي أنها، ولله المثل الأعلى، تعليمات إجرائية وليست مراسيم تشريعية.

لقد جاءت لفظة الآيات البينات للقرآن، وقد شرحنا مفهوم البينات بأنها بينة في ذاتها، أما الآيات المبينات فهي مبينة لغيرها وهي من أم الكتاب.

وجاءت الآيات المبينات في أمور تتعلق بأحكام ظرفية في أم الكتاب مثل الزنا، وقد وردت لفظ «مبينة» مفردًا مع الفاحشة فقط في قوله «النساء / ١٩»:

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

ويقول الله تعالى «الأحزاب / ٣٠»:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وقوله تعالى «الطلاق / ١»:

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

هنا نلاحظ أن الفاحشة بحاجة إلى ظروف وملابسات تبينها.

وبما أن الزنا مرتبط بأمور ظرفية، فقد بين هذه الأمور الظرفية والشروط اللازمة لإقامة الحد في «النور / ٤ ـ ٩» إذ بين رمي المحصنات والشهادة والملاعنة ثم أتبع ذلك بقوله «النور / ٣٤»:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

وعندما ذكر الفاحشة المبينة في «الطلاق / ١» ذكر بعدها آيات «٢، ٤، ٦، ٧» تتعلق بالعدة والعلاقات الأسرية، وهذه الآيات تتعلق بـ «الرسالة»، ولذا ذكر في «الطلاق / ١١»:

﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾.

*** أقول:**

١ ـ يقول د. شحرور إن الآيات التي تبدأ بقوله تعالى «يا أيها النبي» أنزلها الله من «أم الكتاب» وهو يؤمن أن «الآيات المحكمات» ليست حقًّا، وأن الحق في «الآيات المتشابهات» التي هي «القرآن» و«النبوة»، وأن هذه الآيات يُنزلها الله من «اللوح المحفوظ» لقوله تعالى «البروج / ٢١ ـ ٢٢»:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

وهذا معناه أن «وحيًا شيطانيًا» أقنع د. شحرور أنه اطلع على الغيب، وجاء بهذه المعلومات، فصدقه وجعلها من الأصول الفكرية التي أقام عليها قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

٢ ـ لقد بالغ د. شحرور في بيان مسائل غيبية مبالغة تُشعر القارئ أن الله قد أطلعه على الغيب، والحقيقة أنه من الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى «مريم / ٧٨ ـ ٧٩»:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾.

لقد بذل د. شحرور جهدًا إلحاديًا كبيرًا ملأ به مئات الصفحات، ويعيد تكرار هذا الإلحاد في آيات الله بصيغ مختلفة على صفحات كتابه «الكتاب والقرآن»، وهو يؤمن، والقارئ الذي اطلع على كتابه يعلم، أن «الآيات المحكمات» التي يدعي أنها «رسالة رسول الله محمد» هي عنده ليست حقًّا.

٣ ـ ومن هذا التكرار ما ذكره د. شحرور «ص ١١٥» فقال:

أما قوله تعالى «هود/ ١»:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

فهذه الآية تتحدث عن الفصل المكاني للكتاب المحكم والذي يمثل مجموع الآيات المحكمات، أم الكتاب، لذا وضع الكتاب في صيغة النكرة في قوله «كتاب»، ثم عرفه بإضافة أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، وهو هنا الكتاب المحكم، وليس المصحف».

ثم قال: «وأحكام الكتاب المحكم موزّعة في كل المصحف، فنرى أحكامًا في سورة البقرة، ثم نرى أحكامًا أخرى في سورة النساء والمائدة... نرى حكمًا ما، يتلوه آية كونية، ثم قصص، ثم حكم آخر وهكذا.

والدليل على أن الله تعالى هو الذي فَصَلَ الآيات المحكمات ـ أم الكتاب، ووزعها على المصحف كله، هو قوله:

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

والدليل على أن الآيات المتشابهات ـ القرآن ـ النبوة، هي التي تم توزيعها بين الآيات المحكمات ـ أم الكتاب، هو قوله في سورة «فصلت / ٣»:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وربط بين الآيتين:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقال: إن صيغة قرآنًا عربيًا حال لفعل فصلت، وليست وصفًا لكلمة كتاب، أي أن الآيات المحكمات ـ أم الكتاب، فُصِلَ بعضها عن بعض، ووضع بينها الآيات المتشابهات ـ القرآن ـ النبوة، وفاعل الفصل هو الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

*** أقول:**

لقد أقام د. شحرور بدعة تقسيم آيات التنزيل الحكيم إلى آيات متشابهات ـ القرآن ـ النبوة، وآيات محكمات ـ أم الكتاب، على مسألة لغوية لا يقول بها من اتخذ اللغة العربية أساسًا في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، وهي قوله: «إن صيغة قُرْآنًا عَرَبِيًّا حال لفعل فُصِّلَتْ، وليست وصفًا لكلمة كِتَاب».

فتعالوا نرى هل لكلمة «فُصِّلَتْ» أي علاقة بما قاله؟!

ـ يجوز أن يكون «قرآنًا عربيًّا» منصوبًا على الحال، أي فصلت آيات «الكتاب» حال كونه «قرآنًا عربيًّا»، أي «الكتاب المفصل» هو «القرآن العربي».

ـ ويجوز أن يكون «قرآنًا» حال، و«عربيًّا» حال، أي أن تفصيل الآيات حال كون «الكتاب» قرآنًا، وفي نفس الوقت «عربيًا» في ألفاظه:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ـ قُرْءَانًا ـ عَرَبِيًّا ـ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

فغير صحيح ما ادعاه د. شحرور من أن صيغة «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» حال لفعل «فُصِّلَتْ» وليست وصفًا لكلمة «كِتَاب».

٤ ـ ثم يقول د. شحرور «ص ١١٧»:

«إن النتيجة الأساسية التي نستنتجها من تفصيل الكتاب أن هناك:

ـ سورًا في الكتاب كلها قرآن.

ـ سورًا في الكتاب فيها قرآن وأم الكتاب معًا.

ـ سورًا فيها أم الكتاب فقط.

فإذا كانت هناك سورة كلها من أم الكتاب، أي أن كل آياتها محكمات فتصبح السورة محكمة، وفعلًا هناك سورة واحدة فقط في الكتاب محكمة ليس فيها قرآن، وهي سورة التوبة».

سادسًا:

ومن أين عرف د. شحرور أن التنزيل الحكيم ليس فيه إلا سورة واحدة محكمة؟!

يقول د. شحرور «ص ١١٧»:

وقد نبهنا الله لهذا في سورة «محمد / ٢٠»:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ـ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ـ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

فقال إن هذه السورة سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ، قال مُّحْكَمَةٌ للتعريف، أي ليميزها عن بقية السور، ولو كانت كل السور في الكتاب محكمة لما قال سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ».

*** أقول:**

وبالبحث في التنزيل الحكيم عن هذه السورة المحكمة وجد د. شحرور أنها

سورة «التوبة»، ولماذا اختار هذه السورة بالذات، لأنها لم تبدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، ولماذا لم تبدأ سورة التوبة كغيرها بـ «البسملة»؟!

يقول د. شحرور «ص ١١٨»:

١ ـ إن «القرآن» كله «رحماني»، بدليل قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

٢ ـ إن كلمة «عَلَّمَ» في جملة «عَلَّمَ الْقُرْآنَ» لا تعني العملية التعليمية، وإنما تعني وضع «علامة» لتمييز الشيء.

٣ ـ ولقد وضع الله علامة «الرَّحْمَانِية» على «القرآن»، أي على «الآيات المتشابهات ـ القرآن ـ النبوة» لتميزها عن «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب».

٤ ـ ولما كانت آيات سورة «التوبة» كلها من «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب»، حُذفت منها البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» لأنها تحمل «الرَّحْمَانِية» التي تميزت بها «الآيات المتشابهات ـ القرآن ـ النبوة» وحدها.

*** أقول:**

إن الكلمة «اسم» و«مسمى»، وكلمة «الرَّحْمَنُ» اسم دال على مسمى وهو «الذات الإلهية»، ولهذه «الذات الإلهية» فعالية في سياق الآيات: فـ «الرَّحْمَنُ»، الاسم والذات، هو الله سبحانه وتعالى الذي:

ـ «عَلَّمَ الْقُرْآنَ»: من فعالية «الرَّحْمَنُ».

ـ «خَلَقَ الإِنْسَان»: من فعالية «الرَّحْمَنُ».

ـ «عَلَّمَهُ الْبَيَانَ»: من فعالية «الرَّحْمَنُ».

فإذا كان فعل «عَلَّمَ» علامة «الرَّحْمَانِية» على «القرآن»، كما يدعي د. شحرور، فهل من «الرَّحْمَانِية» تمييز الآيات المتشابهات «القرآن ـ النبوة» التي حملت إعجازًا، عن الآيات المحكمات «أم الكتاب» التي لم تحمل إعجازًا؟!

٥ ـ ثم كيف يأتي سورة التوبة الباطل، كما يدعي د. شحرور، وهي التي حملت أكثر أحكام القتال والمعاهدات؟!

يقول د. شحرور «ص ١١٦»:

«إن الآيات المحكمات قابلة للتزوير وليس فيها أي إعجاز».

وطبعا يقصد د. شحرور بالآيات المحكمات «أم الكتاب»، وقد أكد ذلك «ص ١٥٨» فقال:

«إن أم الكتاب هي مجموعة الآيات المحكمات، والتي تتألف من آيات الحدود، بما فيها العبادات والأخلاق والمواعظ والتعليمات المختلفة، والتي في مجموعها تمثل الرسالة».

سابعًا:

إن من آيات التنزيل الحكيم ما هو متشابه، «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»، فما معنى كلمة «أُخَرُ» وما معنى «مُتَشَابِهَاتٌ»؟!

١ ـ معنى «أُخَرُ»:

يقول د. شحرور «ص ٣٥» إنه فرز آيات التنزيل الحكيم، وجعل «الآيات المحكمات» على حدة، فتبقى «الآيات المتشابهات»، ولكن كلمة «أُخَر» التي في قوله تعالى: «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» لفتت نظره إلى وجود نوع ثالث من الآيات «لا محكم ولا متشابه»، بدعوى أن الله لم يقل «والأخر متشابهات»، ثم قال:

«وقد أعطى لهذه الآيات، يقصد النوع الثالث، مصطلحًا خاصًّا بها في سورة يونس، وهو تفصيل الكتاب، فقال تعالى «يونس / ٣٧»:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

❊ أقول:

لقد جاء د. شحرور بهذا الكتاب الثالث بدعوى أن الله تعالى قال «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» ولم يقل «والأخر متشابهات»، وهذه المسألة بيانها كالتالي:

إذا كان لفظ «أُخَرُ» هو القرينة الدالة على وجود نوع ثالث داخل «الآيات

المتشابهات»، فما هي القرينة الدالة على أن داخل هذه «الآيات المتشابهات» أكثر من نوع وليس نوعًا ثالثًا فقط؟!

إن الأصل في كلمة «أُخَر» أن تكون صلة بـ «الألف واللام»، أي «الأُخَر»، وكلمة «أُخَرٌ» جمع «أُخْرَى»، والوصف بالتشابه «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» لا يصح في مفرد «أُخَر»، أي أن نقول «وأُخْرَى متشابهة»، فعدل عن استخدام المفرد «أُخْرَى» وجاء بـ «أُخَر» لمراعاة صيغة الجمع في الموصوف.

إن مسألة تعريف الكلمة «الأخر» أو تنكيرها «أخر» لا علاقة لها بما أراد د. شحرور بيانه، فكلمة «أُخَرٌ» جمع «أُخْرَى» مؤنث فعل التفضيل «آخر» بمعنى «غير»، ومنه قوله تعالى «البقرة/ ١٨٤»: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

فوصف «الأيام» بـ «أُخَرَ» لا يُخرجها عن كونها من نفس نسيج «الأيام» التي يعرفها الناس طوال العام، وكذلك فإن مجيء «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» معطوفة على «الآيَاتُ المُّحْكَمَات» لا يخرجها عن كونها من نفس نسيج التنزيل الحكيم الذي تتداخل خيوطه وتترابط بصورة محكمة.

٢ ـ معنى «مُتَشَابِهَاتٌ»:

إذا ذهبنا إلى «مقاييس اللغة»، وهو المرجع اللغوي الأساس عند د. شحرور، نجد أن «ابن فارس» يقول عن معنى كلمة «شَبَه» ومشتقاتها:

شَبَه: «الشين والباء والهاء» أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تشابُه الشّيء وتشاكُلِهِ لونًا وَوَصْفًا، يقال شِبْه وشَبَه وشَبيه... واشتبه الأمرانِ، إذا أَشْكَلاَ».

ويقول «الراغب الأصفهاني» في «مفردات ألفاظ القرآن»: «أما المتشابه فهو من: شَبَه، ومعناه: المماثلة، والمماثلة بين أمرين تعني: ألا يتميز أحدهما على الآخر لما بينهما من التشابه».

إذن فالمقصود بقوله تعالى «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»: أن من بين «الآيات المحكمات»، التي لا شبهة فيها ولا إشكال في فهم معاني كلماتها، توجد آيات تتشابه في صياغتها بحيث يقف الإنسان حائرًا أمام تأويلها، لذلك حذر الله من الخوض في مثل هذه

الآيات التي لا يتبعها إلا «الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ»، مبينًا أن الراسخين في العلم «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا».

٣ ـ من منطلق إيمان د. شحرور بأن «الآيات المحكمات» ليست حقًّا، و«الآيات المتشابهات» هي الحق، تعالوا نضرب بعض الأمثلة التي تثبت أن «التنزيل الحكيم» من أوله إلى آخره «حق مطلق»:

أ: يقول الله تعالى «البقرة / ٢»:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

ب: يقول الله تعالى «البقرة / ١٧٦»:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾.

ج: يقول الله تعالى «النساء / ١٠٥»:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾.

د: يقول الله تعالى «المائدة / ٤٨»:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ... ﴾.

هـ: يقول الله تعالى «الأنعام / ١١٤»:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

و: يقول الله تعالى «الأعراف / ٢ ـ ٣»:

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

ز: يقول الله تعالى «هود / ١ ـ ٢»:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾.

ح: يقول الله تعالى «إبراهيم/ ١»:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

ط: يقول الله تعالى «العنكبوت/ ٥١»:

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

والسؤال:

ما الفرق بين ما يسميه د. شحرور «التحدي» المتعلق بـ«الكتاب» في الآية السابقة «العنكبوت / ٥١»، و«التحدي» المتعلق بـ«القرآن» في آية «الإسراء / ٨٨»:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾؟!

إذن فـ «التحدي»، حسب تعبير د. شحرور، كان بـ«التنزيل الحكيم» كله: بـ «الكتاب» الذي هو «القرآن».

وتعالوا نعطي بعض الأمثلة لبيان استحالة تقسيم «كتاب الله» إلى كتب «مواضيع» منفصلة عن نسيج آيات التنزيل الحكيم المختلطة المتلاحمة:

ـ قول الله تعالى «البقرة / ٢٥٣ ـ ٢٥٥»:

فوسط آيتين متشابهتين «٢٥٣، ٢٥٥» تتحدثان عن فعالية أسماء الله الحسنى، جاءت الآية المحكمة «٢٥٤» تتحدث عن فريضة الإنفاق:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ـ قول الله تعالى «المائدة / ٣٦ ـ ٤٠»:

فوسط هذه الآيات المتشابهات «٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠» جاءت الآية المحكمة «٣٨» تبيّن عقوبة السارق والسارقة:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ـ قول الله تعالى «هود / ١١٠ ـ ١١٨»:

ووسط هذه الآيات المتشابهات «١١٠ ـ ١١٨» جاءت الآية المحكمة «١١٤» تتحدث عن فريضة الصلاة.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

وكثير من الآيات التي تسقط بدعة التقسيم الذي ذهب إليه د. شحرور في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

ثامنًا:

لقد ترك د. شحرور مراجع اللغة العربية، بما فيها «مقاييس اللغة» المرجع اللغوي الأساس عنده، وراح يأخذ معنى «التشابه» من «الفلسفة المادية للوجود»، فنجده يقول «ص ٣٦»:

«بما أن نمط التفكير الإنساني لا يمكن أن يتم بدون لغة، فيجب أن يصاغ الكتاب بلغة إنسانية أولًا، وثانيًا أن تكون هذه الصياغة لها طابع خاص وهو أنها تحتوي المطلق الإلهي في المحتوى والنسبية الإنسانية في فهم هذا المحتوى، وهذا ما نعبر عنه بـ: «ثبات الصيغة اللغوية، أي النص، وحركة المحتوى».

ففي هذه الحالة يمكن أن نقول: إن هذا من الله سبحانه وتعالى، لأن الإنسان عاجز عن تحقيق هذه الشروط... ولقد أجرينا مسحًا شاملًا للكتاب الموحى، فتبين لنا أنه يحوي على الخاصية المذكورة أعلاه، والتي لا يستطيع إنسان أن يقوم بها، ووجدنا هذه الخاصية في الآيات المتشابهات».

ثم يقول «ص ٣٧»:

«ونحن نرى أن التحدّي للناس جميعًا بالإعجاز إنما وقع في:

١ ـ الآيات المتشابهات: أي القرآن والسبع المثاني.

٢ ـ وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات: تفصيل الكتاب.

حيث إن هذين البندين يشكلان نبوة محمد، عليه السلام».

ثم قال: «لقد تبين لنا أن هناك فرقًا جوهريًا بين الكتاب والقرآن والفرقان والذكر: فـ «القرآن والسبع المثاني»: «هما الآيات المتشابهات ويخضعان للتأويل على مر العصور والدهور».

ثم تعالوا نتدبر ماذا قال د. شحرور بعدها اتباعا لـ «الفلسفة المادية للوجود»:

«فإذا سأل سائل: هل آية الإرث من القرآن، فالجواب: لا، هي ليست من القرآن، أي ليست من النبوة، ولكنها من أم الكتاب، أي من الرسالة، وهي من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود».

ثم يسأل بعدها: فهل هذا يعني أنها ليست من عند الله؟!

يقول: «لقد جاء الجواب عن المحكم «أم الكتاب»، وعن المتشابه «القرآن والسبع المثاني»، وعن اللامحكم واللامتشابه «تفصيل الكتاب» في قوله «آل عمران / ٧»: كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا».

ثم يسأل: «فما الفرق بينها إذن، ما دام كل من عند الله؟!

ويجيب: «الفرق هو أن القرآن فرق بين الحق والباطل، أي أعطى قوانين الوجود، لذا قال عنه «البقرة / ١٨٥»: «هُدًى لِّلنَّاسِ»، أما «أم الكتاب» فعبارة عن تشريع، والتشريع «يمكن تحويره»، لذا قال عن الكتاب «البقرة / ٢»: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»، فحتى نصدق أن «أم الكتاب» من عند الله، جاء القرآن مصدقًا لها، لذا عندما وضع محتويات الكتاب قال «يونس / ٣٧»:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ثم نتدبر ماذا قال بعدها:

«أي أن محتويات الكتاب هي القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب، والذي بين يديه، أي أم الكتاب، فهذه الآية لا محكمة ولا متشابهة، لأنها شرحت محتوى الكتاب، لذا فهي ضمن آيات تفصيل الكتاب».

*** أقول:**

لقد أردت بذكر هذا الجزء من كلام د. شحرور أن يكون مثالًا على «المنهجية العشوائية» التي أقام عليها قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، وكيف يتلاعب ويُلحد في آيات الله متخذًا قاعدة «القص واللصق» منطلقًا له، ولذلك نراه يقول «ص ٦٠» عن معنى «التشابه»:

«أما الطريقة الثانية: وهي طريقة الاتصال دفعة واحدة لا رجعة بعدها، فهي الطريقة الإسلامية، وهذه لا يمكن أن تكن إلا بـ «ثبات النص وحركة المحتوى»، وهو (التشابه) الذي يحتاج إلى التأويل باستمرار».

ويؤكد اتباعه «الفلسفة المادية للوجود» فيقول «ص ٧٢»:

«وبما أن فهم الإنسان للحقيقة هو فهم نسبي دائمًا له علاقة بتطور المعارف والأرضية المعرفية للإنسان، فقد لزم أن تصاغ الحقيقة بلغة إنسانية مطواعة لهذا الفهم النسبي، عن طريق (التشابه) في الصيغة الثابتة، واللسان العربي في بنيته ومفرداته يحمل خاصية (التشابه) بوضوح، هذا أحد وجوه أصالة هذا اللسان، ولهذا كان اللسان العربي هو الوعاء الذي حمل مطلق الحقيقة ونسبية الفهم الإنساني».

ثم يقول بعدها محاولة منه لأسلمة «الفلسفة المادية للوجود»:

«ففي الصياغة القرآنية العربية تظهر قمة الجدل الداخلي بين الحقيقة المطلقة للوجود، والفهم النسبي الإنساني لهذا الوجود في مرحلة ما، وفي هذا المعنى تكمن قمة إعجاز القرآن للناس جميعًا، على اختلاف عصورهم واختلاف مداركهم تبعًا لاختلاف أرضياتهم المعرفية».

وطبعا يقصد بـ «إعجاز القرآن» إعجاز جزء من التنزيل الحكيم، الذي هو «الآيات المتشابهات»، وليس التنزيل الحكيم كله، وهذا ما أكده بقوله «ص ٧٣»:

«أما إذا نظرنا إلى محتويات القرآن فنرى أنه يتألف من موضوعين رئيسيين وهما:

أ: الجزء الثابت:

قوله تعالى «البروج / ٢١ ـ ٢٢»:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾.

وهذا الجزء هو القوانين العامة الناظمة للوجود كله ابتداء من خلق الكون، الانفجار الكوني الأول، وفيه قوانين التطور، الموت حق، وتغير الصيرورة، التسبيح، حتى الساعة ونفخة الصور والبعث والجنة والنار.

وهذا الجزء لا يتغير من أجل أحد وهو ليس مناط الدعاء الإنساني، وإن دعا كل أهل الأرض والأنبياء لتغييره فلا يتغير، وهذا الجزء العام هو الذي تنطبق عليه عبارة «الكهف / ٢٧»: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾.

فكلمات الله هي عين الموجودات أي الأشياء «الأنعام / ٧٣»: «قَوْلُهُ الْحَقُّ».

وفي اللوح المحفوظ يوجد القانون العام الصارم لهذا الوجود، ولا تبديل لهذا القانون من أجل أحد.

أما التشابه في هذا الجزء فهو منسوب إلى الفلسفة، وهي أم العلوم، أي معرفة الإنسان بالقوانين العامة الناظمة للوجود.

ب: الجزء المتغير:

وهذا الجزء عبر عنه بأنه مأخوذ من أمام مبين في قوله «يس/ ١٢»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

فالإمام المبين يحتوي على شقين:

ـ أحداث وقوانين الطبيعة الجزئية: مثل تصريف الرياح واختلاف الألوان وهبة الذكور والإناث والزلازل والطوفان وهي قابلة للتصريف، وغير مكتوبة سلفًا على أي إنسان وغير قديمة.

فمثلًا القانون العام في اللوح المحفوظ يقول: إن الموت حق، ولكن الأحداث الجزئية في الطبيعة يمكن أن تسمح بوجود ظواهر تطيل الأعمار وظواهر تقصرها، فالتصريف هو بطول العمر وقصره، وليس بإلغاء الموت.

فأحداث الطبيعة الجزئية أطلق عليها مصطلح آيات الله «الروم/ ٢٢»:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾.

فآيات الله تختص بظواهر الطبيعة، وقد جاءت في الكتاب في مصطلح «كتاب مبين» في قوله «الأنعام / ٥٩»:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ثم يقول د. شحرور محاولًا أسلمة «الفلسفة المادية للوجود»:

«فعندما يورد لفظ كتاب مبين في القرآن يتكلم فيه عن جزئيات ظواهر الطبيعة: كالحركة الكيميائية «وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ» والموقع «وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ»، والحركة الميكانيكية «وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا»».

هذا الجزء الذي سماه بعبارة «كتاب مبين» فيه التصريف والتغيير وهو مناط التدخل الإلهي وفقًا للنواميس الكونية التي ارتضاها وقررها، فتارة يعمل لصالح زيد وأخرى لصالح عمرو، وهو مناط الدعاء.

فنحن ندعو الله أن يرسل لنا مطرًا، لأن المطر يأتي من تصريف الرياح أو أن يهب لنا ذكورًا وإناثًا، لأن كل هذه الأشياء ليس لها علاقة باللوح المحفوظ، وإنما هي أحداث جزئية في أحداث جزئية في ظواهر الطبيعة... وهي أيضًا مناط العلوم كلها الطب والفلك والفيزياء والكيمياء... ما عدا الفلسفة والتاريخ.

وهو التشابه في آيات الكتاب المبين، آيات الله، ويقوم على نسبة تقدم المعارف الإنسانية بأحداث الطبيعة وظواهرها، وهو الذي ينطبق عليه قول الله تعالى «آل عمران/ ٤٧»:

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾..

ـ أفعال الإنسان الواعية: وهو ما نسميه القصص.

لقد أكد في الكتاب أن القصص من القرآن في قوله «يوسف / ٣»:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

فقد أشار إلى أن تتبع أفعال الإنسان المسجلة عليه بعد وقوعها يتم في إمام مبين، ليميزه عن لوح محفوظ «يس / ١٢»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقد أورد منه أحداثًا متكاملة لتتبع تطور التاريخ الإنساني، وتطور المعارف في النبوات والتشريع في الرسالات، أي كيف تفاعل الإنسان مع القانون العام للوجود والقوانين الجزئية من جهة، وكيف تفاعل مع الرسالات من جهةٍ أخرى.

*** أقول:**

ويتضح مما سبق كيف تقوم القراءة المعاصرة للتنزيل على قواعد «الفلسفة المادية للوجود».

ولم يكتف د. شحرور بالإلحاد في اللسان العربي وفي السياق القرآني، وذهب يُلحد في أسماء الله الحسنى، ويتبع الذين جعلوا لله كلمات قديمة وكلمات محدثة، فقال «ص ٧٧»:

«ومن هنا نستنتج أن القرآن العظيم وهو كتاب (متشابه) يتألف من مصدرين رئيسين:

أ: القانون العام: قرآن مجيد * في لوح محفوظ، وهو كلمات الله القديمة لا تبديل لها.

ب: القانون الخاص الجزئي في أحداث الطبيعة الجزئية... وهو كلام الله المحدث وينطبق عليه قوله «آل عمران / ٤٧»:

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

والسؤال:

من أين عرف د. شحرور أن لله تعالى كلامًا قديمًا وكلامًا محدثًا؟!

ولم يكتف د. شحرور بذلك، وذهب يُلحد في اسم «القرآن» ليوافق مبادئ «الفلسفة المادية للوجود» ويقول:

«وسمي قرآنًا لأنه قرن القانون العام للوجود مع القانون الخاص ومع خط تطور سير التاريخ الإنساني»!!

ولم يكتف د. شحرور بذلك، وراح يُلحد في لفظ «كتاب الله» ويقول «ص ١١٥»:

إن التيه الأكبر في كتب التفاسير هو أن أصحابها لم يربطوا بين آية «آل عمران / ٧»:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

وهي من آيات «تفصيل الكتاب»، أي «لا محكم ولا متشابه»، وبين الآيات:

- «هود / ١»: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

وهي من آيات «تفصيل الكتاب»، أما «الر» فمن أصوات السبع المثاني.

- «فصلت / ٣»: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وهي من آيات «تفصيل الكتاب».

- «الزمر / ٢٣»: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ...﴾.

وهي من آيات «تفصيل الكتاب».

وظنوا أن الكتاب الموجود ما بين دفتي المصحف هو المقصود بهذه الآيات كلها، وبدون هذا التفريق لا يمكن وضع منهج علمي لفهم الكتاب من أحكام وقرآن وتفصيل الكتاب.

ثم يسأل د. شحرور «ص ١١٦»:

«لماذا تداخل التشابه وتفصيل الكتاب بين المحكم، ثم تفصيل الكتاب إلى هذا العدد والمواقع من السور والآيات»؟!

ويجيب: «إن الهدف الأول الذي نراه هو أن الآيات المحكمات قابلة للتزوير وليس فيها أي إعجاز»!!

*** أقول:**

والحل حتى لا تتعرض «الآيات المحكمات» للتزوير هو الإلحاد في هذه الآيات بقراءة ماركسية معاصرة، تُقسم «التنزيل الحكيم» إلى محكم ومتشابه، ولا محكم ولا متشابه، وهذا التداخل بين المحكم والمتشابه هو الذي يحميها من التزوير ويحافظ على إعجاز القرآن فيقول د. شحرور:

«أما الشكل الذي وضع به القرآن بين الأحكام، فإن أي اجتهاد في الأحكام لا يمكن وضعه داخل هذه الأحكام؛ لأن عدد الآيات وترتيبها في السورة الواحدة المؤلفة من محكم، ومتشابه، ولا محكم ولا متشابه، مضبوطٌ تمامًا، وموقع كل آية مضبوطٌ تمامًا، وهذا ما أكده الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة «المائدة/ ٤٨»:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾.

ثم يزداد الإلحاد في آيات الله تدريجيًّا، فيقول د. شحرور «ص ١٨٥» تحت عنوان «القرآن الكريم معجزة محمد الخالدة»:

«لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود، بحيث تُفهم فهمًّا نسبيًّا حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يحاول فهم القرآن فيه:

١ ـ **المطلق**: عبر عنه «ماديًا» في الصيغة اللغوية المحدثة (الذكر).

٢ ـ **النسبي**: جاء في المحتوى المتحرك في التأويل، وهذا ما نسميه بخاصية (التشابه)».

فكيف تكون «الآيات المتشابهات» هي «النبوة»؟!

*** أقول:**

وهل من المنطق الإيماني أن يجعل الله البرهان على صدق «نبوة» رسوله محمد في «الآيات المتشابهات» التي لا يتبعها إلا «الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ»؟!

تاسعًا:

يقول د. شحرور «ص ١٧٩»:

«إن بداية القول في إعجاز القرآن تأتي من موازنة الآيتين التاليتين:

قول الله تعالى «البقرة / ٧٩»:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾.

قوله تعالى «الإسراء / ٨٨»:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

ففي الآية الأولى يحذر الله الناس أن يكتبوا الكتاب بأيديهم ويقولوا هذا من عند الله، وفي الآية الثانية يتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن».

ثم يقول د. شحرور: «الآن لنناقش الأمور التالية:

١ ـ إذا كان المقصود بالكتابة الخط، والخط يكون باليد:

﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾.

فهذا يعني أن المقصود في هذه الآية هم كتبة الوحي، فقد خطوا الكتاب وقالوا هذا من عند الله، وبالتالي فالويل كل الويل لكتبة الوحي.

أما إذا كان المقصود بالكتابة إضافة أحكام فقط إلى الكتاب، وحصل مثل هذا الأمر فعلًا عند اليهود، حيث أضافوا اجتهادات أحبارهم إلى الكتاب، وقد شرحنا أن الكتاب عند موسى وعيسى هو التشيع فقط الرسالة، وهذا أمر ممكن الوقوع فيه وغير مستحيل، لذا تم التحذير منه فعلًا.

إذا كان الكتاب هو المصحف كما يعتقد الناس، فكيف يحذرهم مرة ويتحداهم مرة أخرى، هذا تناقض كبير جدًا.

ولكن إذا كان التحذير لشيء والتحدي لشيء آخر، توضع الأمور في نصابها، حيث إن التحذير للتشريع الرسالة، والتحدي للقرآن النبوة.

فالله سبحانه وتعالى يحذر الناس من أمر لا يعجزون عنه، ويتحداهم بأمر يعجزون عنه، هكذا فقط يجب أن نفهم التحذير من أمر غير معجز، والتحدي لأمر معجز».

*** أقول:**

لقد أقام د. شحرور فهمه لآلاف الآيات التي حملتها معظم أوراق كتابه «الكتاب والقرآن»، بمعزل عن علم السياق، وهذا ما جعل «قراءته المعاصرة» للتنزيل الحكيم قراءة متهافتة «منهجيًّا».

إن الآية الأولى «البقرة / ٧٩» جاءت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، «الآيات ٧٥ ـ ٨١»، الذي بدأ بقوله تعالى مخاطبا المؤمنين:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

والمقصود بتحريف «كلام الله» تحريف «كتاب الله»، والله تعالى لم «يتعهد بحفظ» كتب «بني إسرائيل» وهذا ما دفعهم إلى أن ينسبوا الكتب التي كتبوها بأيديهم إلى الله، ولذلك توعدهم الله بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

أما الآية الثانية «الإسراء / ٨٨» مع غيرها من الآيات، فتتحدث عن «الآية الإلهية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، التي حملها التنزيل الحكيم، والتي يستحيل أن يأتي إنس ولا جان بمثل سورها، ولذلك قال تعالى «البقرة / ٢٤»:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ـ وَلَن تَفْعَلُوا ـ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

ولبيان فعالية قول الله تعالى «وَلَن تَفْعَلُوا»، وأنه يشمل التنزيل الحكيم كله، جاء ذكر «الكتاب» في سياق طلب المكذبين من رسول الله الآيات الحسية «العنكبوت/ ٥٠»:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

فنزل قول الله تعالى «العنكبوت/ ٥١»:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

ولقد استخدم السياق كلمة «الكتاب»، وليس «القرآن»، في سياق إثبات حجية «التنزيل الحكيم»، أما د. شحرور فيرى أن التحدي «على حد تعبيره» كان لـ «القرآن ـ النبوة» فقط!!

٣ ـ ويُلخص د. شحرور مصطلحاته القائمة على بدعة تقسيم التنزيل الحكيم إلى أجزاء لكل جزء كتاب مستقل بموضوعاته وأحكامه فيقول «ص ٢١٣»:

الآن بعد أن عرفنا الكتاب والقرآن والسبع المثاني والذكر والفرقان والصراط المستقيم لنعطي التعاريف الكاملة لكل منها:

أ: الكتاب:

هو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى محمد ﷺ وحيًا، وهو مجموع الآيات الموجودة بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وفيه النبوة والرسالة، وهو الرسالة فقط بالنسبة لموسى وعيسى.

الكتاب = الرسالة + النبوة.

*** أقول:**

يقول الله تعالى «فاطر / ٢٩»:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

فهذه الآية هي البرهان قطعي الدلالة، على أن لفظ «الكتاب» عندما يكون متعلقًا بـ «التنزيل الحكيم»، سواء كان:

ـ معرفًا بأل التعريف «الكتاب»، كما في قوله تعالى:

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا».

ـ أو غير معرف «كتاب»، كما في هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾.

فإنه يعني: ما بين دفتي المصحف، من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس.

أما د. شحرور فيستخدم لفظ «كتاب الله» بمعنى «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب»، وليس بمعنى التنزيل الحكيم كله، فيقول على سبيل المثال «ص ٨٨»:

ـ الرسالة:

هي «كتاب الله»، وتشمل «الآيات المحكمات ـ الأحكام ـ أم الكتاب»

ـ النبوة:

هي «القرآن»، وتشمل «الآيات المتشابهات».

وهذا الذي ذهب إليه د. شحرور لا أساس له في التنزيل الحكيم، فإذا تدبرنا الآية «آل عمران / ٧»، نجد الآتي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾: أي أن الله أنزل «كتاب الله».

ـ «مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ»:

أي داخل «كتاب الله» توجد «آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ـ أُمُّ الْكِتَابِ».

ـ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾:

وداخل «كتاب الله» أيضًا توجد «آيَاتٌ متشابهات».

إذن فالأصل هو «كتاب الله» الحامل لـ «التنزيل الحكيم» كله من سورة الفاتحة وإلى سورة الناس.

وبناء على قاعدة «ما بني على باطل فهو باطل» يسقط كل ما سيذكره د. شحرور بعد ذلك من إلحاد في دلالات الآيات ومعاني كلماتها، لذلك لن أقوم بالتعليق عليها، وأنا على يقين أن القارئ الكريم يستطيع أن يقف بنفسه على وجوه الإلحاد فيها.

ب: أم الكتاب:

هي مجموعة الآيات التي تشكل رسالة محمد ﷺ وفيها العبادات والحدود والتعليمات والفرقان «الصراط المستقيم والحكمة»، وهي الكتاب المحكم «آل عمران / ٧»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

وهي التي أوحيت من الله مباشرة وليس لها وجود مسبق قبل الإنزال والتنزيل ولا يوجد فيها جعل.

ج: النبوة:

وفيها القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب.

وتقسم حسب الآيات التالية:

* الآيات المتشابهات:

وهي القرآن والسبع المثاني:

ـ القرآن «الحديث»:

وهي مجموعة القوانين المخزنة في اللوح المحفوظ والإمام المبين، وهي القوانين العامة الناظمة للوجود المتحكمة فيه من بداية الخلق إلى نهاية الثواب والعقاب في الجنة والنار «اللوح المحفوظ»، والقوانين الجزئية لتصرف ظواهر الطبيعة وأحداث الإنسان بعد وقوعها «إمام مبين»، وهي التي لها وجود مسبق قبل إنزالها وتنزيلها، وهي التي جعلت عربية، والتشابه فيها حركة المحتوى مع ثبات النص، ويفهم فهمًا نسبيًّا حسب الأرضية المعرفية للعصر.

ـ السبع المثاني «أحسن الحديث»:

وهي سبع آيات فواتح للسور «متشابه مثان»، مثل «ألم»، وأربعة عشر حرفًا «صوتًا»، وهي متشابهة، وتفهم فهمًا نسبيًّا حسب تطور المعارف للعصر، وهي أحسن الحديث.

* آيات لا محكمات ولا متشابهات:

«تفصيل الكتاب»: وهي الآيات التي تشرح محتويات الكتاب، من قرآن وأم الكتاب والفرقان، ومنه: «الكتاب = آيات محكمات + آيات متشابهات + آيات لا محكمات ولا متشابهات = أم الكتاب + القرآن + السبع المثاني + تفصيل الكتاب = أم الكتاب + «الحديث + أحسن الحديث» + تفصيل الكتاب».

وعن «السبع المثاني» يقول د. شحرور «ص ٩٦»:

«يقول الله تعالى «الحجر / ٨٧»: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾.

ـ لقد عطف القرآن على السبع المثاني، فهذا يعني أن القرآن شيء والسبع المثاني شيء آخر، وأن السبع المثاني ليست جزءًا من القرآن، وقد وضعها الله سبحانه وتعالى قبل القرآن حيث ميزها عليه بالأفضلية من ناحية المعلومات».

*** أقول:**

من قال إن مجيء كلمة «الْمَثَانِي» قبل «الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» معناه أنها أفضل من القرآن من ناحية المعلومات؟!

ثم أي معلومات هذه التي تحملها الحروف المقطعة التي في بداية السور، كما يفهمها د. شحرور، ومعنى هذه الحروف ودلالاتها مسألة خلافية غير مجمع عليها إلى يومنا هذا؟!

ثم يستكمل د. شحرور حديثه فيقول:

ـ لا يمكن أن يكون القرآن جزءًا من السبع المثاني؛ لأن السبع المثاني سبع آيات، والقرآن أكثر من ذلك.

ـ وجب أن يكون هناك تجانس ما بينهما حتى يتم عطف أحدهما على الآخر، فإذا تم عطف القرآن على أم الكتاب، فوجه التجانس بينهما أنهما موحيان من الله ... وبما أن القرآن العظيم هو نبوة محمد ﷺ، والنبوة علوم، فهذا يعني أن السبع المثاني هي من النبوة وفيها علوم.

ـ لقد ميز السبع المثاني عن القرآن بأن أطلق عليها مصطلح «أحسن الحديث» وذلك في قوله «الزمر / ٢٣»:

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

فقد أطلق على القرآن مصطلح الحديث، وأطلق على السبع المثاني مصطلح أحسن الحديث، حيث إنه تم تمييزها».

❊ أقول:

في الحقيقة أنا لا أتصور أن يصل جهل د. شحرور باللغة العربية وبعلم السياق إلى هذا المستوى الذي لا يستطيع عنده فهم سياق هذه الآية، وأن «أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» صفة للتنزيل الحكيم كله الذي جعله الله «كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ».

ولذلك لا علاقة بين هذه الآية «الزمر / ٢٣»، وبين قوله تعالى «الحجر / ٨٧»:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

وذلك بقرينة السياق.

ويستكمل د. شحرور «منهجيته العشوائية»، و«يزيد الطين بلة» ويقول:

«وهذا التمييز بأن القرآن آيات متشابهات فقط، وأحسن الحديث يحمل بالإضافة إلى التشابه صفة المثاني «كتابًا متشابهًا مثاني»، أما القرآن فكتاب متشابه فقط، فما هي المثاني؟!

جاء في مقاييس اللغة ما يلي: «الثاء والنون والياء أصل واحد، وهو تكرير الشيء مرتين، أو جعله شيئين متواليين أو متباينين، وجاء فيه: «المثناةُ»: طرف الزمام في الخشاش، وإنما يثنى الشيء من أطرافه.

فالمثاني هي الأطراف.. ومن هنا كان لكل سورة مثناة أي طرف فالمثاني إذًا أطراف السور وهي إذًا فواتحها.

يبدو لنا أنه من خلال الأولى أن نسمي الفاتحة بالسبع المثاني، لأن الفاتحة هي سبع آيات في فاتحة واحدة هي فاتحة الكتاب، ولكن السبع المثاني هي سبع آيات، كل منها فاتحة، أي هي سبع آيات وهي في الوقت نفسه سبع فواتح، فيبقى احتمال واحد: بما أن الكتاب واحد، وبما أنه مؤلف من ١١٤ سورة، فيلزم أن تكون السبع المثاني هي سبع فواتح للسور، كل منها آية منفصلة في ذاتها، فإذا نظرنا إلى فواتح السور نرى فيها السبع المثاني وهي: «١ـ الم، ٢ـ المص، ٣ ـ كهيعص، ٤ ـ يس، ٥ ـ طه، ٦ ـ طسم، ٧ـ حم».

فإذا سأل سائل: ما هي إذًا: الر، المر، طس، ن، ق، ص؟!

أقول: هذه حروف كل منها جزء من آية، وليس آية منفصلة تامة في ذاتها، فالآية الأولى في سورة نون هي: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ».

أما الآية الأولى في سورة البقرة فهي: «الم».

وأما «عسق» فهي ليست فاتحة لسورة، لأنها الآية الثانية في سورة الشورى، والآية الأولى هي «حم».

فإذا نظرنا إلى عدد الحروف «الأصوات» الموجودة في الآيات السبع المذكورة أعلاه نراها تتألف من «١١» أحد عشر حرفًا «صوتًا» هي: «١ ـ الألف، ٢ ـ اللام، ٣ ـ الميم، ٤ ـ الصاد، ٥ ـ الكاف، ٦ ـ الهاء، ٧ ـ الياء، ٨ ـ العين، ٩ ـ السين، ١٠ ـ الطاء، ١١ ـ الحاء».

وإذا أخذنا بقية الحروف «الأصوات» الموجودة في: «الر، المر، طس، عسق، ن، ق، ص».

والتي لا تشكل آيات منفصلة في ذاتها كبداية وفيها آية واحدة ليست كبداية هي «عسق»، فنرى أن فيها ثلاثة حروف «أصوات» غير موجودة في آيات السبعة الفواتح وهي: «١ ـ القاف، ٢ ـ الراء، ٣ ـ النون».

فمن هذه الأصول تتألف كلمة «القرآن» لأن كلمة القرآن مشتقة من «قرأ»، ومعنى «ق ر أ» الجمع كما في المقاييس، وكذا معنى «ق ر ن»، وعليه فالقراءة والقرن جمع، وفيها استقراء ومقارنة.

وإذا أضفنا الحروف «الأصوات» الثلاثة الإضافية إلى السبعة الفواتح التي تشتمل على أحد عشر حرفًا، يصبح المجموع أربعة عشر حرفًا «صوتًا» مختلفًا أي «٧ × ٢» وهذه هي أيضًا سبع مثان».

❊ أقول:

وبعد هذا الجهد الفكري الكبير ليصل د. شحرور إلى معنى «السبع المثاني»، التي هي كما يدعي جزء من القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، تكون النتيجة:

فهم العلاقة بين السبع المثاني والقرآن من خلال «الفلسفة المادية للوجود» فيقول د. شحرور:

«فأول ما نستنتجه من حروف ـ أصوات ـ السبع المثاني ما يلي:

ـ أنها أعطت مقاطع صوتية يتألف منها أصل الكلام الإنساني، وليس اللغة العربية فقط.

* نلاحظ قوله «وليس اللغة العربية فقط».

ـ أن عدد الأصوات الأحد عشر في الآيات السبع الفواتح تشكل الحد الأدنى لأي كلام إنساني، أي أنه لا يمكن أن توجد لغة إنسانية يقال عنها لغة، إلا إذا كانت أصواتها الأصلية من أحد عشر صوتًا على الأقل.

ـ أن الأصوات تحمل الصيغة الكونية، فلو كانت هناك مخلوقات عاقلة في الكون فطريقة التواصل معها هي طريقة صوتية بالضرورة.

* تحولت الحروف المقطعة في أوائل السور إلى صيغ كونية.

ـ لقد أكد الكتاب أنه توجد مخلوقات حية، فيها العاقل وغير العاقل في هذا الكون، وليس في الأرض فقط، وأن العاقل منها سيجتمع بعضه مع بعض في المستقبل، وذلك في قوله تعالى «الشورى / ٢٩»:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾.

فقد وضع الدابة في السماوات والأرض وهي م دبّ، يدبّ على الأرض وهو أي كائن حي بما في ذلك الإنسان أو أي كائن عاقل، ووضع قانون التطور أنه أصل الخلق في الوجود كله في قوله «وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ»، ووضع الاجتماع للعاقل فقط من الدواب في قوله «عَلَى جَمْعِهِمْ»، الميم جمع للعاقل فقط، وهذا الاجتماع ممكن في المستقبل «إِذَا يَشَاءُ».

ويحق لي الآن أن أخمن دون أن أقطع، أنه إذا ما تيسر لنا لقاء بعقلاء في كوكب آخر غير الأرض ثم أردنا أن نتفاهم معهم أو نبث إليهم فعلينا أن نستعمل هذه الأصوات الأحد عشر لأنني أعتقد أنها القاسم المشترك للأصوات التي يمكن أن تصدر عن العقلاء، والله أعلم.

*** أقول:**

وقول د. شحرور:

«ووضع قانون التطور أنه أصل الخلق في الوجود كله» هو المحور الأساس الذي تدور حوله كل موضوعات قراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم، محور «الفلسفة المادية للوجود».

د: الذكر:

هو الصيغة اللغوية الإنسانية للكتاب كله والذي جاء بلسان عربي مبين وهو الصيغة التعبدية بغض النظر عن فهم المضمون وهو الذي تكفل الله بحفظه وهو محدث كله.

هـ: الفرقان:

وهو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى وعيسى ومحمد وهي الآيات «الأنعام/ ١٥١-١٥٣»، وهو جزء من أم الكتاب، وهو الأخلاق المشتركة بين الديانات السماوية، وجاء إلى موسى منسوخًا على الألواح مفروقًا عن الكتاب.

ثم يعطي د. شحرور مثالًا تطبيقيًّا على ما سبق ذكره فيقول «ص ٢١٤»:

«لنأخذ الآن الآيات الخمس الأولى من «سورة الزخرف»:

أ: الآية الأولى: «حم»: من السبع المثاني.

ب: الآية الثانية: «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ»: القصص.

ج: الآية الثالثة: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»: القرآن.

ونشير هنا بين معترضتين إلى أن هذه الهاء في «جَعَلْنَاهُ» ليست عائدة على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» في الآية السابقة، بل هي عين القرآن العربي «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»، لاحظ أنها جاءت بعد الفاصل.

د: الآية الرابعة: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»:

القرآن في أم الكتاب عند الله علي حكيم.

هـ: الآية الخامسة: «أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ»:

الذكر: هو الصيغة اللغوية العربية التعبدية للكتاب.

لاحظ هذه الآيات الخمس كيف شملت مركبات الكتاب.

لنأخذ الآن الآية الرابعة التي تقول:

«وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ».

حيث وصف القرآن بأنه علي حكيم: وأن «عَلِيٌّ حَكِيمٌ» جاءت في مكان واحد آخر في الكتاب كله وذلك في قوله تعالى «الشورى / ٥١»:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾.

يتحدث هنا عن كيفية الوحي لكلام الله بقوله «يُكَلِّمَهُ اللَّهُ» ولا تشمل هذه الآية الرسالة لقوله «الأعراف / ١٤٤»:

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

وهنا «عَلِيٌّ حَكِيمٌ» تعود على الموحى به وهو «القرآن».

وإذا سأل سائل: وكيف تم وحي الرسالة وبقية أجزاء الكتاب؟!

هل بنفس الطريقة أو بطريقة أخرى؟!

فتجيبه الآية التي تليها «الشورى / ٥٢»:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

أي بنفس الطريقة للوحي التي ذكرت في «الآية ٥٠» أوحى إلى محمد ﷺ «الرسالة» و«النبوة»، الرسالة في «روح من أمرنا»، و«الكتاب» الرسالة والنبوة معًا.

❊ أقول:

يكفي لهدم كل ما ذكره د. شحرور سابقًا، وكل ما سيذكره لاحقًا، بل وقراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم كلها، تعليقه على قول الله تعالى «الزخرف / ١-٤»:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

حيث قال: «إن الهاء في جَعَلْنَاهُ ليست عائدة على الْكِتَابِ الْمُبِينِ بل هي عين القرآن العربي «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ».

وهذه مسألة لغوية يستحيل أن تغيب عمن يقرأ التنزيل الحكيم قراءة معاصرة، ذلك أن الضمير في «جَعَلْنَاهُ» وفي «وَإِنَّهُ» عائد إلى المذكور في السياق وهو «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، ليكون المعنى:

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ... ﴿٤﴾﴾.

ثم يأتي د. شحرور ويجعل «الْقُرْآن» غير «أُمِّ الْكِتَابِ» ويقول «ص ٢١٣»:

أ: «أم الكتاب»:

هي مجموعة الآيات التي تشكل رسالة محمد ﷺ وفيها العبادات والحدود والتعليمات والفرقان «الصراط المستقيم والحكمة... إلى آخر ما قال.

ب: «النبوة»:

وفيها القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب: والنبوة تقسم حسب الآيات التالية: الآيات المتشابهات: وهي القرآن والسبع المثاني، وآيات لا محكمات ولا متشابهات: تفصيل الكتاب.

*** أقول:**

هل كل هذه التقسيمات والتفريعات المتشابكة المتناقضة لآيات التنزيل الحكيم، التي ما فعلها د. شحرور إلا لإسقاط أحكام القرآن لصالح «الفلسفة المادية للوجود»، هل يمكن أن تُصف بأنها قراءة معاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

ثانيًا:

مفهوم د. شحرور لمعنى «القرآن».

سنجد في هذا الجزء تكرارًا لما سبق بيانه عن مفهوم د. شحرور لمعنى «الكتاب»، وذلك لتداخل اللفظين «الكتاب» و«القرآن» في كثير من الآيات، فلزم التنويه.

يقول د. شحرور «ص ٥٦»:

«بيّنا أن «الآيات المتشابهات» هن آيات المصحف ما عدا:

١ ـ «آيات أم الكتاب، أي الرسالة».

٢ ـ و«آيات تفصيل الكتاب».

ويعني ذلك أنه تبقى مجموعة «الآيات المتشابهات»، فما اسم هذه الآيات؟!

ويجيب د. شحرور عن سؤاله بآيات مستقطعة من سياقاتها ولا علاقة لها بالموضوع، فيقول:

أ: لنرجع إلى قوله تعالى «الحجر / ١»:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

ب: ولنرجع إلى قوله تعالى «الرعد / ١»:

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

ج: ولنرجع إلى قوله تعالى «البقرة / ٢»:

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

د: ولنرجع إلى قوله تعالى «البقرة / ١٨٥»:

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾.

فماذا استنتج د. شحرور بعد أن ذكر هذه الآيات؟!

قال: «هنا نلاحظ كيف عطف القرآن على الكتاب، وفي اللسان العربي لا تعطف إلا المتغايرات، أو الخاص على العام، فهنا لدينا احتمالان:

الاحتمال الأول:

أن القرآن شيء، والكتاب شيء آخر، وعطفهما للتغاير.

ويسأل: «فإذا كان القرآن شيئًا، والكتاب شيئًا آخر، فتجانسهما أنهما من عند الله، ولكن لماذا عطف القرآن على الكتاب في أول سورة الحجر:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾؟!

ويجيب: «السبب في ذلك هو الآية «الحجر / ٨٧»:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

فها هنا واضح تمامًا أن «القرآن» شيء، و«السبع من المثاني» شيء آخر، وهي ليست من «القرآن»، ولكنها من «الكتاب».

الاحتمال الثاني:

يقول د. شحرور «ص ٥٧»:

«أن يكون القرآن جزءًا من الكتاب، وعطفهما من باب عطف الخاص على العام، وفي هذه الحالة يكفي عطف الخاص على العام للتأكيد، وللفت انتباه السامع إلى أهمية الخاص».

ويسأل: «فأي الاحتمالين هو المقصود»؟!

ويجيب:

أ: «نلاحظ أنه عندما ذكر «الكتاب» قال «البقرة / ٢»: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» لأن في «الكتاب» أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق، أي فيه التقوى بالإضافة إلى القرآن.

ب: وعندما ذكر «القرآن» قال «البقرة / ١٥٨»: «هُدًى لِّلنَّاسِ» ولفظة الناس تشمل المتقين وغير المتقين، فالمتقون من الناس ولكن ليس كل الناس من المتقين.

وهذا وحده يوجب أن نميز بين الكتاب والقرآن».

❊ أقول:

ماذا يعني د. شحرور بقوله عن «السبع من المثاني» إنها «ليست من القرآن ولكنها من الكتاب»، والله تعالى يشهد أن «التنزيل الحكيم» هو «كتاب الله» وهو «القرآن الكريم»، فقال تعالى «الإسراء / ٨٨»:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾؟!

إلا إذا كان د. شحرور لا يؤمن بأن موضوع قول الله تعالى:

﴿أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾.

ليس كموضوع قوله تعالى «البقرة / ٢٣»:

﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

الذي ورد في سياق الحديث عن التنزيل الحكيم كله، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، فقال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا ـ نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ـ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ـ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟!

ولقد شهد الله تعالى بعدم استطاعة الإنس والجن أن يأتوا بمثله، فقال تعالى بعدها:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ـ وَلَن تَفْعَلُواْ ـ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهذا ما بينه الله تعالى بقوله «الإسراء / ٨٨»:

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

* ملاحظة:

أنا لا أعلق على ما جاء في كثير من صفحات كتاب «الكتاب والقرآن» باعتبار أنها قامت على باطل سبقها، وما قام على باطل فهو باطل.

ثانيًا:

عندما يقول الله تعالى في وصف الكتاب «البقرة / ٢»:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم يُبيّن من هم المتقون «البقرة / ٣»:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ـ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ـ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

ويستكمل صفات المتقين «البقرة / ٤»:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾.

ثم يُبيّن جزاء المتقين «البقرة / ٥»:

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

علينا أن نعلم أن اسم الإشارة «الذين» يشير إلى أنهم كانوا أصلًا من «الناس» الذين نزل القرآن لهدايتهم، فقال تعالى «البقرة / ١٨٥»:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾.

وهؤلاء الناس اتقوا الله، وأقروا بأصول الإيمان، والتزموا بأحكام الشريعة، فقال الله تعالى عنهم «البقرة / ٥»:

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وفي إطار ما سبق بيانه، نجد أن «الآيات المتشابهات» التي قال الله عن اتباعها «آل عمران / ٧»:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾.

يستحيل أن تكون هي «القرآن»، أي هي «النبوة» التي هي «وحي الله» إلى رسوله بـ «التنزيل الحكيم» كله؟!

وفي إطار ما سبق بيانه نفهم قول الله تعالى «فصلت / ٣»:

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾.

بمعنى: أن «كتاب الله» هو «القرآن العربي» المُفَصّل آياته، وهذا المعنى قد بيّنته الآيتان:

١ ـ «الحجر / ١»: ﴿ الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾.

٢ ـ «النمل / ١»: ﴿ طس ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾.

فنلاحظ أن كلمة «الْكِتَاب» جاءت مرة مُعرّفة في «الحجر / ١»، ومرة نَكِرَة في «النمل / ١» فقال تعالى: «كِتَاب».

وأن كلمة «الْقُرْآن» جاءت مرة نَكِرَة في «الحجر / ١» فقال تعالى «قُرْآن»، ومرة مُعرّفة في «النمل / ١» فقال تعالى «الْقُرْآنِ».

وقد جاء هذا «التنكير» في الحالتين لـ «تفخيم» ما عطف عليه، ليكون المعنى:

* ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾.

* ﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

ذلك أن العامل المشترك بين الآيتين هو اسم الإشارة المؤنث «تِلْكَ» الذي يُشير إلى «آيات التنزيل الحكيم» التي نزلت مكتوبةً «كتابًا» والمقروءة «قرآنًا».

ثالثًا:

تعالوا نتدبر بعض الآيات التي ورد فيها لفظ «القرآن» لنقف على فعالية هداية «القرآن»، وهل هي هداية جزء من التنزيل الحكيم أم هداية الكل؟!

١ ـ قول الله تعالى «النساء / ٨٢»:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

فهل المقصود تدبر «الآيات المتشابهات»، أي «آيات النبوة» فقط، لأن بقية الآيات ليست من عند الله؟!

٢ ـ قول الله تعالى «يونس / ١٥»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾.

فهل «الآيات المتشابهات» التي مجالها الآفاق والأنفس، كما يدعي د. شحرور، هي «الآيَات البَيِّنَات» التي رفضها الكافرون وطلبوا غيرها، أم كان رفضهم لـ «الآيات المحكمات» التي تحمل أحكام كفرهم ومصيرهم في الآخرة؟!

٣ ـ قول الله تعالى «يونس / ٣٧»:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فهل معنى هذا أن غير «القرآن»، أي غير «الآيات المتشابهات»، آيات مفتراة على الله تعالى؟!

٤ ـ قول الله تعالى «يوسف / ١-٢»:

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

إن الضمير في «أَنزَلْنَاهُ» يعود على «الْكِتَاب الْمُبِين»، أي أن «الْكِتَاب الْمُبِين» نزل «قُرْآنًا عَرَبِيًّا»، فكيف يكون الكتاب «مُبينًا» وهو «آيات متشابهات» لا يتبعها إلا الذين في قلوبهم زيغ؟!

وغير ذلك من الآيات كثير.

٥ ـ وتعالوا نتدبر فعالية لفظ «القرآن» في السياق القرآني، ونأخذ «سورة الإسراء» كمثال:

أ: «الآية ٩»: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾.

فهل هداية القرآن في «الآيات المتشابهات» فقط، دون الالتزام بالأحكام التي حملتها «الآيات المحكمات»؟!

ب: «الآية ٤١»: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾.

فهل هذا التصريف كان يتعلق بـ «الآيات المتشابهات» فقط، ومعلوم أن «النفور» لا يكون إلا من أحكام الشريعة، وليس من آيات الآفاق والأنفس؟!

ج: «الآية ٤٥»: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾.

فهل كانت مشكلة «الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ» مع «الآيات المتشابهات» أم مع «الآيات المحكمات» التي نزلت تكفرهم وتدخلهم جهنم؟!

د: «الآية ٤٦»: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

فهل الأمر بذكر الله لم يرد إلا في «الآيات المتشابهات» فقط؟!

هـ: «الآية ٦٠»: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

فهل ذُكرت «الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ» في كتاب مستقل عن المصحف اسمه «القرآن»، أم ذكرت في سياق سورة؟!

و: «الآية ٧٨»: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

فهل «قُرْآنَ الْفَجْرِ»، الذي «كَانَ مَشْهُودًا»، هو «الآيات المتشابهات» فقط؟!

ز: «الآية ٨٢»: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

فهل الذي كان «لاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا» هو «الآيات المتشابهات» التي لا علاقة لها بأحكام الشريعة؟!

ح: «الآية ٨٨»: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

وتأتي هذه الآية لتسقط تقسيمات د. شحرور لـ «آيات التنزيل الحكيم» لأن المقصود بـ «القرآن» هنا سور «التنزيل الحكيم» كلها، لقوله تعالى «البقرة / ٢٣»:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ط: «الآية ٨٩»: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

فهل كان كفر الناس بأمثال القرآن يتعلق بـ «الآيات المتشابهات» فقط؟!

ي: «الآيتان ١٠٥ ـ ١٠٦»: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

فهل «الحق» الذي أنزله الله تعالى هو «القرآن»، أي هو «الآيات المتشابهات» التي كان رسول الله يقرأها على الناس على مكث، والتي قال الله في اتباعها «آل عمران/ ٧»:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾؟!

رابعًا:

يقول د. شحرور «ص ٧٣»: «قلنا إن الكتاب المتشابه هو السبع المثاني والقرآن العظيم، فالتشابه في السبع المثاني جاء في قوله تعالى «الزمر / ٢٣»:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ...﴾.

نلاحظ هنا كيف جاءت كلمة «كتاب» منكرة، ولذلك فهي لا تعني كل محتويات المصحف، وإنما وصف هذا الكتاب بصفتين هما التشابه والمثاني، ويعني ذلك أن مجموعة السبع المثاني هي كتاب متشابه ومثانٍ معًا.

ويستكمل د. شحرور حديثه فيقول:

أما بالنسبة لـ «القرآن» فيجب أن نميز بين القرآن معرفًا كقوله «البقرة / ١٨٥»:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وقوله «الحجر / ٨٧»:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾.

وقوله «البروج / ٢١-٢٢»:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

وقوله «يس / ١ ـ ٢»:

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾.

ولم يقل «يس * وقرآن حكيم».

فعندما يأتي القرآن معرفًا فإنه يأخذ المعنى نفسه، أما إذا جاء منكرًا فيمكن أن يعني جزءًا منه، فالقرآن الحكيم هو القرآن العظيم نفسه وهو الذي أنزل في رمضان.

وليست عبارة «قرآن مجيد» هي بالضرورة «القرآن العظيم»، ولكنها من جنسه، وتعني جزءًا منه، لا كله.

وقد جاء الدليل على أن القرآن كله متشابه وأنه هو الحق في...».

ثم ذكر د. شحرور بعض الآيات والمسائل التي لا علاقة لها ببدعة تقسيم «كتاب الله» إلى موضوعات «كتب» منفصلة، والساقطة بسقوط الأساس السابق الذي قامت عليه.

*** فأقول:**

إن كلمة الكتاب، المتعلقة بالتنزيل الحكيم، «اسم علم» دال على «كتاب الله»، وكذلك كلمة القرآن «اسم علم» دال على «كتاب الله» وعلى «التنزيل الحكيم».

و«اسم العلم» سواء اقترن بأل التعريف «الكتاب، القرآن» أو لم يقترن بها «كتاب، قرآن»، فهو يدل على شيء واحد لا يُتصور مطلقًا الشراكة في «مُسمّاه»، كقولنا «شمس الأصيل ـ الشمس ساطعة»، فهي الشمس المعروفة للناس جميعًا.

واللافت للنظر، في ظل «المنهجية العشوائية» التي قامت عليها القراءة المعاصرة، أن د. شحرور يشك أصلًا في صحة القاعدة اللغوية التي ابتدعها عندما قال:

«نلاحظ هنا كيف جاءت كلمة كتاب منكرة، ولذلك فهي لا تعني كل محتويات المصحف».

ولذلك نجده يقول:

«فعندما يأتي القرآن معرفًا فإنه يأخذ المعنى نفسه، أما إذا جاء منكرًا (فيمكن) أن يعني جزءًا منه».

ومعلوم في أصول البحث العلمي أن «الاحتمال» يُسقط «الاستدلال»، ولا يوجد في تحديد معاني المصطلحات كلمة «يمكن».

فهل يعقل أن تقوم قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم، تُفرّق بين الكتاب والقرآن، على كلمة «يمكن»؟!

خامسًا:

يقول د. شحرور «ص ٨٨»:

«إن مصطلح (الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) في اللسان العربي تعني دائمًا الحاضر، ولا تعني الماضي، فالقرآن هو الآيات البينات، وهو تصديق الذي بين يديه، والهاء في (بَيْنَ يَدَيْهِ) إما أن تعود على القرآن، أو تعود على الله سبحانه وتعالى.

فما الذي كان بين يدي الله أو بين يدي القرآن حين نزوله وبحاجة إلى بينة؟!

الشيء الوحيد الذي كان يوجد حين نزول القرآن هو الأحكام «الرسالة»، فالقرآن جاء مصدقًا لأم الكتاب وهي التي سماها الله «كتاب الله»؛ لأن الأحكام ليست بيّنات في ذاتها وهي قابلة للتقليد، وإنما بحاجة إلى بينات من خارجها، والبيّنات موضوعية مبصرة».

*** أقول:**

إن قول الله تعالى «آل عمران / ٧»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾.

بيان واضح لكل عاقل، أن «الكتاب» الذي هو «اسم علم» دال على «كتاب الله»، وأسماء الأعلام لا تتغير مدلولاتها بالتعريف أو التنكير، فهذا «الكتاب»:

١ ـ ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

٢ ـ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾.

أي أن «كتاب الله» يشمل «الآيات المحكمات» و«الآيات المتشابهات»، وليس «الآيات المحكمات» التي هي «أُمُّ الْكِتَابِ» فقط، كما يدعي د. شحرور، لتمرير بدعة تقسيم «كتاب الله» حسب هواه.

ثم يقول د. شحرور:

«إن (بَيْنَ يَدَيْهِ) تعني الحاضر ولا تعني الماضي، وقد قالها صراحة في «آل عمران/ ٣ ـ ٤»:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴿٤﴾﴾.

فكيف يمكن أن يكون التوراة والإنجيل هما اللذان بين يديه، مع أنه قال عنهما «مِن قَبْلُ»؟!

وكيف يكون «مِن قَبْلُ» و«بَيْنَ يَدَيْهِ» دالين لمدلولٍ واحد؟!

ثم يوضح د. شحرور الصورة بشكلها النهائي فيقول:

«أراد الله سبحانه وتعالى أن يبلغ رسالته للناس «الأحكام» ليبين لهم فيها الفرق بين الحرام والحلال، ويبين لهم فيها العبادات والأخلاق وقواعد السلوك الإنساني.

هذه الأحكام بمجموعها تسمى «كتاب الله»، وهي بحاجة إلى توقيع ممن أرسلها أي أن تكون مصدقة منه «التوقيع والختم» ليعلم الناس أنها من عنده.

فوقع سبحانه وتعالى على هذه الرسالة بتوقيعه وكان توقيعه «القرآن والسبع المثاني» حيث جعل حقيقة الوجود تصديقًا لقواعد السلوك.

فالرسالة هي كتاب الله «الأحكام».

والنبوة هي «القرآن»، وفيه كلام الله «قوله الحق» الذي هو القوانين المطلقة للوجود، فصدق القرآن كتابه الذي هو قواعد السلوك الإنساني، ولله المثل الأعلى».

*** أقول:**

لم يلتزم د. شحرور بالأسس التي ألزم بها نفسه، عند حديثه عن المنهج المتبع، ومنها قوله «ص ٤٢»:

«لقد استعرضنا معاجم اللغة فوجدنا أن أنسبها هو معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تلميذ ثعلب، الذي ينفي وجود الترادف في اللغة، فقد تم الاعتماد عليه بشكل أساسي دون إغفال بقية المعاجم».

وأعطى ظهره لهذه المعاجم، واتبع المنهج الانتقائي في اختيار معنى الكلمة حسب هواه، بمعزل عن السياقات القرآنية الحاكمة لهذا المعنى، بهدف تحريف «آيات التنزيل الحكيم» لتوافق «الفلسفة المادية للوجود».

ولذلك عند حديثه عن معنى «الذي بين يديه» قال «ص ٨٨»:

«إن مصطلح الذي بين يديه في اللسان العربي تعني دائمًا الحاضر ولا تعني الماضي».

وهذا ما تكذبه مراجع اللغة العربية التي ترى أن استخدام جملة «الذي بين يديه» في السياق القرآني «استخدام مجازي» لإعطاء حجية لشيء مضى وكأنه حاضر موجود أمامنا.

فعندما يقول الله تعالى «آل عمران / ٣»:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ـ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ـ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ـ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴿٤﴾ ﴾.

فلا شك أن «الكتاب»، الذي هو «التنزيل الحكيم» كله، جاء مصدقًا للكتب التي سبقته، تصديق الحاضر في عصر التنزيل: فجاء مصدقًا لـ «التوراة» في عصرها، أي في عصر موسى، عليه السلام.

وجاء مصدقًا لـ «الإنجيل» في عصره، أي في عصر عيسى، عليه السلام.

وهذا ما أفادته كلمة «قَبْل» الواردة في جملة «مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ»، فحصر الله «الهداية» في وقت نزولهما، إلا ما حفظه الله ليشهد بصدق «نبوة» رسول الله محمد، كقوله تعالى «الأعراف / ١٥٧»:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾.

سادسًا:

ويقول د. شحرور «ص ٩٣»:

«عرفنا أن القرآن هو النبوة وأنه الحقيقة، ولكن لماذا قال تعالى عنه: إنه الحديث «يوسف / ١١١»:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وقال تعالى «القلم / ٤٤»:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال تعالى «الواقعة / ٨١»: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.

وقال تعالى «النساء / ٧٨»: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

وقال تعالى «المرسلات / ٥٠»: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وقال تعالى «النازعات / ١٥»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾.

وقال تعالى «البروج / ١٧»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾.

ثم قال د. شحرور: الحديث مشتق من فعل «حدث»، والحدث هو واقعة ذات شقين: إما واقعة إنسانية «طه / ٩»: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾.

أو واقعة كونية «الأعراف / ١٨٥»:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي حدث إنساني أو حدث كوني، والقرآن قَرَنَ الأحداث «الكونية الكلية والجزئية» مع الأحداث الإنسانية «القصص القرآني، أحسن القصص»؛ لذا سمي «حديثًا» وسمي «قرآنًا»:

١ ـ سمي «حديثًا» لأن فيه:

ـ أحداث الكون والإنسان «التاريخ».

ـ والقوانين الناظمة للمادة.

ـ والقوانين الناظمة للتاريخ الإنساني.

وربط بعضهما ببعض في قوله تعالى «يوسف / ٣»:

﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾.

٢ ـ وسمي «قرآنًا» لأن القرآن جاء من «قرأ»، وعلى قول بعضهم من «قرن»، وكلاهما يعني الجمع والمقارنة، كأن تقول قرأت الماء في البئر أي جمعته، أو قوله تعالى «البقرة / ٢٢٨»:

﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ ﴾.

فالقرء هو جمع فترة الطهر مع فترة الحيض، والأساس في اللسان العربي هو فعل «قرن».

فعند ابن فارس نرى أن فعل «قرأ» اشتق من فعل «قرن»، ومن هنا جاء معنى القراءة عند العرب وهو العملية التعليمية؛ لأنها لا تكون إلا بالمقارنة، أي مقارنة الأشياء بعضها ببعض.

ثم قال: هنا يجب أن نفهم قوله تعالى «الأعراف ٢٠٤»:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾.

أي عندما يأتي شخص ويشرح القرآن فأنصتوا له، هذه الآية من القراءة وليست التلاوة.

وكذلك نفهم قوله تعالى «النحل / ٩٨»:

﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

أي إذا أراد الإنسان أن يفهم القرآن فعليه الاستعاذة بالله من الشيطان، لأن الشيطان يدخل في الإنسان حين يريد فهم آيات القرآن «تأويلها».

أما التلاوة فهي لفظ الآيات بالتتالي وتختلف عن القراءة فنقول عن القرآن إنه المتعبد بتلاوته، فالكتاب كله يتلى «فاطر / ٢٩»:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

وقوله تعالى «النمل / ٩١ ـ ٩٢»:

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

هنا نلاحظ كيف ذكر التلاوة لكتاب الله وللقرآن، وعن الكتاب كله قال «البقرة ١٢١»:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

سابعًا:

إن المتدبر لما قاله د. شحرور عن سبب تسمية القرآن بـ «الحديث»؛ لأنه يحمل:

«أحداث الكون والإنسان ـ القوانين الناظمة للمادة ـ القوانين الناظمة للتاريخ الإنساني».

يزداد يقينًا بـ «المنهجية العشوائية» التي قامت على قاعدة: «فلسفة الوجود الموضوعي المادي والتاريخي».

والتي انطلقت منها القراءة المعاصرة، التي يدعي د. شحرور أنها ستصل بالمسلمين إلى «العالمية»، وهي في حقيقة الأمر تنطلق من قبور موتى، جاء من بعدهم من هدموا هذه «الفلسفة المادية للوجود»، وأثبتوا تهافتها.

١ ـ لقد وردت جملة «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» في موضعين:

أ: «الأعراف / ١٨٥»:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وسياقها كما هو واضح يتحدث عن آيات الله في الآفاق والأنفس، وعن ضلال المكذبين بآيات الله وبالساعة «الأعراف / ١٨٢ ـ ١٨٧».

ب: «المرسلات / ٤٨ ـ ٥٠»:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

وسياقها يتحدث عن جزاء المكذبين بيوم الدين، ولذلك تكررت جملة «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ» من أول السورة أكثر من مرة.

ولقد جاء بيان كلمة «بَعْدَهُ» في جملة «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ» في موضع آخر لم يذكره د. شحرور وهو «الجاثية / ٦»:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وذلك لبيان أن المقصود بـ «الحديث» في الموضعين السابقين هو «كلام الله» الذي حمله «التنزيل الحكيم»، من أول سورة الفاتحة وحتى سورة الناس، والذي يتعلق بعالمي الغيب والشهادة وليس فقط بـ «العالم الموضوعي المادي والتاريخي» كما يدعي د. شحرور.

٢ ـ نسب د. شحرور إلى «ابن فارس صاحب مقاييس اللغة» ما لم يقله، وهو أن كلمة «قَرَأَ» مشتقة من «قَرَنَ»، ومن هنا جاءت «القراءة» بمعنى «مقارنة» الأشياء بعضها ببعض، وهذا ما ذكره د. شحرور سابقًا حيث قال:

«وسمي قرآنًا لأن القرآن جاء من قرأ، وعلى قول بعضهم من قرن، وكلاهما يعني الجمع والمقارنة... فعند ابن فارس نرى أن فعل قرأ اشتق من فعل قرن، ومن هنا جاء معنى القراءة عند العرب وهو العملية التعليمية؛ لأنها لا تكون إلا بالمقارنة، أي مقارنة الأشياء بعضها ببعض».

٣ ـ إن مسألة اشتقاق «القرآن» مسألة خلافية بين أئمة اللغة العربية، الأمر الذي

جعل د. شحرور يقول في الفقرة السابقة «وعلى قول بعضهم من قرن، وكلاهما يعني الجمع والمقارنة».

ولكن لنا وقفة مع قوله: «فعند ابن فارس نرى أن فعل قرأ اشتق من فعل قرن»

والذي على أساسه قال بعدها: «ومن هنا جاء معنى القراءة عند العرب وهو العملية التعليمية، لأنها لا تكون إلا بالمقارنة، أي مقارنة الأشياء بعضها ببعض».

فإذا ذهبنا إلى مقاييس اللغة لابن فارس، نجد أنه لم يقل إن فعل «قرأ» اشتق من فعل «قرن»، وإنما قال: «قَرَنَ: القاف والراء والنون أصلانِ صحيحان:

أحدهما: يدلُّ على جَمعِ شيءٍ إلى شيء، والآخَر: شيءٌ ينْتَأ بقُوّة وشِدّة، فالأوّل: قارنتُ بين الشَّيئين... والقِرانُ: أن تَقْرِن حَجَّةً بعُمرة... وقَرِينةُ الرَّجُلِ: امرأتُه...».

إذن فقول ابن فارس عن الأصل الأول «قارنتُ بين الشَّيئين» جاء عند حديثه عن فعل «قرن» وليس «قرأ»، واللافت للنظر أن د. شحرور أقام على هذا الخطأ تعريفًا لمعنى «القراءة» فقال:

«القراءة عند العرب وهو العملية التعليمية؛ لأنها لا تكون إلا بالمقارنة، أي مقارنة الأشياء بعضها ببعض».

والحقيقة أن ابن فارس لم يذكر تحت كلمة «قَرَنَ» أي شيء له علاقة بـ «القراءة» أو «القرآن».

فإذا ذهبنا إلى مادة «قري» نجد ابن فارس يقول:

«قري: القاف والراء والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمع واجتماع، من ذلك القَرْية، سمِّيت قريةً لاجتماع النَّاس فيها... وإذا هُمِز هذا الباب كان هو والأوّل سواءً، يقولون: ما قرأَتْ هذه النّاقةُ سَلَىً، كأنَّه يُراد أنَّها ما حَملَتْ قطُّ... قالوا: ومنه القُرآن، كأنَّه سمِّي بذلك لجَمعِه ما فيه من الأحكام والقِصَص وغيرِ ذلك».

إذن فقد أورد ابن فارس كلمتي «قرأ» و«القرآن» تحت مادة «قري» وليس «قَرَنَ».

٤ ـ إن التعامل مع «آيات التنزيل الحكيم» يجب أن يكون وفق أدوات مستنبطة من ذات النص القرآني، وليس من خارجه، ولقد ذكرت هذه الأدوات عند حديثي عن منهجي في التعامل مع «التنزيل الحكيم».

ومن هذه الأدوات «علم السياق القرآني» الذي هو الميزان الذي يزن معنى الكلمة التي توافق الجملة القرآنية التي وردت فيها.

ففي سياق الحديث عن «التنزيل الحكيم»، يقول الله تعالى «القيامة / ١٦»:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾.

ثم فرّق الله بين «جمع» القرآن و«كيفية قراءته» فقال تعالى بعدها «القيامة / ١٧»:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾.

لبيان أن «قُرْآنَهُ» عملية تعليمية لكيفية قراءة «المنزل» وإظهار كلماته على لسان رسول الله، عليه السلام، الذي كان يتعجل به، وهذا ما أفاده قوله تعالى بعدها «القيامة/ ١٨»:

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾.

وهو أمر لرسول الله محمد باتباع قراءة جبريل، عليهما السلام، وتلاوة ما تعلمه عليه ليتحقق من صحتها.

إذن فكلمة «قُرْآنَهُ» لم تستخدم في هذا السياق إلا لبيان أن «القرآن» سُمّي «قرآنا» لأن القارئ يُظهره على لسانه ويُلقيه على مسامع الناس، الذين عليهم أن يستمعوا له وينصتوا «الأعراف/ ٢٠٤»:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثامنًا:

يقول د. شحرور «ص ٩٥»:

قلنا: إن «القرآن» هو الحديث، وأنه جاء من «قرن» قوانين أحداث الطبيعة مع أحداث التاريخ بعد وقوعها حيث أنها أخذت صفة الحتمية بعد وقوعها لا قبله، أي «قرن» بين القوانين الناظمة لأحداث الطبيعة والقوانين الناظمة لأحداث التاريخ.

لنرجع الآن لأول قصة يوسف «يوسف/ ١ ـ ٣»:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ

نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

في أول السورة اسم إشارةٍ لآيات السور حيث قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

ثم ذكر «القرآن» بعد «الكتاب المبين»، وربط القصص بوحي «القرآن»: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

«بما» هنا جاءت بمعنى «بالذي»، وليؤكد أن القصص من القرآن قال: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

فـ «الهاء» هنا تعود على «القرآن»، فالنبي ﷺ قبل الوحي كان غافلًا عن قوانين الوجود وعن قوانين التاريخ وأحداثه معًا.

ثم نرى في آخر قصة يوسف قوله تعالى «يوسف / ١١١»:

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

فالحديث هو «القرآن» لأنه «قرن» أحداث الكون مع أحداث التاريخ، وسورة يوسف كلها قصص، والقرآن هو التصديق «يونس/ ٣٧»:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

لنأخذ الآن الآيات التالية:

أول سورة يوسف: «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

أول سورة الشعراء: «طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

أول سورة القصص: «طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

أول سورة النمل: «طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ».

ففي سورة يوسف والشعراء والقصص نرى أن محتويات السور كلها قصص لذا قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

أما في سورة النمل ففيها قصص وكونيات معًا، أي فيها من مواضيع القرآن كاملة قصص وكتاب مبين، لذا عطف كتابًا مبينًا على القرآن، أي الخاص على العام.

*** أقول:**

في الحقيقة ما كنت أريد استخدام تعبير «القص واللصق» في سياق النقض العلمي لقراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم، ولكن يبدو أن ما ذكره د. شحرور سابقًا أقل ما يوصف به أنه «قص ولصق» بغير علم.

١ ـ لقد ظن د. شحرور أن قول الله تعالى «يونس / ٣٧» هو البرهان على وجود كتاب ثالث «لامحكم ولامتشابه»، بدعوى أن الله تعالى في هذه الآية هو الذي سمّى الكتاب الثالث بـ «تفصيل الكتاب»، وعليه تصبح هذه الآية دالة على وجود ثلاثة مواضيع كما ذكر «ص ٥٦»:

أ: القرآن

ب: الذي بين يديه

ج: تفصيل الكتاب.

فتعالوا نلخص الصيغ المختلفة التي استخدمها د. شحرور في تقسيم محتوى «كتاب الله»:

- «القرآن والسبع المثاني»، الذي هو الآيات المتشابهات، والتي هي النبوة.
- «الذي بين يديه»، الذي هو الآيات المحكمات، التي هي أم الكتاب.
- «تفصيل الكتاب»، الذي هو الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات.

والسؤال:

ما الهدف من وراء تقسيم د. شحرور «كتاب الله» إلى هذه المواضيع «الكتب» المنفصلة السابق ذكرها؟!

إن الهدف الذي تؤكده نتائج قراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم، هو:

إسقاط «أحكام القرآن»، بدعوى أنها من «الآيات المحكمات» وليست من «الآيات المتشابهات»، أي ليست من «النبوة».

*** أقول:**

وهل «القرآن» الذي ورد في القسم الأول من بدعة التقسيم:

«القرآن والسبع المثاني = الآيات المتشابهات = النبوة».

هو نفس «القرآن» الذي طلب الله تعالى من الإنس والجن أن يأتوا بمثله، فقال تعالى «الإسراء / ٨٨»:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾؟!

وإذا كان هو نفس «القرآن»، فهل معنى ذلك أن بإمكان الإنس والجن أن يأتوا بمثل:

ـ «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب ـ الذي بين يديه».

ـ «تفصيل الكتاب ـ الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات»؟!

وعليه يكون تعهد الله بحفظ «الذكر»، في قوله تعالى «الحجر / ٩»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

يعني فقط حفظ: «القرآن ـ السبع المثاني ـ الآيات المتشابهات ـ النبوة»؟!

٢ ـ إن المتدبر لـ «آيات التنزيل الحكيم»، العالم بأدوات التعامل معها وفي مقدمتها علوم اللغة العربية وعلم السياق القرآني، يستحيل أن يفهم من هذه الآيات التي ذكرها د. شحرور ما فهمه هو، بل ويقف حائرًا أمام هذه المعلومات الغيبية التفصيلية التي جاء بها، والتي لا علاقة لها بسياق الآيات.

فمن أين جاء د. شحرور بأن لفظ «حديث» في «التنزيل الحكيم» يُقصد به جزء منه وهو «القرآن»، الذي حمل «القصص»، بدعوى أن الله تعالى قال عنها «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى»، وأن السور التي احتوت القصص، كسورة يوسف، بدأت بقوله تعالى «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، باستثناء سورة النمل بدأت بـ «تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ» لأنها احتوت على قصص وكونيات معًا؟!

وطبعا د. شحرور يقصد بقوله «وكونيات» الآيات المتشابهات التي لا يتبعها إلا الذين في قلوبهم زيغ.

فماذا عن السورة الوحيدة التي احتوت آياتها كلها قصة كاملة، وهي سورة المسد:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ (٥)﴾؟!

٣ ـ إن باقي السور التي بدأت بقول الله تعالى:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

و﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

قد احتوت بالإضافة إلى القصص، بيانًا لأصول الإيمان، ولحجية «التنزيل الحكيم»، وخير مثال على ذلك السورة التي حملت اسم صاحب قصتها وهي سورة «يوسف» عليه السلام، فقال تعالى «يوسف ١ ـ ٣»:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ (٣)﴾.

فهل لا يعلم د. شحرور، الذي جعل «الْقُرْآنَ عِضِينَ»، بوجود آيات في سورة يوسف لا علاقة لها بقصته وهي الآيات «١٠٢ ـ ١٠٤»:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأن هذا الحصر الوارد في الآية «يوسف / ١٠٤»:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

يعود إلى «القرآن» الذي ورد في أول السورة «يوسف / ٣»:

﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾.

ولقد وصف الله تعالى التنزيل الحكيم، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، بـ «الذكر الحكيم»، وقد أقر د. شحرور بهذا الوصف عند تعريفه للذكر «ص ٢١٣» فقال إنه:

«الصيغة اللغوية الإنسانية للكتاب كله، الذي جاء بلسان عربي مبين».

وعليه يكون «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» هو «الْقُرْآن الْمُّبِين» هو «الْحَقُّ الْمُبِينُ» هو «الْبَلاَغُ الْمُبِينُ»، فهذه كلها صفات لذات واحدة هي «التنزيل الحكيم».

وتصبح «سورة يوسف» وحدها كافية لإسقاط مشروع قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»، وسقوط مؤلفاته كلها، ذلك أن ما قام على باطل فهو باطل.

٤ ـ لقد وردت جملة «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» والآية التي تليها، في خمسة مواضع هي:

ـ «يوسف / ١ ـ ٢»: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، قبل أن نتحدث عن إنزاله «قُرْآنًا عَرَبِيًّا»؟!

ـ «الشعراء / ٢ ـ ٣»:

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، الذي تشير الآية إلى آياته؟!

ـ «القصص / ٢ ـ ٣»:

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، قبل الحديث عن «نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ»؟!

ـ «الزخرف / ٢ ـ ٣»:

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، قبل الحديث عن جعله «قُرْآنًا عَرَبِيًّا»؟!

ـ «الدخان / ٢ ـ ٣»:

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، قبل الحديث عن إنزاله «فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ»؟!

٥ ـ لقد وردت جملة «كِتَابٌ مُّبِينٌ» في سبعة مواضع هي:

ـ «المائدة/ ١٥»:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» المعطوف على «النور»؟!

ـ «الأنعام / ٥٩»:

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» الذي يحمل كل هذه الأشياء؟!

ـ «يونس / ٦١»:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» الذي يحمل كل هذه الأشياء، ومنها ما يتعلق بـ «الْقُرْآن»؟!

ـ «هود / ٦»:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» الذي يحمل كل ما يتعلق بـ «الدواب»؟!

ـ «النمل / ١»:

﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» المعطوف على «الْقُرْآن»؟!

ـ «النمل / ٧٥»:

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» الذي يحمل كل «غَائِبَةٍ»؟!

ـ «سبأ / ٣»:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ما هو هذا «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» الذي يحمل «علم الله» بكل ما يحدث في هذا الوجود صغر أو كبر؟!

*** أقول:**

لا توجد آية واحدة يُفهم منها أن «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» جزء من «التنزيل الحكيم» اسمه «القرآن».

ثالثًا:

مفهوم د. شحرور لمعنى «الفرقان» يقول د. شحرور «ص ٦٤»:

جاء لفظ «الفرقان» معرفًا بأل التعريف في ستة مواضع في الكتاب هي:

١ ـ يقول الله تعالى «البقرة / ٥٣»:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٢ ـ ويقول الله تعالى «البقرة / ١٨٥»:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

٣ ـ ويقول الله تعالى «آل عمران / ٣ ـ ٤»:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

٤ ـ ويقول الله تعالى «الأنفال / ٤١»:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

٥ ـ ويقول الله تعالى «الأنبياء / ٤٨»:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

٦ ـ ويقول الله تعالى «الفرقان / ١»:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

فأول ما جاء لفظ «الفرقان» لموسى، عليه السلام، وجاء معه الكتاب «البقرة / ٥٣»:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي أن «الفرقان» جاء إلى موسى على حدة، وجاء «الكتاب» على حدة، ففرقا عن بعضهما.

وهذا الفرقان قال عنه في «آل عمران / ٣ ـ ٤»:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

أي أن «الفرقان والتوراة والإنجيل» أنزلت قبل أن يأتي «الكتاب» إلى النبي ﷺ، ثم إن الفرقان الذي أنزل على موسى هو نفسه الذي أنزل على النبي ﷺ في رمضان «البقرة / ١٨٥»:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وبما أن الفرقان جاء معطوفًا على القرآن، يستنتج أن الفرقان غير القرآن، وهو جزء من أم الكتاب «الرسالة»، وأنزل ونزل في رمضان، وهذا الجزء أول ما أنزل إلى موسى عليه السلام.

*** أقول:**

١ ـ لماذا لم يذكر د. شحرور الآية التي وردت فيها كلمة «فُرْقَانًا» وهي قول الله تعالى «الأنفال / ٢٩»:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؟!

يجيب د. شحرور فيقول «ص ٤٩٢»:

«هنا نلاحظ أن الفرقان الخاص جاء منكرًا في هذه الآية، حيث تم تحديد بنود هذا الفرقان الخاص بمحمد ﷺ في سورة الفرقان «الآيات ٦٣ ـ ٧٦».

وهذا الكلام غير صحيح، فلا يوجد في التنزيل الحكيم فرقان عام وفرقان خاص، وهذه الآية «الأنفال / ٢٩» جاءت تبين التناغم بين المعنى اللغوي لكلمة «الفرقان» والمعنى السياقي، وهو: «التفريق والتمييز بين الحق والباطل».

إن «الفرقان» صفة لشيء مادي، من حمله وعمل بما جاء به، يستطيع «التفريق والتمييز بين الحق والباطل»، وهذا الشيء المادي هو «كتاب الله» الذي حمله الرسل للناس على مر الرسالات.

وهذا هو المعنى الذي حملته الآيات الست التي ذكرها د. شحرور سابقًا، ولا علاقة له بورود كلمة «الفرقان» معرفة أو منكرة، وهذا ما أفاده قول الله تعالى «الفرقان/ ١»:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

فـ «الفرقان» الذي نزل على رسول الله محمد، عليه السلام، هو «كتاب الله» الذي بين أيدي الناس، والذي نزل لـ «التفريق والتمييز بين الحق والباطل».

٢ ـ فما علاقة أن ترد كلمة «الفرقان» بهذا المعنى في أول آية من آيات التنزيل الحكيم، وهي «البقرة / ٥٣»:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

يقول د. شحرور:

«أي أن الفرقان جاء إلى موسى على حدة، وجاء الكتاب على حدة، ففرقا عن بعضهما»؟!

أو أن ترد كلمة «الفرقان» في سياق قوله تعالى «البقرة / ١٨٥»:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

يقول د. شحرور:

«وبما أن الفرقان جاء معطوفًا على القرآن، يستنتج أن الفرقان غير القرآن»؟!

فمن قال إن كلمة «الفرقان» جاءت معطوفة على «القرآن»؟!

إن جملة «مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» جار ومجرور متعلق بـ «بَيِّنَاتٍ»، وكلمة «الْهُدَى» مجرورة بـ «مِّنَ»، ولقد قدّرت الكسرة على آخر كلمة «الْهُدَى» للتعذر.

وجاءت كلمة «الْفُرْقَانِ» معطوفة بالواو على «الْهُدَى» ومجرورة مثلها بالكسرة، ذلك أن المعطوف يكون تابعًا للمعطوف عليه في الحكم الإعرابي.

أما «القرآن» فـ «نائب فاعل» مرفوع بالضمة، بعيدًا تمامًا عن العطف والجر.

٣ ـ إن الإشكالية التي أسقطت قراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم من قواعدها، هي إلحاده في آيات الله وتحريف كلماتها عن معناها اللغوي والسياقي، وعدم التفريق بين التعبير عما هو «مادي» وما هو «معنوي».

إن «الفرقان» ليس شيئًا ماديًا تدركه الحواس كـ «كتاب الله» الذي بين أيدي الناس، وإنما صفة لهذا الكتاب كصفة «الحكمة»، التي وردت في قول الله تعالى «النساء / ١١٣»:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ ـ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ـ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

فما الفرق بين قول الله تعالى «آل عمران / ٣ ـ ٤»:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ... وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ... ﴾.

وقوله تعالى «النساء / ١١٣»:

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؟!

ولذلك لم يفهم د. شحرور أن كلمة «فُرْقَانًا» التي وردت في قول الله تعالى «الأنفال / ٢٩»:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾.

جاءت تبين التناغم بين المعنى اللغوي لكلمة «الفرقان» والمعنى السياقي، وأن من يتقي الله يجعل له «فُرْقَانًا» يُفرق به ويُميز بين الحق والباطل، وأن هذه الآية لا علاقة لها ببنود الآيات «الفرقان / ٦٣ ـ ٧٦».

إن الآيات «الفرقان / ٦٣ ـ ٧٦» جاءت تبين صفات عباد الرحمن، كأي آيات تتعلق ببيان صفات المؤمنين، صفات المتقين...، ولم ترد فيها كلمة «الفرقان» أصلًا، واسم السورة ليس قرينة على أن هذه الآيات بالذات لها علاقة بموضوع «الفرقان» الذي يبحثه د. شحرور.

٤ ـ إن الجملة الأولى من الآية «آل عمران / ٣»:

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

تتعلق بـ «الْكِتَابَ» الذي نزل على رسول الله محمد، عليه السلام، والذي هو «التنزيل الحكيم».

والجملة الثانية من الآية: «وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ»: تتعلق بإنزال التوراة والإنجيل على موسى وعيسى، عليهما السلام.

فإذا ذهبنا إلى الجملة الأولى من الآية «آل عمران / ٤»:

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾.

وجدناها تبيّن أن نزول التوراة والإنجيل كان قبل إنزال «الْكِتَابَ» على رسول الله محمد «هُدًى لِّلنَّاسِ».

ثم جاء قول الله تعالى بعدها «وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ» لبيان أن «الرسالات الإلهية كلها» نزلت لتعليم الناس كيف «يُفرّقون بين الحق والباطل»، وهذا ما أفاده قوله تعالى عن رسالة موسى، عليه السلام، «البقرة / ٥٣»:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وقال تعالى عن رسالة رسول الله محمد، عليه السلام، «الفرقان / ١»:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ولقد جاءت الجملة الثانية من «الآية ٤»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

لبيان أن الذي أنزله الله على الرسل، سواء سُمّي «كتابًا» أو «قرآنًا» أو «توراةً» أو «إنجيلًا» أو «فرقانًا» أو «نورًا» أو «حكمةً»، هو «آيات الله» التي من كفر بها له «عَذَابٌ شَدِيدٌ».

٥ ـ ثم يسأل د. شحرور «ص ٦٥»:

فما هو «الفرقان» الذي جاء إلى موسى على حدة مفروقًا عن الكتاب؟!

ويجيب فيقول: لو تأملنا الآيات «الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٣»:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

لم يكن من الصعوبة أن نستنتج أنها هي «الوصايا العشر».

ودليل د. شحرور على ذلك هو قوله بعدها: ونلاحظ الآية التي تلت هذه الآيات الثلاث، وهي قول الله تعالى «الأنعام/ ١٥٤»:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

تبين بشكل جلي كيف أن هذه الوصايا جاءت لموسى مفصولة عن الكتاب، وأن الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى هو التشريع فقط، وليس التوراة والإنجيل، وذلك واضح تمامًا في قوله تعالى عن عيسى «آل عمران/ ٤٨»:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾.

ثم يقول د. شحرور «ص ٦٦»: لنقارن هذه «الوصايا العشر»، والتي أتى بعدها «الأنعام/ ١٥٤»: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ»، وقوله تعالى «البقرة/ ٥٣»:

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

بقوله «آل عمران/ ٤»: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

أي أنها أنزلت قبل محمد، ﷺ.

وبقوله «الفرقان/ ١»:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي أنها أنزلت على محمد، ﷺ، أيضًا.

ثم يخرج د. شحرور بنتيجة ويقول:

«نستنتج أن الفرقان هو الوصايا العشر التي جاءت إلى موسى، وثبتت إلى عيسى، عليهما السلام، ثم جاءت إلى محمد، ﷺ، وهي رأس الأديان السماوية الثلاثة

وسنامها، لأنها القاسم المشترك بين الأديان الثلاثة، وفيها التقوى الاجتماعية وهي ما يسمى بالأخلاق، وليست العبادات، وهي تحمل الطابع الإنساني العام».

ويستكمل حديثه فيقول:

«ولقد أنزلت هذه الآيات على النبي ﷺ في رمضان، وبما أنها من أم الكتاب فإنها أُنْزِلَت وَنُزِّلَتْ معًا، ولذا قال «الفرقان/ ١»:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ثم يُدخل «التراث الديني» في قراءته المعاصرة ويقول: «ونحن نعلم أن معركة بدر حصلت في رمضان، وأن آيات الفرقان في سورة الأنعام ليست مكيةً، فهنا أخبرنا أن «الفرقان» أنزل على رسول الله ﷺ في معركة بدر في «رمضان» لذا سمي بـ «يوم الفرقان» بقوله «الأنفال / ٤١»:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

٦ ـ أقول:

من الواضح أن د. شحرور لم يطلع على «الوصايا العشر» في العهدين «القديم والجديد»، وخرج بنتائج من وحي خياله يدعي أنها قراءة معاصرة للآيات السابق ذكرها، فإذا بالعهدين يكذبانه.

أ: إن «الوصية» في اللغة تعني «العهد»، فأوصى الرجل ووصّاه: عهد إليه، وأوصيت له بشيء وأوصيت إليه: إذا جعلته وصيك، وتواصى القوم: أي أوصى بعضهم بعضًا.

ب: وليس شرطًا أن تحمل صيغة «الوصية» مادة «وصّى»، فأي كلام يحمل ما يفيد طلب فعل شيء من الآخرين، أو أن العهد إليهم بفعل شيء، فهو من باب «الوصية»، كقوله تعالى «البقرة / ١٢٥»:

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ففهم إبراهيم وإسماعيل أن الله تعالى يوصيهم بتطهير البيت الحرام.

ج: ولقد ذُكرت «الوصايا العشر»، وتسمى أيضًا بـ «الكلمات العشر»، في سفرين من أسفار التوراة هما:

«سفر الخروج / ٢٠: ١ ـ ١٧».

«سفر التثنية / ٥: ٦ ـ ٢١».

واختلفت «الوصايا العشر» في «سفر التثنية» عنها في «سفر الخروج» باعتبار أن المتحدث فيها هو موسى، عليه السلام، وليس الله تعالى.

ولهذا أطلق على هذا السفر «سفر التثنية»، أي «التكرار»، لتذكير بني إسرائيل بتاريخهم الماضي وتلقي موسى، عليه السلام الوصايا من الله على جبل سيناء، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بحسب التاريخ العبري.

د: ويعلم «المؤرخون»، و«الكنيسة» نفسها، أن المسيح لم يكتب شيئًا قط، بل ولم يأمر أحدًا من تلاميذه بتدوين أقواله وأعماله، ولكن بعد رفعه إلى السماء، ولأسباب عديدة بدأ المسيحيون الأوائل بكتابة مستندات وكتب ورسائل تشير إلى حياة المسيح وتعاليمه، وكان ذلك بعد منتصف القرن الأول للميلاد.

وهذا الذي فعله «المسيحيون» بعد رفع المسيح، هو نفس ما فعله «المحدثون» من تدوين مرويات الرواة المنسوبة إلى رسول الله محمد، عليه السلام، بعد قرن ونصف قرن من وفاته.

٧ ـ لقد أوصى الله تعالى الأنبياء والرسل بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، فقال تعالى «الشورى / ١٣»:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ـ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ـ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ـ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾.

والمتدبر لهذه الآية، يعلم أن الوصية ليست للرسل أنفسهم، وإنما لأقوامهم الذين آمنوا بهم واتبعوهم، وجاء الخطاب «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ» للذين اتبعوا رسول الله محمدًا، عليه السلام، في عصر التنزيل.

والسؤال:

لماذا لم ترد الوصية بـ «عدم التفرق في الدين» لا في العهدين «القديم والجديد»، ولا ضمن وصايا «الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٢»، ولا ضمن وصايا «الإسراء/ ٢٢ ـ ٣٨»، في الوقت الذي لا تقل فيه أهمية هذه الوصية «الشورى / ١٣»:

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾.

عن الوصية «الأنعام / ١٥١»:

﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؟!

وعن الوصية «الإسراء / ٢٢»:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾.

أما عن قوله تعالى «الأنعام / ١٥٣»:

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فإن هذه الآية تتعلق بالقاعدة الإيمانية التي قامت عليها «الوصايا» التي سبقتها، وهي قاعدة «الصراط المستقيم» الذي قوامه «التقوى» والذي أشارت إليه جملة «وَأَنَّ هَـٰذَا»، ليتناغم مع قوله تعالى بعد عدة آيات «الأنعام / ١٦١»:

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ ـ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ـ دِينًا قِيَمًا ـ مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ـ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وعليه يصبح عدد الوصايا «تسع»، وليس «عشر» وصايا.

٨ ـ والآن تعالوا نتعرف على «الوصايا العشر» في العهدين «القديم والجديد»:

«الوصية الأولى»:

«أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي...».

* وفي «العهد الجديد»:

«أنا هو الربّ إلهك لا يكنْ لك إله غيري».

وحذفت «الكنيسة الكاثوليكية» جملة: «الذي أخرجك من أرض مصر بيت العبودية».

«الوصية الثانية»:

«لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورة مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض...».

* وفي «العهد الجديد»:

حذفت «الكنيسة الكاثوليكية» هذه الوصية تمامًا، كما حذفت غيرها من «العهد القديم»، وذلك لمخالفتها لتعاليمها، على أساس أنها لا تُحرّم صناعة التماثيل والسجود لها، وخاصة تماثيل المسيح وأمه والقديسين.

الأمر الذي جعل «الكنيسة الكاثوليكية» تقوم بتقسيم «الوصية التاسعة» إلى قسمين لتحافظ على عدد «الوصايا العشر».

*** وأقول:**

لماذا لم يذكر الله تعالى هذه الوصية:

«لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورة».

ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١-١٥٢» إذا كانت:

«الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي التي نزلت على عيسى هي التي نزلت على محمد، عليهم السلام».

كما تدعي قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

«الوصية الثالثة»:

«لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلًا...».

وفي «العهد الجديد»:

«لا تحلِفْ باسم الرب إلهك باطلًا».

*** وأقول:**

لماذا لم يذكر الله تعالى هذه الوصية:

«لا تنطق باسم الرب إلهك باطلًا».

ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١-١٥٢» إذا كانت:

«الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي التي نزلت على عيسى هي التي نزلت على محمد، عليهم السلام».

كما تدعي قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

مع العلم أن هذه الوصية وردت في «التنزيل الحكيم» خارج سورة الأنعام، وهي قول الله تعالى «البقرة / ٢٢٤»:

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾.

فكيف تكون «الوصايا العشر» محصورة فقط في سورة «الأنعام / ١٥١-١٥٢»؟!

«**الوصية الرابعة**»:

«أذكر يوم السبت لتقدسه...».

وسبب تقديس «يوم السبت» يرجع إلى:

أ: حسب ما ورد في «سفر الخروج»: أن تقديس يوم السبت والانقطاع عن العمل فيه بسبب: «أن الله خلق العالم في ستة أيام واستراح في اليوم السابع».

ب: حسب ما ورد في «سفر التثنية» أن السبب هو: «الاعتراف بخروج الشعب من أرض العبودية».

أي أنهم اختلفوا في «الوصية»، والسؤال:

هل «ملة إبراهيم» يمكن أن تحمل كتبها «وصية إلهية» بوجوب الانقطاع عن العمل «يوم السبت»؛ لأنه اليوم الذي انقطع الله فيه عن العمل واستراح؟!

ألم يقرأ د. شحرور يوما الآية التي أنزلها الله للرد على هذا الافتراء اليهودي، وهي قوله تعالى «ق / ٣٨»:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾.

إلا إذا كان قرأها ولم يفهم معنى «وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ».

* فإذا ذهبنا إلى «العهد الجديد» وجدناهم يكفرون بقدسية «يوم السبت» أصلًا، وغيّروا صيغة الوصية لتصبح: «احفظْ يومَ الربّ».

ورفضت المسيحية ذكر «يوم السبت»، وحوّلت قدسيته إلى «يوم الأحد»، باعتباره اليوم الذي فيه صلب المسيح ومات ودفن وقام.

*** وأقول:**

لماذا لم يذكر الله تعالى هذه الوصية:

«أذكر يوم السبت لتقدسه».

ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٢» إذا كانت:

«الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي التي نزلت على عيسى هي التي نزلت على محمد، عليهم السلام».

كما تدعي قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

«**الوصية الخامسة**»:

«أكرم أباك وأمك ليطول عمُرك في الأرض التي يعطيك الربّ إلهك»

وزاد «سفر التثنية»: «كما أمرك الربّ إلهك، ولكي تُصيب خيرًا في الأرض».

والمطلع على الأحكام المترتبة على هذه الوصية، يجد عقوبة على مخالفتها يستحيل أن يجدها في وصايا القرآن وأحكامه وهي:

«من ضرب أباه أو أمه يُقتل قتلًا... ومن شتم أباه أو أمه يُقتل قتلًا».

وجاء في «سفر التثنية»:

«من يعاند ولا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه يرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت، ومن يستخف بأبيه أو أمه يصير تحت اللعنة».

وفي «العهد الجديد»:

«أكرم أباك وأمك»: حيث تعتبر المسيحية أن الوالدين امتدادًا لله تعالى، واتبعت ما ورد في «العهد القديم».

«الوصية السادسة»:

«لا تقتل»: حيث تؤكد على حرمة إراقة الدماء بغير حق.

* وفي «العهد الجديد»: «لا تقتـل»: واتبعت ما ورد في «العهد القديم».

«الوصية السابعة»:

«لا تزنِ»: حيث تؤكد على حرمة خيانة «الميثاق الزوجي».

والمطلع على الأحكام المترتبة على هذه الوصية، يجد عقوبة على مخالفتها يستحيل أن يجدها في وصايا القرآن وأحكامه وهي ما ورد في «سفر اللاويين»:

«أيّ رجل زنى بامرأة رجل، فليقتل الزاني والزانية».

وفي «العهد الجديد»:

«لا تزن»: وجعلت المسيحية عقوبة الزنا «غضب الرب».

*** وأقول:**

لماذا لم يذكر الله تعالى هذه الوصية: «لا تزنِ»: ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١-١٥٢» إذا كانت:

«الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي التي نزلت على عيسى هي التي نزلت على محمد، عليهم السلام».

كما تدعي قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

ولا يدخل في تحريم «الزنا» قول الله تعالى الوارد ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١-١٥٢»:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

ذلك أن هذه الآية تتحدث عن «الفواحش» بوجه عام، بقرينة ورود «الزِّنَى» في سياق وصايا سورة الإسراء، حيث يقول الله تعالى «الإسراء / ٣٢»:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

فهل هذا يعني أن «الزنا» هو الْفَوَاحِشَ «وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ» أم من الْفَوَاحِشَ «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا»؟!

فإذا اعتبرنا أن قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾.

من «الوصايا»، إذن يصبح عدد «الوصايا» يزيد على «العشرة» بكثير.

«**الوصية الثامنة**»:

«لا تسرق»: حيث تؤكد على أن حقّ الملكيّة مقدّس.

* وفي «العهد الجديد»: «لا تسرق».

*** وأقول:**

إن الله تعالى لم يذكر هذه الوصية «لا تسرق» ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٢» إذا كانت:

«الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي التي نزلت على عيسى هي التي نزلت على محمد، عليهم السلام».

كما تدعي قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

«**الوصية التاسعة**»:

«لا تشهد على قريبك شهادة زور»: ذلك أن شهادة الزور تعني الكذب، ومن يكذِب يعاقب.

* وفي «العهد الجديد»: «لا تشهد بالزور».

*** وأقول:**

لماذا لم يذكر الله تعالى هذه الوصية «لا تشهد على قريبك شهادة زور» ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٢» إذا كانت:

«الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي التي نزلت على عيسى هي التي نزلت على محمد، عليهم السلام»

كما تدعي قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

«الوصية العاشرة»:

«لا تشته بيت قريبك ولا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك».

* وفي «العهد الجديد»:

هنا اضطرت ««الكنسية الكاثوليكية»، نتيجة حذف الوصية الثانية من «العهد القديم»، أن تقوم بتقسيم هذه الوصية إلى قسمين لتكتمل الوصايا العشر:

فجعلت «الوصية التاسعة»: «حرمة اشتهاء امرأة القريب».

و«الوصية العاشرة»: «حرمة اشتهاء بيت القريب ومقتنياته».

*** أقول:**

لماذا لم يذكر الله تعالى هذه الوصية:

«لا تشته بيت قريبك ولا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لقريبك».

ضمن وصايا سورة «الأنعام / ١٥١-١٥٢» إذا كانت:

«الوصايا العشر التي نزلت على موسى هي التي نزلت على عيسى هي التي نزلت على محمد، عليهم السلام».

كما تدعي قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

٩ ـ إن أي إنسان عاقل، على دراية باللغة العربية، يضع أمامه الوصايا التي وردت في سورة «الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٢»، والوصايا التي وردت في العهدين «القديم والجديد»:

وبغض النظر عن الخلاف حول موضوعاتها وتاريخ تدوينها.

يستحيل أن يقبل هذه النتيجة التي توصل إليها د. شحرور وقوله:

نستنتج أن «الفرقان» هو «الوصايا العشر» التي:

١ ـ جاءت إلى موسى عليه السلام.

٢ ـ وثبتت إلى عيسى، عليه السلام.

٣ ـ ثم جاءت إلى محمد، عليه السلام.

ولا أن يقبل ما قاله بعدها:

«لأنها القاسم المشترك بين الأديان الثلاثة، وفيها التقوى الاجتماعية، وهي ما يسمى بالأخلاق، وليست العبادات، وهي تحمل الطابع الإنساني العام».

فأين هذا «الطابع الإنساني العام» في أن يحمل الكتاب المقدس، «العهد القديم»، عقوبة «القتل» لمن يضرب أو يشتم أبويه؟!

وعندما يقول د. شحرور «ص ٦٦»:

«وقد سميت الوصايا الصراط المستقيم لأنها لا تتغير أبدًا، حيث إن الأخلاق مبادئ إنسانية عامة وهي من ثوابت الدين الإسلامي ولا تحمل طابع التغير مع الزمن والتطور والمرونة الحنيفية مثلها في ذلك مثل العبادات، وفي الدين الإسلامي الوصايا والحدود والعبادات هي الصراط المستقيم، أي التقوى الاجتماعية في الوصايا، والتقوى الفردية في العبادات».

فأين هذه الوصايا «الصراط المستقيم» التي لم تتغير أبدا، في إطار في سبق بيانه عن وصايا العهدين القديم والجديد، وعلاقتهما بما ورد في سورة «الأنعام/ ١٥١- ١٥٢» من وصايا؟!

وإذا كان «الفرقان»، الذي هو «الوصايا العشر»، قد نزل أولًا على موسى، ثم على عيسى، ثم على محمد، عليهم السلام، فلماذا لم يتضمن ما حرمه الله على الذين هادوا «الأنعام/ ١٤٦»:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾؟!

*** أقول:**

إن ما ورد في «التنزيل الحكيم» من توجيهات ووصايا يجب أن يُنظر إليه بمنظار الطاعة والتسليم باعتباره وصية الله تعالى:

أ: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

ب: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

ج: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

رابعًا:

مفهوم د. شحرور لمعنى «الذكر»:

يقول د. شحرور «ص ٦٢»:

«فإذا أخذنا لفظة الذكر في الآيتين:

قول الله تعالى «الحجر / ٦»: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾.

وقول الله تعالى «الحجر / ٩»: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

لوجدنا أنها جاءت معرفة بال التعريف، وكذلك الآية «ص / ١»: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

وإذا نظرنا إلى الربط بين «القرآن» و«الذكر» في الآية السابقة «ص/ ١»، لوجدناهما مربوطين بأداة «ذي»، وهذه الأداة تستعمل للدلالة على صفة الشيء لا على الشيء نفسه.

يقول الله تعالى «الفجر / ١٠»: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾.

ففرعون شيء، والأوتاد شيء آخر، والآية تعني أن فرعون صاحب الأوتاد.

وكقوله «القلم / ١٤»: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾: أي صاحب مال.

فالقرآن هنا هو الموصوف، والذكر هو الصفة «وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ»، أي القرآن صاحب الذكر.

فما هي هذه الصفة الخاصة بـ «القرآن» والتي تسمى «الذكر»؟!

إن «القرآن» مجموعة القوانين الموضوعية الناظمة للوجود ولظواهر الطبيعة والأحداث الإنسانية، وأساسه غير لغوي، ثم جعل لغويًا لقوله «الزخرف / ٣»:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وانتقال «القرآن» إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربي، تم بصيغة منطوقة، لذا فهو يتلى بصيغة صوتية منطوقة مسموعة، أو غير مسموعة، وهذه هي الصيغة التي أشهر بها القرآن، وبها يذكر بين الناس، كما جاء في قوله تعالى «الانشراح / ٤»: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

وقوله «يوسف / ٤٢»: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

فـ «الذكر» هو تحول «القرآن» إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي، وهذه هي الصيغة التي يذكر بها القرآن.

وبما أن هذه الصيغة عربية فقد قال للعرب «الأنبياء / ١٠»:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

❋ أقول:

١ ـ يقول د. شحرور إن أداة «ذي» تستعمل للدلالة على صفة الشيء لا على الشيء نفسه، وضرب مثلا بقول الله تعالى «الفجر / ١٠»: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾.

وقال: ففرعون شيء، والأوتاد شيء آخر.

وبقوله تعالى «القلم / ١٤»: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

فقال: أي صاحب مال.

ولكن هناك آيات لا تنفصل فيها الصفة عن الموصوف، سواء كانت الصفة جزءًا من الموصوف: يقول الله تعالى «الأنعام / ١٤٦»:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾.

فهل «الظفر» منفصل عن الدابة أو الطير؟!

ويقول الله تعالى «البلد / ١٤»: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾.

فهل «المَسْغَبَةِ»، أي المجاعة، منفصلة عن اليوم الذي حدثت فيه؟!

ويقول الله تعالى «الرحمن / ٧٨»: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

فهل «الجلال» منفصل عن «اسْمُ رَبِّكَ»؟!

فإذا كان «الكتاب» غير «القرآن»، كما يدعي د. شحرور، فقد ورد لفظ «الذكر» في سياق الحديث عن الكتاب كما ورد في سياق الحديث عن القرآن، فقال الله تعالى «الأنبياء / ١٠»:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ولذلك وصف الله تعالى التنزيل الحكيم كله بـ «الذكر» فقال الله تعالى «الطلاق/ ١٠»:

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

ثم بيّن الله ما هو «الذكر» المنزل على رسول الله محمد، عليه السلام، فقال تعالى بعدها «الطلاق / ١١»:

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾.

فبأي منطق نحصر «آيات الله» التي تلاها رسول الله على قومه في «القرآن» الذي يعني عند د. شحرور جزءًا من هذه الآيات المنزلة، وهو «الآيات المتشابهات»؟!

وعندما يقول الله تعالى «الزخرف / ٤٣ ـ ٤٤»:

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ... ﴿٤٤﴾﴾.

فبأي منطق نجعل الضمير في «إِنَّهُ» لا يعود على الوحي كله الذي أمر الله رسوله أن يستمسك به، وإنما يعود فقط على جزء منه وهو «الآيات المتشابهات»؟!

وعندما يقول الله مبيّنا أن آيات التنزيل الحكيم كانت تتنزل على فترات، فقال تعالى «الأنبياء / ٢»:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

فبأي منطق نحصر هذا الذكر المنزل على فترات في «الآيات المتشابهات»؟!

وعندما يقول الله تعالى في نفس السورة «الأنبياء / ٥٠»:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

فبأي منطق نحصر اسم الإشارة «هَذَا» في «الآيات المتشابهات»؟!

وعندما يصف الله «التنزيل الحكيم»، الذي هو «كتاب الله»، والذي هو «القرآن»، فيقول تعالى: «ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ».

فبأي منطق نفهم كلمة «الذكر» بمعنى: «الصيغة اللغوية الإنسانية المنطوقة بلسان عربي» والخاصة بجزء من التنزيل الحكيم الذي هو «القرآن»، أي «الآيات المتشابهات»، التي بيّن معناها د. شحرور سابقًا فقال:

«إن القرآن مجموعة القوانين الموضوعية الناظمة للوجود ولظواهر الطبيعة والأحداث الإنسانية، وأساسه غير لغوي، ثم جعل لغويًا».

والسؤال:

من أين جاء د. شحرور ببدعة: أن أساس القرآن كان «غير لغوي» ثم أصبح «لغويًا»؟!

يقول إنه عرف ذلك من كلمة «جَعَلْنَاهُ» في الآية «الزخرف / ٣»:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

واللافت للنظر أنه لم يُبيّن هنا معنى «الجَعْل» الذي على أساسه توصل إلى أن أساس القرآن لم يكن لغويًا، وبيّنه «ص ٢٠٢» في سياق حديثه عن «مراحل الخلق» فقال: «والجعل هو التغير في الصيرورة».

يستند في ذلك إلى فعل «الجعل» في قوله تعالى «الأعراف / ١٨٩»:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ..﴾.

على أساس أن أصل «الخلق» بكلمة «كن»، وهو ما أفادته جملة «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا» في قوله تعالى «النساء / ١»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ـ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ـ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...﴾.

أي أن الناس جاءوا إلى هذه الدنيا عن طريق زوجين: ذكر وأنثى، خلقهما الله تعالى بكلمة «كن»، قال تعالى «الحجرات / ١٣»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ـ إِنَّا (خَلَقْنَـٰكُم) مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ـ (وَجَعَلْنَـٰكُمْ) شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ..﴾.

إذن فـ«الخلق» يسبق «الجعل»، و«الجعل» هو «تغير في الصيرورة» على حد قول د. شحرور.

*** أقول:**

إنه لا توجد آية قرآنية واحدة دالة على أن «الجعل» الوارد في جملة «جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» قد سبقه «خلق للقرآن» على أساس «غير لغوي»، أي «غير عربي»، وعليه يسقط قول د. شحرور:

أ: إن القرآن كان بصيغة لغوية غير إنسانية.

ب: ثم انتقل القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية بلسان عربي.

ج: ثم إلى صيغة صوتية منطوقة مسموعة أو غير مسموعة وهي التي يذكر بها القرآن.

٢ ـ لقد جاءت جملة «الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ»، في قول الله تعالى «الحجر / ٦»:

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾.

جاءت في سياق اتهام الكافرين للرسول بالجنون، بسبب هذا «الذكر» الذي أنزله الله عليه، وجاءت الكلمة مُعرّفة بأل التعريف لبيان أن الكافرين كانوا يقصدون «التنزيل الحكيم» المعروف لهم، والذي كان يتنزل على فترات.

فهل يُعقل أن يكون اتهام الكافرين للرسول بالجنون بسبب جزء من هذا «التنزيل الحكيم» الذي هو «القرآن»، أما باقي الأجزاء فقد كان الرسول فيها عاقلًا؟!

نعم، هذا يُعقل عند د. شحرور لأنه القائل: «فالذكر هو تحول (القرآن) إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي، وهذه هي الصيغة التي يذكر بها (القرآن)».

ولقد نزل الرد على الكافرين فقال الله تعالى «الحجر / ٩»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

فهل يُعقل أن يحصر الله تعهده بحفظ «الذكر» في جزء من التنزيل الحكيم هو «القرآن»، أما باقي الأجزاء التي ابتدعها د. شحرور فخارج دائرة الحفظ؟!

٣ ـ لقد فهم د. شحرور أن المقصود بكلمة «ذِكْرَكَ» في قوله تعالى «الانشراح / ١ ـ ٤»:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾.

أن المقصود هو صيغة «القرآن» اللغوية الإنسانية المنطوقة بـ «اللسان العربي»، والتي أشهر بها القرآن وبها يُذكر بين الناس.

فإذا تدبرنا توجه الضمائر في هذه السورة، وجدناها تعود كلها إلى رسول الله محمد، عليه السلام: «صَدْرَكَ ـ وِزْرَكَ ـ ظَهْرَكَ ـ ذِكْرَكَ».

ولا علاقة لها مطلقًا بذكر وشهر «القرآن»، وإنما بذكر وشهر مقام رسول الله بين الناس، ولم يحدث أن خاطب الله رسوله في سياق الحديث عن «التنزيل الحكيم» بقوله «كتابك» أو «قرآنك» حتى يفهم د. شحرور أن كلمة «ذِكْرَكَ» تعود إلى «القرآن»!!

ثم يقول د. شحرور «ص ٦٢»:

«فهذه الصيغة للكتاب التي بين أيدينا وهي صيغة عربية، هي صيغة محدثة بلسان إنساني، وغير قديمة، وذلك ليذكر بها القرآن من الناس لذا قال «الأنبياء / ٢»:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾.

لاحظ هنا دقة التعبير في الكتاب عندما قال عن «الذكر» إنه «محدث»، ولم يقل «القرآن».

ثم نتدبر ماذا قال بعدها:

«ولا ننسى أن الذكر ليس القرآن نفسه، بل هو أحد صفات القرآن «ص / ١»: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

وهذا الفهم يحل المعضلة الكبرى التي نشأت بين «المعتزلة» وخصومهم حول «خلق القرآن».

فإذا عرفنا الآن أن الذكر ليس القرآن نفسه، وإنما هو إحدى خواصه وهو صيغته اللسانية حصرًا يزول الالتباس.

لذا فقد وضع الكتاب شرطًا لفهم آياته بقوله «الأنبياء / ٧»:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

ونتدبر ماذا قال بعدها:

«هنا يجب أن نفهم أن أهل الذكر هم أهل اللسان العربي، هذه الصيغة المحدثة هي التي أخذت الصيغة التعبدية، فعندما يتلو الإنسان الكتاب بصيغته اللسانية الصوتية، بغض النظر عن فهم المضمون، تكون تلاوته عبادة تساوي الناس فيها جميعًا عربًا أو غير عرب.

فإذا وقف في الصلاة مسلمان عربي وغير عربي، وكلاهما تلا الذكر، بغض النظر عن فهم المضمون، فصلاتهما مقبولة.

لذا قال «طه / ١٤»: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾.

٤ ـ إن استدلال د. شحرور بالآية «الأنبياء / ٢»:

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾.

وقوله: «هذه الصيغة صيغة محدثة بلسان إنساني وغير قديمة».

ثم قوله: «لاحظ هنا دقة التعبير في الكتاب عندما قال عن الذكر إنه محدث ولم يقل القرآن».

يفرض علينا أن نسأل: ماذا يقصد د. شحرور بقوله عن «الصيغة المحدثة» بأنها «غير قديمة»؟!

إنه بهذا القول يُدخل قراءته المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم» دائرة «التراث الديني» وما حمله حول أزمة ما يُسمى بـ «مسألة اللفظ بالقرآن»، وهل القرآن

مخلوق أم غير مخلوق، وهو يظن أنه بذلك قد أنهى هذه الأزمة العقدية الكبرى، ولذلك نجده يقول:

«وهذا الفهم يحل المعضلة الكبرى التي نشأت بين المعتزلة وخصومهم حول خلق القرآن».

*** فأقول:**

إن كلمة «مُّحْدَثٍ» التي وردت في قوله تعالى «الأنبياء / ٢»:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

لا علاقة لها مطلقًا بـ«مسألة اللفظ بالقرآن»، التي ظن د. شحرور أنه وجد حلًّا لها لم يجده أئمة الفرق الذين خاضوا في هذه المسألة من قرون مضت.

إن جهل د. شحرور بـ «علم السياق»، واستقطاع الجمل والآيات القرآنية من سياقاتها، كان وراء أن تخرج قراءته المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم» بهذه الصورة العشوائية المشوهة.

إن سياق الآيات يتحدث عن غفلة الناس عن اتباع رسالات الرسل، فقال تعالى «الأنبياء / ١»:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

وكلما جاءهم رسول يذكرهم بما أمرهم الله تعالى به، استمعوا إليه وهم يلعبون، فقال تعالى بعدها:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ - إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وكلمة «مَا» ثم «إِلاَّ» بعد كلمة «مُّحْدَثٍ» تفيد تكرار حدوث «الإيتاء» زمانًا ومكانًا، وأن موقف الكافرين في كل بلاغ «حديث» يصلهم كان «الإعراض».

وقد بيّن الله سبب هذا الإعراض فقال تعالى بعدها:

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ - وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا - هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ - أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

فما علاقة هذه الآية بأزمة «مسألة اللفظ بالقرآن»، التي ذهب البعض فيها إلى أن القرآن «أزلي قديم» غير مخلوق، وذهب الآخر إلى أن القرآن مخلوق؟!

أن هذا «التنزيل الحكيم» يحمل «الآية القرآنية العقلية» المعاصرة للناس جميعًا على مر العصور، والدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والتي لا علاقة لها مطلقًا بإشكاليات العصور الماضية.

٥ ـ يقول د. شحرور «ص ٦٣»، تعقيبا على الآية «الأنبياء / ٧»:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

«هذه الصيغة المحدثة هي التي أخذت الصيغة التعبدية، فعندما يتلو الإنسان الكتاب بصيغته اللسانية الصوتية، بغض النظر عن فهم المضمون، تكون تلاوته عبادة، تساوي الناس فيها جميعًا، عربًا أو غير عرب».

ثم قال بعدها: «فإذا وقف في الصلاة مسلمان، عربي وغير عربي، وكلاهما تلا الذكر، بغض النظر عن فهم المضمون، فصلاتهما مقبولة، لذا قال «طه / ١٤»:

﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

*** أقول:**

نلاحظ هنا أن د. شحرور لم يحصر «الصيغة اللسانية الصوتية»، التي تعني عنده «الذكر» في «القرآن»، وإنما جعلها تشمل «كتاب الله» فقال: «فعندما يتلو الإنسان الكتاب بصيغته اللسانية الصوتية».

وقد قال أيضًا في سياق حديثه عن الذكر «ص ٢١٤»:

«هو الصيغة اللغوية الإنسانية للكتاب كله، والذي جاء بلسان عربي مبين، وهو الصيغة التعبدية، بغض النظر عن فهم المضمون، وهو الذي تكفل الله بحفظه، وهو محدث كله».

والسؤال الذي يفرض نفسه في ظل هذه «المنهجية العشوائية» التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم:

هل معنى «الذكر» عند د. شحرور، هو ما قاله من قبل:

«الذكر هو تحول القرآن إلى صيغة لغوية إنسانية منطوقة بلسان عربي، وهذه هي الصيغة التي يذكر بها القرآن».

أم معنى «الذكر» هو ما قاله «ص ٢١٤»:

«هو الصيغة اللغوية الإنسانية للكتاب كله»؟!

وعليه، تسقط بدعة التقسيم التي ابتدعها د. شحرور بأن قسّم «كتاب الله» إلى:

«**نبوة**»: وهي «الآيات المتشابهات» التي هي «القرآن».

و«**رسالة**»: وهي «الآيات المحكمات» التي هي «أم الكتاب».

ثم كيف يكون «أهل الذكر» هم أهل «اللسان العربي»، ثم يُدخل د. شحرور معهم المسلم «غير العربي»، ويبيح له الصلاة بـ «الذكر» المنطوق بـ «لغة القرآن العربية»، بغض النظر عن فهمه لمضمون هذا «الذكر» العربي؟!

ثم ما معنى أن يشمل حفظ «الذكر» الصيغة التعبدية للقرآن «أو للكتاب» بغض النظر عن فهم القارئ لمضمون الآيات التي يقرأها؟!

ثم أي «عبادة» هذه التي يؤديها المؤمن دون أن يفهم مضمونها، والله تعالى يقول «النساء / ٤٣»:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾؟!

٦ ـ ثم عاد د. شحرور يخلط بين الكتاب والقرآن فيقول:

«وعندما قال الفقهاء: إن الصلاة لا تجوز إلا باللسان العربي، فهذا صحيح لأن المطلوب في الصلاة التلاوة الصوتية للكتاب لا فهم الكتاب، لذا قيل عن القرآن: إنه المتعبد بتلاوته، فالقرآن يتلى «النمل / ٩٢»: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾.

ومنه يظهر أن التحويل للقرآن «الجعل» إلى صيغة صوتية لغوية عربية قد أخذ الطابع التعبدي، لذا قال عنه «القمر / ١٧»:

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

إذًا فصيغة القرآن اللغوية هي الصيغة التعبدية.

وكذلك عن صيغة أم الكتاب «فاطر / ٢٩»:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

فيصبح «الذكر» بذلك هو الصيغة اللغوية الصوتية لـ «الكتاب كله»، وهي الصيغة التعبدية، ويغدو من الصحيح أن نقول عندما تتلى آيات الكتاب «تتلى آيات الذكر الحكيم».

وبما أن النبي ﷺ عربي و«الذكر» هو الصيغة اللغوية لـ «الكتاب كله»، فقد قال «النحل / ٤٤»:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾.

في هذه الآية يوجد إنزال للذكر، وتنزيل له، والإنزال هو بيان التنزيل، وهذا البيان الإنزال هو الصيغة اللغوية بـ «لسان عربي مبين».

وعليه فإن إنزال الذكر هو إنزال الكتاب كله «الحكم والقرآن» بصيغة لغوية عربية «الرعد / ٣٧»:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا ﴾.

مجتمعين من آيات تفصيل الكتاب، والتي هي بالضرورة عربية لأنها تشرح مفردات الكتاب من قرآن وأم الكتاب، وتشرح الإنزال والتنزيل.

يقول الله تعالى «يس / ٦٩»:

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾.

هنا نلاحظ كيف عطف «القرآن» على لفظ «ذكر» أي: ذكر = عبادة، قرآن = علم «استقراء ومقارنة».

❊ فأقول:

لقد استدل د. شحرور بآية تهدم كل ما قاله عن «الذكر»، وهي قوله تعالى «يس / ٦٩»:

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾.

إن أي عاقل يتدبر هذه الآية، يعلم أن الله تعالى يقول للمكذبين إن ما تعلمه الرسول «إِنْ هُوَ»، أي «التنزيل الحكيم»، إِلاَّ «ذِكْرٌ» و«قُرْآنٌ» مُّبِينٌ، أي أن: «التنزيل الحكيم» = «الذِكْرُ» = «القُرْآنُ المُّبِينُ».

ثم يستكمل د. شحرور حديثه فيقول «ص ٦٤»:

«وقد استعمل التنزيل للذكر في قوله «الحجر / ٩»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

وذلك لتبيان أن الذكر جاء وحيًا ماديًا من خارج إدراك محمد ﷺ، أي أنه صيغ خارج وعي محمد ﷺ، وأن التنزيل عملية مادية حصلت خارج إدراك محمد ﷺ، ودخلت إدراكه بالإنزال».

*** أقول:**

من أين عرف د. شحرور أن الذكر جاء «وحيًا ماديًا» من خارج إدراك رسول الله محمد، عليه السلام، وأن التنزيل «عملية مادية» دخلت إدراك الرسول بالإنزال، في الوقت الذي لا توجد فيه آية قرآنية واحدة يُفهم منها ذلك؟!

والجواب: عرف ذلك من «الفلسفة المادية للوجود» التي أقام عليها قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

٧ ـ إن المتدبر لآيات التنزيل الحكيم يستطيع أن يضع فقرة واحدة مفيدة مكان كل ما ذكره د. شحرور عن «الذكر» في مؤلفاته كلها، وهذه الفقرة هي: لقد نزل «التنزيل الحكيم» على رسول الله محمد:

أ: «كتابًا» مكتوبًا.

ب: و«قرآنًا» مقروءًا بـ «لسان عربي مبين».

ج: هو «الآية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد.

د: التي يستحيل فهم كلمة واحدة من كلماتها و«تذكر» معناها.

هـ: إلا بتفاعل كلمات هذه الآية مع «مُسَمّياتها» الموجودة خارج «كتاب الله».

و: هذه «المُسَمّيات» التي يستحيل بدونها فهم معنى الكلمة و«تذكرها».

لذلك كانت «آيات الكتاب» هي «آيات القرآن» هي «آيات الذكر الحكيم» التي نطق بها رسول الله محمد، عليه السلام، فقال تعالى «الطلاق / ١١ ـ ١٢»:

﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ... ﴿١٢﴾﴾.

فـ «الآيات المبيّنات» التي تُخرج «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» هي نفسها «الذكر الحكيم» الذي تعهد الله بحفظه إلى يوم الدين، والذي يبدأ بسورة «الفاتحة» وينتهي بسورة «الناس».

لقول الله تعالى «الحجر / ٩»: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

خامسًا:

مفهوم د. شحرور لمعنى «أم الكتاب».

ويخصص د. شحرور فصلًا كاملًا عن «أم الكتاب» ويقول «ص ٤٤٥»:

قلنا إن أم الكتاب هي مجموعة الآيات المحكمات «آل عمران / ٧»:

﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وهي الكتاب المحكم الذي قال عنه «هود / ١»:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

وهي التي خضعت للتطور وللتدرج وللناسخ والمنسوخ ولا تحمل صفة الأزلية، وهي التي تلازم فيها الإنزال والتنزيل ولا يوجد فيها جعل «الرعد / ٣٩»:

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

*** أقول:**

ونلاحظ أن «أم الكتاب» التي هي «الآيات المحكمات»، والتي هي «رسالة رسول الله محمد»، سبق أن قال د. شحرور عنها «ص ٥٧»:

«ونلاحظ أنه في سورة الرعد عطف الحق على الكتاب، فهذا يعني أن الحق شيء، والكتاب شيء آخر، أو أن الحق هو جزء من الكتاب وليس كل الكتاب».

ثم قال تعقيبًا على الآية «فاطر / ٣١»:

«هنا أعطى الجواب القاطع بأن الحق جزء من الكتاب، وليس كل الكتاب، وأن الحق جاء معرفًا، أي أن الحقيقة الموضوعية بأكملها غير منقوصة، الحقيقة المطلقة، موجودة في الكتاب، ولكن ليست كل الكتاب، حيث إنه في الكتاب توجد الآيات المحكمات، آيات الرسالة، وهي ليست حقًّا».

ثم يستكمل د. شحرور حديثه ويقول «ص ٤٤٥»:

«فالكتاب المحكم هو رسالة محمد ﷺ التي تحتوي على الحدود والعبادات والأخلاق وعلى تعليمات عامة وخاصة وأحكام مرحلية.

هذه الأمور كلها تدخل في السلوك الإنساني الذاتي، والتي تضع أسس:

ـ علاقة الإنسان مع الله: العبادات.

ـ علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان: الأخلاق.

ـ التشريع في الحدود: وهي التي أطلقنا عليها مصطلح العقل الاتصالي.

ثم يؤكد د. شحرور إيمانه بأن «الإعجاز» لم يقع في «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب ـ الرسالة»، وإنما وقع في «الآيات المتشابهات ـ النبوة ـ القرآن» فقال:

«لقد بحثنا في فصل جدل الكون وجدل الإنسان المواضيع الرئيسية لنبوة محمد ﷺ أي لمواضيع القرآن الذي وقع به الإعجاز، وقد بينا أن إعجازه يكمن في التشابه، لذا فهو يحمل طابعًا متميزًا إلى أن تقوم الساعة».

*** أقول:**

فلنا أن نتخيل كيف يكتب د. شحرور مئات الصفحات عن رسالة رسول الله محمد، عليه السلام، التي هي «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب» وهو يؤمن أنها في ذاتها ليست حقًّا، وأن الذي جعلها حقًّا وجودها في المصحف وسط «الآيات المتشابهات ـ النبوة ـ القرآن»، ثم يستكمل حديثه ويقول:

«لنبحث الآن موضوع الرسالة، أي بماذا أصبح محمد ﷺ رسولًا؟!

إذا قارنا رسالة محمد ﷺ برسالتي موسى وعيسى نرى أن رسالة موسى وعيسى تحمل اسم الكتاب، أي مجموعة التشريعات التي جاءت إليهما، ولكن هذه التشريعات تحمل الطابع الزماني والمكاني، المرحلي التاريخي، من حيث الزمان والمكان لبني إسرائيل، لذا كان موسى رسول بني إسرائيل، وأرسل عيسى لبني إسرائيل لتعديل شريعة موسى».

وبعد حديث طويل عن شريعة موسى وعيسى، عليهما السلام، قال د. شحرور:

«أما بالنسبة لرسالة محمد ﷺ فالوضع يجب أن يكون مختلفًا تمامًا، حيث إن محمد ﷺ خاتم الرسل بالإضافة إلى أنه خاتم الأنبياء فكما أن نبوته جاءت بشكل متشابه لكي تصلح لكل زمان ومكان، فيجب أن تكون لرسالته خاصية ما تميزها تمامًا عن الرسالات التي قبل وتجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وهذه الخاصية ليست خاصية التشابه، حيث إن التشابه فقط لآيات «القرآن والسبع المثاني».

*** أقول:**

يفصل د. شحرور بين «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، وبين «رسالته» ويعتبر أن «النبوة ـ الآيات المتشابهات ـ القرآن والسبع المثاني» هي التي أعجزت الإنس والجن، وليس «الرسالة ـ الآيات المحكمات ـ أم الكتاب»، وأن «الرسالة» تميزت بخصائص أخرى تجعلها صالحة لكل زمان ومكان فقال:

«وهذه الخاصية ينطبق عليها قوله تعالى «الأنبياء/ ١٠٧»:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى «الأعراف/ ١٥٨»:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

إن مشكلة الأدبيات الإسلامية والفقه الإسلامي المتعلقة بالرسالة هي أنها إلى اليوم لم تميز هذه الخاصية لكي تستعملها بيسر وسهولة وتكون مقنعة لغير المسلم، قبل أن تكون مقنعة للمسلم نفسه بأن محمدا ﷺ رسول الله إلى الناس جميعًا وهو رحمة للعالمين وأن الرسالة صالحة لكل زمان ومكان.

إن إغفال هذه الخاصية جعل من التشريع الإسلامي تشريعًا متزمتًا متحجرًا وحجب عنا فهم أسس الشريعة الإسلامية كما حجب عنا فهم السنة النبوية على حقيقتها حيث إن مفهوم السنة النبوية مرتبط بهذه الخاصية التي تتيح لنا وضع مفهوم معاصر متجدد دائمًا للشرع الإسلامي وللسنة النبوية، وبالتالي وضع أسس جديدة للتشريع الإسلامي».

*** أقول:**

وهنا تظهر «المنهجية الهرمنيوطيقية»، واستغفال قلوب الناس، عندما يقول د. شحرور:

ـ إن محمدا ﷺ رسول الله إلى الناس جميعًا.

ـ وهو رحمة للعالمين.

ـ وأن رسالته صالحة لكل زمان ومكان.

وهو يؤمن بأن هذه الرسالة ليست حقًّا، ويستمر في «منهجيته الهرمنيوطيقية». ويقول في «ص ٤٤٧»:

«فإذا أردنا أن نقسم الرسالة إلى مواضيع رئيسية رأيناها تتألف من: الحدود ـ العبادات ـ الأخلاق «الوصايا» ـ التعليمات التي تحمل الطابع التعليمي الخاص أو العام وليست تشريعات ـ التعليمات التي تحمل طابع المرحلية.

هذه المواضيع كيف نفهمها ضمن منظور عام خاص بها حصرا يجعل من رسالة محمد ﷺ رسالة صالحة لكل زمان ومكان أي متجددة دائمًا؟!

*** أقول:**

ولن تصبح «رسالة محمد ﷺ رسالة صالحة لكل زمان ومكان أي متجددة دائمًا» إلا عن طريق «الفلسفة المادية للوجود»، وهذا ما أفصح عنه د. شحرور بقوله بعد جملته السابقة:

«هذه الخاصية لا يمكن أن نفهمها إلا إذا فهمنا صفتين أساسيتين متميزتين من صفات الدين الإسلامي بشكل عام، وهما من المتناقضات، حيث إن الحركة الجدلية

بينهما هي حركة تناقضية تفرزها التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية في مجال المعرفة وعلوم الاجتماع والاقتصاد، والتي ينتج عنها دائمًا مجالات جديدة في التشريع كمًا ونوعًا».

❋ أقول:

نلاحظ كيف أقحم مصطلحات «الفلسفة المادية للوجود»، المترجمة إلى العربية، ليجعلها هي التي ستجعل، على حد قوله «رسالة محمد ﷺ رسالة صالحة لكل زمان ومكان أي متجددة دائمًا»؟!

ثم تعالوا نتدبر ماذا قال بعدها:

«هذان النقيضان هما الاستقامة الحنيفية، حيث يكمن فيهما جدل التشريع، وبالتالي تطوره، وبدونهما يستحيل فهم الدين الإسلامي فهمًّا معاصرًا والاقتناع بصلاحيته لكل زمان ومكان».

وكيف أسقط النقيضين على آيات التنزيل الحكيم، فقال:

ـ «الاستقامة»:

جاءت في قوله تعالى «الفاتحة / ٦»: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

وقوله تعالى «الأنعام / ١٥٣»:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

وقوله تعالى عن موسى وهارون «الصافات / ١١٨»:

﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

ـ و«الحنيفية»:

جاءت في قوله تعالى «الأنعام / ١٦١»:

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وقوله «الروم / ٣٠»:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقوله تعالى «البينة / ٥»:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

ثم، وكعادته، ذكر آيات كثيرة مستقطعة من سياقاتها، قال «ص ٤٤٨».

«ونبدأ بـ «حنيف» فنقول: اشتق «الحنيف» من «حنف»، وتعني في اللسان العربي الميل والانحراف، ويقال للذي يمشي على ظهور قدميه «أحنف»، والحنف اعوجاج في الرجل إلى الداخل.

وبما أن الحنف والخنف والجنف تشترك في صوتين وتختلف في صوت واحد، فلها معان مشتركة: فالحنف: الميل والانحراف في الرجل.

والخنف: الميل والانحراف في اللفظ حيث إن جزءا من الأصوات يميل نحو الأنف.

والجنف: الانحراف والميل في القسمة كقوله تعالى «البقرة / ١٨٢»:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾.

*** أقول:**

لقد أقام د. شحرور قراءته المعاصرة لكلمتي «الحنيفية» و«الاستقامة»، وقوله إنهما من «المتناقضات» التي تميز بهما الدين الإسلامي، على تحريفه لمعنى الكلمتين، واتهامه لمراجع اللغة العربية، وفي مقدمتها «مقاييس اللغة لابن فارس»، بما لم تقله.

لقد أضاف د. شحرور إلى معنى «الحنف» و«الجنف»، الذي ورد في مراجع اللغة العربية، وهو «الميل»، أضاف إليه حسب هواه معنى «الانحراف»، ليوافق بذلك المصطلح الجدلي الفلسفي «التناقض»، أي بين الحنيفية والاستقامة، وجعل ذلك ميزة تميز بها الدين الإسلامي، والحقيقة:

ـ أن «الحنف»: «ميل إيجابي إلى»: كالميل إلى الوحدانية، والكفر بالشرك، قال الله تعالى «آل عمران / ٩٥»:

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وكالميل إلى الاستقامة، والكفر بالسبل المتفرقة، قال الله تعالى «الأنعام / ١٥٣»:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ـ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ـ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

ـ و«الجنف»: «ميل سلبي عن»: كالميل عن الحق والعدل، قال الله تعالى «البقرة/ ١٨٢»:

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ ـ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ـ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ـ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ـ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ـ أما عن «الانحراف»: فلا توجد في «مقاييس اللغة» أي إشارة إلى أن من معاني الحنف «الانحراف»، كما يدعي د. شحرور، فتعالوا نتدبر ماذا قال «ابن فارس» في «مقاييس اللغة» عن مادة «الحاء والنون والفاء»، فبعد أن ذكر أقوال أئمة اللغة قال:

والصحيح أن «الحنيف» المائل إلى الدين المستقيم، قال الله تعالى «آل عمران/ ٦٧»:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ـ وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ـ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

والسؤال:

إذن فمن أي المصادر المعرفية جاء د. شحرور بأن كلمة «حنيف» تعني «الانحراف»، ولمصلحة من جعل الاستقامة والحنيفية في حركة تناقضية تفرزها التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية، تميل مع المائل، وتنحرف مع المنحرف؟!

وإذا كانت رسالة رسول الله محمد، عليه السلام، لن تكون صالحة لكل زمان ومكان إلا بالتضاد والتناقض والحركة الجدلية بين الاستقامة والحنيفية التي تفرزها

التناقضات الداخلية للحياة الإنسانية، فهل الآيات التي استند إليها د. شحرور جاءت مُدعمة لقراءته الإلحادية المعاصرة للتنزيل الحكيم؟!

ثم يقول د. شحرور «ص ٤٤٨»:

«أما المستقيم والاستقامة فقد اشتقت من الأصل قوم، وله في اللسان العربي أصلان صحيحان:

الأول: جماعة من الناس للرجال فقط وهي جمع امرئ.

الثاني: الانتصاب أو العزم، ومن الانتصاب جاء المستقيم والاستقامة ضد الانحراف.

ومن العزم جاء الدين القيم أي الدين القوي صاحب السيطرة، ومن هذا الباب جاء التقييم وأصله أنك تقيم شيئًا مكان شيء، وبمعنى السيطرة والعزم جاء قوله تعالى «النساء ٣٤»: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

وقوله «البقرة/ ٢٥٥»: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

*** أقول**:

أ: إذن د. شحرور يعترف بأن المعنى العام لـ «القوامة»، الذي ليس له أية مرجعية غير قوله تعالى «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء»، هو السيطرة والعزم، أي سيطرة الرجال على النساء، وأن يكون «العزم» في أيديهم، وهذا يخالف كل قراءاته المعاصرة التي نادى فيها بالمساواة بين الرجال والنساء، ومن ذلك قوله عن «القوامة»، في كتابه «نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي ـ الفصل الخامس ـ ص ٣٢٢»:

«صحيح أن الله فضل الرجل على المرأة بالقدرات العضلية في الخلق، وكان هذا الفضل محور الأساس في الرزق بالصيد والزراعة والتجارة، حين كانت هذه تحتاج إلى قدرات عضلية، إلا أن التطور التقني والآلي قضى على هذا الفضل، أو لنقل إنه أنقصه إلى حدوده الدنيا، إضافة إلى أن العلم أثبت فضل المرأة على الرجل في عدد من الوجوه، كمتوسط العمر والتعرض لأمراض القلب».

ب: ثم كيف يساوي د. شحرور بين مفهوم «السيطرة والعزم» الذي هو من عمل

البشر، «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء»، ومفهوم «الْقَيُّومُ» المتعلق بفعاليات أسماء الله الحسنى التي لا تحدها حدود: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾؟!

فهل هكذا تكون القراءة المعاصرة لـ «آيات التنزيل الحكيم»؟!

ثم يقول د. شحرور «ص ٤٤٩»:

«قد يسأل سائل: كيف تكمن قوة الإسلام في هذين النقيضين»؟!

ويجيب من داخل قاموس «الفلسفة المادية للوجود»:

«يتولد من هذين النقيضين مئات الملايين من الاحتمالات في التشريع، وفي السلوك الإنساني العادي، بحيث تغطي كل مجالات الحياة الإنسانية، في كل مكان وزمان إلى أن تقوم الساعة».

❋ أقول:

وعندما «يتولد من هذين النقيضين مئات الملايين من الاحتمالات في التشريع..» إذن فليقل د. شحرور ما يشاء، وهذا ما قاله بعد ذلك مستندا إلى آيات من التنزيل الحكيم، إلى أن قال:

«فهنا ظهرت حاجة الإنسان إلى الله ليدله على هذه الثوابت والتي سماها الصراط المستقيم، حيث إن التحول والتغير موجود أصلًا في طبيعته، وهو قوي جدًّا في طبيعة الكون والمجتمعات، ولا يحتاج الإنسان لمن يدله عليه، ولكن يحتاج إلى من يدله على الثوابت لذا قال في «الفاتحة / ٦»: «اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ».

ولا يوجد آية تقول اهدنا إلى الحنيفية؛ لأنها أصلًا موجودة، لذا قال عن الحنيفية «الروم / ٣٠»:

﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾.

ولكن أمرنا أن نكون حنفاء، ولا يعني أبدًا أن الصراط المستقيم «الثوابت» جاء ليلغي المتغيرات بل ليشكل علاقة جدلية معها، «الثنائية»، وهنا يكمن التفاعل الجدلي بين الثابت والمتحول «المستقيم والحنيف» في الدين الإسلامي».

❋ أقول:

أ: لا ننسى أن كل ما قاله د. شحرور في هذا الفصل الذي بعنوان «أم الكتاب»، قاله وهو يؤمن أن «أم الكتاب» ليست حقًّا، وأن الذي يجعلها حقًّا هو هذه الترجمة العربية للمبادئ التي قامت عليها «الفلسفة المادية للوجود».

ب: إن المتدبر لما قاله د. شحرور في هذا الفصل، يصعب عليه الربط بين:

ـ الفلسفة المادية للوجود، التي أقام عليه د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، والتي لم تتعد حدود الكلام المدون في الكتب.

ـ والتفاعل الحي بين آيات الكتاب ومقابلها الكوني في الآفاق والأنفس، والمشاهد على أرض الواقع، ويستمد فعالياته من قوى غيبية غير مادية لا يعلمها إنس ولا جان.

ثم يفترض د. شحرور سؤالًا ويقول «ص ٤٥٠»:

«إذا كانت الحنيفية، أي التغير، موجودة في طبيعة الوجود، فما هو الصراط المستقيم، أي الثوابت؟!

ويجيب د. شحرور فيقول:

«يجب علينا لنفهم هذا أن نرجع إلى الرياضيات، وخاصة ما يسمى التوابع المستمرة، أو رياضيات نيوتن والتي ظهر فيها مفهوم التحليل الرياضي، ومفهوم النقاط المميزة ذات الطبيعة الخاصة بها».

ثم بعد «التحليل الرياضي» ونتائجه، يقول «ص ٤٥١»:

«إذا فهمنا هذه الخاصية تحديدًا، فإننا نستطيع أن نفهم الإسلام بشقيه المستقيم والحنيف:

فالحنيفية: هي التابع الذي هو منحن أصلًا.

والاستقامة: هي حدود تحقيق هذا التابع المتمثلة بالنهايات.

أما إذا أخذنا الحالة الرابعة وهي حالة المستقيم فقط، فإننا نرى أن التابع ليس له حدود يتحقق فيها إلا المستقيم نفسه، أي لا يوجد فيه مجال للميل، أي الانحناء، أبدًا غير حنيف.

فإذا نظرنا إلى التشريع الإسلامي ووجدناه يحمل هذه الخاصية، أي خاصيتي الانحناء والاستقامة معًا، فهذا يعني أنه صالح لكل زمان ومكان، أي قابل للحركة في حدود النهايات.

وهذا لا يمكن أن يحصل إلا إذا كان التشريع الإسلامي والسلوك الإسلامي مبنيين على مبدأ النهايات، أي الحدود المستقيمة والتي يمكن للحركة الحنيفية أن تتحقق ضمنها، وقد أعطانا الله في أم الكتاب الحدود فقط، أي المستقيمات التي يمكن أن نكون حنفاء ضمنها، وسماها حدود الله، وهي مع الفرقان تشكل الصراط المستقيم، ونحن نحنف ضمن هذه الحدود المستقيمة».

*** أقول:**

إن الهدف الرئيس الذي كتب د. شحرور كتابه «الكتاب والقرآن» من أجل تحقيقه، وفشل فشلًا ذريعًا، هو «إسقاط أحكام التنزيل الحكيم» من على أكتاف المسلمين، ومع الأسف هناك الآلاف يتبعونه.

نتدبر قول د. شحرور: «وقد أعطانا الله في أم الكتاب الحدود فقط»

ثم قوله «ص ٤٥٣»: «لقد وردت الحالات المذكورة آنفًا كلها في أم الكتاب، أي:

ـ حالة الحد الأعلى.

ـ حالة الحد الأدنى.

ـ حالة الحدين الأعلى والأدنى معًا.

ـ حالة المستقيم فقط.

ـ حالة الحد الأعلى لخط مقارب دون المساس بالحد أبدًا، أي الاقتراب من الحد دون أن تمسه.

ـ حالة الحد الأعلى موجبًا والحد الأدنى سالبًا.

هذه هي الخطوط المستقيمة «الثوابت» والتي تعطينا مجال الحركة الحنيفية في التشريع «التغير».

❋ أقول:

يتحدث د. شحرور عن كل هذه الحدود الموجودة في «أم الكتاب» التي هي ليست حقًّا أصلًا من وجهة نظره، فإذا ذهبنا إلى التنزيل الحكيم وجدنا الله تعالى يقول عن الحدود «النساء / ١٣ ـ ١٤»:

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

لقد جاء هذه الآية بعد بيان أحكام المواريث، وهي من «حدود الله» التي يحرم تعديها، ولذلك ربط الله «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» بـ«وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ»: لبيان أن «أحكام الشريعة» بوجه عام، ستظل محفوظة بحفظ الله لها إلى يوم الدين، دون حاجة إلى قراءات معاصرة لها، وذلك بقرينة جزاء العاصي الذي ورد في السياق وهو: «يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

ذلك أنه من المستحيل أن يكون هذا هو جزاء من لا يلتزم بـ «أحكام الشريعة» ثم يترك الله تعالى الأحكام يتلاعب بها الناس ويُحرّفونها بقراءات معاصرة ما أنزل الله بها من سلطان.

وبعد أن ضرب د. شحرور الأمثلة في عشرات الصفحات على إلحاده في «أحكام القرآن»، بدعوى الحد الأدنى والأعلى، يختم د. شحرور كلامه بقوله «ص ٤٧٩»:

«إن القرآن الذي نزل على محمد لم يكن تصديقًا لا للتوراة ولا للإنجيل، بل كان تصديقًا لأم الكتاب، أي للرسالة، حيث إن القرآن لا يحمل الطابع الزماني المكاني، بل هو صالح لكل زمان ومكان، وكذلك أيضًا حدود أم الكتاب لا تحمل الطابع الزماني المكاني، ولكنها قابلة للتحوير، فجاء القرآن مصدقًا وحافظًا لها.

لذا سمي التشريع عند موسى وعيسى الكتاب، وعند محمد ﷺ أم الكتاب، لذا فإن أم الكتاب لها خاصيتان أساسيتان:

١ ـ أنها من عند الله وليست من اللوح المحفوظ «وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ».

٢ ـ أن حدود أم الكتاب يمكن أن تستنتج منها ملايين الكتب في التشريع وليس كتابًا واحدًا، لذا سماها أم الكتاب.

*** أقول:**

واضح أن من السمات المميزة لقراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم، التفريق بين ما هو «عند الله» وما هو في «اللوح المحفوظ»، فالمحفوظ هو ما في «اللوح المحفوظ» فقط، أما ما هو «عند الله» كـ «أم الكتاب» فليس محفوظًا، ومع ذلك يحدثنا عنه في مئات الصفحات.

ولذلك لم يكن غريبًا على د. شحرور أن يحدثنا عن «رسالة رسول الله محمد»، التي حملت فريضة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، من منطلق «الفلسفة المادية للوجود»، وهو يؤمن بأن هذه الرسالة ليست حقًّا إذا ما فصلت عن «الآيات المتشابهات ـ القرآن ـ النبوة»، فيقول «ص ٥٢٦»:

«قلنا إن الرسالة تتألف من الحدود، حدود الله، والعبادات التي تعتبر من الحدود والوصايا، أما في الأمور الأخرى فقد أورد الكتاب مصطلح المعروف والمنكر أي ما تعارف عليه الناس وما أنكره الناس طبقًا للزمان والمكان حيث إن الأعراف هي أساس القوانين الوضعية الإنسانية، وقد اعتبرها الكتاب أيضًا أساس التشريع ضمن حدود الله.

وهناك أيضًا تعليمات جاءت إلى النبي ﷺ بمقام النبوة، وليس بمقام الرسالة، بقوله «يا أيها النبي» وذلك لتبيان أنها تعليمات خاصة بالنبي ﷺ، أو تعليمات مرحلية جاءت لحقبة معينة مثل توزيع الغنائم، أو تعليمات عامة للمسلمين ولكنها ليست تشريعات».

و«منهجيته الهرمنيوطيقية» في الاستدلال بالآيات المتعلقة بـ «المعروف والمنكر»، وبيان معنى الكلمتين، يصل د. شحرور إلى مفهوم الكلمتين فيقول «ص ٥٢٨»:

ـ «**المعروف**»: هو ما عرفه الناس، ثم تعارفوا عليه، فأصبح مألوفًا للذوق والقبول الاجتماعي، وهو بهذا له معنى إيجابي.

ـ «**المنكر**»: هو ما نكره الناس، ثم استنكروه اجتماعيًّا، أي أصبح مستهجنا غير مألوف للذوق الاجتماعي.

لذا فإن مبدأ المعروف والمنكر هو من أهم أسس السلوك الإسلامي العام، وهو مفهوم متطور حسب الزمان متغير حسب المكان، ويغطي كل سلوكيات المسلم بالأمور التي لا تتعلق بالحدود.

ثم تعالوا نتعرف على كيف تسقط القراءة المعاصرة أحكام التنزيل الحكيم، ومنها «لباس المرأة»، فيقول د. شحرور:

«فعندما نصح الله سبحانه وتعالى المرأة المؤمنة باللباس الخارجي، طلب منها أن يكون حسب الأعراف السائدة في البلد الذي تعيش فيه، بقوله «الأحزاب ٥٩»:

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾.

فهنا ربط المعرفة بالأذى بشكل مباشر تمامًا.

ثم قال «ص ٥٢٩»:

«فلباس المرأة المسلمة والرجل المسلم في المدينة المنورة في زمن الخلفاء الراشدين هو ليس لباسًا يقاس عليه لباس المسلمين في كل زمان ومكان».

وبعد أن جاء د. شحرور بالآيات المستقطعة من سياقاتها قال: «لقد وضحت الآيات السابقة مفهوم المعروف بشكل صريح، والأعراف بين الناس هي التي تحدد العلاقات العملية، فعلاقة ولي أمر اليتامى باليتامى من حيث النفقة، وعلاقة الرجل بزوجه معاشًا أو طلاقًا، والأخذ والعطاء بين الناس ينبع من الأعراف.

وعلاقة المسلم بزوجته في لندن من حيث المعاش والطعام والكساء حسب أعراف لندن التي تحدد العلاقة العرفية بين الرجل وزوجه.

وعلاقة المسلم بزوجه في اليمن تتحدد بأعراف اليمن التي تحدد العلاقة المعروفة المقبولة بينا لرجل وزوجه... وهكذا دواليك.

حيث إن الحرام عند المسلم لا يدخل تحت الأعراف أي إذا كانت الأعراف في بلد ما تبيح لحم الخنزير، فعلى المسلم ألا يُدخل أكل لحم الخنزير ضمن أعراف الطعام عنده، لأن تحريم لحم الخنزير من الحدود لا من الأعراف.

وإذا وجد مسلم في بلد ما يبيح أكل لحم الخنزير في أعراف الطعام، فعليه أن يرفض ذلك بكل لباقة وكياسة وبدون تشنج.

لذا فقد غطى الإسلام تحت مصطلح المعروف والمنكر كل الأمور التي لم يرد فيها نص صريح واضح أو الحركة بين الحدود، وجعل مفهوم المعروف والمنكر جزءًا لا يتجزأ من الدين الإسلامي ومن سلوكية المسلم».

وقال د. شحرور:

«فمفهوم اللحية ولباس الرجل والمرأة وعلاقة الزوج بزوجه والعلاقات الأسرية المعاشية تدخل تحت بند الأعراف لا تحت بند الحلال والحرام، أي لا تدخل تحت بند حدود الله».

ثم يُلحد في آيات التنزيل الحكيم لتوافق هوى «الفلسفة المادية للوجود» فيقول: «

وهذا ما علينا أن نفعله نحن المسلمين حيث أمرنا الله بذلك «آل عمران ١٠٤»:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى «آل عمران / ١١٠»:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ﴾.

وقوله تعالى «التوبة / ١١٢»:

﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ﴾.

ويعلق على الآية الأخيرة قائلًا:

«لاحظ في هذه الآية كيف فصل المعروف والمنكر عن الحدود».

*** أقول:**

إن المتدبر للسياق القرآني يعلم أن:

«**المعروف**»: كل ما عرفه الناس وألفوه ما لم ينزل حكم ينهى عنه.

«**المنكر**»: كل ما حرمه الله ونهى المسلمين عن فعله.

أما د. شحرور فيرى بقراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم أن «المعروف والمنكر» مفهوم متطور حسب الزمان، متغير حسب المكان وحسب أعراف الناس، ولا علاقة له بأحكام التنزيل الحكيم:

والهدف: هو تفريغ آيات التنزيل الحكيم من أحكامها عن طريق بدعة «ثبات النص وحركة المحتوى».

ثم يأتي د. شحرور، وفي سياق حديثه عن «رسالة رسول الله محمد»، التي يرى أنها ليست حقًّا، ويحدثنا عن «سنة الرسالة وسنة النبوة» فيقول «ص ٥٤٩»:

«وكما قلت فالنبوة علوم، والرسالة أحكام وتعليمات، حيث إن الطاعة جاءت للرسالة، ولم تأت للنبوة، وليس في الكتاب أي آية تقول وأطيعوا النبي بل هناك آيات تقول «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ»، علما بأن المدح العظيم جاء لمقام النبوة في قوله «الأحزاب/ ٥٦»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

*** أقول:**

لقد جاء د. شحرور بالآيات التي تقترن فيها الطاعة بالرسول «وأطيعوا الرسول»، وليس بالنبي «وأطيعوا النبي»، وكأن «الرسول» نزل من السماء «رسولًا» بدون «نبوة»، أي بدون «وحي» ينزل عليه وهو على الأرض، بعد أن يصطفيه الله تعالى رسولًا.

ثم أين نذهب ببيان الله أن «الرسالة» يحملها «النبي» كما يحملها «الرسول» فيقول تعالى «الحج / ٥٢»:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ..﴾؟!

إن رسول الله محمدًا، عليه السلام، يُطاع في حياته «في عصر التنزيل»، في كل أمر وفي كل نهي وإن لم ينزل به نص قرآني، ذلك أن السياق القرآني يشير إلى وجود «وحي غير قرآني» كان ينزل على رسول الله دون أن ينزل بموضوعه نص قرآني، وهناك الكثير من الآيات تبين ذلك منها:

ـ يقول الله تعالى «التوبة / ٤٠»:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

ولا شك أنه قد سبق نزول هذه الآية كلام بين الله ورسوله بوحي «غير قرآني» يتعلق بهذه الرحلة، وهذا الوحي جزء من «النبوة».

ـ يقول الله تعالى «الإسراء / ٦٠»:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ..﴾.

لقد بدأ الله سورة الإسراء بقوله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ..﴾.

ولا شك أن رسول الله أخبر صحابته بما رآه في هذا الإسراء، وهو جزء من «النبوة»، ولم ينزل به «نص قرآني»، وعندما سمع المشركون بهذا الخبر، الذي كان لهم فتنة، لم يصدّقوه.

ـ يقول الله تعالى «الفتح / ٢٧»:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

ولقد سبق نزول هذه الآية «رؤيا» رآها النبي وحكاها للمؤمنين واستبشروا بها، وهي جزء من «النبوة»، ثم تحققت ودخلوا المسجد الحرام «آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ».

ـ يقول الله تعالى «النجم / ٨ ـ ١٢»:

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

نتدبر قول الله «فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى»، ثم قوله تعالى «الآية ١٨»: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى»، ولم ينزل بما رآه النبي نص قرآني، وهو جزء من «النبوة».

ـ يقول الله تعالى «التحريم / ٣»:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

لقد «أنبأ» الله رسوله بما حدث بين أزواجه، «قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ» والإنباء جزء من «النبوة»، ولم ينزل بتفصيله نص قرآني.

ـ يقول الله تعالى «البينة / ٥»:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

والسؤال: لقد جاء الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة في سياق الأمر بإخلاص العبودية لله تعالى، وأن هذه الأوامر هي «الدين القيم»، فهل يُعقل أن يترك الله المؤمنين يبتدعون هيئات وتصورات لهذه الصلاة، كلٌ حسب مذهبه وتوجهه العقدي، بدعوى أن القرآن لم يأت بتفصيل كيفية أداء الصلاة؟!

إن كل «حكم مجمل» لم يأت القرآن ببيان «كيفية أدائه»، فلا شك أن الله تعالى قد بينه لرسوله بوحي غير قرآني، ونقل المسلمون هذا البيان جيلًا بعد جيل عبر «منظومة التواصل المعرفي».

ثم يستكمل د. شحرور حديثه عن «سنة الرسالة» فيقول: ويجب أن نُميّز، ونحن نتحدث عن سنة الرسالة، بين:

ـ **«الطاعة المتصلة»:**

التي تكون فيها طاعة الرسول مندمجة مع طاعة الله، وذلك في قوله تعالى «آل عمران / ١٣٢»:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وطاعة الرسول في هذه الحالة تكون في حياته وبعد مماته، وقد جاءت حصرًا في الحدود والعبادات والأخلاق ـ الصراط المستقيم».

ـ و«**الطاعة المنفصلة**»:

التي تكون فيها طاعة الرسول منفصلة عن طاعة الله، وذلك في قوله تعالى «النساء/ ٥٩»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

وطاعة الرسول في هذه الحالة تكون «في حياته فقط» باعتباره القائم على تنفيذ شريعة الله بين الناس.

*** أقول:**

وهذه من ثمار «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي اتبعها د. شحرور في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، والتي أقام عليها قوله: إن النبوة علوم، والرسالة أحكام وتعليمات، وأن الطاعة جاءت للرسالة، ولم تأت للنبوة، ثم تقسيم الطاعة إلى متصلة ومنفصلة.

فهل لا يعلم د. شحرور أنه لولا النبوة «الوحي» ما كانت الرسالة، وأن الإقرار بـ«الرسالة» معناه تصديق «النبوة»؟!

وهل لا يعلم بوجود آية تخاطب «النبي» تنهاه عن قرار قد اتخذه بخصوص حكم من أحكام الحلال والحرام، وهي قول الله تعالى «التحريم / ١»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

وعند حديثه عن البلاغ والإبلاغ «ص ١٤٨» ذكر د. شحرور قول الله تعالى «المائدة / ٦٧»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ـ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ـ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ـ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فهل فهم د. شحرور أن ورود جملة «فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» في سياق «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» يعني بلغ «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب» فقط؟!

إذن فما أهمية «الآيات المتشابهات ـ النبوة ـ القرآن»، ولماذا جعلها د. شحرور هي التي حملت «الإعجاز»، وهي التي حفظت «الآيات المحكمات» في المصحف؟!

ثم يضرب د. شحرور بعض الأمثلة على الدور الذي قامت به قراءته المعاصرة بالنسبة لأحكام «الرسالة» وحدودها العليا والدنيا، ومن ذلك حديثه عن لباس المرأة الذي ورد في سورة «النور / ٣١» فيقول «ص ٥٥٠»: «إذا خرجت المرأة عارية في الطريق كما خلقها الله فقد تعدت حدود الله في اللباس.

وإذا خرجت مغطاة تمامًا يدخل في غطائها الوجه والكفان فقد خرجت عن حدود رسوله.

ولباس المرأة المسلمة هو لباس حسب الأعراف، ويتراوح بين اللباس الداخلي وبين تغطية الجسم، ما عدا الوجه والكفين.

وهكذا نرى أن لباس معظم نساء أهل الأرض هو ضمن حدود الله ورسوله».

*** أقول:**

يرى د. شحرور أنه إذا جرى العرف في بلد ما، على أن النساء المسلمات يتعاملن مع الناس بـ«اللباس الداخلي»، فإن قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم تبيح لهن ذلك، لأنه ضمن حدود الله!!

وقد أكد د. شحرور ذلك عند حديثه عن الشروط التي يجب أن تتوافر في التشريع الإسلامي المعاصر، والتي انطلقت جميعها من قاعدة «الفلسفة المادية الجدلية»، فقال «ص ٥٨٣»:

«إن التشريع الإسلامي تشريع مدني إنساني ضمن حدود الله، وحنيفي متطور

يتناسب مع رغبات الناس ودرجات تطورهم، وأن فلسفة التشريع الإسلامي تقوم على العلاقة الجدلية بين الثبات والتغير».

وانطلاقًا من هذه «العلاقة الجدلية بين الثبات والتغير» يعطي د. شحرور نموذجًا للفقه الجديد ممثلًا في موضوع المرأة في الإسلام، ويقول «ص ٥٩٢»:

«يعتبر بحث المرأة في الإسلام من أهم المواضيع حساسية، وهو من المواضيع التي بحثها عديد من مؤيدي الإسلام، ومن أعدائه ابتداء من عصر النهضة وحتى يومنا هذا، ولا أعتقد أنه تم إلى اليوم تقديم بحث أصيل حول المرأة في الإسلام انطلاقًا من: الجدل بين الاستقامة والحنيفية والفطرة الإنسانية، التي تعتبر حدود الله هي العمود الفقري لهذا المنطلق».

ثم تعالوا نرى كيف يُسقط مصطلحاته المستخدمة في بدعة تقسيم كتاب الله إلى «رسالة» و«نبوة»، والتعامل مع أحكامه بحدود عليا ودنيا، على موضوع المرأة في الإسلام فيقول «ص ٥٩٣»:

«إن الأخطاء الأساسية التي ارتكبت في الحقبة التاريخية السابقة عند تقييم وضع المرأة، والتي تعتبر أخطاء في صلب المنهج، هي التالية:

ـ عدم التفريق بين الآيات التي وردت بحق المرأة في أم الكتاب والتي يعتبر جزء منها حدودًا والجزء الآخر تعليمات مثل آية تعدد الزوجات، فهي من الحدود، وآية لباس المرأة «النور / ٣١» من الحدود أيضًا، أما آية «الأحزاب / ٥٩» فهي من التعليمات».

ثم يقول د. شحرور: «إننا لا نستطيع أن نلوم السلف على عدم فهمهم للحدود هذا الفهم المعاصر، إذ أن المفهوم الرياضي للحدود ظهر منذ إسحاق نيوتن، وبعد ذلك قفزت كل العلوم هذه القفزات الهائلة إذ أعطاها التحليل الرياضي والحدود، أي النهايات، الآلية التي تم بموجبها تحليل ظواهر الطبيعة حيث إنه تبين أن ظواهر الطبيعة تخضع لحدود، أي لنهايات.

وقد أكد الكتاب ذلك بأن فهم الحدود يحتاج إلى إنسان متحضر بعيد عن البداوة بقوله «التوبة / ٩٧»:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

*** أقول:**

ماذا يقصد د. شحرور بقوله: إن فهم التحليل الرياضي والنهايات «الحدود» يحتاج إلى إنسان متحضر بعيد عن البداوة؟!

وما علاقة الكفار والمنافقين من الأعراب، «التوبة / ٩٧»، بـ «التحليل الرياضي والنهايات» الذي ظهر على يد «إسحاق نيوتن»؟!

وهل فهم رسول الله محمد، عليه السلام، والذين آمنوا معه، أحكام القرآن وحدود الله بـ «التحليل الرياضي والنهايات»؟!

إذن فهم لم يفهموا حدود الله، لأنهم لم يكونوا متحضرين الحضارة التي تمكنهم من تعلم «التحليل الرياضي والنهايات».

وهذه ثمرة من ثمار قراءة د. شحرور الإلحادية للتنزيل الحكيم.

وعن آيات الحدود التي جاءت في «أم الكتاب» والمتعلقة بالمرأة: يقول د. شحرور «ص ٥٩٧»:

لنبدأ الآن بآيات الحدود التي جاءت في أم الكتاب ولها علاقة بالمرأة:

تعدد الزوجات: «إن تعدد الزوجات تعتبر من أهم المشكلات التي تواجه المرأة العربية الإسلامية بشكل خاص وتواجه الإسلام أمام العالم بشكل عام، فإذا فهمنا أن آية تعدد الزوجات الواردة في أم الكتاب هي من آيات الحدود، فينقلب فهمنا للآية تمامًا وتصبح الآية شاملة للنواحي التاريخية، أي التطور التاريخي السابق والمعاصر، وشاملة لأنبل النواحي الإنسانية.

وردت آية الحدود في تعدد الزوجات كالتالي «النساء / ٣»:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾.

لنشرح أولًا الأصلين قسط وعدل: فالأصل قسط في اللسان العربي أصل صحيح يدل عل معنيين متضادين تمامًا والبناء واحد:

ففي المعنى الأول: هو العدل مع المساعدة كقوله تعالى «المائدة / ٤٢، الحجرات/ ٩، الممتحنة / ٨»: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

والمعنى الثاني: الظلم والجور كقوله تعالى «الجن / ١٥»: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

ثم يقول د. شحرور «ص ٥٩٨»:

«وكذلك الأصل عدل له معنيان متضادان الأول استواء والآخر اعوجاج، ويقال للشيء يساوي الشيء هو عدله، كما قال ابن فارس.

وهناك فرق بين القسط والعدل: فالقسط يكون من طرف واحد، والعدل بين طرفين، لذا نقول معادلة، أي أن المعادلة هي مساواة بين طرفين مختلفين كقولنا: «س = ع».

لقد جاءت هذا الآية معطوفة على التي قبلها في قوله «وإن»، والتي قبلها وردت بحق اليتامى في قوله تعالى «النساء / ٢»:

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

وقد عرفنا اليتيم في مبحث الوصايا بأنه فاقد الأب فقط، وقاصر أيضًا، أي دون سن الرشد، فهذا يعني أن أمه على قيد الحياة وليست طاعنة في السن.

فجاءت آية تعدد الزوجات وهي آية حدودية لتغطي الحد الأعلى والحد الأدنى في الكم، والحدين الأعلى والأدنى في الكيف:

ـ حدود الكم:

بما أن هذه الآية تتكلم عن النكاح في قوله «فانكحوا» وبدأ بالمثنى من النساء من حيث الكم.

وبما أن الرجل لا يمكن أن ينكح نفسه، أو ينكح نصف امرأة، فالحد الأدنى هنا هو الواحدة، والحد الأعلى هو الأربعة، والخطوة هي مثنى، ثلاث، رباع، حيث في عدد النساء أو الرجال لا يمكن أن يكون هناك عدد كسري.

أي أن حدود الله في تعدد الزوجات هي الواحدة حدًا أدنى والأربعة حدًا أعلى، وهنا عطف مثنى وثلاث ورباع ليبين أن الحالة عدد صحيح كأن نقول: جاء الناس مثنى وثلاث ورباع فهذا لا يعني أنهم جاؤوا تسعة تسعة.

فإذا تم منع تعدد الزوجات فنكون قد وقفنا على حدود الله «الحد الأدنى» في الكم، دون أن نتعداها، فمن ناحية المبدأ لا يوجد أية حرمة في ذلك.

وإذا سمحنا بالتعددية حتى الأربع فنكون قد تحركنا ضمن حدود الله من حيث الكم، ووقفنا في بعض الحالات على الحد الأعلى وهذا ما حصل فعلًا خلال أربعة عشر قرنا مضت وهو إطلاق الكم من الواحدة إلى الأربعة دون النظر إلى الكيف إطلاقًا.

لذا فقد فسروا قوله «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً» هنا فهموا قوله «تَعْدِلُواْ» بين الزوجات، لذا فقد رجحوا بأن أساس العدد في الزواج هو الواحدة، وقالوا إن تعدد الزوجات هو ظروف اضطرارية.

ـ حدود الكيف:

نقصد بالكيف هنا هو: هل الزوجة بكر أم ثيب، وإذا كانت ثيبًا فما وضعها أأرملة أم مطلقة؟!

إذا أخذنا الكم فقط دون النظر إلى الكيف، فلا يمكن إطلاقا ربط جواب الشرط:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

بالشرط وهو: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى».

فإذا أردنا أن نربط جواب الشرط بالشرط فيظهر لنا الكيف التالي:

بما أنه لم يذكر الأولى من ناحية الكيف فهذا يعني أنه أطلق الكيف في الزوجة الأولى، حيث يمكن أن تكون بكرًا أو أرملة أو مطلقة، ولكي نربط جواب الشرط:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

بالشرط، وهو الإقساط إلى اليتامى، فينتج لدينا بالضرورة أنه يتكلم عن أمهات اليتامى الأرامل.

هنا نرى أنه أطلق الكم حتى الأربعة وقيد الكيف بأن تكون الزوجة الثانية حتى الرابعة من الأرامل ذوات الأيتام، وأن يتزوجهن الرجل، ويأخذهن كزوجات مع أولادهن.

في هذه الحالة ضم أولاد الأرامل في الإعالة والتربية إلى أولاد الزوج، وفي هذه الحالة ينطبق على الزوج قوله تعالى «النساء / ٦»:

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

فإذا أخذ الرجل ثلاث أرامل زوجات وضم أولادهن إلى أولاده فهذا يعني أنه أصبح كثير العيال، وأصبح عليه عبء مالي كبير جدًّا، في هذه الحالة نفهم قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾.

أي تعدلوا بين الأولاد «أولاده وأولاد زوجاته الأرامل»، وهنا ظهر فعل «عدل» بين أولاده وأولاد زوجاته.

أما فعل «قسط» فقد جاء لليتامى فقط، أي طرف واحد، لأنه بدأ الآية «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى»، فإذا خاف ألا يعدل بين الأولاد فواحدة.

وبما أن الكلام عن التعددية فالخطاب للمتزوج، لذا بدأ بالمثنى، فالواحدة هنا تعني الثانية وليست الأولى، أي إذا كان الرجل قادرًا على التعددية من الناحية المالية فقد شجعه الله سبحانه وتعالى أن يتزوج على الأقل أرملة واحدة زوجة ثانية ويأخذها مع أولادها وقد أكد على هذا المعنى في نهاية الآية بقوله «ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ».

و«تَعُولُواْ» جاءت من الأصل «عول» ومعناها كثرة العيال والجور، فعندما يصبح الرجل كثير العيال وتكبر عليه المسئوليات المالية والتربوية، فيمكن أن يقع في عجز وبالتالي يقع في الجور.

❊ أقول:

من الضروري أن يعلم متدبر القرآن، أن استنباط أحكام القرآن «علمٌ» له قواعده

وأدواته، وأن الذي يفهم القرآن استنادًا إلى علوم «اللغة العربية» وحدها، دون دراية بـ «علم السياق»، وفعالية «منظومة التواصل المعرفي» مع المقابل الكوني لـ «كلام الله» سَيَضِل، ويُضِل الناس بغير علم.

إن الذين يقرأون القرآن يعلمون أن السياق القرآني قد يأتي بأحكام، ثم يليها مباشرة يأتي بآيات عن دلائل الوحدانية، أو عن الوعد والوعيد، ثم يعود مرة أخرى لاستكمال أحكام سابقة.

وقد يأتي السياق بأحكام جديدة، ثم يتحدث عن الكافرين والمنافقين، وموقف أهل الكتاب من دعوة النبي الخاتم، وأحكام قتال المعتدين منهم، ثم يعود لاستكمال بيان مسألة سابقة.

وقد تأتي كلمة «يستفتونك» وسط آيات دون أن يكون لموضوع السؤال أي علاقة بهذه الآيات، وإنما جاءت بيانًا لآية سبقت هذه الآيات بعشرات الآيات، فجاء الله بمزيد بيان لـ «الآية ٣» من سورة النساء، بقوله تعالى «الآية ١٢٧»:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ.. ﴾.

و«الاستفتاء» في أمر «النساء» يشمل الصغيرات والكبيرات، اليتيمات وغير اليتيمات، ولكن الله خص «يَتَامَى النِّسَاءِ» بالجواب لأنهن كن موضوع الفتوى.

لقد كان «الأوصياء» في الجاهلية ينكحون «اليتيمة» عندما تبلغ النكاح إذا كانت ذات مالٍ وجمال، أما إذا كانت غير مرغوب في زواجها فيقوم الوصي بمنعها من التزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها.

فنزل القرآن يصحح ما كان المسلمون يتبعونه من عادات الجاهلية، ومن ذلك أحكام «اليتامى» التي وردت في مقدمة سورة النساء، والتي جاء تفصيل لها في هذه «الآية ١٢٧»:

* «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ».
* «وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ».

* «اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ».
* «وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْوِلْدَانِ».
* «وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ».
* «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا».

لقد جاءت هذه الآية للرد على الذين يقولون إن شرط «النكاح» الوارد في «الآية ٣»:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أن تكون النساء أمهات اليتامى، والآية لم تذكر الأمهات وإنما ذكرت «اليتيمات»، والذين استفتوا رسول الله استفتوه في نكاح «يَتَامَى النِّسَاءِ».

ونلاحظ أن الإضافة في «يَتَامَى النِّسَاء» من باب إضافة «الخاص إلى العام»، لأن النساء بوجه عام ينقسمن إلى «يتامى» و«غير يتامى»، ونلاحظ أن الضمير عائد على «يَتَامَى النِّسَاءِ» وليس على «أمهاتهن»!!

ولقد جاء بيان السبب في طلب الفتوى «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ» في نفس «الآية ١٢٧» وهو:

* «قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ».
* «وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ».

أي ما يتلى عليكم فيما سبق «الآية ٣» وهو قوله تعالى:

«وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى».

ثم فصّله الله تعالى بقوله «الآية ١٢٧»:

* «اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ».

أي وإن خفتم ألا تعطوا «يَتَامَى النِّسَاء» حقوقهن، فابتعدوا نهائيًا عن نكاحهن، واذهبوا إلى نكاح غيرهن من النساء «الآية ٣»:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

ولنا وقفة مع قوله تعالى: «وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ».

إن مادة «رَغَبَ» إذا جاء بعدها حرف «في» فتعني «أحب» ونقول «رغب في»، وإذا جاء بعدها حرف «عن» فتعني «كره» ونقول «رغب عن».

فإذا نظرنا إلى جملة «وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ» نجدها محذوفة الحرف الذي يقوم بالتعدية «حبًا أو كرهًا» لأن السياق يقصد المعنيين، كما بيّنت ذلك عند الحديث عن موقف «الأوصياء» السلبي والإيجابي من «يَتَامَى النِّسَاء».

ثم عقب بأحكام تتعلق أيضًا بالنكاح، وما قد يحدث من الزوجين من نشوز، فقال تعالى عن نشوز الزوج «الآية ١٢٨»:

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ..﴾.

ثم جاء بعدها بحكم يتعلق أيضًا بـ «الآية ٣»، وهو قوله تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ﴾.

والذي يُبيّن أن المقصود بـ «العدل» في الآية هو ما يمكن للزوج أن يحققه بصورة عملية، أما ما يتعلق بالمشاعر القلبية فهي ليست بيده، ولذلك قال تعالى مؤكدًا استحالة أن يكون هناك عدل في مسألة المشاعر القلبية:

«وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ».

ولو وقف السياق عند هذه الجملة، لكان من حق «الملحدين» المشككين في «الإباحة المطلقة» لتعدد الزوجات، أن يقولوا بالمنع، ولكن الله جاء بما يؤكد الإباحة المطلقة بقوله تعالى بعدها:

«فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ».

أي أن الرجال ليسوا منهيّين عن حصول تفاوت في ميولهم القلبية تجاه نسائهن، لأنها مسألة ليست بأيديهم، وإنما منهيّون عن إظهار هذا التفاوت في أقوالهم وأفعالهم.

وإذا كان التفاوت في الحب يوجب التفاوت في النتائج، مما قد يؤثر على العلاقة الزوجية بصورة سلبية، فيجب أن يسبق الطلاق محاولات الإصلاح:

* «وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا».

فإن استحالت العشرة بين الزوجين، يكون التفريق بينهما أفضل:

«وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا».

لقد أردت أبدأ بهذه المقدمة لأنها المحور الأساسية للرد على ما قاله د. شحرور عن مسألة «تعدد الزوجات».

إن قضية «تعدد الزوجات» تتعلق بظروف وتحديات عصر التنزيل واكتمال الدين، كغيرها من القضايا التي ورثها المسلمون عن عصر الجاهلية، ونزل القرآن يُصحّح، ويُشرّع ويُبيّن لهم وجه الحق فيها.

أ: إن قول الله تعالى «النساء / ١٢٧»:

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾.

يُبيّن أن هناك إشكاليات تتعلق بأحكام «النساء» الصغيرات والكبيرات، اليتيمات وغير اليتيمات، نزل القرآن ببيانها وعلاجها في كثير من آيات الأحكام.

ومن هذه الإشكاليات ما كانت تتعرض له «اليتيمات» في عصر الجاهلية من ظلم بيّن، ونكاحهن وأخذ أموالهن وعدم إعطائهن حقوقهن، بدعوى أن ذلك مقابل ما قام به «الأوصياء» من تربيتهن وخدمتهن ورعايتهن حتى بلغن سن النكاح.

وآيات التنزيل الحكيم جعلت رعاية «اليتامى» فريضة شرعية على ولاة الأمور، وليس على «الأوصياء» فقط، ولذلك خص الله أحكام «اليتيمات» بجملة مستقلة فقال تعالى بعد جملة «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ»

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

ب: لقد بدأت سورة النساء بقوله تعالى:

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾.

ثم كرر الأمر بـ «التقوى»، مخاطبًا الناس بما اعتادوا قوله:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

فقد كان من عادة العرب أن يستعطف أحدهم غيره بقوله «بالله أسألك»، أو «أسألك بالله والرحم».

لقد جاء بهذه المقدمة تمهيدًا للوصية بأموال اليتامى والنهي عن أكل حقوقهم، فقال تعالى «الآية ٢»:

* ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

و**«اليتيم»** هو من مات أبوه، وأصبح تحت رعاية الكفيل، سواء كان فردًا أو مؤسسة، فإذا استغنى عن الكفالة لم يعد «يتيمًا».

وكان من مظاهر ظلم «اليتامى» أن يأخذ الولي مال اليتيم الطيب ويضع مكانه الخبيث من ماله، أو أن يَخلط أموال اليتيم بأمواله وينتفع بها كلها.

ج: وبعد النهي عن الاقتراب من مال «اليتامى» إلا بالتي هي أحسن، ذكر منكرًا آخر كانوا يباشرونه في الجاهلية مع «اليتيمات» وهو نكاحهن لا رغبة فيهن بل في مالهنّ، بل وكانوا يتمنون موتهن فيرثوهن.

ولذلك نهى الله «الأوصياء» عن الاقتراب من دائرة نكاح «اليتيمات»، خاصة وأن ذلك سيؤثر لا محالة على رعاية «الذكور» إلا إذا ضمنوا المحافظة على حقوقهم جميعًا.

أما إذا لم يضمنوا تحقق الرعاية الكاملة لـ «اليتامى»، فإن باب نكاح النساء «غير اليتيمات» مفتوح كما نصت بعد ذلك «الآية ٣»:

* ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾.

إن **«الإقساط»** معناه إزالة «القسط»، أي الجَوْر، ويتعلق بدقائق الأمور «المادية» التي يمكن حسابها ووزنها بالعدل، ولذلك ارتبط «القسط» في كثير من الآيات بـ «الميزان».

أما «**العدل**» فهو إزالة «الظلم»، ويتعلق غالبًا بالحقوق «المعنوية» وأحوال القلوب، يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ..﴾.

فقوله تعالى «بِالْقِسْطِ» مبالغة في القيام بالشهادة على أتم وأحسن وجه، مع مراعاة ألا يكون لأحوال القلوب، من بغض وكره، تأثير على الشهادة بالعدل.

د: إن الذين قالوا إن معنى قوله تعالى:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾.

فانكحوا ما طاب لكم من أمهات اليتامى، جعلوا السبب في زواج الأوصياء بأمهات اليتامى هو أن يتمكنوا من رعاية أولادهن، فالرجل يدخل على المرأة فتكون «خلوة غير شرعية»، إذن فما الحل؟!

يتزوج أم اليتامى، حتى تصبح الخلوة شرعية، وهذا معناه أن يتركوا أعمالهم، ويُرسلوا أمهات اليتامى للعمل نيابة عنهم، ويجلسوا هم في البيوت لرعاية «اليتامى».

إن قول الله تعالى: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى».

يتعلق بما كان يحدث لـ «اليتيمات» في الجاهلية، وقد نزلت «الآية ١٢٧» ببيان ذلك: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ﴾.

أما قوله تعالى بعدها: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾.

فهو إحالة إلى تشريع جديد يتعلق بعدد النساء المباح للرجل الزواج منهن، ولا علاقة له مطلقًا بالجملة الأولى؛ لأنه يعني: وإن خفتم ألا تعطوا اليتامى من النساء «يَتَامَى النِّسَاء» حقوقهن كاملة دون أدنى «جَوْر»، فانكحوا غيرهن من النساء «غير اليتيمات» مما مالت إليه نفوسكم واستطابته.

ولقد ذهب البعض إلى أن «تعدد الزوجات» غير مقيد بـ «أربع»، لا حدود له، استنادًا إلى قوله تعالى في سورة فاطر «الآية ١»:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فجعلوا جملة «مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ» في هذه الآية حاكمة على قوله تعالى «النساء/ ٣»:

﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

في الوقت الذي خلت فيه هذه الآية «النساء / ٣» من جملة: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

وهذه هي مشكلة التعامل مع آيات التنزيل الحكيم بدون منهجية علمية تقوم على أدوات مستنبطة من ذات النص القرآني، وفي مقدمتها علوم اللغة العربية وعلم السياق القرآني.

لقد جاءت الآية «فاطر / ١» لبيان فعالية أسماء الله الحسني في الوجود، ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فإذا ذهبنا إلى الآية «النساء / ٣» نجد أنها تتحدث عن حكم تشريعي كان من الضروري تحديد عدد النساء المباح نكاحهن بدقة، فجاء «الأصل»: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

ثم أتبعه بـ «الاستثناء»: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً».

وذلك في حالة الخوف من عدم العدل «المادي».

ولماذا كان المقصود «العدل المادي» وليس أيضًا «المعنوي»؟!

لأن «العدل المعنوي» مستحيل، ولذلك قال تعالى في نفس السورة «الآيات ١٢٩»:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

ثم جاء بعدها ببيان استحالة «العدل المعنوي» والمطلوب هو:

﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾.

فالله تعالى يحذر الرجل أن يميل كل الميل نحو أزواج ويترك واحدة «معلقة».

ولذلك قال بعدها:

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فإن لم يستطع إعطاء زوجه حقها «المعنوي» وفشلت محاولات الإصلاح بينهما، فليكن الطلاق:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾.

هـ: إن الآية «النساء / ٣»:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

لم تأت لتُشرّع أصلًا لـ «نكاح النساء»، سواء كن يتيمات أو غير يتيمات، وإنما جاءت لتُقيّد عدد النساء الذي كان مطلقًا في الجاهلية، مع اشتراط العدل بينهن.

لقد جاء الأمر: «فَانكِحُوا» في جواب شرط الخوف من عدم العدل في اليتامى «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى»، فما المناسبة بين الشرط وجوابه؟!

المناسبة أن كلمة «اليتامى» وردت في فعل الشرط، ولكنها قوبلت بكلمة «النساء» في الجواب، فلماذا؟!

لبيان أن المقصود باليتامى «يَتَامَى النِّسَاء» الوارد ذكرهن في «الآية ١٢٧»، وقول الله تعالى عنهن:

﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.

ونلاحظ أن السياق عندما تحدث عن نكاح «يَتَامَى النِّسَاء» استخدم لفظ «القسط»، وما هو «مادي»، ويشمل أيضًا عدم الإضرار بـ «اليتامى الذكور»، فقال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

أما عندما تحدث عن نكاح «النساء»، مطلق النساء، استخدم لفظ «العدل»؛ لأن القضية هنا تتعلق بأحوال قلوب الرجال والنساء، أي بما هو «معنوي»، فقال تعالى بعدها:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

وذلك لأن الله يعلم استحالة العدل فيما يتعلق بأحوال القلوب، فقال تعالى «النساء / ١٢٩»:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

ولكن المطلوب هو:

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

إذن فقول الله تعالى «فَوَاحِدَةً» إشارة إلى وجوب تقليل عدد النساء في حالة الخوف من «العدل» إلى الواحدة، وقوله تعالى بعدها «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» خير برهان على أن السياق يتحدث عن حاجة الرجال إلى الاستمتاع بالنساء، وليس إلى نكاحهن من أجل رعاية أولادهن.

و: لقد جاء بـ «ما» في قوله تعالى «فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» وليس بـ «مَنْ»، لأنه يريد الحديث عن «الصفات»، عن جنس النساء، وليس عن «الذوات» عن نساء بعينهن كـ «أمهات اليتيمات» مثلاً.

ونلاحظ أن كلمة «النساء» في جملة «مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» لا علاقة لها مطلقًا بـ «يَتَامَى النِّسَاء» الواردة في «الآية ١٢٧»، وقد سبق بيان ذلك عند الحديث عن فعل الشرط وجوابه.

ثم جاء بقرينة أخرى دالة على أن المقصود بـ «مَا طَابَ لَكُمْ» هو عموم النساء، وأن الذي يخاف من نكاح «اليتامى» ففي غيرهن متسع له «مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ».

وعندما يتوجه الخطاب بالعدد إلى أفراد الناس، يكون المعنى أن لكل واحد أن يتخذ لنفسه زوجتين أو ثلاثًا أو أربعًا، حسب استطاعته، فمنهم من يستطيع أن يتزوج اثنتين، فإذا نظرنا إلى هؤلاء وجدنا نساءهم اثنتين اثنتين، فإذا نظرنا إليهم جميعًا وجدنا نساءهم «مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ».

وقول الله تعالى «ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا»: إن أصل العَوْل الميل «المحسوس»، ثم نقل إلى الميل «المعنوي» وهو «الجَوْر» المحظور المقابل للعدل، وهو المراد

هنا، أي أن اختيار الواحدة، أو ملك اليمين، أقرب من الميل المحظور إذا لم يتحقق «العدل».

ز: نأتي إلى قول الله تعالى «النساء / ١٢٩»:

﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ ﴾.

فلا ترادف بين كلمتي «العدل» و«القسط» في اللغة العربية، ولا في السياق القرآني، إذن فكيف نفهم قوله تعالى عن الطائفة الباغية «الحجرات / ٩»:

﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾.

كيف نفهم:

ـ «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ».

ـ «وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

ولماذا قال «وَأَقْسِطُوا» وقد قال قبلها «فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ»؟!

❊ أقول:

إن العَدل: بالفتح ضد «الجَوْر»، و«عَدَلَ» عن الطريق أي «جار»، و«العَدل» ما عَدل الشيء من غير جنسه، و«العَديل» الذي يعادل غيره في الوزن والقدر، و«العديل» بالكسر يعني «المِثْل»، و«تَعْديل» الشيء تقويمه، و«تَعْديل» الشهود وصفهم بالعدول.

وتأتي «عَدْلٌ» بمعنى «الفدية»:

«وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ».

«وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا».

«أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا».

ويأتي الفعل «يَعْدِلُونَ» بمعنى الإشراك بالله، وذلك بمماثلة غيره له سبحانه: «ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ».

إن «**العدل**» قيمة «أخلاقية» محلها القلب السليم، تستصحب المؤمن في جميع أمور حياته، حاملًا الحق، حتى في حال غضبه وكراهيته للآخر.

إن «**العدل**» ليس قيمة «مادية» يمكن وزنها بالميزان المادي، فقد يكون «الميزان» بيد «جائر» فلا يعطي الوزن الصحيح.

ولذلك يدور الأمر بـ «العدل» في السياقات القرآنية حول محور الحق والباطل، التقوى والهوى، الحب والكراهية.

ومثال ذلك: قول الله تعالى «النساء / ٥٨»:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

وقول الله تعالى «النساء / ١٣٥»:

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾.

وقول الله تعالى «المائدة / ٨»:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وقول الله تعالى «الأنعام / ١٥٢»:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

وقول الله تعالى «الطلاق / ٢»:

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾.

أما **القِسط**: فيعني الحصة والنصيب، نقول قَسّطنا الشيء بيننا، ويجب أن تكون «القسمة» خالية من أي «جور»، ولذلك سمى الله «الميزان» بـ «القِسطاس»، فقال تعالى: «وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ».

ولذلك ارتبط «القسط» بـ «الميزان» في كثير من الآيات.

والسؤال:

لماذا يحب الله المقسطين «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»، ولم تأت إشارة إلى حب «العدول»، فهل هذا معناه أنه سبحانه يكرههم؟!

أبدًا، ولكن لكون «القسط» يخضع لموازين وحسابات دقيقة، قد تكون أشق على النفس وأصعب، من «العدل» المتعلق بالحقوق المعنوية التي قد يتدخل فيها «هوى»

النفس، ولذلك عطف عليه «القسط» ليحث الناس على الأخذ بالمعايير الدقيقة: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ۖ﴾.

ولقد جاء «القسط» في سياق المحافظة على حقوق «اليتامى».

ومن الآيات التي ورد فيها الأمر بـ «القسط»: قول الله تعالى «النساء / ١٢٧»:

﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾.

وقول الله تعالى «الأنعام / ١٥٢»: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾.

وقول الله تعالى «الرحمن / ٩»: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾.

وأنزل الله على رسوله محمد، عليه السلام، الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، قال تعالى «الحديد / ٢٥»:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

ح: لقد افترى د. شحرور على الله الكذب عندما ظن لجهله بعلم السياق أن الأمر «فَانكِحُوا» في قوله تعالى:

﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

يعني «فَانكِحُوا» أمهات اليتامى «الأرامل»، وذلك في حالة الخوف من القسط في اليتامى، ولم ينتبه إلى الفرق بين توجه «جملة فعل الشرط»:

* ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

التي حملت كلمة «الْيَتَامَى».

وتوجه «جملة جواب الشرط»:

* «فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ».

التي حملت كلمة «النِّسَاءِ»، وليس «الْيَتَامَى».

وافترى على الله الكذب عندما فهم قوله تعالى في سياق الحديث عن «يتامى النساء»:

«اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ».

فقال: «والله تعالى أمر بإعفاء الرجل من المهر والصداق حين الزواج من أمهات اليتامى»!!

وافترى على الله الكذب عندما قال: «لا يصح القول إن يتامى النساء هي النساء اليتيمات، واليتيم يسقط حكمًا مع بلوغ سن النكاح».

أما قوله: «لا يصح القول إن يتامى النساء هي النساء اليتيمات».

فجاء أكثر تهافتًا، لأن سياق السورة يتحدث عن «أحكام النساء»، و«النساء» ينقسمن إلى «يتامى» و«غير يتامى»، فجاءت الإضافة في «يَتَامَى النِّسَاء» من باب إضافة «الخاص» إلى «العام»، ولذلك جاءت الضمائر في: «تُؤْتُونَهُنَّ» ـ «كُتِبَ لَهُنَّ» ـ «تَنكِحُوهُنَّ»

عائدة على «يَتَامَى النِّسَاءِ» وليس على «أمهاتهن».

ولقد استخدم السياق «الواو» الدالة على التفصيل عند بيان عدد «النساء» المباح للرجل نكاحهن، فقال تعالى: «مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ».

ولم يستخدم «أو» الدالة على التخيير، فقال: «مَثْنَى أَوَ ثُلاثَ أو رُبَاعَ».

لأن «واو التفصيل» جاءت لبيان أن للرجل أن يتزوج بامرأتين، فإن أراد الزواج بثالثة ورابعة يُباح له ذلك، أو أن يكتفي بـ«واحدة».

أما لو استخدم «أو التخيير» لاقتضى ذلك أن يختار الرجل من أول الأمر عددًا محددًا من «الأزواج»، ولا يجوز له أن يزيد عليه، فإما «مَثْنَى»، أو «ثُلاثَ»، أو «رُبَاعَ».

إذن فالمعنى العام للآية:

إن خفتم من نكاح الأربع، فـ«ثلاث»، وإن خفتم فـ«اثنتان»، وإن خفتم فـ«واحدة»: «ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا».

وأصل «العول» الميل، يُقال: عال الميزان عولًا، إذا مال، وعال الحاكم في حكمه إذا جار.

لذلك اختص اللفظ بـ«الميل» نحو الجور والظلم.

والمعنى:

أن الاكتفاء بـ «امرأة واحدة»، لمن يخاف من «عدم العدل» بين أكثر من امرأة، هو أقرب شيء يحميه من الميل عن العدل الذي أمر الله به.

والسؤال:

لماذا عندما قال الله تعالى في سياق نكاح النساء بوجه عام «النور / ٣٢»:

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

لم يشترط هذا الشرط: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فَوَاحِدَةً».

كما اشترطه عن نكاح «يَتَامَى النِّسَاءِ»:

* «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا..»؟!

لأننا أمام نكاح تحكمه «المشاعر القلبية» بين الطرفين، ولسنا أمام «نكاح» يجب أن تسبقه «حسابات دقيقة» تحفظ حقوق «اليتيمات» بصفة خاصة.

ولاستحالة أن يتحقق شرط «العدل» بين «النساء»، وذلك لاستحالة التحكم في مشاعر الرجال «القلبية»، على أساس «القسط»، أخبرنا الله أنه يعلم ذلك، ثم جاء بحكم تشريعي ضابط لهذه «المشاعر القلبية»، فأقام الله على هذا الخبر:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾.

حكمًا تشريعيًا:

﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

ولذلك، فهل يُعقل أن يبيح الله «تعدد الزوجات» بشرط العدل بين النساء، ثم يقول لنا:

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾؟!

أَفَلاَ يَعْقِلُونَ؟!

الفصل الرابع

«آليات عمل القلب»

«آليات عمل القلب»

هل هناك عضو مادي في جسم الإنسان اسمه «العقل»؟!

أثناء دراستي لآيات الذكر الحكيم، لفت نظري عدم وجود عضو مادي من أعضاء جسم الإنسان اسمه «العقل»، وعندما قمت بالبحث عن هذا «العقل» في كتب المفسرين والفلاسفة، لم أجد أحدًا ذكر أين يوجد هذا «العقل» الذي يستخدمونه في كلامهم، ومن الذي اكتشف وجوده، في الوقت الذي أشار القرآن إلى أشياء «معنوية» موجودة في جسم الإنسان، وبيّن أنها هي المسئولة عن تفكيره وتعقله للأمور، وعن حسابه في الآخرة، ومنها النفس والقلب والفؤاد: فعن النفس يقول الله تعالى «الشمس/ ٧ ـ ١٠»:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

ـ فأين توجد هذه «النفس» في جسم الإنسان؟!

وعن القلب يقول الله تعالى «الشعراء/ ٨٨ ـ ٨٩»:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

ـ فأين يوجد هذا «القلب» في جسم الإنسان؟!

وعن الفؤاد يقول الله تعالى «المؤمنون / ٧٨»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ـ فأين يوجد هذا «الفؤاد» في جسم الإنسان؟!

وبصرف النظر عن التعريفات المختلفة التي خرج بها أهل اللغة والمفسرون والفلاسفة حول هذه المصطلحات الثلاثة، فإنهم إلى يومنا هذا لم يجيبوا عن هذا السؤال:

أين نجد هذه الأشياء الثلاثة في جسم الإنسان؟!

أولًا:

ومن الآيات التي بيّنت بالدلالة القطعية أن «القلب المعنوي» هو المسئول عن كل العمليات «الغيبية» التي يتخذ على أساسها الإنسان قراره، قول الله تعالى «الحج/ ٤٦»:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾.

وقول الله تعالى «الأعراف / ١٧٩»:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾.

ومن بين آلية التعقل «قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا» وآلية التفقه «قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا»، تقع بقية آليات هذه «العمليات الغيبية»: «لاَ يَعْقِلُونَ» ـ «أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ» ـ «أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ» ـ «أَفَلاَ يَنظُرُونَ» ـ «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» ـ «لاَ يَفْقَهُونَ».

الأمر الذي جعلني أضيف إلى أدوات التعامل مع القرآن أداة سمّيتها «آليات عمل القلب» ومنها آليات: التعقل، التذكر، التدبر، النظر، التفكر، التفقه.

وأرى، بناء على تدبر هذه الآليات في سياقاتها، وجود اتصال بينها وبين عضو «مادي» هو «الدماغ» عن طريق الجهاز العصبي المتصل بجميع خلايا الجسم، وبين عضو «معنوي» هو «الفؤاد» الذي لا يعلم مكان وجوده في القلب «المعنوي» إلا الله تعالى.

يقول الله تعالى «النحل / ٧٨»:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

ويقول الله تعالى «القصص / ١٠»:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ولذلك كان «العلم» هو المحور الرئيس الذي تدور حوله «آليات عمل القلب» وما يتصل بها من وسائل الإدراك، فيقول الله تعالى «الإسراء / ٣٦»:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾.

و«**القفو**» الاتباع، أي لا تتبع ما لا علم لك به، من قول أو فعل، لأنك مسئول عن هذا الاتباع يوم القيامة.

ثانيًا:

إن الذين ابتدعوا بدعة «العقل» كجوهر مادي مثله مثل العالم المادي، هؤلاء ضَلّوا وأَضَلّوا، ذلك أن القرار الذي يتخذه الإنسان لا يحدث نتيجة عمل آلية واحدة من «آليات عمل القلب» وإنما يحدث، كما يُفهم من السياق القرآني، نتيجة تفاعل أكثر من آلية في وقت واحد.

إن القلب الذي يعقل، هو ذات القلب الذي يُفكر، والذي يتدبر، والذي يفقه، والذي يقسو، والذي يرتاب...، وكل هذا ينطلق من مستودع العلوم والمعارف والثقافات الذي يحمله القلب، وإلا كيف يعقل أو يفقه القلب شيئًا لا يعلمه؟!

ولذلك فإن ميزان الحساب في الآخرة يقوم على مدى تفعيل الإنسان لآليات عمل قلبه، والقلب الذي نشأ في بيئة إيمانية تعمل الصالحات، تثمر آليات عمله ثمارًا صالحة في مجتمعه، وهذا هو القلب السليم الذي قال الله تعالى عنه «الشعراء / ٨٨-٨٩»:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وسأعطي مثالًا واحدًا يُبيّن كيف تتفاعل آليات عمل القلب وتتكامل في وقت واحد:

إذا تدبرنا ورود «آلية التعقل» في السياق القرآني، نلاحظ تفاعلًا بين معناها اللغوي والسياق الذي وردت فيه، وهو ضبط الشيء ومنع اضطرابه وتناقضه، فيقول الله تعالى «البقرة/ ٤٤»:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وعن حسم الشبهات حول لغة القرآن وإقامة الحجة على أهل اللسان العربي، يقول الله تعالى «الزخرف/ ١-٣»:

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

ثالثًا:

ولم تنفصل «آلية التعقل» في عملها عن «آلية التفكر» للتوصل إلى حقائق الأشياء والرد على الشبهات التي كانت مثارة في عصر التنزيل، ومنها قول الله تعالى «النحل/ ٤٣-٤٤»:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

إن القضية التي كانت محل خلاف، واحتاجت إلى تفعيل آليتي التفكر والتعقل، تتعلق بالرد على السؤال: هل كان الله تعالى يرسل الرسل على هيئة ملائكة أم على هيئة بشر؟!

وهذا ما جاءت «الآية ٣٩» من نفس السورة تبينه، فقال تعالى:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾.

وهذا ما جاءت «الآية ٦٤» من نفس السورة تبينه، وقوله تعالى:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهنا يجب أن نقف وقفة تدبر للجملة القرآنية التي وردت في سورة «النحل / ٤٤» وهي قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

فنلاحظ أن هذه الجملة لا علاقة لها مطلقًا بمصدر تشريعي أنزله الله ليبين للمسلمين ويُفسر لهم آيات الذكر الحكيم، وذلك لأن:

١ ـ الخطاب في الآيات «٣٩، ٤٤، ٦٤» للكافرين بنبوة رسول الله محمد، ليس للمؤمنين، بقرينة جملة «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ»، أي ما نُزّل إلى أهل الكتب السابقة لإثبات بطلان ادعاءاتهم.

٢ ـ أن اسم الموصول «مَا»، وصلته «نُزِّلَ»، غير الذكر المنزل، المتقدم في قوله تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ»، إذ لو كانا شيئًا واحدًا، لاقتضى ظاهر السياق أن يكون «لتبينه للناس»، وليس «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ»، أي أهل الكتب السابقة، «مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ».

رابعًا:

ولم تنفصل «آلية التعقل» عن «آلية التفكر» عن «آلية التدبر» للكشف عن حقائق الأمور والنظر في نفس الوقت إلى عواقبها، فيقول الله تعالى «النساء / ٨٢»:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾.

ويقول الله تعالى مخاطبًا المنافقين «محمد / ٢٤»:

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

ونلاحظ أن ذكر أقفال القلوب في سياق دعوة المنافقين إلى تدبر القرآن، يُبيّن أن فتح هذه الأقفال يستحيل أن يحدث بمعزل عن تفعيل «آليات عمل القلب» مجتمعة، الأمر الذي لا يقدر عليه إلا أولو الألباب، كما أفاد قول الله تعالى «ص / ٢٩»:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

إن أولي الألباب ليسوا هم الذين تدبروا آيات الكتاب، وإنما الذين قاموا أيضًا بالانتفاع بكل ما درسوه وفهموه من الكتاب، ولم يغفلوا عن تذكره وهم يتحركون في مجالات الحياة المختلفة، وكان ذلك عونًا لهم دوما على تغيير ما بأنفسهم إلى الأفضل، تفعيلًا لسُنّة الله في التغيير، حيث يقول الله تعالى «الأنفال / ٥٣»:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

ولقول الله تعالى «الرعد / ١١»:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ـ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ـ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

خامسًا:

وهل أرسل الله تعالى الرسل إلى الناس إلا لتغيير واقع حياتهم إلى الأفضل عن طريق تغيير بوصلة «آليات عمل القلب»؟!

وهل أمر الله تعالى رسوله محمدًا والذين آمنوا معه بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فقال تعالى «إبراهيم / ١»:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

إلا لتغيير حياة الناس إلى الأفضل، وإخراجهم من «الظُّلُمَات إلى النُّور»، عن طريق تغيير بوصلة «آليات عمل القلب»؟!

والسؤال:

عن أي تغيير إلى الأفضل يتحدث أصحاب القراءات القرآنية المعاصرة، وعن أي «عالمية» سيصل إليها الإسلام، وعن أي «عقل» سيحرر المسلمين من قيود أحكام شريعتهم، وقد خرج «المسلمون» أصلًا من النور إلى الظلمات، وظلوا في هذه الظلمات إلى يومنا هذا، مع إعجاب كثير منهم بهذه القراءات المعاصرة؟!

«أَفَلاَ يَعْقِلُونَ»؟!

لقد خلق الله القلب «المعنوي» بآليات تعمل من أجل سعادة الناس في الدنيا والآخرة، وأمر المسلمين أن يكونوا مبدعين لا مبتدعين، متقدمين لا متخلفين، فاختاروا أن يكونوا مقلدين منقادين، تخلت قلوبهم عن مهمتها في الشهادة على الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

آليات عمل القلب
ونقض منهجية القراءة المعاصرة

أولًا:

يقول د. شحرور «ص ٧١»:

«الكلام في اللغة اسم جنس يقع على القليل والكثير، وقد عرفه بعضهم بأنه المنتظم من الحروف المسموعة المميزة... وكل الألسن الإنسانية أصوات تتألف منها الكلمات والجمل، فإذا تكلم الصيني فإننا نحن العرب نسمع أصواتًا ولكن لا نفهم ما هو مدلول تلك الأصوات، أي المعنى، وعندما يأخذ الكلام مدلولًا في الذهن يصبح قولًا.

الكلام يخرج من الفم وفيه تكمن الفصاحة، لذا قال موسى عن أخيه هارون «القصص / ٣٤»: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

وعندما أرسل الله موسى إلى فرعون نصحه بقوله «طه / ٤٤»: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

فالقول هو الكلام الذي له دلالات في الذهن، لذا نقول البلاغة في القول، والفصاحة في اللسان، أما البلاغة فنراها في قوله تعالى «النساء / ٦٣»: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾.

ونرى الكلام والقول في آية واحدة في قوله تعالى «الكهف / ٥»: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

أي هذه الكلمة التي تخرج من الأفواه لها مدلول الكفر عندما نفهمها في الذهن

لذا قال إِن يَقُولُونَ ولم يقل إن يتكلمون، هنا يجب أن نفهم أن الألسن الإنسانية ذات شقين:

الشق الأول: هو الأصوات التي لها وجود مادي «موضوعي».

والشق الثاني: هو دلالات هذه الأصوات في الذهن.

وهذه خاصية تميز بها الإنسان، وهي أن الألسن الإنسانية تتألف من دال ومدلول.

وبما أن الألسن تؤدي وظيفتين هما أن تستخدم أداة للاتصال وأداة للتفكير، ففي أداة الاتصال يظهر بشكل جلي ارتباط الدال بالمدلول، وفي أداة التفكير يظهر المدلول، ولكن التدقيق يبين أن التفكير الإنساني لا يتم إلا ضمن إطار لساني غير ملفوظ.

*** أقول:**

الذي يهمني هو قول د. شحرور الأخير:

«وفي أداة التفكير يظهر المدلول، ولكن التدقيق يبين أن التفكير الإنساني لا يتم إلا ضمن إطار لساني غير ملفوظ».

إن «أداة التفكير»، التي يتحدث عنها د. شحرور، آلية من «آليات عمل القلب»، وهي من عالم غير مادي لا تدركه الحواس، فكيف يؤمن بها في الوقت الذي يقول فيه «ص ٤٢»:

«إن العلاقة بين الوعي والوجود المادي هي المسألة الأساسية في الفلسفة، وقد انطلقنا في تحديد تلك العلاقة من أن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية»؟!

كيف يؤمن د. شحرور بوجود أداة للتفكير «غيبية» ومصدر المعرفة الإنسانية عنده هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية؟!

والجواب:

أن قراءة د. شحرور المعاصرة لـ«التنزيل الحكيم»، تقوم أساسًا على عدم الإيمان إلا بـ«العالم المادي» الذي تدركه الحواس، وتحويل كل ما هو غير مادي إلى شيء مادي تدركه الحواس!!

ولذلك خرج عن إطار الفهم الواعي لـ «آلية التفكير»، وجعلها ضمن «إطار لساني»، وعندما وجد نفسه مضطرًّا لبيان معنى «كلمات الله» في إطار تعريفاته السابقة، قال «ص ٧٢»:

«لو كان النص القرآني المتلو أو المكتوب الموجود بين أيدينا هو عين كلام الله، فهذا يعني أن الله له جنس وجنسه عربي، وأن كلام الله ككلام الإنسان يقوم على علاقة دال ومدلول.

ولكن بما أن الله أحادي في الكيف «الإخلاص / ١»: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وواحد في الكم «الأنعام / ١٩»: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

وإن الله ليس عربيًا ولا إنكليزيًا، لزم أن يكون كلامه هو المدلولات نفسها، فكلمة الشمس عند الله تعالى هي عين الشمس، وكلمة القمر هي عين القمر، وكلمة الأنف هي عين الأنف.

أي أن الوجود المادي الموضوعي ونواميسه العامة، هي عين كلمات الله، وكلمات الله هي عين الوجود ونواميسه العامة، ولهذا نقول:

إن الله هو الحق وإن كلماته حق «الأنعام / ٧٣»: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾.

ويقول الله تعالى «يونس / ٨٢»: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

ثم تعالوا نتدبر ماذا قال بعد ذلك عن الوجود الإلهي والوجود الكوني انطلاقًا من «الفلسفة المادية للوجود»:

«فالوجود الموضوعي خارج الوعي: هو الوجود الإلهي».

*** أقول:**

إن د. شحرور لا يتحدث عن دلائل الوحدانية الموجودة في الوجود المادي الموضوعي ونواميسه العامة، ولا عن «كلمات الله» في هذا الوجود، وإنما يتحدث عن «الوجود الإلهي» نفسه ولكن بأسلوب ملتو «خبيث» يضع آيات التنزيل الحكيم واجهة له، كقول الله تعالى «الحج / ٦٢»:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

ليقول: «والوجود الكوني، الذي هو كلمات الله، وهو حق أيضًا».

وبقول الله تعالى «الأحقاف / ٣»:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ليقول: «فالله حق والوجود كلماته، وهو حق أيضًا.

وبقوله تعالى «آل عمران / ٤٧»:

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقوله تعالى «يس ٨٢»:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ولذلك عندما وجد د. شحرور نفسه أمام تعريف «كلمات الله»، خالف القاعدة التي أقام عليها الفرق بين «الكلام» و«القول»، وحذف من تعريف «الكلام» كلمة «الأصوات» واكتفى بقوله:

«إن الوجود المادي الموضوعي هو عين كلمات الله».

فماذا يقول د. شحرور في قول الله تعالى «التوبة / ٦»:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ - حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ - ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾؟!

فهل كان رسول الله يأتي بدلالات ومسميات «كَلاَمَ اللّهِ» ويضعها أمام المشرك ويقول له: استمع إلى ما تقوله هذه الأشياء «المسميات»؟!

أم كان رسول الله، عليه السلام، يتلو على المشرك آيات التنزيل الحكيم ثم يبلغه مأمنه؟!

وهل عندما قال الله تعالى:

«وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»:

أظهر الله تعالى لموسى، عليه السلام، وهو بجانب الطور مسميات الأشياء الموجودة في الوجود المادي الموضوعي، أم خلق أصواتًا سمعها موسى؟!

وهل عندما اتهم الله تعالى اليهود بأنهم: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ»: كانوا يُحرّفون دلالات كلام الله الذي نزل على موسى، عليه السلام، أم كانوا يُحرّفون مسميات هذه الكلمات الموجودة في الوجود المادي الموضوعي؟!

إن الذي دفع د. شحرور إلى القول بأن كلام الله هو عين الوجود الموضوعي، هو اتباعه لـ «الفلسفة المادية للوجود» وإقامة قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم على قواعدها، وتدعيم هذه القراءة بآيات مستقطعة من سياقاتها «الأنعام / ٧٣، يونس / ٨٢، الحج / ٦٢» ليصل إلى القول:

أ: إن المخلوقات كلها كلمات الله.

ب: وهذه المخلوقات موجودة خارج الوعي.

ج: والوجود الموضوعي خارج الوعي هو الوجود الإلهي.

د: والوجود الإلهي حَلّ في الوجود المادي الموضوعي.

ويبدو أن هناك من لفت نظر د. شحرور إلى أن قوله هذا يعني أنه يؤمن بـ «نظرية الحلول ووحدة الوجود»، وأن ذلك يُسقط قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، فذهب ينفي عن الله ذلك في كتابه «نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي ـ ص ٣٨»، وقال:

«والواقع هو أننا حين نعتبر الله كينونة فقط، نعتبر أن الصيرورة والسيرورة صادرة عنه، وليست جزءًا منه، وهذا ما ينفي الحلول ووحدة الوجود، ولما كانت السيرورة والصيرورة لا تكون دون كينونة، فنحن لا نفهم ولا نستطيع أن نفهم أي شيء عن الله إلا من خلال هذا الوجود».

ولقد ظن د. شحرور أن قوله هذا ينفي عنه إيمانه بـ «الحلول ووحدة الوجود»، ولكنه في هذه الفقرة نفسها التي قال فيها «وهذا ما ينفي الحلول ووحدة الوجود»، قال في ختامها: «لا نستطيع أن نفهم أي شيء عن الله إلا من خلال هذا الوجود».

ونلاحظ قوله «عن الله»، فإذا ذهبنا إلى «ص ٤٠» من كتابه «نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي»، نجده يضع الله عز وجل وجميع المخلوقات في سلة مادية واحدة اسمها «الحقيقة الموضوعية»، فقال:

وقولنا إن الله حق وكينونة بذاته وموجود في ذاته خلق الموجودات بالحق، يعني: أن الله حقيقة موضوعية مطلقة موجودة في ذاتها، وأن الموجودات حقيقة موضوعية مطلقة موجودة بغيرها ومتعلقة به».

فكيف يقبل مسلم عاقل أن يكون الله تعالى «حقيقة موضوعية مطلقة في ذاتها»، والموجودات «حقيقة موضوعية مطلقة» ولكنها موجودة بغيرها ومتعلقة به، دون أن يُفصح د. شحرور عن معنى قوله عن الموجودات: «موجودة بغيرها ومتعلقة به».

ولماذا لم يقل: «موجودة بالله ومتعلقة به» وقد كان الكلام عن الله والموجودات؟!

فإذا ذهبنا إلى «ص ٢٥٢» من كتابه «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة»، نجد د. شحرور يجيب عن سؤال «ما هي نظرية المعرفة الإنسانية؟!» ويقول:

أ: وجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها.

ب: المعرفة الإنسانية تبدأ بالمشخص الجزئي وتنتهي بالمجرد العقلي، والذي يُسمى بالقوننة، أي الكلي.

ج: هي التي مكنت الإنسان من تسخير الأشياء لمصلحته.

د: هي عملية انتقال مستمر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

فإذا بحثنا عن مفهوم د. شحرور لـ «عالم الغيب»، وهل يقصد ما يُسمى بما وراء الطبيعة، أي بما وراء العالم المادي، نجده يقول «ص ٢٦٧» تحت عنوان «الغيب والشهادة»:

«الغيب أشياء وأحداث مادية موجودة أو حصلت، ولكنها غابت عن بعض الناس، أو عن كل الناس، ولكنها ليست فيما وراء الطبيعة، قابلة للإدراك».

ثم يقول د. شحرور بعدها «ص ٢٥٢» تحت عنوان:

«ما المقصود بموضوعية المعرفة الإنسانية»:

هو أن الصور الموجودة في الأذهان يجب أن تكون مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان خارج الوعي.

❊ أقول:

وأين يضع د. شحرور الله تعالى: في الأذهان أم في الأعيان، وإذا كان الله عز وجل «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» إذن فهو سبحانه خارج «موضوعية المعرفة الإنسانية» وخارج «الحقيقة الموضوعية» وخارج أي «تصور مادي» يخطر على بال أحد.

وعندما يقول: «حيث إنه ليس من الضروري أن تكون الصور الموجودة في الأذهان مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان، وهنا يكمن الالتباس الأساسي بين الحق والباطل، أي بين التصديق والتصور».

فهو يقول هذا لينفي وجود أي معرفة إنسانية ليس لها وجود مادي تدركه الحواس، وهذا ما أكده بعد ذلك بقوله: «أي يجب أن تكون التصورات والتصديقات متطابقة، فإذا كان لدينا تصور ما عن الحياة، ونظرنا إلى الحياة فوجدناها غير ذلك، فما علينا إلا أن نُعدّل هذه التصورات لكي نجعلها مطابقة للتصديقات».

❊ أقول:

فكيف نفهم «أن تكون التصورات والتصديقات متطابقة» في إطار قول د. شحرور: «إن الوجود الموضوعي خارج الوعي هو الوجود الإلهي»؟!

ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول د. شحرور «ص ٣٧٩» عند حديثه عن «الروح»:

«الروح هي إزالة التناقض، والربط بين المجرد، وهي سبب المعرفة والتشريع، وسبب الخلافة، وهي من الله مباشرة، لأنها من صفات الله».

❊ أقول:

بصرف النظر عن أن كلمة «الروح» مذكر وليست مؤنثًا فنقول «هو» وليس «هي»، فإن د. شحرور يقصد بالمجرد «الله تعالى»، وبالتالي فهو ينفي أن يكون الله «شيئًا» لأن الأشياء هي الموجودات، كما ذكر «ص ٣٨٧» عند تعقيبه على الآيات التي وردت فيها جملة «بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» فقال:

«ونلاحظ أن في الآيات السابقة قوله «بِكُلِّ شَيْءٍ» والأشياء هي الموجودات».

والسؤال:

إذا كان «الله تعالى» مجردا وليس «شيئًا»، و«الموجودات» هي «الأشياء فقط»، فهل «الله تعالى» موجود أم غير موجود، في إطار قوله تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»؟!

وإذا كان الله تعالى «موجودًا»، مع نفي «المماثلة»، فهل يؤمن د. شحرور بـ «الله تعالى» باعتباره من العالم «غير المادي» ويكون بذلك قد أقر بوجود «معرفة إنسانية» خارج «الوجود المادي»؟!

أم يؤمن بـ«كلمات الله» التي حلت في «الوجود المادي» بصرف النظر عن مصدرها؟!

يقول د. شحرور «ص ٣٩٠»:

«أما بالنسبة لسلوك الإنساني الواعي، فحتى نفهم هذا السلوك الواعي يجب علينا ألا ننسى:

أ: أن الإنسان خليفة الله في الأرض.

ب: أنه يوجد في الإنسان، وليس في الكائنات الحية الأخرى، شيء من ذات الله وهو الروح.

* نلاحظ قوله «من ذات الله»!!

ج: وبها أصبح خليفة الله في الأرض واكتسب المعارف وأصبح قادرًا على المعرفة والتشريع.

د: إذ قلنا إن هناك أمرًا مشتركًا بين الله والإنسان وهو الروح، أي إذا قلنا إن الصور المتحركة فيها شيء من ذات المصمم، لتغير الأمر».

*** أقول:**

وهل «نظرية الحلول ووحدة الوجود»، التي ادعى د. شحرور أنه تبرأ منها، غير هذا الذي قاله، وأن الإنسان يحمل في ذاته شيئًا من ذات الله وهو «الروح» وأن البشر يشاركون الله في ذاته، ليؤكد ما قاله من قبل: «إن الوجود الموضوعي خارج الوعي هو الوجود الإلهي»؟!

ثانيًا:

يقول د. شحرور «ص ٧٧»:

«هنا نرى أن الإعجاز جاء في القرآن فقط، وليس في أم الكتاب إذ أن أم الكتاب ذاتية، وهكذا لا يمكن أن نرى في أي آية من آيات الأحكام مصطلح (قال الله)، هذا مستحيل... إنما نرى أن آيات الأحكام جاءت ضمن الصيغ التالية:

١ ـ صيغة أمر، كقوله تعالى «النحل / ٩٠»:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

٢ ـ صيغة نهي، كقوله تعالى «الإسراء / ٣٢»:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

٣ ـ صيغة فريضة وكتاب، كقوله تعالى «التحريم / ٢»:

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى «البقرة ١٧٨»:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾.

ثم يقول د. شحرور «ص ٧٨»:

أ: أي أنه لا يمكن أن نرى آية واحدة من آيات الرسالة «الأحكام» فيها عبارة «قال الله».

ب: لأنه لو جاءت بهذه الصيغة «قال الله صلوا»، أو «قال الله صوموا»، مع الأخذ بالحسبان أن قول الله هو الحق «الأنعام / ٧٣»: «قَوْلُهُ الْحَقُّ»، فهذا يعني:

ج: أن الصلاة والصوم حقيقة موضوعية موجودة خارج الوعي، ولأصبحت الصلاة والصوم ناموسًا لا يمكن مخالفته.

د: ولرأينا أن الناس جميعًا دون استثناء صاموا وصلوا من دون أن يكون لهم أي خيار في ذلك.

هـ: ولأصبحت الصلاة والصوم كعملية هضم الطعام ونبض القلب يلتزم بأدائهما الناس آليًا.

ثم قال د. شحرور:

من هنا وللدقة وجب علينا ألا نطلق عبارة «قال الله» على الأحكام ولكن نقول: أمرنا الله بالصلاة... ونقول: أمرنا الله تعالى بصلاة الجمعة... ولا نقول: قال الله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ...».

وقال: فإذا قلنا «قال الله صلوا»، وكان هناك أناس لا يصلون، فهذا يعني أن قوله غير نافذ، وهذا يناقض قانون «قَوْلُهُ الْحَقُّ»، هذا إذا أردنا أن نتقيد بالمصطلح القرآني البحت.

ويقول د. شحرور «ص ٧٩»:

أما قوله تعالى «البقرة / ٥٨-٥٩»:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هنا الآية «البقرة / ٥٨» تبدأ بقوله «وَإِذْ قُلْنَا»، والقائل هو الله، فقوله نافذ، ولكنه ينطبق فقط على الفقرات:

* «ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا».

* «وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا».

أي أنهم دخلوا القرية، وأكلوا، ودخلوا الباب سجدًا.

ولكن جملة: «وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

هي جملة أمر ضد النهي، و«ليست قولًا»، ولكي يبين أن هذه جملة أمر قابلة للعصيان والطاعة، وليست «كلمة»، فقد أتبعها بالآية:

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

وليست «كلمة» نافذةً لا محالة، ولو كانت جملة: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾.

كلمةً من كلمات الله، وليست أمرًا، لتناقضت مع قوله تعالى «الأنعام / ١١٥»:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾.

إذ كيف يقول: «لاَ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ» وأفرد قوله تعالى «الأعراف / ٥٩»

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾.

لكي يؤكد عدم التناقض؟!

❊ أقول:

١ ـ إن د. شحرور لم يفرق بين «الكلام» و«القول»، وسأكتفي بالتعليق على ما قاله عن الآيتين «البقرة / ٥٨-٥٩»: لقد اشترط الله ليغفر خطايا بني إسرائيل أربعة شروط، منها ثلاثة «أفعال» والرابع أن يقولوا كلمة: «حطة».

ـ الأفعال الثلاثة:

أ: دخول القرية: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ».

ب: الأكل من خيراتها: «فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا».

ج: ودخول الباب سجدًا: «وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا».

ـ الكلمة: «وَقُولُواْ حِطَّةٌ».

ووعدهم الله تعالى أن يغفر لهم خطاياهم: «نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

بشرط الالتزام بالأوامر الأربعة، فماذا فعلوا؟!

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾.

٢ ـ لقد انتهت «الآية ٥٨»، التي حملت الأوامر السابقة، بجملة:

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

أي أن وعد الله لهم بـ «المغفرة» مشروط بتنفيذ هذه الأوامر مجتمعة، وليس أمرًا واحدًا، وهو أن يقولوا «حطة» فخالفوه وقالوا «حنطة»، كما يدعي د. شحرور متبعًا ما قاله أئمة السلف.

ثم بدأت «الآية ٥٩» بكلمة «فَبَدَّلَ» إشارة إلى تبديل الأوامر التي «قيلت لهم» من قبل، فاستحقوا العذاب:

﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾.

ونلاحظ أن «التبديل» مشتق من «البدل»، أي أنهم أتوا «ببدل» يخالف ما قيل لهم «قولًا وفعلًا»، وقد قال الله لبني إسرائيل «افعلوا» و«قولوا»، وكانوا مخيّرين بين الفعل أو الترك.

٣ ـ إن «كلام الله»، هو «قول الله»، هو «حكم الله»، الذي جعل الله الإنسان مخيّرا بين الإيمان والعمل به، أو الكفر به وتركه، ومثال ذلك ما ورد في الآية «الفتح/ ١٥»:

﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ـ ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ ـ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ ـ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ـ كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ ـ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ ـ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾.

فنحن أمام جملة تقول: «يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ».

وجملة بعدها تقول: «كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ».

فكيف نفهم بـ «آليات عمل القلب» موضوع الجملتين لنتعرف على الفرق بين «كلام الله» و«قول الله»؟!

يستحيل أن نفهم موضوع الجملتين من داخل القرآن، وهنا تظهر أهمية «منظومة التواصل المعرفي» كقاعدة أساسية ينطلق منها الفهم الواعي لـ «آيات التنزيل الحكيم»، حسب ما بيّناها في المنهج المتبع في هذا الكتاب.

لقد وعد الله المسلمين، بعد «صلح الحديبية»، بالنصر في «خيبر»، وأن «غنائم

خيبر» ستكون لمن شهدوا «الحديبية»، فأراد «الْمُخَلَّفُونَ» الذين لم يشهدوا «الحديبية»، أن يكون لهم نصيب في «غائم خيبر»، فطلبوا الخروج مع رسول الله.

أ: فقول الله تعالى: «كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ»، أي «حَكَمَ من قبل»، جاء بيانه في التوبة «٨١-٨٣»:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ـ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا ـ وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ـ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ـ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾.

ب: وقوله تعالى: «يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ»، أي أن يخالفوا «أمر الله وحكمه» السابق «المائدة / ٨١-٨٣».

والسؤال:

على أي أساس من الفهم الواعي لـ «آيات التنزيل الحكيم»، ومن تفعيل «آليات عمل القلب»، قال د. شحرور «ص ٧٨»:

«إنه لا يمكن أن نرى آية واحدة من آيات الرسالة، أي الأحكام، فيها عبارة قال الله»؟!

إذن فماذا عن هذه الآية «كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ»، التي تعني كذلك «حَكَمَ الله» من قبل؟!

وماذا عن هذه الآيات:

أ: ألم يقل الله تعالى لإبراهيم عليه السلام «البقرة / ١٣١»:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أليست كلمة «أَسْلِمْ» أمرًا يحمل «حكمًا» من أحكام الشريعة؟!

ب: وماذا عن قول الله تعالى عن ميثاق بني إسرائيل، «المائدة / ١٢»:

﴿... وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ ـ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾.

ألم يأمرهم الله بحكم من أحكام الشريعة، وهو «إقام الصلاة»، كشرط ليكفر عنهم سيئاتهم، وقد سبق هذا الحكم «وَقَالَ اللّهُ»؟!

ج: وماذا عن قول الله تعالى «النحل / ٥١»:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

أليس النهي عن الشرك من أحكام الشريعة الإلهية، وجاء مسبوقًا بـ «وَقَالَ اللّهُ»، أم أن أحكام الشريعة تتعلق بالعبادات فقط؟!

٤ ـ وماذا عن قوله تعالى «غافر / ٦٠»:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

أليس قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

بيانا لمصير المخالفين لحكم من أحكام الشريعة واجب الاتباع، والناس مخيّرون في العمل به أو تركه، وهو «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»؟!

فهل الذين عصوا «كلام الله» أو «قول الله»، أبطلوا بمعصيتهم حجية «لاَ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ» وفعالية «قَوْلُهُ الْحَقُّ»؟!

إن فعالية «قَوْلُهُ الْحَقُّ» ليست محصورة في «العالم المادي» الذي تدركه الحواس خارج الوعي الإنساني، كما يدعي د. شحرور، وإنما هي أوسع من ذلك بما لا يخطر على بال إنس ولا جان، ولذلك يجب أن نفرّق بين:

أ: «الحق»: القائم بين الناس، والذي له وجود موضوعي خارج الوعي، كما يقول د. شحرور، وكما تقول «الفلسفة المادية للوجود».

ب: «الحق»: الذي هو «عالم الغيب» الذي لا علاقة للوجود الموضوعي أو غير الموضوعي به، والذي قامت عليه السماوات والأرض، ونزل به التنزيل الحكيم «الإسراء / ١٠٥»:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾.

وعليه، فإن قول د. شحرور إن كلمة الله وقول الله لا بد أن يكون لهما حقيقة موضوعية خارج الوعي الإنساني، قول ساقط من أصوله وقواعده.

ثالثًا:

يقول د. شحرور «ص ٨٠»:

«لقد قلنا إن القرآن جاء من «قرن» وهو من جمع الجزء الثابت من قوانين الكون الموجود في «اللوح المحفوظ» مع الجزء المتغير الموجود في «الإمام المبين» لذا فإن القرآن يحتوي على موضوعين هما:

١ ـ الجزء الثابت:

وفيه القانون العام للوجود المادي الثنائي، والذي يتمثل في جدل هلاك شكل الشيء باستمرار، وجدل تلاؤم الزوجين، ويعتبر التطور وتغير الصيرورة العمود الفقري لهذا الجزء، ويتمثل بالانفجار الكوني الأول، وقوانين التطور حتى قيام الساعة، ونفخة الصور الأولى والثانية، والبعث والحساب والجنة والنار، أي خط الوجود المادي كله، مع خط تطوره الحتمي.

هذا الجزء الذي له السيطرة والمجد، والذي قال عنه «البروج / ٢١-٢٢»:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾.

ليس مناط الدعاء من قبل الإنسان ولا يمكن أن يتغير من أجل أحد، وهو الذي يطلق عليه «كلام الله القديم»، والذي هو جوهر الوجود المادي وعينه، والذي قال عنه «لاَ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ» وهذا الجزء هو مناط الفلسفة وهي أم العلوم.

٢ ـ الجزء المتغير:

وهو الذي أوحي من إمام مبين «يس / ١٢»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

ويشتمل على:

ـ الجزء المتعلق بأحداث الطبيعة وظواهرها... وهذا الجزء هو مناط المعرفة الإنسانية بالطبيعة وهو مناط التصريف من الله والإنسان وهو مناط الدعاء لأنه غير ثابت ولكنه لا يخرج عن القانون العام.

ـ أحداث التاريخ الإنساني بعد وقوعها... وفيه خط تطور التاريخ الإنساني بالنبوات والرسالات... فالتاريخ الإنساني الواعي هو معرفة وتشريع، وما نتج عن ذلك من نتاج مادي وعلاقات حضارية إنسانية.

*** أقول:**

إن ما ذكره د. شحرور سابقًا استقاه من «الفلسفة المادية للوجود»، التي سيأتي نقضها في موضعها، أما الذي يستحق التعليق في هذا السياق فهو قول د. شحرور عن «الجزء الثابت» من قوانين الكون: «هو الذي يطلق عليه كلام الله القديم... وهذا الجزء هو مناط الفلسفة وهي أم العلوم».

والسؤال:

من أي المصادر المعرفية عرف د. شحرور أن لله «كلامًا قديمًا» هو القانون العام، و«كلامًا محدثًا» هو القانون الخاص، وأن «القرآن» سمي «قرآنًا» لأنه «قَرَنَ» كلام الله القديم مع كلامه المحدث مع خط تطور سير التاريخ الإنساني؟!

وأين كان تفعيل «آليات عمل القلب» والدكتور شحرور يُقحم في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم مسألة كانت سببًا في اشتعال نار التخاصم والتكفير بين المسلمين، وهي مسألة: هل كلام الله مخلوق أم غير مخلوق؟!

رابعًا:

يقول د. شحرور «ص ٨١»: ما هي البيّنة؟!

«البيّنة هي دليل مادي قابل للإبصار والمشاهدة».

فإذا اتهمنا إنسانًا بالسرقة فعلينا أن نقيم الحجة عليه بالبينة أي بالدليل المادي، فما هي حجة الله على الناس؟! حجة الله أنه بلغ الناس رسالة «الأحكام» ودعم هذه الرسالة بالبينات التي هي دلائل مادية.

بالنسبة لموسى أعطاه الله التوراة نبوةً له، وأعطى عيسى الإنجيل كذلك، ودعم التوراة بينات من خارجه، ودعم الإنجيل بينات من خارجه.

وأما موسى فأعطاه الله تسع آيات بينات «الإسراء / ١٠١-١٠٢»:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

لم يقل الله عن التوراة إنها آيات بينات إلا لأنها جاءت بصياغة تتناسب مع الأرضية المعرفية لذلك الوقت، أي تتناسب مع مراحل الوعي الإنساني منذ ثلاثة آلاف سنة.

كما أن الله أعطى موسى بالإضافة إلى التوراة الكتاب والفرقان «البقرة / ٥٣»:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

فالتوراة والفرقان والكتاب بحاجة إلى بينات، وهذه البينات مادية، سمّاها أولًا آيات، وثانيًا بينات، وعددها تسع، وكانت دليل موسى لتصديقه بأنه مرسل من الله، فهذه الآيات هي: «العصا واليد البيضاء والجراد والقمل والطوفان والضفادع والدم وشق البحر والرجز».

هذه الآيات كانت بينات مادية شوهدت بالعين وبالحواس ولهذا قال عنها بصائر.

أما عيسى بن مريم فقد أعطاه الله بينات «خارج الإنجيل»، لذا قال «البقرة / ٨٧»:

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾.

فبينات عيسى بن مريم كانت مادية أيضًا، وكانت قابلة للإبصار وهي «آل عمران/ ٤٩»:

﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ثم يقول د. شحرور «ص ٨٢»:

«لقد سمى الله سبحانه وتعالى آيات القرآن فقط بالآيات البينات دون أي شك، وذلك بقوله «يونس / ١٥»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ونحن نعلم أن مجموعة هذه الآيات البينات هي الحقيقة «الحق»، يقول الله تعالى «الأحقاف / ٧»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

نستنتج من الآية أن القرآن هو مجموع الآيات البينات «يونس / ١٥»، وأن الآيات البينات هي الحق، ونلاحظ:

١ ـ كيف عطف الحق على الكتاب حيث قال تعالى «الرعد / ١»:

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

*** أقول:**

هذه الجملة «وَالَّذِيَ أُوحِيَ إِلَيْكَ» إما أنها متعمدة في إطار الإلحاد في آيات الله، وإما أنها وردت على سيبل الخطأ، والصحيح:

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ويستكمل د. شحرور حديثه فيقول:

٢ ـ وكيف أن «الحق» ليس كل الكتاب في سورة «فاطر / ٣١»:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

*** أقول:**

١ ـ يرى د. شحرور أن «الآيات البيّنات»:

أ: هي التي حملت «القرآن والنبوة».

ب: وهي جزء من المصحف.

ج: وهي التي تتحدث عن قوانين الحقيقة الموضوعية المادية والتاريخية.

والسؤال:

هل كان قوم النبي محمد، عليه السلام، على علم بـ «الفلسفة المادية للوجود»، وأنها هي «نبوة محمد»، ولذلك نزل «التنزيل الحكيم» يخاطبهم بما يعلمون، ولكنهم اهتموا برسالته وهجروا نبوته، كما يدعي د. شحرور فيقول «ص ٨٤»:

«ونرى بهذا الصدد أن العرب منذ أن بعث محمد ﷺ إلى يومنا هذا قد اهتموا برسالته وهجروا نبوته».

أين كانت فعاليات «آليات عمل القلب» والدكتور شحرور يفتري الكذب على الله ورسوله؟!

ثم تعالوا نتدبر ماذا قال بعدها عن الذين لم يهجروا «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام: «كل معاهد الأبحاث العلمية والجامعات في العالم، وما بحث فيه كل فلاسفة العالم قاطبة، ابتداء من أرسطو، وأفلاطون، مرورًا بكانت وإنجلز، وهيجل، وديكارت».

*** أقول:**

وما علاقة فلاسفة المادية الجدلية للوجود بـ «نبوة» رسول الله محمد، وقد ولدوا من قبل بعثته بقرون؟!

يجيب د. شحرور فيقول:

«لأن نبوته هي قوانين الحقيقة الموضوعية المادية والتاريخية، بالإضافة إلى وحدانية الله».

أي لأن «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، جاءت تتناغم مع «الفلسفة المادية للوجود» وتبشر أصحابها بالجنة!!

«أَفَلاَ يَعْقِلُونَ»؟!

فماذا عن «عالم الغيب» الذي يستحيل أن يكون لـ «الآيات البيّنات» وجود موضوعي مادي بمعزل عنه؟!

ولو كان د. شحرور يؤمن بـ «الوحدانية» على أساس البراهين المثبتة لها في «الوجود الموضوعي المادي»، فإن هذه البراهين تشهد بأن وراءها إلهًا لا تدركه الأبصار، خارج هذا «الوجود الموضوعي المادي»، وهو الذي أنزل هذا «الكتاب» الذي قرأه قراءة معاصرة.

٢ ـ يُقر د. شحرور بنفسه، أنه يؤمن بمعارف غيبية خارج «الوجود الموضوعي المادي»، فيقول «ص ٨٤»:

«سميت الآيات البينات بيناتٍ لأنها موجودة أو حصلت خارج الوعي الإنساني، لذا فهي قابلة للإبصار أو لأن تُعقل».

نلاحظ هنا أنه أضاف جملة «أو لأن تُعقل» إلى التعريف السابق لـ «البيّنة» حيث قال: «البيّنة هي دليل مادي قابل للإبصار والمشاهدة».

وهذا يعني أن د. شحرور يؤمن بأن إدراك «الآيات البينات» يتم بوسيلتين:

الأولى: «الإبصار والمشاهدة».

والثانية: «آليات عمل القلب» ومنها آليه «التعقل».

وعليه فإن حجية «الآيات البينات» لا تقتصر على الدليل المادي الموضوعي الذي تدركه الحواس، ذلك أن هذا الدليل المادي لا فعالية له أصلًا بمعزل عن فعاليات أسماء الله الحسنى في هذا الوجود، والتي هي خارج «الوجود الموضوعي المادي».

خامسًا:

يقول د. شحرور «ص ٩٠»:

«البركة في اللسان العربي تعني التكاثر والتوالد، وتعني الثبات كأن نقول مبرك الناقة وبركة الماء، الماء الراكد، ووصف الكتاب بأنه «مبارك» يعني (ثابت النص).

وبمعنى الثبات جاء قوله تعالى «الأعراف / ٥٤»: «تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»، أي ثبت ولم يتغير.

وبما أن القرآن حقيقة مطلقة تفهم فهمًا نسبيًا، لذا فإن حركة المحتوى فيه دائمة «التبديل والتغيير»... وحسب نمو المعرفة الإنسانية تتولد المعلومات الجديدة والنظريات الجديدة، والنص القرآني يستوعبها كلها، ولهذا سمى القرآن كتابًا مباركًا.

أما «الأحكام» فتحمل صفة الثبات في النص والمحتوى والحركة ضمن حدودها... والآيات الحدودية يمكن التحرك ضمنها دون تجاوزها... لذا قال الله تعالى عن القرآن «الأنعام / ١٥٥»:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

*** أقول:**

بصرف النظر عن بصمات «الفلسفة المادية للوجود» في كل ما كتبه د. شحرور في كتابه «الكتاب والقرآن»، وبصرف النظر عن غياب تفعيل «آليات عمل القلب» عن قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق:

من أين جاء د. شحرور بأن «البَرَكَة» تعني في اللغة العربية «الثبات» فقط، وأن قوله تعالى «تَبَارَكَ اللهُ» يعني «ثبت الله ولم يتغير»؟!

لقد وردت لفظة «البركة»، وما تصرف منها، في «التنزيل الحكيم» على ثمان صيغ:

«بارك ـ باركنا ـ بورك ـ تبارك ـ بركات ـ بركاته ـ مبارك ـ مباركة».

والمتدبر لسياق الآيات التي وردت فيها هذه الصيغ، يعلم أنها تجتمع على معنى «ثبوت الخير ودوامه»، وتفترق حسب السياق، وكلها توافق ما ورد في مراجع اللغة العربية:

١ ـ «البَرَكَة» كـ «اسم»: تعني «النماء والزيادة».

٢ ـ «بَرَكَ» كـ «فعل»: تعني «الثبات».

٣ ـ «تبارك»: لم تأت إلا مسندة إلى الله تعالى، وتعني دوام نعم الله على الوجود، وذلك بفعاليات أسمائه الحسنى، ولا تعني مطلقًا المعنى الذي ذهب إليه د. شحرور عند حديثه عن قوله تعالى «تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» أي ثبت ولم يتغير.

٤ ـ «مُبارك»: اسم مفعول من الفعل «بارك»:

تعني مباركة الشيء بوضع «البركة» فيه، ذلك أن الألف المزيدة في «مُبارك» فصلت بين معناها ومعنى كلمة «بارك».

فكلمة «مُبَارَكٌ» في قوله تعالى «الأنعام / ١٥٥»:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

لا تعني مطلقًا أن «الأحكام» تحمل صفة الثبات في النص والمحتوى والحركة ضمن حدودها، وهو يقصد بقوله «ضمن حدودها» أي حسب البيئة التي ستطبق فيها، وهذا ما قاله بعد ذلك:

«والآيات الحدودية يمكن التحرك ضمنها دون تجاوزها».

وهذه «البركة»، بمفهوم د. شحرور، هي التي جعلته يُلحد في معظم أحكام الشريعة، ومنها «أحكام الميراث» و«لباس المرأة المؤمنة»، بدعوى أنه يتحرك ضمنها دون تجاوزها.

إن «البركة» في «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ»، أن جعله الله تعالى يحمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، والممتدة المفعول والعطاء «البركة» إلى يوم الدين.

سادسًا:

يقول د. شحرور «ص ٩١»:

تحت عنوان «القرآن هو الكتاب المبارك»: «التقوى اتباع الحلال وترك الحرام، فهي في (أم الكتاب) لأنها سلوك إنساني وليست معرفة الوجود، وبما أن (القرآن) فرّق بين الحق والباطل، و(الرسالة) فرّقت بين الحلال والحرام، فإن القرآن ليس له علاقة بـ(التقوى) لذا قال كلمة واتقوا بعد كلمة فاتبعوه، فقال تعالى:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ثم نتدبر ماذا قال د. شحرور بعد ذلك: «هنا أريد أن أؤكد على نقطة في غاية الأهمية، وهي أن القرآن: «كتاب الوجود المادي والتاريخي».

لذا فإنه لا يحتوي على الأخلاق ولا التقوى ولا اللياقة ولا اللباقة... فالقرآن «حقيقة موضوعية مادية وتاريخية» لا تخضع لإجماع الأكثرية، حتى ولو كانوا كلهم تقاةً، ويخضع لقواعد البحث العلمي، حتى ولو كان الناس كلهم غير تقاة».

*** أقول:**

يدعي د. شحرور أن التكاليف السلوكية وأحكام الحلال والحرام التي وردت في «التنزيل الحكيم» ليست من القرآن؛ لأن القرآن هو الآيات التي تتحدث عن «الوجود المادي والتاريخي» فقط.

فتعالوا نقوم بتفعيل «آلية التدبر»، وهي من «آليات عمل القلب»، ونحن نقرأ هذه الآيات:

١ ـ فماذا يقول عن وجود كلمة «القرآن» في سياق سورة «المزمل / ١-٤»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾.

فما علاقة قيام الليل وترتيل القرآن بـ«الوجود الموضوعي المادي والتاريخي»؟!

٢ ـ وهل عندما طلب الكافرون أن ينزل القرآن جملة واحدة على رسول الله محمد، وقالوا «الفرقان / ٣٢»:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

هل كانوا يقصدون أن تنزل الآيات التي تتحدث عن «الوجود الموضوعي المادي والتاريخي» جملة واحدة؟!

أم كانوا يقصدون «آيات التنزيل الحكيم» كلها، وما حملته من وصف لهم بالكفر والشرك والنفاق، وأن مصيرهم جهنم؟!

٣ ـ وهل عندما بيّن الله موقف الكافرين من التنزيل الحكيم فقال تعالى «يونس/ ١٥»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

هل «الآيات البيّنات» التي كانت تتلى عليهم هي آيات: «الوجود الموضوعي المادي والتاريخي».

ولذلك قالوا لرسول الله، عليه السلام: «ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ»؟!

٤ ـ وهل عندما يقول الله تعالى «الإسراء / ٩»:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

فهل هذا معناه حصر «الهداية» في الآيات التي تتحدث عن: «الوجود الموضوعي المادي والتاريخي».

وعليه تصبح «آيات الأحكام والشعائر التعبدية» لا علاقة لها بالهداية «لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ»؟!

ويقول د. شحرور «ص ٩٢»:

«بما أن القرآن علم بالحقيقة الموضوعية الموجودة خارج الوعي الإنساني، وفيه قوانين الوجود وقوانين التاريخ، نستنتج بالضرورة أن له وجودًا مسبقًا عن التنزيل، لذا قال تعالى عن القرآن «البروج / ٢١-٢٢»:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾.

وهو القوانين العامة الناظمة للوجود، منذ الانفجار الكوني الأول وحتى البعث والجنة والنار والحساب، وأنه في إمام مبينٍ، وذلك بالنسبة لأحداث الطبيعة الجزئية (ظواهر الطبيعة) المتغيرة وأحداث التاريخ بعد وقوعها، ولم يقل ذلك قط عن أم الكتاب ولا عن الذكر ولا عن الفرقان».

*** أقول:**

في الحقيقة لا تعليق على كلام صاحبه يعيش في غيبوبة «الفلسفة المادية للوجود»، بمعزل عن تفعيل «آليات عمل القلب»، غير أن أقول: وكأني أمام شخص اصطفاه الله وأطلعه على ما لا يعلمه إنس ولا جان، ينقل للناس صورة حية عما يحدث في عالم الغيب، وقد شاهد بنفسه «اللوح المحفوظ» وبداخله «القرآن المجيد».

سابعًا:

يقول د. شحرور «ص ١٠٣»:

«إن الوجود الموضوعي وقوانينه موجودة خارج الوعي الإنساني، فالشمس موجودة عرفنا ذلك أم لم نعرف، قبلنا ذلك أم لم نقبل، ومن هنا نقول: إن وجود الشمس حق، ونقول إن الموت حق، ولا نقول إن الموت حلال؛ لأن ظاهرة الموت موجودة، عرفنا أن هناك موتًا أم لم نعرف، قبلنا بالموت أم لم نقبل.

وكذلك قانون الجاذبية والساعة والبعث، فإذا عرف الناس أن هناك بعثًا بعد الموت فإنهم سيبعثون، وهم سيبعثون أيضًا إذا لم يعرفوا، وهم سيبعثون إذا قبلوا بالبعث وإذا لم يقبلوا؛ لأن البعث حقيقة موضوعية توجد خارج الوعي الإنساني.

ولهذا نقول: إن البعث «حق» ولا نقول إن البعث «حلال».

والقرآن حقيقة موضوعية مطلقة في وجودها خارج الوعي الإنساني، وفهم هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة وكل العلوم الموضوعية من كوسمولوجيا، وفيزياء، وكيمياء، وأصل الأنواع، وأصل الكون، والبيولوجيا، وسائر العلوم الطبيعية.

أما الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية، فليس لها علاقة بالقرآن لا من قريب ولا من بعيد».

❊ أقول:

يقول د. شحرور:

١ ـ إن «القرآن» حقيقة موضوعية مطلقة في وجودها خارج الوعي الإنساني.

٢ ـ أن فهم هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي.

٣ ـ أن على رأسها الفلسفة وكل العلوم الموضوعية.. إلى آخره.

والسؤال:

أ: أليس «القرآن» عند د. شحرور هو «النبوة»، وقد ذكر «ص ٥٥» أن «النبوة» من «نبأ» فقال: «ويشتمل على بيان حقيقة الوجود الموضوعي، ومجموعة المواضيع التي تحتوي على المعلومات الكونية والتاريخية، ويفرق بين الحق والباطل، أي الحقيقة والوهم»؟!

ب: ولكن د. شحرور جاء بمعنى «النبأ» لغة فقط وأخذ منه مفهوم «الخبر»، وأغفل المعنى السياقي المرتبط والمتلاحم مع «الوحي الإلهي» وهو «يُنبِّئ تَنْبيئًا»، والمتعلق بالتنزيل الحكيم كله، وهذا ما أقر به د. شحرور عند حديثه عن «كتاب الله» فقال «ص ٥٤»: «هذا الكتاب هو مجموعة المواضيع التي أوحيت إلى محمد ﷺ من الله في النص والمحتوى، والتي تؤلف في مجموعها كل آيات المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس».

ج: فبأي منطق، وأين كانت آليات التفكر والتعقل... آليات عمل القلب، عندما قال إن «القرآن»، أي «النبوة» يجب أن يخضع لقواعد البحث العلمي الموضوعي؟!

د: ثم كيف تقوم قراءة معاصرة للتنزيل الحكيم على مرجعيات علماء أصبحوا هم ومرجعياتهم في ذمة التاريخ، ويعتبرهم د. شحرور هم ورثة الأنبياء، فيقول «ص ١٠٤»:

«إن ورثة الأنبياء ليسوا علماء الشريعة والفقه وحدهم، إن هذا غير صحيح، إن الفلاسفة وعلماء الطبيعة وفلسفة التاريخ وأصل الأنواع والكونيات والإلكترونيات هم ورثة الأنبياء، لذا قال «آل عمران / ٧»:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾.

وقال «العنكبوت / ٤٩»:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَۚ﴾.

وقال سبحانه وتعالى «فاطر / ٢٨»:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

هـ: ثم تعالوا نتدبر ونعقل وننظر فيما قال د. شحرور بعد ذلك: «نحن نعلم في اللسان العربي أن كلمة كذلك أداة وصل بين خبرين: فالخبر الأول هو «الآية ٢٧» وأول «الآية ٢٨».

والخبر الثاني هو: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ».

فجاءت الأداة «كذلك» لتربط بين الخبرين.

ونلاحظ في الخبر الأول: «علوم الأنواء والجيولوجيا وعلوم الأجناس والأنواع الحية».

ثم علق عليها: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

كذلك قوله تعالى «الشعراء / ١٩٧»:

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

علماء بني إسرائيل هنا ليسوا الحاخامية والأحبار فقط.

ويجب أن نعلم أن:

ـ «**النبوة**»: مربوطة بالعلوم الموضوعية والتاريخية.

ـ و«**الرسالة**»: مربوطة بالعلوم الاجتماعية والشرعية.

❊ أقول:

هذه هي «المنهجية العشوائية» التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم:

١ ـ جهل بعلوم اللغة العربية.

٢ ـ جهل بعلم السياق القرآني.

٣ ـ جهل بأصول الإيمان ومفهوم «النبوة»، فبأي منطق، وأين كان التعقل، عندما أقام د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم على قاعدة متهافتة ساقطة سمّاها «الآيات المتشابهات» بإلحاد في معنى «وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» التي لا يتبعها إلا الذين في قلوبهم زيغ، ثم يجعل هذه «الآيات المتشابهات» هي «القرآن» وهي «النبوة»؟!

٤ ـ ثم بأي منطق، وأين كان تفعيل «آليات عمل القلب»، وهو يقول عن «الآيات المحكمات» التي هي «أم الكتاب» والتي هي «رسالة الرسول»، كما يدعي، يقول إنها ليست حقًّا، فقال «ص ١٠٥»:

«ولهذا لم يطلق لفظة الحق على أم الكتاب لأنها قواعد سلوك إنساني وليست قوانين وجود موضوعي، بل أطلق عليها مصطلح الرسالة»

٥ ـ جهل بمعنى «الرَّاسِخونَ فِي الْعِلْمِ» فجعلهم علماء الإلحاد في القرون الماضية، الذين يشاركون الله تعالى في تأويل «الآيات المتشابهات».

ولذلك لم يكن غريبًا أن يقول د. شحرور «ص ١٦٠»:

هنا نلاحظ هذين الأمرين الهامين:

أولهما: أن «أم الكتاب» فيها يمحو أو يثبت، أي فيها تغيير.

الثاني: أنه ليس لها علاقة بـ «القرآن»، لذا قال «الرعد / ٣٩»:

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أي أنها من عند الله مباشرة.

*** أقول:**

يقول د. شحرور إن «أم الكتاب ـ الآيات المحكمات» ليس لها علاقة بـ «القرآن» لأن فيها محو وإثبات، وأنها من عند الله مباشرة، وأن هذه الآيات قابلة لـ «التزوير» و«التقليد»، ولا يوجد فيها أي «إعجاز»... لذا فهي بحاجة إلى حفظ ورقابة وتصديق، وكانت هذه إحدى مهمات القرآن.

والسؤال:

وهل «القرآن» الذي هو «الآيات المتشابهات ـ النبوة» والرقيب والحافظ لـ «الآيات المحكمات» لا يكون من عند الله مباشرة، و«الآيات المحكمات» القابلة لـ «التزوير» و«التقليد» هي التي تكون من عند الله مباشرة، بدعوى أن الله تعالى قال عن القرآن «البروج / ٢١-٢٢»:

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾؟!

وماذا فهم د. شحرور من قول الله تعالى «النمل / ٦»:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؟!

ألا تعني أن رسول الله محمد، عليه السلام، كان يتلقى أيضًا القرآن من الله مباشرة، ولا فرق بين «القرآن» و«أم الكتاب» كما يدعي د. شحرور؟!

إن هذا الكلام «الهرمنيوطيقي» الذي أقام عليه د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، بمعزل عن تفعيل «آليات عمل القلب»، لا يهدف من ورائه إلا إسقاط «الآيات المحكمات» التي تحمل جميع أحكام القرآن، وهذا ما شهدت به مؤلفاته، لأن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق:

كيف تحمي الآيات المتشابهات «الآيات المحكمات» الموجودة في المصحف، إذا كان «المصحف» نفسه يمكن أن يحرقه أي إنسان، بآياته المحكمة والمتشابهة، وقد حدث هذا فعلا أكثر من مرة، ونقلت وسائل الإعلام ذلك للعالم، ولم تستطع «الآيات المتشابهات» أن تحمي نفسها من الحرق؟!

أما إذا كان د. شحرور يقصد بـ «الآيات المتشابهات» الآيات المنظورة في الكون، آيات الآفاق والأنفس، فكيف تحمي الآيات الكونية أحكام القرآن التشريعية؟!

«أَفَلاَ يَعْقِلُونَ»؟!

ثامنًا:

ونترك عشرات الإشكاليات غير المنطقية، والتي يستحيل أن يكون د. شحرور قد حاول أن يُفَعِّل آليات التفكر والتعقل... فيها، ونترك مئات الصفحات، لنصل إلى «ص ٥٩٥» حيث يقول د. شحرور:

«الخطأ المنهجي في فهم بعض الآيات التي وردت فيها لفظة النساء وهي الآية «آل عمران / ١٤»:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾.

وقوله تعالى «البقرة / ٢٢٣»:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

في هاتين الآيتين وردت لفظة النساء، فإذا كانت النساء هنا هي جمع امرأة، وقعنا في طريق مسدود لا مخرج منه، وهو في آية آل عمران ورد اسم إشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾.

ففي هذه الآية أصبحت المرأة متاعا «ما ينتفع به من الأشياء» وقد عوملت فعلا هكذا على مدى قرون على أنها شيء من الأشياء.

وفي آية البقرة: «فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»

فناقضت الآية التي قبلها وهي الآية «البقرة / ٢٢٢»:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾.

هذا الفهم الخاطئ للآيتين أدى لاعتبار المرأة شيئًا من الأشياء ومع شديد الأسف فإن الفقه الإسلامي الموروث يعتبرها كذلك وينسب ذلك إلى الله ورسوله.

ولكن يمكن أن نبرر لهم ذلك بعدم فهمهم لنظرية الحدود أولًا، ولأنه في سياق التطور التاريخي كان الرجل هو المسيطر في المجتمع، فتم تفصيل الإسلام متناسبا مع الرجال تمامًا».

❋ أقول:

أ: إذن تعالوا نرى مفهوم د. شحرور لمعنى «النساء»:

فبعد أن تحدث «ص ٦٣٧» عن الشهوات الإنسانية المذكورة في القرآن، وجاء كعادته بكثير من الآيات المستقطعة من سياقاتها والتي لا علاقة لها بصلب الموضوع، يقول «ص ٦٤٢»: «أما المعنى الحقيقي للنساء والبنين فهو ما يلي:

ـ **النساء**: جاءت في اللسان العربي من «نسأ»، والنسيء هو التأخير كقوله تعالى «التوبة / ٣٧»: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ»، ونسيء ونسوء جمعها نسوة ونساء».

فما هي المرجعية اللغوية التي استند إليها د. شحرور في هذا الذي ذكره؟!

قال: «معجم متن اللغة ـ أحمد رضا»!!

ولماذا لم يرجع د. شحرور إلى المعجم الأساس عنده، وهو «مقاييس اللغة لابن فارس»؟!

والجواب: لأن «ابن فارس» لم يوافقه على ما ذهب إليه، ولا أي معجم لغوي معتبر، ولا «معجم متن اللغة» نفسه الذي استخدم معه «المنهجية الهرمنيوطيقية» ليستغفل قلوب الناس.

إن إشكالية د. شحرور أنه جاهل بعلوم اللغة العربية، وبعلم السياق القرآني، وجاء بـ «الدكتور جعفر دك الباب» ليكون هو مرجعيته في اللغة العربية، ويكتب له مقدمة كتابه «الكتاب والقرآن».

فهل لا يعلم د. جعفر دك الباب الفرق بين كلمة «نِساء» بكسر النون وفتح السين، وكلمة «نَسْأً» بفتح النون وسكون السين، وكلمة «نِسْأً» بكسر النون وسكون السين؟!

إن إشكالية د. شحرور أنه فهم ما كتبه «أحمد رضا» في «معجم متن اللغة» عن كلمة «نَسْأً» و«نِسْأ» على أنها «نِسَاء»، وعليه أقام إلحاده في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

فهل قال «أحمد رضا» في «معجم متن اللغة»:

«ونسيء ونسوء جمعها نسوة ونساء».

كما ذكر د. شحرور؟!

يقول: «أحمد رضا» في «معجم متن اللغة»: «نَسَأ: نَسْأً ونِسْأً ومَنْسَأ ونَسَاءَ الدَّيْنَ: أخره، والاسم النسيئة والنسيء، والنَّسَاء فهو مَنْسُوءٌ... نُسِئت نَسْأً ونُسُوءًا المرأة: تأخر حيضها عن وقته فرجي أنها حبلى، فهي نَسْءٌ ويثلث ونُسُوءٌ تسمية المصدر».

ثم نتدبر ماذا قال «أحمد رضا» استكمالا لقوله عن المرأة الحائض «فهي نَسْءٌ ويثلث ونُسُوءٌ تسمية المصدر»: قال:

«وهي» يقصد المرأة الحائض «نَسِيءٌ ونَسُوءٌ»، ثم جاء بصيغة الجمع المتعلقة بما سبق وقال «ج نُسْوَة ونِساءٌ ونُسُوء، ونَسْء على الصفة بالمصدر، ونُسِئَت: إذا كانت عند أول حَبَلِها».

فنلاحظ هنا أن الحديث من أوله إلى آخره عن تأخر حيض المرأة وليس عن المرأة وصيغة جمعها حتى يعتبر د. شحرور أن قول أحمد رضا والجمع «نُسْوَة ونِساءٌ» يعود على المرأة.

لقد استقطع د. شحرور هاتين الكلمتين من السياق، وترك الكلمة الثالثة التي جاءت أيضًا في سياق الجمع وهي «نُسُوء»، ثم بيان أصل المسألة «نَسْء على الصفة بالمصدر، ونُسِئَت: إذا كانت عند أول حَبَلِها».

وبصرف النظر عن فهم معنى الآية «آل عمران / ١٤»:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ... ﴾.

ذلك أن حديثنا عن منهجية الاستدلال اللغوي وليس عن السياق، فلو أن د. شحرور وجد في «مقاييس اللغة» أو في «لسان العرب» ما يفيد بأن كلمة «النساء» جمع «نسيء» ما ذهب يبحث عن أي مرجع يستقطع منه ما يظن أنه سيخدم إلحاده في معنى كلمة «النساء».

فإذا ذهبنا إلى «مقاييس اللغة» نجد «ابن فارس» يقول:

«نسي: النون والسين والياء أصلانِ صحيحان: يدلُّ أحدهما على إغفال الشيء، والثاني على تَرْك شيء... والنَّسَا: عِرق في الفَخِذ، لأنَّه متأخِّر عن أعالي البدن إلى الفخِذ، مشبَّه بالمنسيِّ الذي أُخِّر وتُرِك.

وإذا هُمِز تغيَّر المعنى إلى تأخير الشَّيء، ونُسِئت المرأةُ: تأخَّر حيضُها عن وقته، فرُجِيَ أنَّها حُبْلَى، والنَّسِيئة: بيعُك الشَّيءَ نَسَاءً، وهو التَّأخير. تقول: أنسأتُ».

هذا ما قاله «ابن فارس» عن كلمة «نسي» التي إذا هُمِزت «نسيء» أصبح معناها تأخير الشَّيء، وضرب مثالا على ذلك بـ «نُسِئت المرأةُ: تأخَّر حيضُها عن وقته»، ولم يذكر مطلقًا أي علاقة لغوية بين كلمة «النساء» وكلمة «النسيء».

فإذا ذهبنا إلى «ابن منظور» في «لسان العرب»، نجده يقول تحت مادة «نسأ»:

نسأ: نسئت المرأة تنسأ نسأ: تأخر حيضها عن وقته، وبدأ حملها، فهي نسء ونسيء، والجمع أنساء ونسوء، وقد يقال: نساء نسء، على الصفة بالمصدر، يقال للمرأة أول ما تحمل: قد نسئت، ونسأ الشيء ينسؤه نسأ وأنسأه: أخره، فعل وأفعل بمعنى، والاسم النسيئة والنسيء».

ولم يذكر «ابن منظور» أي علاقة لغوية بين كلمة «النساء» وكلمة «النسيء»، وقوله «وقد يقال: نساء نسء، على الصفة بالمصدر»، يؤكد ما قاله «أحمد رضا»، والذي شرحه «ابن منظور» بعدها بقوله «يقال للمرأة أول ما تحمل: قد نسئت».

إذن فمعنى «نساء نسء»:

أي «نساء حَوائِضُ» أو «نساء حُيَّضٌ»، وأظن أن هذا المعنى كان يعلمه د. شحرور، بقرينة أنه ظل يبحث في المعاجم المعتبرة فلم يجد فيها ما يحقق هدفه الذي أفصح عنه بعد ذلك فقال «ص ٦٤٣»:

«أما الفهم الموضوعي فهو بداية الوجود الحياتي للكائنات الحية كانت الذكورة الأنوثة مختلطة أي لم تكن أزواجا، فنر أن كائنا وحيد الخلية لا يتكاثر بالتزاوج وإنما يتكاثر بالانقسام، ومع تطور الكائنات الحية ظهرت الذكورة والأنوثة وهذا ما نلاحظه تمامًا في الإنسان فالحيوان المنوي في الذكر يحتوي على الذكورة والأنوثة معًا، أما البويضة في المرأة فلا تحوي إلا على الأنوثة فقط، وهذا واضح في قوله تعالى «القيامة / ٣٧-٣٩»:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾.

فالنطفة هنا هي الخلية ثم عرفها بالخلية المنوية فقال «مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى» أي الخلية المنوية بعد اللقاح تتحول إلى علقة، وهي التي تحدد الذكورة والأنوثة بقوله تعالى «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى»

هنا يحدد القرآن أن الأصل هو الذكورة والأنوثة معًا، ثم تم انفصال الأنوثة على حدة، ومن هنا جاءت كلمة النساء على أنها المتأخرات، ويمكن إطلاق هذا المصطلح على كل شيء جاء متأخرا.

وهنا يظهر معنى النساء في آية الشهوات والتي تعتبر الشهوة رقم واحد والتي يشتهيها كل الناس وهي المتأخرات منا لمتاع الأشياء، أي ما نسئ منها، أو نقول عنه في المصطلح الحديث الموضة.

فالإنسان يشتهي آخر موضة في اللباس وفي السيارات وفي الأثاث والستائر وفي البيوت، فنرى أن هذه الشهوة الموجودة عند الإنسان في الأرض قاطبة... فكل الأشياء المتجددة، أي جاءت متأخرة عما قبلها، نسئت عما قبلها، جملها القرآن بمصطلح واحد هو النساء».

ويستكمل د. شحرور منظومة التغييب العقلي الذي قامت عليه قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم ويقول:

«هنا فهم الكثيرون أن النساء هن أزواج الرجال، ولكن النساء هنا هي شهوة التجديد في الأشياء، وقد جاءت بمعنى التأخير في «النور / ٣١» في قوله «أَوْ نِسَائِهِنَّ» أي ما تأخر عن المذكورين في الآية من أحفاد وفروع مهما نزلوا».

❊ أقول:

أ: إن الإشكالية في «المنهجية الهرمنيوطيقية» اعتمادها على ما يُسمى بمبدأ «ثبات النص وحركة المحتوى» الذي يجعل الإنسان حرًا في التعامل مع كلمات التنزيل الحكيم وفق هواه، بدعوى الاجتهاد والقراءة المعاصرة.

ومن أمثلة ذلك تفسير د. شحرور للآية «آل عمران / ١٤»:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

فهو يرى أن النساء تعني الأشياء المنسأة، أي المؤجلة، ثم يصرف معنى المؤجلة إلى الجديدة حتى يصير المعنى عنده: «زين للناس حب الشهوات من الأشياء الجديدة»

بدعوى أنه من غير المعقول أن تتساوى النساء مع الخيل المسومة والأنعام، وقوله السابق:

«فإذا كانت النساء هنا هي جمع امرأة، وقعنا في طريق مسدود لا مخرج منه، وهو في آية آل عمران ورد اسم إشارة بقوله «ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ففي هذه الآية أصبحت المرأة متاعا، ما ينتفع به من الأشياء»؟!

فهل قرأ د. شحرور يوما قول الله تعالى «الحج / ١٨»:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ... ﴿١٨﴾﴾.

أليس وجود «الْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ» مع الناس في هذه الآية، كوجود النساء مع «الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ» في آية «آل عمران / ١٤»؟! فهل وجود «الناس» مع «الدَّوَابُّ» يوقعنا في طريق مسدود لا مخرج منه، مما يجعلنا نبحث عن معنى آخر لـ «الناس»، كما بحث د. شحرور عن معنى آخر لـ «النساء»؟!

ب: هل إذا قال إنسان أنا أحب أبي وأمي وأولادي، والذهب والفضة، واقتناء الخيول والأنعام، وامتلاك الأراضي، يكون بذلك قد جعل الأب والأم والأولاد أشياءً لا عقل لها كباقي الأشياء المذكورة في الآية؟!

ثم هل آيات التنزيل الحكيم خدمت د. شحرور في دعوى أن «النساء» جمع «نسيء»؟!

تعالوا نلقي نظرة سريعة على هذه المسألة:

ـ كلمة «**نِسَاء**» جمع امرأة، وهي «الأنثى» من البشر، ويقابلها «الرجل» وهو «الذكر» من البشر، يقول تعالى «الشورى / ٤٩»:

* ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

ويقول تعالى «النساء / ١»:

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

ونلاحظ هنا مقابلة «وَنِسَاءً» بـ «رِجَالًا».

وكلمة «نِسْوَة» جمع قلة، يدل على العدد القليل من «النِسَاء»، وقد ورد في موضعين فقط:

﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾.

ـ لم ترد كلمة «**النِسَاء**»، من خلال البحث عن الجذر «نسو»، بمعنى «النسيء»، وقد وردت «٥٩» مرة، وقد سُمّيت سورة باسمها وهي سورة «النِسَاء»، فتعالوا نلقي بعض الضوء على سياق هذه الآيات:

سورة البقرة:

* «الآية ٤٩»: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

الاستحياء طلب الحياة، فكانوا يذبحون الأولاد «الذكور»، ويُبقون على حياة «الإناث»، ولم يقل «وَيَسْتَحْيُونَ بَنَاتِكُمْ»، في مقابل «أبنائكم»، باعتبار ما سيؤول إليه حال «الإناث»، فيَصِرْن «نساءً» يَصْلُحن للسبي والخدمة.

* «الآية ١٨٧»: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾.

الرَّفَثُ كناية عن «الجماع» ومباشرة الرجل زوجه.

* «الآية ٢٢٢»: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

كناية عن ترك «الجماع» في فترة الحيض.

* «الآية ٢٢٣»: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

شبّه «النساء» بالحرث كتشبيه «النسل» بالزرع «المحروث»، بقرينة «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ».

* «الآية ٢٢٦»: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾.

الإيلاء: الحلف، أن يحلف الرجل ألا يقرب زوجه.

* «الآية ٢٣١»: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

طلاق «النساء» معروف.

* «الآية ٢٣٢»: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾.

طلاق «النساء» معروف.

* «الآية ٢٣٥»: وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

خطبة «النساء» معروفة.

* «الآية ٢٣٦»: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾.

طلاق «النساء» معروف.

سورة آل عمران:

* «الآية ١٤»: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

وسأقف عند هذه الآية قليلًا:

لقد جمعت هذه الآية الشهوات التي تحكم حياة الناس، بذاتها أو بما قام مقامها على مر العصور، وهي: النساء، والبنين، والأموال المكدسة، والخيل التي أحسن خدمتها، والأنعام، والأرض.

ونلاحظ أن سياق الآية ليس سياقًا «تشريعيًا» جاء ليُبيّن للناس معنى الكلمات التي وردت فيه، لأن الله يخاطب أهل اللسان العربي بما يعلمونه.

وهذا ما يجهله د. شحرور عندما يُلحد في آيات التنزيل الحكيم ويقول إن «النساء جمع نسيء» وهو كل ما تأخر من الأشياء.

إن سياق الآية ليس سياقًا تشريعيًا، وإنما سياق «خبري» جاء يُحذّر الناس من فتنة

هذه الشهوات، ولذلك لم يكتف بذكر «الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» وإنما ذكر قبلها «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ»، وذلك لبيان أن المقصود النهي عن الاستغراق في هذه الشهوات.

وهناك في علم السياق ما يُسمى بـ «المفهوم الضمني»، وهو إخفاء ما يمكن للإنسان فهمه تلقائيًا من السياق، كأن يخفي الله تعالى في الآية المقابل لحب «الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ»، وهو «حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ الرِجَال» باعتبار أن ذلك سيفهم ضمنيًا، وهو من «أساليب البيان» المعروفة في القرآن.

لقد نسب الله تعالى المعصية لآدم فقال تعالى «طه / ١٢١»:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

والمعصية كانت من آدم وزوجه، حسب ما أفادت الآية «طه ١٢٠»:

﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾.

ولم يقل الله تعالى «وعَصَيَا»، كما قال «فَأَكَلا»، و«لَهُمَا»، «وَطَفِقَا»، لأن معصية «زوج آدم» مفهومة ضمنيًا.

وكذلك أخفى الله ذكر «البنات» في قوله تعالى «آل عمران / ١٤»:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾.

وعطف «البنين» فقط على النساء، لأنه لا يُعقل أن تتحرك شهوات الناس نحو «البنين» دون «البنات».

فإذا تدبرنا الآية التي بعدها، والتي تحمل مفتاح فهم ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، نجد أن الله تعالى «آل عمران / ١٥»:

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

فقوله تعالى «بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ» أي بخير مما ذُكر في الآية «آل عمران / ١٤»، ثم بيّن أن المقصود بالناس «الرجال»، وهو الخطاب القرآني العام الذي يخص فيه «الرجل» في المقام الأول، كما قال تعالى «النساء / ٥٧»:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾.

وكلمة «**الناس**» جاءت في السياق القرآني بمعنى «الرجال»، فقال تعالى «القصص/ ٢٣-٢٤»:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ ﴾.

فقد كانت هذه الأمة من «الرجال»، ولذلك توقفت المرأتان «حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء»، وسبب خروجهما «وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ»، فماذا فعل موسى، عليه السلام: «فَسَقَى لَهُمَا».

فالخطاب في قوله تعالى «آل عمران / ١٤»:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

هو خطاب في المقام الأول لـ «الرجال»، ولا يمنع بـ «المفهوم الضمني» أن يشمل «النساء»، حسب القرائن التي يحملها السياق.

فإذا قال الله تعالى «الأحزاب / ٣٢»:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ ﴾.

نفهم أن المقصود بـ «النساء» الأولى «أزواج النبي»، وبـ «النساء» الثانية عموم «النساء»، متزوجات وغير متزوجات.

نستكمل آيات سورة آل عمران:

* «الآية ٤٢»: ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾:

على جنس «نساء» العالمين.

* «الآية ٦١»: ﴿ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ ﴾:

تعالوا نتضرع إلى الله جميعًا، ذكورًا وإناثًا.

سورة النساء:

وهي التي وردت فيها كلمة النساء «٢٠» مرة، على النحو التالي:

* «الآية ١»: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾:

جاء بـ «النساء». في مقابل «الرجال».

* «الآية ٣»: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾:

وتتعلق بزواج الرجال بالنساء.

* «الآية ٤»: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾:

والمقصود بـ «النساء» الأزواج.

* «الآية ٧»: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾:

لقد كان العرب في الجاهلية يُورّثون الرجال «أي الذكور» دون النساء «أي الإناث»، فنزل القرآن بإبطال ذلك، وجعل الإرث مشتركًا بين الرجال والنساء، حسب ما بينته آيات المواريث.

* «الآية ١١»: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾:

ذكر الله في أول آية المواريث أن الأولاد ينقسمون إلى ذكر وأنثى:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

ثم قال بعدها مشيرًا إلى «الإناث»: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾.

ونلاحظ أن الضمير «كُنَّ» مؤنث، وهو عائد على لفظ «أَوْلادِكُمْ» المذكر، فجاء مؤنثًا باعتبار أن كلمة «أَوْلادِكُمْ» صالحة للمذكّر والمؤنث، وجاء بالقرينة الدالة على المقصود فقال «نِسَاءً».

* «الآية ١٥»: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾:

من «نساء» المخاطبين.

* «الآية ١٩»: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾.

وجاءت هذه الآية في سياق إبطال عادات الجاهلية، حيث كانوا يعتبرون «المرأة» ذاتها مالًا موروثًا ﴿تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ﴾.

* «الآية ٢٢»: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

لا تنكحوا نساء آبائكم.

* «الآية ٢٣»: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ... وَأُمَّهَتُ نِسَآئِكُمْ».

أم زوج الرجل محرمة عليه، وأيضًا ما فوقها «جدة» المرأة، وإن لم يذكرها القرآن، ولكنها مما «يُفهم ضمنيًا»، وهن «المُحرّمات من النسب».

* «الآية ٢٣»: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾.

الربيبة هي «بنت» زوج الرجل من غيره، التي يقوم بتربيتها ورعايتها وهي في حجره.

* «الآية ٢٤»: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

المرأة المحصنة هي المتزوجة، فجاءت في سياق المحرمات من النساء لأنه يحرم اشتراك رجلين في عصمة امرأة.

* «الآية ٣٢»: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾:

الآية ذكرت الرجال والنساء بقصد بيان أن السعي للكسب حق لعموم الناس.

* «الآية ٣٤»: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

وهنا ذكر الجنسين.

* «الآية ٤٣»: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾:

كناية عن مباشرة الرجل زوجه «الجماع».

* «الآية ٧٥»: ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ﴾:

وهنا ذكر الجنسين.

* «الآية ٩٨»: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ﴾:

وهنا ذكر الجنسين.

* «الآية ١٢٧»: ﴿ وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ ﴾.

أي يستفتونك في أحكام النساء، بقرينة قوله تعالى بعدها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ ..﴾، ثم قوله بعدها:

* «الآية ١٢٧»: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

* «الآية ١٢٩»: ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

أي بين «الأزواج»، بقرينة «فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ» إلى بعضهن، وتتركوا أخرى كالمعلقة «فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ».

* «الآية ١٧٦»: ولقد ختم أحكام سورة النساء بـ «القاصمة» الكبرى، التي يجب على كل مؤمن مسلم عاقل أن يقذف بها في وجه كل «ملحد متأسلم» يُحرف أحكام القرآن، بداية بأصول الإيمان، ومرورا بأحكام الصلاة والزكاة والحج التي حملتها «منظومة التواصل المعرفي»، فيقول الله تعالى:

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ ﴾.

فتدبر: «رِّجَالًا» ـ و«نِسَآءً».

في مقابل: «الذكر» ـ و«الأنثى».

والحقيقة أن باقي الآيات التي ذكرت فيها كلمة «النساء» لن يختلف تعليقي عليها عما سبق بيانه، وسيظل السؤال قائما:

أين البرهان الذي حملته معاجم اللغة العربية، وحملته السياقات القرآنية، الدال على أن «النساء جمع نسيء»؟!

والجواب الذي سيظل قائما هو في «المنهجية الهرمنيوطيقية» بقرينة اعتراف د. شحرور شخصيا أن كلمة الناس تشمل «الرجال والنساء»، وأن النساء جمع امرأة، فتدبر ماذا فقال «ص ٥٩٦»:

لقد عرف الله المرأة والرجل أيضًا ضمن مستويين مختلفين:

المستوى الأول: بشري فيزيولوجي.

والمستوى الثاني: إنساني عاقل واع.

ـ **المستوى الأول،** قال «النجم / ٤٥»: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾.

وقال «الذاريات / ٤٩»: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

في هذا المستوى دمج الرجل والمرأة مع كل المخلوقات العاقلة وغير العاقلة والأشياء أيضًا، **فالأنثى** من البشر، والبهائم لها تركيب فيزيولوجي خاص بها قابلة للقاح والإخصاب والحمل والولادة والإرضاع وتربية النسل، ففي هذا لا تتميز «الأنثى» عند الناس عن أي أنثى عند البهائم.

و«**الذكر**» هو زوج الأنثى، الطرف المقابل، يكون معها علاقة تقابلية متكيفة وهو قابل لأن يلقح، ففي هذه الحالة لا يوجد أي تمييز للذكر عن أي ذكر عند البهائم.

ـ **المستوى الثاني**: وهو المستوى الإنساني العاقل الواعي المتميز عن بقية المخلوقات بنفخة الروح، وفي هذا قال تعالى «الحجرات / ١٣»

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وقوله تعالى «الإسراء / ٧٠»: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

خطابات القرآن تبدأ بقوله «يَا أَيُّهَا النَّاسُ»، أي الرجال والنساء معًا، فالله سبحانه وتعالى كرم الناس جميعًا وسواهم بالإنسانية ولم يفضل أحدا على الآخر إلا بالعمل الصالح، وكرامة أية أنثى من الناس لا تقل عن كرامة أي ذكر».

لا تعليق!!

تاسعًا:

وهنا سأتحدث عن أخطر أبواب كتاب «الكتاب والقرآن» على الفهم الواعي لفعاليات أسماء الله الحسنى، وهو الباب الثاني «جدل الكون والإنسان» والذي يعتبر

ترجمة عربية لأصول ومبادئ الفلسفة المادية للوجود التي حاول د. شحرور أسلمتها بقراءة معاصرة للتنزيل الحكيم، ولكنه فشل.

لقد جاءت ترجمة مصطلحات الفلسفة المادية للوجود بصورة مشوهة لا علاقة لها مطلقًا بالفهم الواعي لآيات التنزيل الحكيم، ذلك أن هذه الفلسفة لا تعترف بـ«معرفة» لا تدركها الحواس، وهذا ما ذكره د. شحرور «ص٤٢» فقال:

«إن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية».

أي لا تعترف الفلسفة المادية للوجود، التي يترجمها د. شحرور إلى العربية، بـ«عالم الغيب» كمصدر معرفي، ولذلك كان لابد أن يُلحد في آيات الذكر الحكيم لتحويل «الغيبي» إلى «مادي» تدركه الحواس في «العالم المادي»، وهو أمر لا تقبله آليات التفكر والتعقل والتدبر... آليات عمل القلب.

ولذلك سأبدأ نقض بعض الشبهات التي أثارها د. شحرور في باب «جدل الكون والإنسان» بكلمة عن أهمية تفعيل آليات عمل القلب عند تدبر آيات الذكر الحكيم:

(١) إن المتدبر لآيات التنزيل الحكيم يعلم أنها جاءت تدعو الناس إلى تفعيل «آليات عمل القلب»، آليات التفكر والتدبر والتعقل، والنظر في الآيات التي أيد الله بها رسله، الأمر الذي يستحيل أن يفعله الناس دون أن يكون الله قد خلقهم أحرارا يُفكرون ويتدبرون ويعقلون، وهذا ما أفادته الآيات التالية:

قول الله تعالى «البقرة / ٧٣»:

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟!

قول الله تعالى «البقرة / ٢١٩»:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؟!

قول الله تعالى «الأنعام / ٦٥»:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾؟!

قول الله تعالى «الأنعام / ١٥٢»:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؟!

قول الله تعالى «محمد / ٢٤»:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟!

وقول الله تعالى «السجدة / ٢٧»:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؟!

فهل يُعقل أن يدعو الله تعالى الناس إلى تفعيل «آليات عمل القلب»:

ـ آليات التعقل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ـ آليات التفكر: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

ـ آليات التفقه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

ـ آليات التذكر: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ـ آليات التدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾.

ـ آليات التبصر: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقد خلقهم «مُجْبَرين» على فعل ما كتبه عليهم وقضى به في الأزل، في انتظار مجيء د. شحرور ليرفع عنهم هذه «الجبرية» بقراءة معاصرة لآيات التنزيل الحكيم؟!

وأين نذهب بقول الله تعالى «الشمس / ٧-٨»:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾.

ثم بيّن الله تعالى للناس ثمرة اختياراتهم، فقال تعالى «الشمس / ٩-١٠»:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾؟!

فأين «الجبرية» هنا؟! ويمكن تلخيص رأي د. شحرور في هذه «الجبرية» في ثلاث نقاط، وكيف أنها كانت سببًا في أن يخرج على الناس بما هو أخطر مما جاءت به:

النقطة الأولى:

أن د. شحرور لا يوافق على ما ورد في التراث الديني عن مفهوم «القضاء والقدر»، باعتبار أن «القضاء»: هو علم الله الأزلي، و«القدر»: هو نفاذ هذا العلم على أرض الواقع.

ويرى أن هذه هي «العقيدة الجبرية» التي ظلت في أذهان الناس إلى يومنا هذا، والتي يصدق عليها قول أرسطو:

إن الله خلق العالم ووضع له قوانين، وأصبح يتحرك وفق هذه القوانين كآلة ميكانيكية تعمل، والله لا يتدخل.

النقطة الثانية:

ينطلق في فهمه لموضوع «القضاء والقدر» من تحديد معنى «كتاب» و«كَتَبَ» في القرآن، ويرى أن «كَتَبَ» الله على الإنسان لا تعني قُدر على الإنسان سلفا، وإنما على الإنسان أن يدرس كتاب الحياة، وكتاب النصر، وكتاب الهزيمة...، إلى آخر الكتب التي حملها التنزيل الحكيم، حسب فهم د. شحرور، ليقف على الأسباب والمسببات، وأن الله لا يتدخل لنصر أو لهزيمة أو لرزق إلا من خلال هذه الكتب.

النقطة الثالثة:

أن «الجبرية» تعني أن نجعل لعلم الله «احتمالا واحدا»، لأن في هذه الحالة سيقوم الإنسان بتنفيذ ما في علم الله «جبرا» وإلا كان علم الله ناقصا.

أما إذا كان علم الله هو «كلية الاحتمالات» التي قد تصل إلى ملايين، فإن اختيار الإنسان لن يخرج عن هذه الاحتمالات، وهنا يصبح علم الله على حد سواء في كل هذه الاحتمالات، وليس احتمالا واحدا، وهنا تظهر أهمية نظرية «النسبية» في حرية الاختيار، لأنه لو كان احتمالا واحدا لم تكن هناك حرية اختيار.

(٢) ومن الأمثلة التي ضربها د. شحرور وينفى فيها علم الله بأفعال العباد قبل وقوعها، قوله «ص ٣٨٩»:

«إن الالتباس يكمن في أنه إذا نوى زيد غدا القيام بأمر ما فإن الله منذ الأزل يعلم

أن زيدا في يوم كذا وساعة كذا وثانية كذا سينوي القيام بهذا الأمر، إننا ننظر إلى الأمر نظرة مغايرة ولتبيانها نقول:

لو كان يدخل في علم الله منذ الأزل ماذا سيفعل زيد في حياته الواعية، وما هي الخيارات التي سيختارها منذ أن يصبح قادرا على الاختيار إلى أن يموت، فالسؤال:

لماذا تركه إذا كان يعلم ذلك؟!

هنا من أجل تبرير هذا الأمر ندخل في اللف والدوران فنقول إن الله علم منذ الأزل أن أبا لهب سيكون كافرا، وأن أبا بكر الصديق سيكون مؤمنا، ثم نقول إن أبا لهب اختار لنفسه الكفر وأبو بكر اختار لنفسه الإيمان.

إن هذا الطرح لا يترك للخيار الإنساني الواعي معنى، وإنما يجعله ضربا من الكوميديا الإلهية مهما حاولنا تبرير ذلك».

ثم يصل الأمر بالدكتور شحرور إلى التدخل في «علم الله» إلى درجة يُفهم منها أن الله تعالى أطلعه على علمه، فعرف أن «علم الله» ينقسم إلى قسمين، فقال «ص ٣٩٠»:

«القسم الأول:

علم الله الكامل بكلية الاحتمالات التي يمكن أن يسلكها الإنسان، فأمام كل إنسان على حدة، ملايين الاحتمالات كل يوم في موعد نومه وفي طعامه وفي لباسه... فلا يمكن لأي إنسان أن يقوم بأي عمل علني أو يُخفي أي أمر أو يتبنى أية فكرة سرا أو علنا إلا وتصرفه داخل في هذه الاحتمالات، وبالتالي فهو داخل في علم الله الكلي.

أي لا يمكن لأي إنسان مهما عمل أن يقوم بعمل ما سرا أو علنا ويفاجئ الله به، ولا يدخل في كلية احتمالات علمه، وهذه هي عين كمال المعرفة، كسرعة الضوء فإنها تحوي كل احتمالات السرعات الممكنة للأشياء.

فأبوبكر لم يفاجئ الله بإيمانه، وأبو لهب لم يفاجئ الله بكفره، لأن الكفر والإيمان كليهما معًا يدخل في علم الله، ألا ترى إلى قوله «التكوير / ٢٨»: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾.

حيث ذكر الاستقامة في حيز التبعيض، فالذي لا يشاء الاستقامة ينحرف، فعلم الله ومشيئته أن يكون هناك استقامة وانحراف معًا، لذا قال في مجال الكلية وليس في مجال التبعيض «الإنسان / ٣٠»:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ففي علم الله ومشيئته الاستقامة والانحراف معًا، وفي مشيئتنا نحن أن نستقيم أو نحرف، بيد أن من يستقم فإنه لا يفاجئ الله باستقامته، ومن ينحرف لا يفاجئ الله بانحرافه، وفي هذا يصبح الخيار الإنساني الواعي خيارا حرا يستلزم الثواب والعقاب، وتصبح خيارات الإنسان غير مكتوبة عليه سلفا».

*** أقول:**

يقصد د. شحرور بـ«كلية الاحتمالات» أن الله خلق في هذا الكون كل الاحتمالات المتوقع أن يسلكها الإنسان، خيرًا كان أم شرًا، ثم استراح الله بعد ذلك على أساس أن أي سلوك يسلكه الإنسان لن يخرج عن هذه الاحتمالات، وبذلك يكون الإنسان قد اتخذ قراره بإرادته الحرة دون تدخل من الله تعالى.

وحسب «المنهجية الهرمنيوطيقية» القائمة على افتراء الكذب على الله تعالى، جعل د. شحرور كل هذه الاحتمالات متساوية بالنسبة لله تعالى، بمعنى:

إذا كان عدد الاحتمالات «١٠٠» احتمال: س١ وس٢ وس٣... س١٠٠، فيجب في «علم الله» أن تكون س١ = س٢ = س٣... = س١٠٠، لأن لو س١ اختلفت عن س٢، واختار الإنسان س١، فهذا معناه أنه فعل ما لا يعلمه الله، وهذا لا يجوز على الله، حسب «هرمنيوطيقية» د. شحرور التي يستند فيها على نظرية النسبية في حرية الاختيار، لأنه لو كان احتمالًا واحدا لم تكن هناك حرية اختيار.

والغريب في هذا الفهم أن إقرار د. شحرور بأن الإنسان يختار من «كلية الاحتمالات» ما يشاء، هو إقرار ضمني منه بأن الله يعلم من الأزل أن الإنسان «مجبور» على الاختيار، لأنه عز وجل هو الذي خلق «كلية الاحتمالات»: وبذلك نكون مازلنا داخل دائرة «الجبرية»، باعتبار «علم الله» المسبق، وليس باعتبار اختيارات الإنسان، ويكون د. شحرور قد لف ودار حول مسألة لا محل لها من الإعراب.

ومع ذلك تعالوا نتدبر ماذا قال «ص ٣٩١»:

«وإذا قلنا الآن إن الله منذ الأزل علم أن أبا بكر سيؤمن وأن أبا جهل سيكفر، فهذا عين نقصان المعرفة وليس كمالها، أي أن علم الله يحمل صفة الاحتمال الواحد.

ولو كفر أبو بكر وآمن أبو جهل لكانت هذه مفاجأة كبيرة لله تعالى، علما بأن باب الكفر والإيمان كان مفتوحا أمام الاثنين على حد سواء».

وعن «**القسم الثاني**» من علم الله، يقول د. شحرور «ص ٣٩١»:

«علم الله الكامل بأحداث مسبقة بكلياتها وجزئياتها أو بأحداث جارية بكلياتها وجزئياتها:

وذلك أنه في لحظة أن نوى أبو بكر الإيمان قبل أن يفضي بهذه النية لأحد وهي مازالت سرا في نفسه:

أولًا: علمها الله في نفس اللحظة التي نوى فيها أبو بكر الإيمان.

ثانيًا: هذه المعرفة داخلة في احتمالات علمه الكامل أي لم يفاجأ بها، وهنا تكمن الصفة، الصورة، المشتركة بين الله والناس، فقد خلقنا الله أحرارا في اختيارنا ونحن بالنسبة له لسنا لهوا يلهو بنا.

والفرق هو أنه كامل المعرفة عليم، ونحن ناقصي المعرفة، متعلمين، لذا فهو حر وله تمام الحرية، ونحن متحررون».

*** أقول:**

إن من حق د. شحرور أن يقول ويُلحد في مسائل الغيب بما شاء وكيف يشاء، ومن حقنا نحن أيضًا أن نسأل كما قال الله تعالى «مريم / ٧٨»:

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾؟!

ذلك أنه يستحيل «عقلا»، بالنسبة للمؤمن الذي أسلم وجهه لله تعالى:

ـ أن يعتقد أن الله تعالى لا يعلم ما سيفعله الإنسان إلا في نفس اللحظة التي نوى فيها الفعل.

ـ أن يسأل هذا السؤال: «لماذا ترك الله أبا لهب يكفر مع أنه يعلم منذ الأزل بكفره»؟!

إن المؤمن الذي أسلم وجهه لله يُنزه الله عن كل ما لا يليق بجلال قدره وكمال علمه، ومن جلال قدر الله أنه عز وجل لا يظلم مثقال ذرة، ومن كمال علم الله الذي يشمل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، قوله تعالى «الحديد / ٢٢-٢٣»:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

فهل اطلع د. شحرور على هذه الآية وفهم معنى قوله تعالى:

﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾.

أليست هذه الآية برهانا قطعي الدلالة، على تهافت كل ما جاء به في باب «جدل الكون والإنسان» لأن ما قام على باطل فهو باطل؟!

هل يعلم د. شحرور معنى كلمة «نَّبْرَأَهَا»، وأنها من «البرء» بفتح الباء، بمعنى الخلق والإيجاد، وأن هذا يعني أن الله تعالى كتب المصائب التي ستحدث في الأرض والأنفس، من قبل أن تُخلق وتُوجد، والتي منها ما يكون ابتلاءً، كقوله تعالى «البقرة / ١٥٥-١٥٦»:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

إن تخصيص «المصائب» هنا بالذكر ليس معناه أنها وحدها التي يعلمها الله والتي كتبها في «كتاب مبين»، وإنما لأن تأثيرها على معايش الناس أكثر من غيرها، وهناك آيات أخرى تبيّن أن علم الله المسبق يشمل كل شيء في هذا الوجود:

فيقول الله تعالى «الأنعام / ٥٩»:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ويقول الله تعالى «يونس / ٦١»:

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ويقول الله تعالى «هود / ٦»:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

وغيرها من الآيات الدالة دلالة قطعية على أن الله يعلم ما سيحدث في هذا الوجود من قبل أن يُخلق ويُوجد، وأن ذلك مكتوب في «كِتَابٍ مُّبِينٍ».

(٣) فرق كبير بين «علم الله» الذي خلق وصنع وأبدع كل شيء في هذا الوجود:

- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة / ١١٧).
- ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام / ١٠١).
- ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك / ١٤).

هذا «العلم الإلهي الأزلي» الذي لا يعلمه ولم يطلع عليه إنس ولا جان، إلا ما أخبر الله به الناس عن طريق رسالاته، كقوله تعالى للملائكة «البقرة / ٣٠»:

«إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً».

ولذلك عندما قالت الملائكة:

«أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ»؟!

قال تعالى: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ»

ففرق بين «علم الله المطلق»، وبين «مشيئته» التي اقتضت أن يجعل في الأرض

خليفة، «آدم عليه السلام»، وأن يكلف بني آدم بأحكام الشريعة الإلهية، ويقول لهم «البقرة / ٣٨-٣٩»:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾.

وأصبح كل ما يجب أن يعلمه بنو آدم، عندما يخرجون إلى الدنيا، هو وجوب اتباع رسالات الله التي أرسل بها رسله، وأن يعلموا:

- ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ - فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا - أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وعليهم أن يختاروا: إما أن يؤمنوا بكل ما جاء في التنزيل الحكيم عن علم الله المسبق الشامل لكل أفعال العباد، في إطار إيمانهم فعالية أسماء الله الحسنى، وأن الله تعالى «لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ».

وإما أن يكفروا بكل ما جاء في التنزيل الحكيم عن علم الله المسبق الشامل لكل أفعال العباد.

وليس بينهما خيار ثالث.

ولذلك فإن السؤال الذي يفرض نفسه: ما علاقة «علم الله» بما سيفعله بنو آدم من قبل أن يخلقهم الله، والمكتوب في «كتاب مبين»، والذي لم يطلع عليه أحد منهم فعرف ماذا كتب الله عليه، بـ «مشيئة الله» أن خلق الناس أحرارا، وأمرهم باتباع الرسل، وحذرهم من مخالفة أمره؟!

ثم تعالوا إلى مسألة تعتبر من أصول الإيمان، ونسأل د. شحرور: هل تتذكر اليوم الذي شهدت فيه بالوحدانية وبصدق الربوبية، وتعتبر شهادتك هذه من «علم الله الأزلي» المكتوب في كتابك من قبل أن تأتي إلى هذه الدنيا، أنت وبنو آدم جميعًا إلى يوم الدين؟!

تعالوا نُذكر د. شحرور بهذا اليوم، الذي مع كونه من «علم الله الأزلي» إلا أن الله أخبرنا به. يقول الله تعالى «الأعراف / ١٧٢-١٧٤»:

أ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ﴾.

إلى هنا يكون «علم الله الأزلي» المتعلق بالناس جميعًا، من لدن آدم وإلى يوم الدين، علمًا يقتضي أن يحافظوا على هذه الشهادة «جبرًا»، هذا إذا كان «علم الله الأزلي» يؤثر على إرادة الإنسان الحرة، ويمنعه من اختيار غير طريق «الوحدانية».

ولكن هذا غير صحيح، فلا علاقة مطلقًا بين «علم الله الأزلي» وحرية الإنسان في اختيار طريق «الوحدانية» أو طريق «الشرك» وهذا ما أفاده قوله تعالى بعد ذلك:

ب: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾.

ج: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

ويستحيل أن يُحذر الله الإنسان من «الغفلة» ومن «شرك الآباء» وهو مسلوب الإرادة، لا حرية له في المحافظة على شهادة الوحدانية التي أقر بها في عالم الغيب، وسجلها الله تعالى في «كتاب مبين»، في إطار مشيئته عز وجل أن خلق الإنسان بإرادة حرة.

ولذلك يأتي المشهد بعد ذلك يبيّن مصير الذين اختاروا «الغفلة» و«شرك الآباء»، فيقول الله تعالى على لسانهم:

د: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؟!

ثم بيّن الله للناس أن باب التوبة مازال مفتوحا، بعد أن فصّل لهم الآيات لعلهم يرجعون، فقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

والسؤال:

هل عندما يخبرنا الله تعالى أنه أهلك الغافلين والمشركين، بعد أن شهدوا بالوحدانية من قبل أن يخرجوا إلى هذه الدنيا، هل يكون الله بذلك ظالما، أم هم الذين ظلموا أنفسهم ولم يحافظوا على مقتضيات هذه الشهادة؟!

وهل عندما عرض الله تعالى الأمانة على السماوات والأرض، وكان ذلك أيضًا في «عالم الغيب»، ومن «علم الله الأزلي» الذي أخبرنا به في التنزيل الحكيم فقال تعالى «الأحزاب / ٧٢»:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ـ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ـ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ـ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

فهل هذا «الإنسان» الذي وصفه الله تعالى عندما حمل هذه الأمانة بأنه «كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»، هل قبلها باختياره؟!

نعم، لقد قبل الإنسان حمل هذه «الأمانة»، أمانة «التكليف»، لأن الله تعالى خلقه مستعدا لحملها، ووجدت «السَّمَاوَات وَالأَرْض وَالْجِبَال» مشقة في حملها، وكان الإنسان «ظَلُومًا جَهُولًا»، لأنه لم يضع في اعتباره تحديات ومقتضيات هذه الأمانة، وقول إبليس لله تعالى «الحجر / ٣٩ ـ ٤٠»:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ـ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

ولا شك أن هذا الاستثناء الصادر عن إبليس، «إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ»، خير برهان على أن الله تعالى خلق الإنسان بإرادة حرة تجعله يتبع إبليس أو لا يتبعه، ولذلك قال تعالى بعدها «الحجر / ٤١ ـ ٤٢»:

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ـ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

(٤) وانطلاقا من بدعة تقسيم د. شحرور التنزيل الحكيم إلى «آيات محكمات ـ أم الكتاب»، وإلى «آيات متشابهات ـ القرآن»، وأن الأولى «أم الكتاب» لم يتعهد الله بحفظها، والثانية «القرآن» تعهد الله بحفظها، وتحت عنوان: «القدر في القرآن ـ والقضاء في أم الكتاب». يقول د. شحرور «ص ١٣١»:

«بما أن آيات القرآن هي آيات قوانين الوجود وظواهر الطبيعة وأحداث التاريخ التي حصلت فعلًا، أي بعد حدوثها لا قبله، والتي تظهر التطور التاريخي الحتمي

في اتجاه التقدم من خلالها، لأن الحدث التاريخي الإنساني هو «قضاء» قبل وقوعه، و«قدر» بعد وقوعه، وهذا الحدث الإنساني قبل وقوعه يدخل في عالم الممكنات، وبعد وقوعه ينتقل إلى عالم الحتميات، لذا جاء القصص من القرآن.

فقوانين الكون هي قوانين حتمية صارمة وأحداث الإنسان بعد وقوعها تأخذ صفة الحتمية، و«القدر» هو الوجود الحتمي للأشياء والأحداث خارج الوعي الإنساني، و«القضاء» هو حركة إنسانية واعية بين النفي والإثبات ضمن هذا الوجود».

ثم يُفرق بين «أم الكتاب» والقرآن» فيقول «ص ١٣٢»:

«وبما أن أوامر أم الكتاب فيها حركة بين نفي وإثبات، أي نعم ولا... فوجب أن تكون صياغتها سهلة الفهم... أي أن أم الكتاب حتى تنفذ لها شرطان: العلم بها وقبولها، لذا فهي تعاليم إلاهية تدخل ضمن القضاء الإنساني وليست قوانين رحمانية موضوعية.

أما «القرآن» ففيه قوانين الوجود الموضوعي... ولهذا نقول: إن آيات القرآن فيها القدر، فالقدر وجود موضوعي، والقضاء سلوك إنساني واعٍ».

ثم يسأل د. شحرور «ص ١٣٣»:

«ماذا يحدث لو اعتبرنا آية من آيات أم الكتاب قرآنًا، أو العكس: آية من آيات القرآن أو تفصيل الكتاب أحكامًا؟!

لنأخذ الآن آية من آيات أم الكتاب وهي من آيات السلوك، أي قضاء، ونعتبرها قرآنًا، أي حق ـ وجود، فماذا تكون النتيجة؟!

لنأخذ الآية «الإسراء / ٢٣»:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

هذه الآية هي من آيات أم الكتاب، أي الرسالة، وفيها أمر ونهي للإنسان العاقل، أي موعظة... فإذا كانت هذه الآية من القرآن فهي حقيقة موضوعية خارج الوعي ونافذة حكمًا بغض النظر عن قبولنا لها أو عدم قبولنا، فهي كالموت تمامًا، وبذلك يصبح معنى الآية كالتالي:

إن عبادة الله موضوعيًا نافذة بغض النظر عن وعي الإنسان لها أو عدم وعيه أو كيف يمارسها، فالذي يعبد القمر فقد عبد الله، والذي يعبد الشمس فقد عبد الله... لأنه من المستحيل أن يُعبد غير الله، لأنه القائل لا مبدل لكلماته.

وينتج عن ذلك إسقاط العقوبات والإرادة الإنسانية وإسقاط الحرية وتساوي الجنة والنار ونصل إلى مفهوم وحدة وصحة العبادات على اختلاف مشاربها توحيدية أو وثنية وتصبح عبادة الله كعبادة الأصنام لا فرق بينهما، وعبادة الله كعبادة فرعون».

ثم يقول د. شحرور:

«لنلاحظ كيف عطف بر الوالدين على عبادة الله حيث قال «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا»، فإذا حكمنا أن هذه الآية قرآن فهذا يعني أن الذي يضرب والديه أو يجوعهما أو يشتمهما، والذي يطيعهما وتلاطف معهما في الكلام ويبرهما، هما سواء وكلا عمليهما من بر الوالدين لأن الإنسان مهما فعل مع والديه فهو قد بر بهما، لأنه موضوعيًا لا يستطيع إلا أن يكون برًا بهما».

❊ أقول:

إن كل ما حمله كتاب د. شحرور «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة» من مسائل تتعلق بـ «عالم الغيب»، والتفريق بين آيات التنزيل الحكيم إلى آيات حفظها الله وآيات لم يحفظها الله، وأن آية الأمر ببر الوالدين، التي حملت في بدايتها النهي عن الشرك، ليست من القرآن المحفوظ...، إلى آخر ما حمله كتابه من شبهات متهافتة:

كان الأكرم للدكتور شحرور أن يقول للناس في مقدمة كتابه، إن هذه القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، إن هي إلا وحي يوحى من الله تعالى، فإن فعل ننظر في حقيقة «نبوته».

أما هذه «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي اتبعها للإلحاد في آيات الله وتحريف أحكامها، باسم القراءة المعاصرة، وقوله إن آية «الإسراء/ ٢٣» ليست من القرآن، أي ليست من اللوح المحفوظ، أي ليست مما سبق علم الله به، لأنها من «أم الكتاب»، فهذا الهراء لا يقبله أي مسلم عاقل.

إن د. شحرور عندما يُفرق بين «أم الكتاب» و«القرآن»، ويقول إن «القدر في

القرآن» و«القضاء في أم الكتاب»، فمثله مثل الذي يقول لك إن هذه القطعة من الجبل بها مليون حبة رمل، وإذا كنت لا تصدقه فقم بعدها!!

وبناء على قاعدة ما قام على باطل فهو باطل، فإن الشبهات التي ذكرها د. شحرور بعد ذلك في باب «جدل الكون والإنسان» باطلة أصلًا، ولم أقم بنقضها إلا لبيان كيف تعمل «المنهجية الهرمنيوطيقية» في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

كقوله «ص ١٥٧»: «فلو كانت الآية «عبس / ١-٢»:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾.

من القرآن، وهم يقولون إن القرآن قديم، وهو كلام الله، فهي بالتالي حقيقة صارمة مخزنة قبل حدوث الحدث، ولكانت حقيقة خارج الوعي، أي ليس لها علاقة بإدراك النبي أو عدم إدراكه، ففي هذه الحالة لم يكن للنبي ﷺ أي خيار في أن يعبس أو لا يعبس، وليس لعبد الله بن أم مكتوم «الأعمى» أي خيار في أن يأتي أو لا يأتي.

وفي هذه الحال شئنا أم أبينا، وبعبارة مبسطة تصبح رسالة محمد ﷺ، أشبه بممثل وتمثيلية أخرجت، ووضع لها سيناريو مسبق، وقدمت للناس على أنها هدية لهم، ولأصبحت الحياة الإنسانية عبارة عن كوميديا إلاهية، أي أن الناس مجموعة من الصور المتحركة مبرمجة منذ الأزل في أفعالها وأقوالها، ولأصبحت هذه الحياة لهوًا إلاهيًا، ولأصبح مفهوم خلافة الإنسان لله في الأرض ليس أكثر من خدعة».

ويقول د. شحرور «ص ١٥٨»:

«بما أن محتويات أم الكتاب ليس لها علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين، وليست مطلقة، لقوله تعالى «المائدة / ٤٨»:

﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

فإنها تخضع للتبديل والاجتهاد، والاختلاف بين أمة وأخرى، زمن وآخر، وتخضع لأسباب النزول، وقد أوحيت مباشرة من الله سبحانه وتعالى.

أي أن الآية «عَبَسَ وَتَوَلَّى ـ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى» جاءت إلى النبي ﷺ تصحيحًا من الله عز وجل، أي أنه لو لم يعبس النبي بعبد الله بن أم مكتوم لما نزلت هذه الآية مطلقًا، ولما سمعنا بها».

❋ أقول:

إن الإشكالية هنا ليست في إنكار د. شحرور علم الله المسبق بما حدث بين النبي، عليه السلام، وعبد الله بن أم مكتوم، ولا في مسألة القول بقدم القرآن والذي ليس موضوعنا، وإنما الإشكالية في قوله «ص ١٥٨» إن محتويات أم الكتاب ليس لها علاقة بلوح محفوظ أو بإمام مبين.

إن د. شحرور، حسب قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، يرى أن الآيات المحكمات التي هي «أم الكتاب» والتي حملت أحكام الشريعة الإلهية، ليست من القرآن الذي تعهد الله بحفظه، ولذلك فإنها تخضع للتبديل والاجتهاد، ومنها آيات سورة عبس.

وعليه فإن القضية لم تعد في إنكار د. شحرور لكتابة الله المسبقة لأفعال العباد، وإنما في إنكاره علم الله المسبق بأحكام الشريعة التي حملتها آيات التنزيل الحكيم، أي في إنكاره وجود كتابة مسبقة لهذه الأحكام في اللوح المحفوظ، أو الإمام المبين.

وهذا ما قاله د. شحرور في بداية حديثه عن الإنزال والتنزيل لأم الكتاب وتفصيل الكتاب «ص ١٥٧»:

«والمخزن في لوح محفوظ وإمام مبين هو القرآن فقط، والذي له وجود مسبق قبل الإنزال والتنزيل... أما أم الكتاب التي تحوي على الحدود، ومنها العبادات والمواعظ والوصايا والتعليمات وتفصيل الكتاب، فليس لها علاقة بلوح محفوظ أو إمام مبين، أي ليست من القرآن وإنما من الكتاب.

فلو كان صوم رمضان مخزنًا في لوح محفوظ لأصبح من كلام الله، ولو كان مخزنًا في إمام مبين لأصبح من ظواهر الطبيعة، وكلام الله نافذ وظواهر الطبيعة حقيقة موضوعية صارمة، قوله الحق، ولصام الناس في رمضان، شاؤوا أم أبوا، وكذلك بقية مواضيع أم الكتاب».

❋ أقول:

والحقيقة أن هذا الإلحاد في آيات الله هو الهدف الرئيس من قراءة د. شحرور

المعاصرة للتنزيل الحكيم، وهو إسقاط أحكام الشريعة أو تحريفها بدعوى أنها ليست من القرآن الذي تعهد الله بحفظه:

الأمر الذي جعله يُخرج الآية «الإسراء / ٢٣» من القرآن المخزن في لوح محفوظ، لوجود حكم من أحكام الشريعة، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، فأخرج معه حكمًا من أحكام ملة الوحدانية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾!!

(٥) وعن علم الله الرياضي الإحصائي يقول د. شحرور «ص ٣٤٥»، تحت عنوان «القدر والمقدار»:

«وهكذا نجد أن اللغة والرياضيات هما وجهان لعلم واحد وهو قانون عدم التناقض والعلاقات المنطقية، أي أن مادة علم المنطق هي اللغة والرياضيات، فإذا كانت اللغة قائمة على التجريد، فالرياضيات هي مرحلة متقدمة وهي تجريد التجريد. وإذا أردنا أن نعرف علم الله في الأشياء فهو علم رياضي بحت، أي في علم الله لا يوجد أصفر فاتح وأصفر غامق، وتفاحة كبيرة وتفاحة صغيرة، ولكنها في علمه كلها علاقات رياضية عددية بحتة وهي مفاتيح الغيب لأن العلاقات الرياضية تتصف بالدقة والتنبؤ، وعندما يريد الله أن يخبرنا عن شيء من علمه فهناك طريقتان:

أ: إخبار رياضي مباشر غير لغوي، وقد جاء هذا الإخبار في السبع المثاني.

ب: تحويل هذا الإخبار إلى لغة إنسانية، وهذا ما حصل في ليلة القدر عند إنزال القرآن، أي تحويله إلى صيغة لسانية قابلة للفهم من قبل الإنسان وهذا هو الجعل، قال تعالى «الزخرف / ٣»:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ويقول د. شحرور «ص ٣٨٥»:

«قلنا إن علم الله هو أرقى أنواع العلم، وهو علم تجريدي بحت ويحمل الصفة الرياضية المتصلة والمنفصلة معًا، يقول الله تعالى «الجن / ٢٨»: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾.

ويقول الله تعالى «الرعد / ٨»: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقلنا إن العلم التجريدي هو علم مجرد عن الحواس، فالحواس ضرورية للإدراك الفؤادي المتعلق بالحواس، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ضرورية لناقصي المعرفة، أي لاكتساب المعارف عن العالم الموضوعي المادي.

أما الإدراك المجرد فهو إدراك بمعزل عن الحواس «العقل»، لذا فعلم الله علم مجرد، وهو في الوقت نفسه يحمل صفة كمال المعرفة.

فإذا قلنا إن مخلوقا ما يعرف أشكال الموجودات واحتمالاتها، ويعرف كل أصوات الموجودات واحتمالاتها، ففي هذه الحالة يبصر، ولكن بدون عين وسمع، ولكن بدون أذن فيزيولوجية: لذا نقول إن الله سميع بصير، أي يسمع بدون أذن، ويبصر بدون عين فيزيولوجية، حيث إن الحواس ضرورية لناقصي المعرفة.

وقد أكد ضرورتها لاكتساب المعرفة وربطها بالفؤاد في قوله «النحل / ٧٨»:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فبالنسبة لناقص المعرفة هناك السمع كوظيفة عضوية للأذن تؤدي إلى المعرفة، وهناك الاستماع كفعل إرادي للإنسان نفسه، لذا فإننا نرى في الكتاب صيغة «قد سمع الله» كقوله «المجادلة / ١»:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى «آل عمران / ١٨١»:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

ولكننا لا نرى في الكتاب صيغة «استمع الله» وإنما هي لغير الله من العاقل كقوله «الجن / ١»:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

وقوله «الشعراء / ٢٥»:

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾.

وقوله «الجن / ٩»:

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

وقوله «الأعراف / ٢٠٤»:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ويسأل د. شحرور «ص ٣٨٩»:

«فماذا نعني بقولنا: إن الله كامل المعرفة؟!».

ويجيب: «إننا نعني أن الله كامل المعرفة بالأشياء وأحداثها، الطبيعة وظواهرها، لأن علمه رياضي: «وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» ـ «وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ».

وعلمه رياضي، لأن الرياضيات اليوم هي أرقى أنواع العلوم، ولو توصل العقل الإنساني، المصوغ من روح الله، إلى علم هو أرقى من الرياضيات وسميناه العلم «س» ثم وجدنا في القرآن إشارة لذلك كانت تخفى علينا، أو كنا نؤولها تأويلا آخر لجهلنا بالعلم «س»، لقلنا إن علمه جل وعلا علم «سيني».

ثم يقول د. شحرور:

«وما دمنا لا نعرف علما أرقى من الرياضيات فإننا نذهب ولا نتحرج إلى أن علمه رياضي، دلنا على ذلك العقل المصوغ من روح الله»

❊ أقول:

ولم يبين لنا د. شحرور كيف دله «العقل المصوغ من روح الله» على أن علم الله «علم رياضي»، وكيف تمت صياغة العقل من «روح الله»؟!

أنها «المنهجية الهرمنيوطيقية».

ويستمر د. شحرور في محاولاته لأسلمة مبادئ «الفلسفة المادية للوجود» التي لا تؤمن إلا بما تدركه الحواس في الوجود الموضوعي، وتُحوّل «الغيبي» إلى شيء «مادي» تدركه الحواس في «عالم الشهادة»، فيقول «ص ٣٩٠»:

«فعلم الله بالطبيعة: إمّا علم مبرمج سلفا في اللوح المحفوظ «القرآن المجيد»، والذي يحوي قوانين جدل الطبيعة الأول والثاني والخلق والتطور والساعة والبعث واليوم الآخر والجنة والنار، أي قوانين الجدل المادي لهذا الكون والكون الذي يليه.

وإمّا علم بكلية الاحتمالات لظواهر الطبيعة الجزئية القائمة على الأضداد، والتي نفهمها من خلال الرياضيات والتي سماها «كتاب مبين».

*** أقول:**

انظروا وتدبروا عدد الفقرات والآيات السابقة التي جاء بها د. شحرور ليثبت أن علم الله تعالى «علم رياضي إحصائي»، ولا علاقة لها مطلقًا بـ «علم الله» الذي لا يجرؤ مسلم عاقل أن يصفه بأي صفة لعدم إحاطة أي مخلوق به.

إن كل ما نعلمه عن «علم الله» أنه علم أحاط بكل شيء، بكل ما تحمله كلمة «شيء» من معاني: يقول الله تعالى «الطلاق / ١٢»:

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

فـ «علم الله» ليس محصورا في مجال معين، أو يتعلق بحدث معين، أو بأفعال العباد فقط، وإنما «بِكُلِّ شَيْءٍ» مهما كانت ماهية الشيء وحجمه: يقول الله تعالى «يونس / ٦١»:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ـ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ـ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ـ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ـ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ـ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ ـ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ولذلك فعندما يقول الله تعالى «النبأ / ٢٩»: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾.

ويقول تعالى «الجن / ٢٨»: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

ويقول تعالى «الرعد / ٨»: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

يستحيل أن يحصر أي مسلم عاقل متدبر لآيات التنزيل الحكيم «علم الله» في علم الرياضيات، وذلك لأن الإحصاء لا يعني العد فقط، وإنما الحصر الشامل لكل

تفاصيل الشيء، ولذلك فرّق الله بين الإحصاء والعد فقال تعالى «مريم / ٩٤»:
﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

لبيان أن «علم الله» علمٌ شامل لكل ذرة من ذرات هذا الكون، علمٌ لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها: يقول الله تعالى «الكهف / ٤٩»:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ـ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ـ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ـ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ـ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

ثم ما هذا الجهل بحقيقة الوحدانية، وبفعاليات أسماء الله الحسنى، وما هذا التطاول على «علم الله»، فمن أين عرف د. شحرور أن «الكتاب المبين» هو «كتاب الرياضيات»، كما قال سابقًا: «وإمّا علم بكلية الاحتمالات لظواهر الطبيعة الجزئية القائمة على الأضداد، والتي نفهمها من خلال الرياضيات التي سماها «كتاب مبين»؟!

ويزيد د. شحرور جرعة الإلحاد إلحادا ويسأل «ص ٣٨٦»:

«هل علم الله يقيني أم احتمالي»؟!

ويجيب: «هو الاثنين معًا، فعلم الله يقيني كامل بالأشياء والأحداث القائمة والموجودة فعلا، كقوله «الأنعام / ٨٠»:

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله «الأعراف / ٨٩»:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

وقوله «طه / ٩٨»:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

إلى آخر الآيات التي ذكرها وحملت لفظ «شيء».

*** أقول:**

إذن فالأشياء غير القائمة في الوجود الموضوعي، والتي لا تدركها الحواس، ولم تحمل آياتها لفظ «شيء»، لا يعلمها الله تعالى إلا على سبيل الاحتمال!!

(٦) ومن باب اطلاع د. شحرور على «علم الله»، ووقوفه على أن لله تعالى علمًا كليًا وعلمًا جزئيًا، يقول د. شحرور «ص ٣٩٢»:

«ولكي يبين حرية الاختيار للإنسان، وأن الإنسان الفرد لحظة اختياره لأمر ما، ينتقل هذا الأمر من علم الله الكلي، كمال المعرفة، إلى علمه المصنف الذي سيسجله على الإنسان، لذا قال تعالى «فاطر/ ٨»:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

وقال تعالى «الصف/ ٥»: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

فإذا اختار الإنسان الفسق بملء اختياره لم يهده الله، ومن هنا فقد وضع الله تعالى صيغا بالنسبة للاختيار الإنساني على الشكل التالي: قول الله تعالى «العنكبوت/ ٣»:

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

وقوله تعالى «آل عمران/ ١٤٠»:

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾.

وقوله تعالى «آل عمران/ ١٤٢»:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

إلى آخر ما ذكره د. شحرور من آيات مستقطعة من سياقاتها كعادته، ثم قال:

«في هذه الآيات قد يظن البعض أن الله ناقص المعرفة، علما بأن هذه الآيات ليس لها علاقة بكمال المعرفة، حيث إن كمال المعرفة كلي، وهذه الآيات تدخل تحت باب المعرفة الجزئية والتي هي جزء من المعرفة الكلية أي لا تحتوي على عنصر المفاجأة، ولكن تدخل تحت باب التصنيف الجزئي».

ويضرب مثالا لتوضيح إلحاده في هذه الآيات ويقول:

«فالإنسان مثلا يختار الجهاد والإيمان، فهذا الاختيار يصنف في كتاب هذا

الإنسان حصرا أي ينتقل من باب المعرفة الكلية للاحتمالات جميعها، إلى باب التصنيف الشخصي لأعمال الإنسان التي يختارها أصلًا من ضمن المعرفة الكلية لله.

وهكذا نفهم الآيات التالية: قوله تعالى «النساء / ٨١»: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾.

وقول الله تعالى «يونس / ٢١»: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾.

وقوله تعالى «مريم / ٧٩»: ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾.

هنا نلاحظ من مفهوم الكتابة أنه تصنيف أعمال الإنسان وأفعاله عليه.

وقوله تعالى «يس / ١٢»: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾.

وقوله تعالى «الزخرف / ٨٠»: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾.

*** أقول:**

من أين جاء د. شحرور بهذه البدعة المتعلقة بـ «علم الله»، وأن مثل هذه الآيات، كقول الله تعالى «فاطر/ ٨»:

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

لا علاقة لها بكمال المعرفة الإلهية، لأنها تدخل تحت باب المعرفة الجزئية، والتي هي جزء من المعرفة الكلية؟! ثم عندما يُفسر ويقول:

«أي لا تحتوي على عنصر المفاجأة»، المفاجأة لمن، ومن الذي صنّف «علم الله»، إلى تصنيف كلي وتصنيف جزئي، غير إبليس شخصيا؟!

ولذلك لابد من إلقاء الضوء على بعض المسائل المتعلقة «مشيئة الله» فأقول:

لقد خلق الله تعالى الإنسان بنفس تقبل الهدى والضلال، تقبل طاعة الله ومعصيته، تقبل الفجور والتقوى، فقال تعالى «الشمس / ٧-١٠»:

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

فالذي اختار بإرادته الحرة طريق «الفجور» لم يخرج عن مشيئة الله أن ألهم النفس

«الفجور»، والذي اختار بإرادته الحرة طريق «التقوى» لم يخرج عن مشيئة الله أن ألهم النفس «التقوى».

إن «مشيئة الإنسان» في إرادته وحرية اختياراته، و«مشيئة الله» في السنن الكونية التي قام عليها هذا الوجود، ومنها استعداد النفس للهدى والضلال، وبذلك نفهم معنى قول الله تعالى «التغابن / ٢»:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي فمنكم من اختار بإرادته طريق «الكفر»، ومنكم من اختار بإرادته طريق «الإيمان»، وهذا ما أفاده قوله تعالى «الإنسان / ٢٩ ـ ٣٠»:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾.

وعليه نفهم قول الله تعالى «النحل / ٩٣»:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لأنه يستحيل عقلًا، قبل أن يكون شرعًا، أن يقول الله تعالى ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم يكون سبحانه هو الذي أجبر الإنسان على اختيار طريق الهدى أو أجبره على اختيار طريق الضلال.

ولكن الذي اختار «طريق الهدى» فإن سنن الهداية التي خلقها الله تعالى تعينه على السير في هذا الطريق ويزيده الله هدى، فيقول الله تعالى «الكهف / ١٣»:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

ويقول الله تعالى «مريم / ٧٦»:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

ويضيف الله التقوى إلى الهدى فيقول تعالى «محمد / ١٧»:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾.

إذن فعندما نقول: إن «الهداية والضلال» بإذن الله تعالى ومشيئته، فذلك باعتبار أن الله تعالى هو الذي خلق الطريق الموصل إلى «الهدى»، وهو سبحانه الذي خلق الطريق الموصل إلى «الضلال»، وعلى الإنسان بإرادته الحرة أن يختار.

ولذلك عندما اختلف المسلمون في «معركة أحد»، فمنهم من يريد الدنيا والمسارعة إلى أخذ «الغنائم»، ومنهم من يريد الآخرة ولم يخالف أمر رسول الله، ابتلاهم الله بالهزيمة وأذاقهم عقوبة مخالفة أمر رسول الله، عليه السلام، بعد أن أيدهم بنصره في «معركة بدر».

فتعالوا نقف على بعض الآيات من سورة آل عمران، المتعلقة بموضوعنا، والتي تبدأ ببيان شرط تأييد الله للمؤمنين ونصرهم على أعدائهم، حيث يقول تعالى «آل عمران / ١٢٠»:

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ ـ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ ـ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ـ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ ـ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

ولقد تكرر هذا الشرط في قوله تعالى «آل عمران / ١٢٥»:

﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ ـ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا ـ يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. ولقد جاء شرط «الصبر والتقوى» في إطار «أمر الله التكليفي» العام، الذي إذا تحقق أيد الله المؤمنين ونصرهم ورد كيد أعدائهم. وتبدأ أحداث «معركة أحد» بقول الله تعالى «آل عمران / ١٢١-١٢٣»:

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

ثم يأتي وعد الله للمؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، فقال تعالى «آل عمران / ١٥١»:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ - بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا - وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾.

ولكن فريقا من المؤمنين لم يلتزموا بشرط «الصبر والتقوى» بعد أن صدقهم الله وعده ونصرهم في بداية المعركة، فقال تعالى «آل عمران / ١٥٢»:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ - إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ - حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ - وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ - مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا - وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ - ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ - وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ - وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهنا تظهر فعالية «أمر الله التكليفي» على أرض الواقع، وداخل مسرح الأحداث، وكيف أن تحقق قضاء الله تعالى وقدره وإذنه ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ يكون وفق أسبابه الموضوعية.

فها هو رسول الله يدعو المؤمنين بالثبات في مواقعهم، فيقول الله تعالى «آل عمران/ ١٥٣»:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ - وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ - فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ - لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ - وَلَا مَا أَصَابَكُمْ - وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

ويستحيل أن يقول الله تعالى للمؤمنين «وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»، وعملهم هذا يكون «جبرًا» من الله لا إرادة لهم فيه ولا اختيار. ثم يكشف الله تعالى عن دور المنافقين في هذه المعركة، وكيف كانوا يشيعون بين المؤمنين أن ما حدث من هزيمة هو «قضاء الله وقدره» النافذ الذي ما كان لبشر أن يرده، فيقول الله تعالى «آل عمران/ ١٥٤»:

* ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾.
* ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾.
* ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾

لقد أعطوا ظهورهم لأسباب الهزيمة، وأنهم طرف فيها، وتوجهوا نحو «التبرير»، وأن ما حدث هو «أمر الله» الذي يستحيل رده، ولو أن الله أراد نصر رسوله لنصره، فرد الله عليهم بقوله تعالى:

* ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

نعم: إن النصر والهزيمة من «أمر الله» باعتبار السنن الإلهية التي تعمل في هذا الوجود، وعلى الإنسان أن يختار منها ما شاء بإرادته الحرة، ولكن المنافقين لا يؤمنون بهذا، ولذلك قال تعالى:

* ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

يُبرّرون الهزيمة ومن قتلوا في هذه المعركة بأنها «إرادة الله»، ولو أن الله تركهم دون تدخل منه، لكان النصر حليفهم.

فبيّن الله تعالى لهم الفرق بين «أمر الله الكوني» الذي لا راد له مهما كانت أسبابه الموضوعية، و«أمر الله التكليفي» الذي يعمل في إطار الأسباب الموضوعية.

ولذلك قال الله تعالى مبيّنا أن الموت هو الذي يأتي للإنسان، بل قد يخرج الإنسان لمقابلة الموت بنفسه:

* ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

إنها «سنة الله» التي لا تتخلف، سواء كانت تتعلق بـ«أمر الله الكوني» أو «أمر الله التكليفي»، وهذا ما بيّنه الله تعالى بقوله «آل عمران / ١٦٥»:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وبقوله تعالى بعدها «آل عمران / ١٦٦-١٦٧»:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ

وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾.

إن قوله تعالى «فَبِإِذْنِ اللّهِ» يُبيّن أنه يستحيل أن يحدث شيء في هذا الوجود إلا بـ «إذن الله»، سواء كان متعلقا بـ «مشيئة الله الكونية» أو بـ «مشيئته التكليفية»، أو بـ «أمره التدبيري»، وأن ما يحدث يكون وفق «علم الله» الذي لا يطلع عليه إنس ولا جان.

وفرق بين «علم الله» بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، في هذا الوجود، باعتبار أنه عز وجل الخالق الذي صنع وأبدع كل شيء، وبين «أمر الله التكليفي» الذي يعلم سبحانه نتائجه وفق «علمه المطلق»، دون أن يتدخل في حرية الإنسان أن يفعله أو لا يفعله.

وتعالوا نتدبر هذا السياق جيدا: لقد قال الملأ من قوم شعيب عليه السلام «الأعراف/ ٨٨»:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

فرد عليهم شعيب بقوله:

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ـ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ـ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ـ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ـ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ـ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ـ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

والسؤال:

ما معنى ورود «إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ رَبُّنَا» في هذا السياق؟!

إن كل من وقف على دلائل الوحدانية، وآمن بفعالية أسماء الله الحسنى في هذا الوجود، يعلم استحالة أن يشاء الله أن يعود شعيب، أو غيره من المؤمنين، إلى ملة الكفر والشرك، فهذه مسألة لا تناقش أصلًا، وإنما الذي يجب أن نفهمه هو: لماذا ربط شعيب عودته والذين آمنوا معه إلى ملة الكفر بمشيئة الله تعالى؟!

إن الإجابة على هذا السؤال جاءت في الجملة التي قالها شعيب بعد ذلك وهي: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

أولًا: هذا من أدب الأنبياء مع ربهم، وفهمهم الواعي لحقيقة الوحدانية وفعالية أسماء الله الحسنى، وأنهم يردّون كل شيء إلى علم الله ومشيئته، حتى ولو كان يستحيل على الله فعله «حسب علمهم».

ثانيًا: يستحيل أن يتناقض شعيب في قوله، فيقول لقومه:

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

ثم إذا به يقول لهم: ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾.

وإنما أراد أن يعلم قومه أن علم المخلوق القاصر غير علم الخالق المطلق، وأنه مهما بلغ علم الأنبياء وبلاغهم عن الله، فإن هناك علمًا قد انفرد الله به لا يعلمه إلا هو.

وهذا الفهم هو ما يجب على كل مؤمن أسلم وجهه لله تعالى أن يلزمه، استنادا إلى قول الله تعالى «الكهف / ٢٣ ـ ٢٤»:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ـ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ـ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)﴾.

وتعالوا نتدبر هذه الآية التي تُبيّن «علم الله المطلق» الذي شمل عالمي الغيب والشهادة، وأن ما يعلمه الله مسجل في «كتاب مبين» من قبل حدوثه، فقال تعالى «الأنعام / ٥٩ ـ ٦٠»:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ـ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ـ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ـ وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ـ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ـ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ـ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ـ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)﴾.

إن المتدبر لهذه الآية الدارس لدلالات كلماتها، يعلم كيف أنها شملت كل شيء في

هذه الوجود، ما يعلمه الناس وما لا يعلمونه، وما ورد فيها من عموم بعد خصوص «وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ» لبيان فعاليات أسماء الله الحسنى التي شملت عالمي الغيب والشهادة.

ثم هل يُعقل أن يقول الله تعالى «ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، ثم «يُجبر» الناس على هذا العمل، دون إرادة منهم واختيار؟!

ثم كيف نفهم قول الله تعالى «الجاثية / ٢٢»:

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؟!

كيف «تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» ولم تختر النفس أصلًا ما كسبت؟!

(٧) وعند حديثه عن النوع الرابع من «قضاء الله»، وهو «قضى بمعنى الإرادة الإلهية النافذة»، يقول د. شحرور «ص ٣٩٥»:

«إن بحثنا هو الحالة الرابعة التي هي قضاء الله حيث صاغه الله بصيغة ثابتة صارمة «يقول، نقول: كن فيكون»، أي أن قضاء الله النافذ لا يأتي إلا من خلال كلماته:

يقول الله تعالى «الأنعام / ٧٣»:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾.

ويقول الله تعالى «الشورى / ٢٤»: ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ﴾.

وكلماته هي الوجود وقوانينه الموضوعية: يقول الله تعالى «النبأ / ٢٩»:

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾.

أي أن قضاءه المبرم لا ينفذ إلا من خلال المقدرات: يقول الله تعالى «الأحزاب/ ٣٨»:

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

وعندما أراد الله إهلاك عاد وثمود ومدين أهلكهم بقضائه، ولكن كان إهلاكه لهم عن طريق القوانين الموضوعية، أي كلماته، لذا قال عن هؤلاء الأقوام «هود / ٥٨»:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

وقوله تعالى «هود / ٦٦»:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾.

وقوله تعالى «هود / ٧٣»:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾.

إلى آخر الآيات التي ذكرها د. شحرور وحملت «أمر الله»، ثم قال: «هنا نلاحظ كيف ارتبط «لَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا» بظاهرة من ظواهر القانون الموضوعي وهي الريح، الصيحة، الرجفة، الأحجار. أي أن هذا الأمر تم من خلال كلمات الله، وهي من قوانين الربوبية بقوله عندما علق على كل القصص «هود / ١٠١»:

﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾.

ثم يُلخص د. شحرور موضوع قضاء الله وأمره في معادلة فيقول «ص ٣٩٦»:

«لنلخص الآن آيات القضاء المبرم الذي هو أمر الله والذي هو كلمات: «قضى أمرا + قولنا لشيء + إنما أمره + فإذا قضى أمرا».

«يقول، نقول له كن فيكون».

لاحظ القاسم المشترك بين هذه الآيات وهو فعل «يقول» وقوله الحق.

هنا يجب أن نميز:

ـ قضاء الله وأمره بإرادة مبرمة أي قول.

ـ وبين أوامر الله والتي هي ضد النواهي والتي تعتبر موعظة ووصية وليست قولًا.

فإرادة الله التي هي موعظة وأمر ضد النهي، والتي هي علاقات روحية لا مادية، أي علاقة تقوى، جاءت في قوله تعالى «النحل / ١ ـ ٢»:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ ٢﴾.

فأتبعها بقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

هنا نلاحظ كيف دمج أوامر الله التي هي ضد النواهي، والتي لا يوجد فيها آية «كن فيكون»، كيف دمجها مع الروح ووضع فيها التقوى.

فالصلاة أمر ضد النهي لا قول، وهي من التقوى، لأنها ليست كلمة، وكذلك بر الوالدين وبقية التعاليم حيث لا نجد في التعاليم كلمة «قال الله» أو «كن فيكون».

لذا ميز الأوامر التي هي ضد النواهي بقوله «يعظكم، يأمركم، يوصيكم»، والإرادة النافذة بقوله «قول، يقول، حقت كلمة ربك، فحق عليها القول».

فمثال الأوامر ضد النواهي، وليست قضاء مبرما «قولًا» أي ليست قانونًا موضوعيًا يعمل خارج الوعي، وليست كلمات الله:

ـ قول الله تعالى «النحل / ٩٠»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

لذا جاءت صيغة «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

ـ وقول الله تعالى «الإسراء / ١٦»:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾.

لاحظ هنا الربط بين «أَرَدْنَا» وبين «فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ» وقوله «هود / ٨٢»:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾.

وبدون هذا التمييز:

ـ بين أمر الله الذي هو ضد النهي «الروح».

ـ وبين أمر الله الذي هو قضاء مبرم والذي هو «القول ـ الكلمات ـ الحق».

ـ لا يمكن فهم أساس الأسس في العقيدة الإسلامية.

فإذا حكم الناس إنسان ظالم، لا نقول هذه إرادة الله وهذا قدر الله، والله قضى علينا بكذا وكذا، إن هذا الكلام مناف لأساس الأسس في العقيدة الإسلامية لأن هذا الأساس يقضي بأن المجتمعات الإنسانية تقوم على:

- قوانين موضوعية هي كلمات الله.
- وعلى قوانين ذاتية تعتبر مواعظ الله ووصاياه جزءًا منها.

فوعي هذه القوانين الموضعية هو الذي يعطينا حرية الحركة والتصرف، ويزيل عنا مفهوم الجبرية من خلال فهم العلاقة الموضوعية.

إذ إنّ الله عندما أراد أن يهلك قوما أهلكهم من خلال تصرفه بهذه القوانين الموضوعية، والآن عندما تريد دولة أن تهلك دولة أخرى فإنها تفعل ذلك من خلال التصرف بهذه القوانين: «الذرة ـ الصواريخ ـ الأزمات الاقتصادية»

والتزامنا الواعي بالوصايا والمواعظ هو الذي يحدد العلاقة الاجتماعية من خلال القانون الأخلاقي».

ويقول د. شحرور «ص ٣٩٧»:

«وعلينا أن نعرف أنه إذا تزوج زيد بزينب فهذا يعني أن الله لم يكتب منذ الأزل هذه الزيجة، ولو كان الأمر كذلك لما جاء قوله تعالى «الأحزاب / ٣٦»:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

لو كان الأمر مكتوبا منذ الأزل لما قال «الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» ولما قال «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ»، لأن هذا أمر ضد النهي لا أمر على أنه كلمة.

وكذلك إذا ضرب زيد عمرا فلا نقول إنه مكتوب عليه، لأن الله قدر الضرب على زيد وعمرو معًا في وجود اليدين وإمكانية الضرب، فإذا اختار زيد الضرب فما على عمرو إلا أن يرد عليه أو يسامحه.

هكذا يجب أن نفهم معنى كيفية قضاء الله في أعمال الناس وأرزاقهم وأعمارهم وزيجاتهم».

ويقول: «قلنا إن قضاء الله نوعان:

ـ أمر ضد نهي جاء في «أم الكتاب».

ـ وأمر شرطي نافذ جاء في «القرآن» والذي علق بقوله «يس / ٨٢ ـ النحل / ٤٠»:

﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ـ ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

أو «الإسراء / ١٦ ـ هود / ١١٩»: «فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ» ـ «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ».

فقضاء الله النافذ قضاء غير أزلي، أي أن الله لم يقض منذ الأزل بهلاك قوم هود أو قوم صالح أو قوم نوح أو قوم شعيب لذا قال «نوح / ١»:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وأن الله لم يقض من الأزل بزواج زينب من زيد لأنها تمنعت، علما أن الرسول أخبرها بذلك، لذا قال لها «الأحزاب / ٣٦»: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾.

و«إذا» هنا شرطية، ولما يستقبل من الزمن، لأنه كان لها الخيار، ولو كان قضاء أزليا لما سئلت ولما أخبرت.

وعندما يقضي الله قضاء نافذا فإن قضاءه ينفذ من خلال كلماته لذا وضع صيغة «القول» دائمًا، ففي هذا القول جانبان:

الجانب الأول:

ـ إطلاق الإرادة بقوله «كن».

ـ **والثاني** إطلاق القدرة بقوله «يكون».

ـ ولاحظ الفرق بين «كن» الآنية و«يكون» الزمنية.

ولو كان قضاء الله مبرما منذ الأزل لقال: فإنما يقول له كن فكان، وإنما جاءت فيكون».

❊ أقول:

أذكركم بمبدأ من مبادئ «الفلسفة المادية للوجود» الذي ذكره د. شحرور «ص٤٢» فقال:

«إن مصدر المعرفة الإنسانية هو ـ العالم المادي ـ خارج الذات الإنسانية». والمتدبر لكل ما ذكره د. شحرور في كتابه «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة» يعلم أنه يقوم بتحويل كل ما هو غير مادي، وخاصة ما يتعلق بـ «عالم الغيب»، إلى «مادي» تدركه الحواس في العالم الموضوعي خارج الذات الإنسانية.

إن الله تعالى حيٌ قيومٌ، وكلماته في هذا الوجود نافذة بـ «كن»، فقال تعالى «النحل/ ٤٠»:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

إنها كلمة واحدة «كُن» قام عليها الوجود الكوني والبشري، من حيث الخلق والإيجاد، وبها كلّم الله رسله بطرق الكلام التي ذكرها سبحانه في الآية «الشورى/ ٥١»:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

و«كلام الله» حملته رسالته الخاتمة التي أنزلها على نبيه الخاتم رسول الله محمد، عليه السلام، وأشارت إليه الآيات:

❊ «البقرة / ٧٥»:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

❊ «التوبة / ٦»:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

❊ «الفتح / ١٥»:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

و«كلام الله» هو «كلماته»، يقول الله تعالى «البقرة / ٣٧»:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ويقول الله تعالى «البقرة / ١٢٤»:

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولا مبدل لـ «كلمات الله»، يقول الله تعالى «الأنعام / ٣٤»:

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

ويقول الله تعالى «الأنعام / ١١٤-١١٦»:

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

و«كلمات الله» لا تنفذ، يقول الله تعالى «الكهف / ١٠٩»:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾.

و«كلمات الله» تربط آيات الآفاق وآيات الأنفس بـ «كُن»، فيتساوى الخلق والبعث بالنسبة لـ «علم الله»، يقول الله تعالى «لقمان / ٢٦-٢٨»:

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ومريم، عليها السلام، صدّقت بكلمات ربها، يقول الله تعالى «التحريم / ١٢»:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

والله تعالى يُحق الحق في هذا الوجود بكلماته، يقول الله تعالى «الأنفال / ٧-٨»:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

ويقول الله تعالى «الشورى / ٢٤»:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ويقول الله تعالى «يونس / ٨٢»:

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

ولا يصح إيمان المرء وإسلامه إلا بالإيمان بـ «كلمات الله»، يقول الله تعالى «الأعراف / ١٥٨»:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ويقول الله تعالى «الكهف / ٢٧»:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

وبناء على ما سبق أقول:

إن هذا الوجود قائم بـ «كلمات الله» التي لا تخرج عن «علم الله»، الذي لا يعلمه إنس ولا جان، إلا إذا أخبر الله الناس به:

ـ ومن هذه الكلمات ما تعلق بأحكام الشريعة الإلهية التي هي محل ابتلاء واختبار الإنسان، ومن أجل ذلك أرسل الله تعالى الرسل.

يأمرون الناس باتباعها، ولذلك جعل الله الإنسان فيها حرًا، يتخذ قرار طاعة الله ورسوله أو معصيتهما بإرادته.

ـ ومن كلمات الله الآيات الكونية، في الأنفس والآفاق، التي تعمل وفق السنن التي خلقها الله انقيادا وخضوعا كاملا، والتي جعلها الله برهانا على وحدانيته، دون بيان كيفية خلقها للناس، يقول الله تعالى «الكهف / ٥١»:

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾.

ومشيئة الله الكونية، والقائمة بكلمة «كن»، لم يُخبر الله أحدا بأي معلومات عنها، ولا عن كيفية حدوثها، سواء علم الناس دلالاتها أم لم يعلموا، ولم يُقم الله تعالى عليها «حكمًا تكليفيًا».

ثم يأتي د. شحرور ويوحي للناس أنه اطلع على الغيب، الذي استأثر الله تعالى بعلمه، ويحدثنا اللوح المحفوظ والإمام المبين...، والله تعالى لم يخلق الإنسان أصلًا بوسائل إدراك تجعله يُحيط علمًا بهذا العالم.

إن إشكالية د. شحرور أنه خلط بين:

ـ «أمر الله الكوني»، أي «مشيئة الله الكونية»، الذي قال الله تعالى فيها «يس / ٨٢»:

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقال تعالى «النحل / ٤٠»:

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ـ و«أمر الله التكليفي»، أي «مشيئة الله التكليفية»، الذي أنزله الله ليتعامل معه الإنسان بإرادته الحرة، كقول الله تعالى «النحل / ٩٠»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقول الله تعالى عن حكم مباشرة النساء في المحيض «البقرة / ٢٢٢»:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

فقوله تعالى «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ» إشارة إلى المكان الذي هو موضع الحرث والنسل، والذي أشار إليه قوله تعالى بعدها «البقرة / ٢٢٣»:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن د. شحرور يقرأ التنزيل الحكيم قراءة معاصرة، باعتبار أنه مطلعٌ على الغيب، ويتعامل مع «عالم الغيب» بوسائل إدراك «عالم الشهادة».

إن القراءة المعاصرة الحقة للتنزيل الحكيم تقوم على أساس الإقرار بالحقائق الإيمانية التي حملتها آيات التنزيل الحكيم، والتي تتفاعل مع مقابلها الكوني، وليس على أساس «الفلسفة المادية للوجود»، التي لم تتعد فعاليتها الكتب التي دُونت فيها، والتي يُنكر أصحابها وجود الله أصلًا!

(٨) ويقول د. شحرور «ص ٣٩٩»:

«فعندما يخبرنا الله عن قانون موضوعي يعمل خارج الوعي، يستعمل فعل «أذن» كقوله «آل عمران / ١٤٥»:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾.

أي أن إذن الله حاصل ونافذ لا محالة، وهنا هو الموت، ولكن الإذن يتم موضعيا من خلال كتاب، وهو كتاب الموت، أي مجموعة الشروط الموضوعية التي إذا حصلت واجتمعت بعضها مع بعض حصل الموت لا محالة، وهذه الشروط مؤجلة غير موقوتة، ومن هنا جاء شرط طول العمر وقصره.

أي أن الله أذن إذا بلغت حرارة جسم الإنسان «٤٤ درجة مئوية فما فوق» أن

يحصل الموت، وأذن إذا شُنق الإنسان أن يحصل الموت، وأذن إذا قطع رأس الإنسان أن يحصل الموت... وهكذا دواليك».

ثم جاء د. شحرور بالآيات التي حملت فعل «أذن»، والذي يعني أن الشيء لا محالة حاصل، وأنه يجري من خلال قانون موضوعي مادي، ومنها قول الله تعالى «غافر / ٧٨»:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ثم قال: «هنا يبين بأن الآيات البينات التي يأتي بها الرسل تنفذ من خلال قوانين مادية لا محالة حاصلة، وأنه لا خرق لأي قانون من قوانين الطبيعة، وأن الخرق هو في المعرفة النسبية لدى الناس».

وعن المعنى الثاني لفعل أذن، والذي هو الإعلان والموافقة، يقول «ص ٤٠١»:

«هنا نلاحظ كيف أن الإذن بمعنى الموافقة والإعلان جاءت في آيات أم الكتاب، وكيف أن الإذن بمعنى القانون الموضوعي النافذ جاءت في القرآن وتفصيل الكتاب».

*** أقول:**

نلاحظ في قوله هذا، كيف أن بدعة تقسيم د. شحرور آيات التنزيل الحكيم إلى «أم الكتاب» المتعلقة بالأحكام، و«القرآن» المتعلق بآيات الآفاق والأنفس، هي التي قامت عليها قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، من أولها إلى آخرها، بما في ذلك ما يتعلق بمسائل الغيب كـ «إذن الله ومشيئته»، وقد فرّق بينهما فقال «ص ٤٠٢»: «إن إذن الله لا محالة حاصل من خلال قانون موضوعي نافذ كالموت والنصر والهزيمة ... الخ، لذا فهو لا يحتمل إلا وجها واحدا من النفاذ في حال وجوده.

أما المشيئة فتحتمل الوجهين الإيجابي والسلبي كقوله «آل عمران / ٢٦»:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

وقول الله تعالى «الأعراف / ١٥٥»:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾.

وقول الله تعالى «الأنعام/ ٨٣»:

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾.

ثم قال: «هنا نلاحظ الإذن والمشيئة في آية واحدة، فالوحي يحدث من خلال قوانين نافذة، أما ما يوحى به لأحد من الناس فشرطي يحتمل عدة أوجه، لذا قال ما يشاء.

وقوله تعالى «الأنعام/ ٨٨»:

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ ـ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ـ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

فعندما قال «يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ» فهذا يحتمل الوجهين: الإيجاب أو النفي، لذا وضعها مفتوحة، وذلك لأنه جعلها مشروطة بأعمال الإنسان كقوله «البقرة/ ٢٥٨»:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

لذا قال «الرعد/ ٣٩»:

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

فأحكام أم الكتاب (نلاحظ هنا أن د. شحرور يقصد أحكام الشريعة الإسلامية) حصل فيها تطور بين نفي وإثبات حسب التطور التاريخي، لذا قال «مَا يَشَاءُ»، فعندما تستعمل كلمة «شاء» يجب أن تفهم أنها تحتمل الوجهين، أي أن المشيئة ظرفية مرتبطة بموقف الإنسان، أو الموقف التاريخي، لذا قال «الواقعة/ ٦٥»:

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾.

وقال تعالى «الأنعام/ ١٤٩»:

﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

وقال تعالى «النحل/ ٩٣»:

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ـ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ـ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

ولكنه لم يشأ، ولم يهد الناس أجمعين، وليس الناس أمة واحدة، لذا فعندما نقول إن زيدا سيذهب غدا إلى الطبيب فإن ذهابه سيحتمل الوجهين: الذهاب أو عدم الذهاب فيقول: إني ذاهب غدا إلى الطبيب إن شاء الله.

ولكن إذا أخذ زيد حبة من الاسبرين من أجل الصداع فيقول: فيها الشفاء بإذن الله، لأنها تحتمل الوجه الواحد وهوا لتفاعل وتسكين آلام الرأس.

وكذلك قوله «الكهف / ٢٩»:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾.

هنا وضع الكفر والإيمان في المشيئة «مشيئة الإنسان»، ولم يضعهما في الإذن، لأن عقيدة الإنسان تحتمل الوجهين الإيمان والكفر وله الخيار فيهما».

❊ أقول:

إن حديثي عن «إذن الله ومشيئته» يجب ألا يخرج عن منظومة الآيات التي استقطعها د. شحرور من سياقاتها لصالح «الفلسفة المادية للوجود»، والذي يطول شرحه، ولذلك سألقي الضوء على بعض مسائله بصورة تدريجية بداية من قواعده، فأقول: عندما يقول الله تعالى «النحل / ١٧»:

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

ويقول تعالى «الرعد / ١٦»:

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾.

ويقول تعالى مع إضافة «التقدير» إلى «الخلق» مثل قوله «الفرقان / ٢»:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

وقوله «القمر / ٤٩»: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

ثم نجد أن الله تعالى يقول في سياق الآية «المؤمنون / ١٤»:

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾.

نفهم من ذلك أن هناك خالقين غير الله، وعليه يكون معنى «الخلق» ودلالته في

السياق القرآني هو «الإيجاد من عدم»، أو «الابداع من عدم» الذي أشارت إليه الآية «البقرة / ١١٧»:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

ويجمع الله بين فعاليات الإبداع والخلق فيقول تعالى «آل عمران / ٤٧»:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

ويجب أن نفهم هذه الآية في إطار «مشيئة الله الكونية» العامة المطلقة، وإن كانت تتعلق بالنصارى، ذلك أن العبرة بـ «المقاصد العليا» المتعلقة ببيان القدرة الإلهية التي أشارت إليها جملة «وَإِذَا قَضَى أَمْرًا» في الآية «البقرة / ١١٧»، وهذه الآية «آل عمران/ ٤٧»، والآية التالية «مريم / ٣٥»:

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

إذن فلابد أن نفرق بين «أمر الله الكوني» الذي لا علم لأحد بكيفيته، و«أمر الله التكليفي» الذي نزل لتعرفه الناس وتعمل به بإرادتها الحرة.

فولادة عيسى، عليه السلام، من غير أب، كان بكلمة «كن» ألقاها الله عن طريق «الملك» في فرج مريم، قال تعالى «الأنبياء / ٩١»:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فـ «آية عيسى»، عليه السلام، آية حسية، أراد الله تعالى أن يقيم بها الحجة على الناس وفي مقدمتهم قومه، «مريم / ٢١»:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾.

وهي في إطار «مشيئة الله الكونية» التي تستمد فعاليتها بكلمة «كن»، الأمر الذي يجعل مثل عيسى كمثل آدم، فقال تعالى «آل عمران / ٥٩»:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

فبكلمة «كن» خلق الله آدم من نفخة الروح في مادة الطين، فقال تعالى «الحجر/ ٢٩»:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

وبكلمة «كن» خلق الله عيسى من نفخة الروح في فرج مريم، عليها السلام، فقال تعالى «التحريم / ١٢»:

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾.

وبكلمة «كن» جعل الله من الآيات الحسية التي أيد الله بها عيسى، عليه السلام، أن ينفخ في طير مصنوع من «الطين» فيتحول إلى طير حقيقي بإذن الله، فقال تعالى «آل عمران / ٤٩»:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ـ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ ـ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ـ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ـ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ـ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وليس معنى هذا أن عيسى، عليه السلام، أصبح هو «كلمة الله»، كما يفهم البعض من قوله تعالى «النساء / ١٧١»:

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ـ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ ـ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ـ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ـ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ ﴾.

ذلك لأن «كلمة الله» التي ألقاها «الملك ـ الروح» في فرج مريم هي كلمة «كن» التي عن طريقها خُلق عيسى، عليه السلام.

ولقد تبرأ عيسى، عليه السلام، من كل ما نُسب إليه بعد موته، عندما سأله الله تعالى «المائدة / ١١٦ـ١١٧»:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ولذلك فإن الذين يخوضون في الحديث عن كيفية الخلق والإبداع الإلهي، مثل د. شحرور، عليهم تدبر قول الله تعالى «البقرة / ٢٦٠»:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ - قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ - قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ - قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ - ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا - ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ - وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد سأل إبراهيم، عليه السلام، عن «كيفية» إحياء الموتى، فلم يجبه الله عن «الكيفية» وإنما بيّن له كيف تستجيب الأشياء لأمر الله «كن» الذي يعمل في عالم الشهادة، والذي يقيم الله به حجته على الناس: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾، وذلك لأن فعاليات الخلق والإبداع الإلهي فعاليات مطلقة، خارج حدود الزمن والمكان، يقول الله تعالى «القمر / ٥٠»:

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾.

إنها فعالية الأمر «وَمَا أَمْرُنَا» عندما يحمل المشيئة الإلهية إلى الشيء، فيكون «كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ»، حيث يتفاعل عالم الغيب مع عالم الشهادة لتنفيذه في الوجود الموضوعي، هذا الوجود الذي لا يعتبره د. شحرور «حقًّا» إلا إذا أدركته الحواس!

فكيف تدرك الحواس الطرف الأول من معادلة «مشيئة الله التكونية»، أي كلمة «كُن»، والذي بدونه ما كان هذا «الوجود الموضوعي» أن يوجد أصلًا؟!

ويضرب الله تعالى المثل لبيان فاعلية الأمر الإلهي «كُن» في الوجود الموضوعي، بقصة الرجل الذي مر على قرية فقال «البقرة / ٢٥٩»:

﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ـ قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ـ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ـ قال كم لبثت ـ قال لبثت يوما أو بعض يوم ـ قال بل لبثت مائة عام ـ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ـ وانظر إلى حمارك ـ ولنجعلك آية للناس ـ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ـ فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾.

ومن أمثلة تفاعل عالم الغيب مع عالم الشهادة في الوجود الموضوعي، استجابة الله تعالى لدعاء زكريا، عليه السلام، يقول الله تعالى «مريم / ٢-٦»:

﴿ ذكر رحمت ربك عبده زكريا (٢) إذ نادى ربه نداء خفيا (٣) قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا (٤) ﴾.

﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا (٥) يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا (٦) ﴾.

ثم تأتي البشرى من عالم الغيب، واستجابة الدعاء في عالم الشهادة، «مريم / ٧ ـ ٩»:

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا (٧) قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا (٨) قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا (٩) ﴾.

وهنا نتدبر قول الله تعالى السابق «مريم / ٩»:

﴿ قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾.

وتفاعله مع قوله تعالى «آل عمران / ٤٠»:

﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾.

إنه بيان لفعالية «مشيئة الله الكونية» عندما تتجلى في «عالم الشهادة»:

﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ـ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾.

نعم: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

فهو سبحانه الذي خلق «الموت» و«الحياة»، قال تعالى «الملك / ٢»:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

والله وحده هو الذي يُحيي ويميت، قال تعالى «الأعراف / ١٥٨»:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

ولن تموت نفس إلا بإذن الله وحسب ما قدره الله تعالى وقضى به، فقال تعالى «الواقعة / ٦٠»:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

وقال تعالى «آل عمران / ١٤٥»:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

وقال تعالى «كِتَابًا مُّؤَجَّلًا» لبيان أن «إِذْن الله» بالموت غير متعلق بالأسباب، وهو أمر يعلمه الناس ويشاهدونه واقعًا في حياتهم، فقد تجتمع أسباب موت الإنسان كلها ولا يموت، قبل بلوغ أجله.

إذن فالنفس تموت في الوقت المُقدر لها، في إطار «مشيئة الله الكونية» التي لا إرادة للإنسان فيها، وهذا ما أفاده التعبير بمجيء وإتيان الموت للإنسان، كقوله تعالى «المؤمنون / ٩٩ ـ ١٠٠»:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

والتعبير بـ «حِينَ مَوْتِهَا» في قوله تعالى «الزمر / ٤٢»:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ـ وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ـ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ـ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ـ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

حتى لو قتل الإنسان نفسه، أو تم تنفيذ حُكم الإعدام فيه، فإن انتهاء أجله يكون قد حان في هذه الساعة، وذلك وفق إذن الله وقدره، كما بيّن الله ذلك بقوله تعالى «الأحزاب / ١٦»:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ ـ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ـ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

(٩) ويقول د. شحرور «ص ٤٠٣»:

وننتقل الآن إلى تأويل قوله تعالى «لقمان/ ٣٤»:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ـ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ـ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ـ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ـ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ـ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾.

إن تأويل هذه الآية يؤكد بشكل قطعي وجازم أن الأعمال والأرزاق والأعمار غير محددة سلفا، وذلك حسب التأويل التالي: قلنا إن القرآن المجيد في اللوح المحفوظ، وهو مجموعة قوانين الطبيعة العامة الصارمة الجازمة، ومنها قوانين الجدل المادي، التطور وتغير الصيرورة، وقوانين جدل الإنسان، وإن أي حدث بعد حصوله يتم تسجيله في الإمام المبين، لذا جعل الكتاب المبين وكتاب مبين جزءًا من القرآن العظيم، ولا يوجد أي استثناءات منها لأحد، ومطلوب منا وعيها ومعرفتها.

ومن خلال وعينا لهذه القوانين تزداد حرية التصرف هذه.

ويجدر بنا هنا أن نقارن بين هذين المفهومين:

ـ المفهوم الأول: الوجود المادي الموضوعي الصارم.

ـ والثاني: حرية التصرف من قبل العاقل بهذه القوانين».

ثم يضرب مثلا لا محل له من الإعراب، ثم يذهب إلى تحليل الآية ويقول «ص ٤٠٤»:

* «إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»:

لقد برمج الله أحداث الساعة سلفا في اللوح المحفوظ، وقد وصف لنا ما هي أحداث الساعة، وماذا سيحصل في هذا الكون المادي حين تقوم الساعة، ولكن لم يضع توقيت قيامها في اللوح المحفوظ، واحتفظ به لنفسه، لذا قال «عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ».

لنقارن هذه الآية مع قوله تعالى «الرعد / ٣٩»: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

أي أن أم الكتاب هي أمر ظرفي قابل للتبديل وغير محددة سلفا، الاحتمال الأول، أما الساعة فتخضع للاحتمال الثاني لذا قال «الأعراف / ١٨٧»: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

وقال أيضًا في نفس الآية: «لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً».

حيث إن توقيتها عنده فقط كأم الكتاب، وقد قلنا إن أم الكتاب هي كتاب الله لذا قال «الروم / ٥٥-٥٦»:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ـ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ـ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ـ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هنا نلاحظ الناحية المهمة جدًّا كيف قال «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ» ولم يقل في القرآن أو في اللوح المحفوظ أو في الكتاب».

ويقول «ص ٤٠٥»: وهو يستكمل بيان الآية «لقمان / ٣٤»:

* «وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ»:

لقد حدد الله سلفا، القوانين الموضوعية مثل قوانين تشكل البخار وتشكل الغيوم المشكلة للمطر، ولكنه لم يحدد سلفا كمية المياه التي ستنزل على كل كيلومتر مربع من سطح الأرض، ولو حدده سلفا لأمكن للعلماء في المستقبل تحديد كمية الأمطار التي ستهطل في مساحة ما على سطح الأرض، ولو بعد ألف سنة، لذا فإن الإنسان يستطيع أن يقلد تشكيل الغيوم من خلال قانون التبخر، ويستطيع أن يسوق هذه الغيوم

في المستقبل ولو جزئيا لتنزيل المطر في منطقة ما، لأنها غير محددة سلفا في اللوح المحفوظ.

* «وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرْحَامِ»:

لقد برمج الله سبحانه وتعالى سلفا في اللوح المحفوظ قانون الزوجية واللقاح، وأنه عندما يلقح أي حيوان منوي أية بويضة فسيحصل الحمل ويتشكل الجنين، كل هذا ضمن قوانين صارمة هي قوانين الجينات والوراثة.

ولكنه لم يبرمج في اللوح المحفوظ سلفا من سيتزوج من، أي أننا نحن البشر غير مبرمجين سلفا في اللوح المحفوظ، ولكن المبرمج هو قوانين الحياة والموت والوراثة والجنين البشري، أما تحويل البشر إلى إنسان، فقد جاء من الله مباشرة.

لذا فلا نقول إن فلانة من نصيب فلان منذ الأزل، لذا قال سبحانه وتعالى «الشورى/ ٤٩-٥٠»:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

لاحظ هنا قوله «يشاء»، ولم يقل «يأذن»، لنعلم بشكل جلي أن عدد الذكور والإناث لكل إنسان غير مبرمج سلفا، وكذلك الزيجات».

ثم يقول د. شحرور «ص ٤٠٦»:

«من هنا نستنتج ما يلي: بما أن نوع الجنين غير محدد سلفا في اللوح المحفوظ، أذكر هو أو أنثى، وبالتالي فإن استطاعة الطب تحديد وتوجيه نوع الجنين سلفًا، أذكر هو أو أنثى، ومعرفة نوع الجنين وهو في رحم الأم، ولكن ليس باستطاعة الطب خلق جنين بدون لقاح حيوان منوي مع بويضة.

ولو كان كل شيء مبرمجًا سلفًا في اللوح المحفوظ، لأمكن معرفة من سيتزوج فاطمة لحظة ولادتها، وعدد الأولاد الذين ستنجبهم، ولكن هذا مستحيل، لأنه غير مبرمج، وإنما يحدد من خلال الشروط الظرفية، المشيئة».

ثم يستكمل د. شحرور بيانه للآية «لقمان / ٣٤» ويقول:

* ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

هنا يؤكد بشكل قاطع أن اختيار الإنسان لأعماله غير محدد سلفا في اللوح المحفوظ، وإلا فإن العلم سيعلم في المستقبل ماذا سيفعل كل إنسان غدا، هذا العمل مفتوح تمامًا للإنسان، ويمكن لكل إنسان أن يختار أعماله بنفسه، لأنها غير محددة له سلفا، والأرزاق غير محددة سلفا لكل إنسان، والله يتدخل فيها تدخلا شرطيا غير مسبق، أي المشيئة».

* ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

هذا مجمل للآيات التي تقول إن أعمار البشر غير محددة سلفا في اللوح المحفوظ، ولو كانت أعمارهم محددة سلفا منذ بداية الخلق، لأمكن في المستقبل معرفة عمر كل إنسان من لحظة ولادته، وهذا مستحيل لأنه غير مبرمج سلفا، وفي هذا قال الله سبحانه وتعالى عن معركة بدر «الأنفال / ١٧»: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

فلو كانت أعمارهم مبرمجة ومحددة سلفا لأصبح قوله «وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ» غير ذي معنى، ولكن الله حدد سلفا القوانين الموضوعية التي تحدد الحياة والموت، وتحدد قصر العمر وطوله، ولنا نحن البشر التصرف بها حسب معرفتنا النسبية لها، والله يتدخل فيها تخلا شرطيا، أي المشيئة».

*** أقول:**

إن كل هذا الذي أجهد د. شحرور نفسه لبيانه، محاولة منه أسلمة مبادئ «الفلسفة المادية للوجود»، والمتعلق بمسألة «القضاء والقدر» وبـ «الحرية الإنسانية»، قد ختمه بمبدأ من مبادئ هذه الفلسفة وهو «النفي والإثبات» فقال «ص ٤٠٧»:

«فالحرية الإنسانية ظاهرة تقوم على الأضداد وجدلها والحركة الواعية بين النفي والإثبات بين ضدين، وهذان الضدان متكافئان بين النفي والإثبات كالشهيق والزفير والليل والنهار في ظواهر الطبيعة... وفي هذا التكافؤ يكمن سر الحرية الإنسانية، إذ أن الظواهر الموضوعية للطبيعة فيها النفي والإثبات».

ولذلك سأجعل نقضي لما ذكره د. شحرور عن «الإذن والمشيئة» في العالم

المادي الموضوعي، ببيان ما وراء هذا العالم المادي من قوى «غيبية» لا تدركها الحواس، وبدونها ما كان لهذا العالم المادي وجود، فأقول:

يلفت الله تعالى نظر الناس إلى التفكر في آيات الآفاق المنتشرة حولهم، وكيف أن الأرض التي يعيشون عليها تكون «ميتة» فإذا بالحياة تدب فيها بأمر الله وإذنه، وأن الذي قدر على ذلك قادر على إحياء الموتى، فيقول الله تعالى «الروم / ٥٠»:

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ ـ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ـ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ـ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ويقول الله تعالى «فصلت / ٣٩»:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ـ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ـ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ـ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ـ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

فهل رأى د. شحرور «الأَرْضَ خَاشِعَةً» في الوجود المادي الموضوعي، أي يبست وجدبت، وهي معرفة تدركها الحواس، ثم كيف أحياها الله بعد موتها بإذنه ومشيئته؟!

وهل يعلم د. شحرور لماذا قال الله تعالى هنا: ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

وقال تعالى في «الحج / ٥»: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾.

وذلك في سياق الحديث عن الدلائل المثبتة لـ «البعث»، حيث يتفاعل عالم الغيب «البعث» مع عالم الشهادة «مراحل خلق الإنسان في بطن أمه» في الوجود الموضوعي؟!

وعندما يقول الله تعالى «الحج / ٥»:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ـ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ـ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ـ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ـ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ـ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ـ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ـ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ـ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ـ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ـ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ـ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾.

ثم يقول الله تعالى بعدها:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

ثم ماذا يفهم د. شحرور من قول الله تعالى بعدها «الحج / ٦-٧»:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾؟!

إنه «التناغم» القائم بين عالمي الغيب والشهادة، يؤمن به المسلم وإن لم تدرك الحواس كيفيته، وإن كفرت به «الفلسفة المادية للوجود» التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

لقد قال الله تعالى «فصلت / ٣٩»: ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

لأن السياق يناسب ذلك، بقرينة الآية قبلها «فصلت / ٣٨»:

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾.

أي هم في حالة خضوع وسجود لله تعالى، ولذلك ناسب أن تكون الأرض «خَاشِعَةً».

أما سياق آية «الحج / ٥» فيتحدث عن البعث بعد الموت، فناسب التعبير بـ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾.

ويحدث ذلك كله في إطار منظومة «التدبير الإلهي»، ووفق السنن الإلهية، كقوله تعالى «السجدة / ٥»:

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

وهنا نلاحظ تصوير «التدبير الإلهي» وهو يتحرك من «عالم الغيب»، الذي يُنكر حقيقته د. شحرور، إلى «عالم الشهادة» الذي يقول د. شحرور إنه لا يكون حقًّا إلا إذا أدركته الحواس، ظنا منه أن هذا الذي أدركته حواسه وُجد بدون موجد.

إن منظومة «التدبير الإلهي» من «عالم الغيب» الذي لا تدركه الحواس، وهي التي تدفع الوجود المادي الموضعي إلى الوجود، وتشمل «أمر الله الكوني» و«أمر الله التكليفي»، ومن ذلك إرسال الرسل بالرسالات الإلهية، وموقف أقوامهم منها طاعة أو معصية.

والذين كفروا برسالة النبي الخاتم رسول الله محمد، عليه السلام، آمنوا بفعالية منظومة «التدبير الإلهي» لقول الله تعالى «يونس / ٣١»:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ـ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ـ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ـ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ـ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ـ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ـ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

أما د. شحرور فلا يؤمن إلا بما تدركه الحواس في الوجود المادي الموضوعي، ويعطي ظهره لـ «مَن ـ أَمَّن ـ وَمَن» والتي يجيب الله عليها بقوله تعالى «الأعلى / ٢-٣»:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾.

وبقوله تعالى «طه / ٥٠»:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

فكيف يؤمن د. شحرور بـ «المخلوق» ولا يؤمن بـ «الخالق» الذي أوجده، وفق سنن وآليات لا تعمل إلا بإذن الله وأمره الذي يتنزل بين السماوات والأرضين، سواء علمها الإنسان أو لم يعلمها: يقول الله تعالى «الطلاق / ١٢»:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ـ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ـ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ـ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾.

إن الأمر الذي يتنزل بين السماوات والأرضين، هو كل «شيء» يتعلق بقضاء الله ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويعلمه الله من قبل إنزاله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى «لقمان / ٣٤»:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾.

ولا شك أن الخالق عز وجل، يعلم أسباب حدوث أي شيء في هذا الوجود والنتائج المترتبة عليها، فهو سبحانه الذي صنع وأبدع، يقول تعالى «النمل / ٨٨»:

﴿... صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾.

وعليه فإن المصائب تحدث بعلم الله وإذنه: يقول الله تعالى «التغابن / ١١»:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾.

ويقول تعالى «آل عمران / ١٦٦-١٦٧»:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ ... ﴿١٦٧﴾ ﴾.

وهناك مصائب لابتلاء الإنسان، ولا دور له فيها، يقول الله تعالى «البقرة / ١٥٥-١٥٦»:

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

ويقول تعالى «العنكبوت / ٢-٣»:

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

وهناك نِعَمْ يُنعم الله بها على الإنسان لا تُحصى، ولا دخل للإنسان في جلبها، يقول الله تعالى «الجاثية / ١٢-١٣»:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

نعم: ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ - لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ومن نعم الله ما يكون بتدخل الإنسان بأعماله وطاعته لله تعالى، في إطار «مشيئة الله التكليفية»، كالأمر بالدعاء والاستغفار، فينقل لنا الله ما قاله نوح، عليه السلام، لقومه «نوح / ١٠-١٢»:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

ومن نعم الله الكبرى على الناس نعمة إرسال الرسل لهدايتهم إلى صراط ربهم المستقيم، ويربط الله بين طاعة الرسل واتباع رسالاته، وما يُنعم به على المطيع من نور الهداية، فيقول الله تعالى «المائدة / ١٥-١٦»:

﴿... قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

ويضرب الله تعالى المثل لبيان فعالية نور الهداية بين الناس، فيقول تعالى «النور/ ٣٥-٣٨»:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم نتدبر ماذا قال الله بعدها، للرد على الماديّين «أمثال د. شحرور» الذين يربطون الرزق بالأسباب المادية، فيقول تعالى «النور / ٣٨»:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وأخيرا أقول:

إن أفضل ما يُقال للدكتور شحرور ردا على قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم هو قول الله تعالى «الأنعام / ١٤٨»:

﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

الفصل الخامس

«آيات الآفاق والأنفس»

«آيات الآفاق والأنفس»

إن تفعيل «آليات عمل القلب»، للوقوف على دلائل الوحدانية التي حملتها «آيات الآفاق والأنفس» مسألة أقر بها بنو آدم، ويقرون بها إلى يوم الدين، لقول الله تعالى «الأعراف / ١٧٢ ـ ١٧٤»:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وعليه، فإن الإنسان يولد وهو يشهد أنه لا إله إلا الله «قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا»، شهادة الفطرة الإيمانية التي لا تفارق قلبه حتى الوفاة، ثم تأتي البيئة التي يولد فيها الإنسان، فإما أن تنمي هذه الفطرة وتقوم بتفعيلها في حياته، أو تغض الطرف عنها وتحجبها عن حياته، وفي هذه الحالة لن يقبل الله تعالى من هذا الفريق الثاني:

١ ـ العذر بالغفلة: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

٢ ـ عذر الآبائية: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾.

ولن تنفع الغفلة، ولن تنفع الآبائية: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؟!

ثم يحث الله الناس، وهم مازالوا أحياءً، على تفعيل «آليات عمل القلب» فيقول تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ ـ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وتفاعل «آليات عمل القلب» مع دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟!

مع إقرار بني آدم بالربوبية:

«قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا».

هو «حجة الله» على العالمين إلى يوم الدين.

أولًا:

إن تفعيل «آليات عمل القلب»، للوقوف على دلائل الوحدانية التي حملتها «آيات الآفاق والأنفس»، هو الطريق الوحيد الذي يصل بالإنسان إلى الإقرار بـ«الوحدانية» وبصدق «النبوات»، وإلى الوقوف على حكمة إرسال الرسل.

ولقد جعل الله الطريق إلى «الوحدانية» لا يملكه أحد إلا هو عز وجل، فجعل الكون كله آيات دالة على وحدانيته، فإن حَجَبَت البيئة الفطرة الإيمانية ولم تقم بتفعيلها فإن «آليات عمل القلب» التي هي ملك الإنسان، تتفاعل مع آيات الآفاق والأنفس، حتى لا يكون للإنسان عذر يوم القيامة بـ«الغفلة» أو بـ«الآبائية»، وهذا ما أفاده قوله تعالى «فصلت / ٥٣»:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

إن تفاعل «آليات عمل القلب» مع «آيات الآفاق والأنفس» هو خير برهان على أن «القرآن الكريم» هو «الآية الإلهية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، والقائمة بين الناس إلى يوم الدين، وهذا ما أفاده ضمير «أَنَّهُ» العائد إلى القرآن، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾.

ثم تعالوا نتدبر موقع هذا الضمير، عند الحديث أيضًا عن «آيات الآفاق والأنفس»، في قوله تعالى «الذاريات / ٢٠-٢٣»:

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

إن قول الله تعالى «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»، وقوله تعالى بعد القسم «إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ»، يشيران إلى العلاقة الوثيقة بين تفعيل «آليات عمل القلب» للوقوف على دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس، وبين أن «التنزيل الحكيم» الذي نطق به رسول الله محمد، عليه السلام، من أول سورة فيه، إلى آخر سورة، حق مطلق لأن الله تعالى هو الذي شهد بذلك:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وبناء عليه تسقط القراءة المعاصرة التي تقسم التنزيل الحكيم إلى قسمين:

- «**قسم حق**»: لا يأتيه الباطل.
- و«**قسم باطل**»: يمكن أن يأتيه الباطل، بدعوى أن الله تعالى لم يتعهد بحفظه.

وسيأتي بيان ذلك في موضعه.

ثانيًا:

إن «آيات الآفاق والأنفس» هي «المقابل الكوني» لكل آية من آيات «التنزيل الحكيم»، ويستحيل فهم كلمة واحدة من كلماته، بأي لغة من لغات العالم بما في ذلك اللغة العربية، دون أن تكون لهذه الكلمة صورة ذهنية مطبوعة في قلب الإنسان في مستودع العلوم والمعارف.

ولذلك فإن كلمات: «التنزيل ـ الكتاب ـ القرآن ـ الفرقان ـ الذكر ـ النور...».

وإن كانت تعبر عن «الجمل العربية» المدونة في «المصحف» الذي يعرفه المسلمون جميعًا باسم «كتاب الله» الذي نزل على رسول محمد، عليه السلام، إلا أن كثير منهم لا يعلمون أن الله تعالى لم يسم هذه الجمل بـ «الآيات» إلا لتفاعلها مع «مقابلها الكوني» الموجود خارج «المصحف» في «الآفاق والأنفس»، ذلك أن الآيات قبل أن تنزل على قلب رسول الله محمد «مقروءة» كانت أصلًا من لدن آدم عليه السلام «منظورة».

ومن الآيات الدالة على هذا التفاعل القرآني الكوني الشامل لكل سور «التنزيل الحكيم»، وليس لقسم منها فقط:

١ ـ قول الله تعالى «الأعراف / ١٨٥»:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

تدبر العلاقة بين قول الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾.

فهل المقصود بـ «حديث الله» واجب الإيمان، قسم من «التنزيل الحكيم» فقط، كما يدعي د. شحرور في قراءته المعاصرة، أم «التنزيل الحكيم» كله، كما ورد بيان ذلك في قوله تعالى «الزمر / ٢٣»:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾؟!

٢ ـ قول الله تعالى «العنكبوت / ٥١»:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

لقد سبق هذه الآية طلب المكذبين من رسول الله «الآيات الحسية»، أي آيات من «آيات الآفاق والأنفس» التي يشاهدونها بأعينهم، فقال تعالى «العنكبوت / ٥٠»:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

فنزل القرآن يبين للناس أن عصر «الآيات الحسية» قد انتهى، ذلك أن فعالية الآية الحسية تنتهي بوفاة الرسول، أما هذه «الآية القرآنية العقلية» التي حملها كتاب الله الخاتم، ففعاليتها وحجيتها قائمة بين الناس إلى يوم الدين.

ثالثًا:

إذا كانت حجية «الآية القرآنية العقلية» قد ثبتت لأهل اللسان العربي لأنها نزلت بلسانهم، فكيف تكون حجة عل الناس جميعًا؟!

أقول:

إن حجية «الآية القرآنية العقلية» ليست في نصوصها العربية، وإنما في مقابلها الكوني الذي تعلمه شعوب العالم أجمع، فيكفي غير العربي أن يجلس مع أهل اللسان العربي ليبيّنوا له المقابل الكوني لكل كلمة عربية من كلمات التنزيل الحكيم، وأن الله الذي أنزل نصوص «الآية القرآنية العقلية» هو الذي خلق مقابلها الكوني.

ولذلك عجز الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثل سور هذه «الآية القرآنية العقلية»، ليس بسبب عدم استطاعتهم الإتيان بجمل عربية مثلها، وإنما بسبب عدم استطاعتهم الإتيان بالمقابل الكوني لكل جملة من الجمل العربية، وهذا هو معنى «المثل» في قوله تعالى «البقرة / ٢٣»:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فإذا تدبرنا السياق الذي وردت فيه هذه الآية نجد أنه يخاطب الناس جميعًا بقول الله تعالى «البقرة / ٢١»:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

بعدها جاءت الإشارة إلى دلائل الوحدانية في «الآفاق والأنفس» التي يقتضي الإيمان بها الإقرار بصدق «نبوة» رسول الله محمد، فقال تعالى «البقرة / ٢٢»:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم بيّن الله تعالى أن التناغم القائم بين الآيات المقروءة والآيات المنظورة هو الذي قامت على أساسه حجية «الآية القرآنية العقلية» التي حملها كتاب الله الخاتم،

وأن نقض هذه الحجية لا يكون بالإتيان بمثل «سور الكتاب المقروء»، وإنما بمثل «آيات الكتاب المنظور» فقال تعالى «البقرة / ٢٣»:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم أكد الله على استحالة أن يأتوا بمثل سورة من مثله فقال تعالى «البقرة / ٢٤»:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

إن قول الله تعالى مخاطبا المكذبين «وَلَن تَفْعَلُوا»، كان يجب أن يدفعهم إلى تكثيف الجهود والاستعانة بالإنس والجن كي «يفعلوا»، فلماذا «لم يفعلوا»؟!

لأنهم يعلمون أن المطلوب ليس الإتيان بـ «جملة قرآنية» فقط، وإنما الإتيان أيضًا بـ «الآية الكونية» المقابلة لها، فما فائدة أن تحاكي أو تستنسخ نصوصا عربية بلاغية أنزلها الله تعالى، وتعطي ظهرك لـ «مقابلها الكوني» الذي يستحيل أن تفهم هذه النصوص بمعزل عنه؟!

رابعًا:

إن أقصر سورة من سور القرآن هي سورة الكوثر، وقول الله تعالى «الكوثر/ ١ ـ ٣»:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ـ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ـ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

فهل استطاع أحد من أهل اللسان العربي، المرتابين المشككين في حفظ الله لكتابه، المتخصصين في فنون البلاغة والمعاني والألفاظ، أن يحاكي هذه الجمل القرآنية الثلاث، ويأتي بمثلها وبمثل مقابلها الكوني؟!

كيف، والمحاور الرئيسة التي تدور حولها هذه الجمل القرآنية الثلاث هي:

١ ـ إثبات «الوحدانية»: في ضمير «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ»، ويقابلها «فاطر / ٣»:

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟!

٢ ـ إثبات «النبوة»: في «أَعْطَيْنَاكَ»، ويقابلها «العنكبوت / ٥١»:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾؟!

٣ ـ إثبات «أحكام القرآن» وربطها بالوحدانية: في «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ»، ويقابلها «الأعراف / ٣»:

﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

٤ ـ موقف النبي من أعدائه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

إن «الآيات»: هي «البراهين» الدالة على «الوحدانية»، وعلى «صدق النبوة»، وعلى «حكمة التشريع»، وقد عجز الجن والإنس أن يأتوا بمثل سورها ومقابلها الكوني، والسبب؟!

أن الله تعالى لم يتعهد بحفظ الكتاب، ولا بحفظ القرآن، وإنما تعهد بحفظ «الذكر»، فقال تعالى «الحجر / ٩»:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

أي أن الله لم يتعهد بحفظ المكتوب المقروء فقط، وإنما تعهد أيضًا بحفظ مقابله الكوني الذي حملته آيات الآفاق والأنفس، وهذا ما أفاده قول الله تعالى «الكهف / ١٠٩»:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾.

إن كلمات الله «المنظورة» التي لا تنفد، هي دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس، والتي يستحيل فصلها عن كلمات الله «المقروءة» التي أنزلها الله على رسوله محمد، عليه السلام، لذلك قال بعدها «الكهف / ١١٠»:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

آيات الآفاق والأنفس
ونقض منهجية القراءة المعاصرة

أولًا:

يقول د. شحرور «ص ١٠٦»:

«إن الظن بأن الروح هي سر الحياة هو الذي أبعد الناس عن المفهوم الحقيقي للروح، والذي جاء في آيات الكتاب، فإذا كانت الروح هي سر الحياة، فهذا يعني أن البقر والأفاعي والسمك وكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات لها روح، وهذا غير صحيح لأن الله سبحانه وتعالى نفخ الروح في آدم ولم يقل إنه نفخ الروح في بقية المخلوقات.

إن أزمة سوء فهم معنى الروح هي التي أوقعت المسلمين في شرك عدم البحث عن أصل الحياة وأصل الإنسان والأنواع على الأرض، ظنًا منهم أن الروح سر الحياة، وهي من اختصاص رب العالمين، لذا لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أصل الحياة، وذلك ناتج عن خطأ في فهم الآية «الإسراء / ٨٥»:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾.

*** أقول:**

١ ـ أبدأ ببيان أن قراءة د. شحرور المعاصرة لمسألة «الروح والنفس» قامت على أساس خاطئ قرآنيًا ولغويًا، وهو اعتقاده أن الروح «مؤنث» ودائما يستخدم كلمة «هي»، والحقيقة أن «الروح» مذكر، والمؤنث «النفس».

٢ ـ من أي المصادر المعرفية علم د. شحرور أن هذا العلم القليل، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قد آتاه الله تعالى للملحدين في آياته، أمثال «داروين»، صاحب «نظرية النشوء والارتقاء»، ليقول «ص ١٠٦»:

«علمًا بأن آيات خلق آدم كلها قرآن، فهي من الآيات المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل، وخير من أول آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير تشارلز داروين».

*** أقول:**

١ ـ إن هذا العالم الكبير «تشارلز داروين» هو الذي قال إن أصل الإنسان من فصيلة القرود، ثم جاء علماء أثبتوا تهافت نظريته «نظرية النشوء والارتقاء» وسقوطها من قواعدها، ويستطيع أي إنسان عن طريق شبكة الإنترنت أن يقف على هذه الحقيقة، وأن ما ذهب إليه «داروين» غير مجمع عليه بين أهل التخصص وذلك على مستوى علماء العالم.

٢ ـ ثم ما علاقة «داروين» بـ «القرآن» حتى يُقحمه د. شحرور في قراءة معاصرة لـ «التنزيل الحكيم»، و«داروين» نفسه لو كان حيًا اليوم لأعلن أمام العالم كفره بـ «الله وبرسوله محمد وبالقرآن»؟!

٣ ـ ومن باب التأويل والتبرير وتحريف الكلم عن مواضعه، نجد د. شحرور يقول يسأل: «هل عرف داروين القرآن»؟!

ثم يجيب: «إنه ليس من الضروري أن يعرف، فقد كان داروين يبحث عن الحقيقة في أصل الإنسان، والقرآن أورد حقيقة أصل الإنسان، فيجب أن يتطابقا إن كان داروين على حق، وأعتقد أن نظريته في أصل البشر في هيكلها العام صحيحة، لأنها تنطبق على تأويل آيات الخلق».

ثانيًا:

إن الحقيقة التي أوردها القرآن عن أصل الإنسان، وعن مسألة «الروح»، لا علاقة لها مطلقًا بما يؤمن به أصحاب «الفلسفة المادية للوجود» الذين يتبعهم د. شحرور، بل تهدم «نظرية النشوء والارتقاء» من قواعدها.

وبصرف النظر عن الأبحاث العلمية المنشورة على مئات الصفحات على شبكة الإنترنت، والتي أثبتت معمليًا إن «نظرية داروين» غير صحيحة، فإن د. شحرور في مسألة «الروح» قد تجاوز كل الحدود القرآنية واللغوية والمنطقية عندما عاد ليستكمل حديثه عن «الروح» ويقول «ص ١٠٦»:

«لننته الآن من أن الروح ليست سر الحياة، وأن الموت والحياة هما من قوانين الوجود المادي الموضوعي خارج الوعي الإنساني، وكلاهما من قوانين الخلق:

يقول الله تعالى «الملك / ١-٢»:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ ۝٢﴾.

ويقول الله تعالى «الأعلى / ١-٢»:

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

ويقول الله تعالى «القصص / ٨٨»:

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

*** أقول:**

١ ـ يقول د. شحرور إن «الروح» ليست سر الحياة، وأن الموت والحياة هما من: «قوانين الوجود المادي الموضوعي خارج الوعي الإنساني»

وكلاهما من قوانين الخلق، وجاء بالآيات المستقطعة من سياقاتها ليستشهد بها، فإذا ذهبنا إلى «ص ٣٧» نجده يقول:

«وقد تبين في بحثنا أن الروح ليست سر الحياة، وإنما هي سر الأنسنة، أي هي التي حولت البشر إلى إنسان».

٢ ـ فهل معنى أن «الروح» هو الذي حول البشر إلى إنسان، أن البشر كانوا يعيشون من غير هذا «الروح» حتى مرحلة «الأنسنة»، فينفخ الله هذا «الروح» في هذا «البشر» فإذا به يتحول فجأة إلى «إنسان»؟!

والحقيقة أن هذا يحدث فعلا في «أفلام الخيال العلمي»، ويبدو أن د. شحرور من هواة مشاهدة مثل هذه الأفلام، إلا إذا كان هو شخصيًا قد عاصر فترة تحول البشر فجأة إلى إنسان، وشاهد ذلك يحدث أمامه: وفي هذه الحالة من حقه، من باب حرية الرأي، أن يكذب ما جاء به «التنزيل الحكيم» من أن «بني آدم»، منذ خلق الله «آدم» وإلى يوم الدين، يخرجون إلى الدنيا «عقلاء»، شهدوا بالربوبية وبالوحدانية، بقرينة جملة «مِن ظُهُورِهِمْ» التي وردت في قول الله تعالى «الأعراف / ١٧٢»:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ ـ مِن ظُهُورِهِمْ ـ ذُرِّيَّتَهُمْ ـ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ـ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ـ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

سواء كان «آدم» المذكور في الآية هو الأب، أو هو ابن لأب اسمه «آدم»... المهم أنه لا يوجد أي قرينة في السياق القرآني دالة على ما ذهب إليه د. شحرور من أن أصل «البشر» أو «الإنسان» أصلٌ غير عاقل.

ثالثًا:

يقول د. شحرور «ص ١٠٨»:

ولكن لإعطاء فكرة للقارئ عن «الروح» التي حولت البشر إلى إنسان، أي التي نقلت الإنسان نقلة نوعية من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل واع، نقول: لإعطاء هذه الفكرة لا بدّ من الإشارة إلى أننا نرى أن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان.

كما نرى أن آدم هو أبو الجنس الإنساني لا الجنس البشري، بمعنى أنه يبدأ التاريخ الإنساني الواعي بآدم، أما قبل آدم فكان ثمةَ صنفٌ من المملكة الحيوانية يدعى البشر.

ثم اصطفى الله آدم وزوجه من ذلك الصنف «آل عمران / ٣٣»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فآدم إذن لا يدخل في النبوات ولا في الرسالات... لقد نفخ الله الروح في البشر فتحول إلى إنسان وتطور وتقدم، ولم ينفخ الروح في القرود فبقيت كما هي: أي لدينا الآن المعادلة: بشر + روح = إنسان.

❋ أقول:

١ ـ إن اتباع د. شحرور لـ «الفلسفة المادية للوجود» ومحاولة أسلمتها بقراءة معاصرة، أمر يخصه، أما أن يفتري الكذب على الله تعالى ويقول:

«إن التاريخ الإنساني الواعي يبدأ بآدم، أما قبل آدم فكان ثمةَ صنفٌ من المملكة الحيوانية يدعى البشر».

فهذا أمر لن يقبله أي عاقل تدبر «آيات التنزيل الحكيم»، فلم يجد آية واحدة تشير إلى أن «آدم» قد سبقه بشر «أوادم» من المملكة الحيوانية، وهم الذين سمّاهم الله في «التنزيل الحكيم» «البشر»، ثم نفخ الله فيهم «الروح» فتحوّلوا إلى إنسان عاقل واع.

٢ ـ كما لن يقبل مؤمن أسلم وجهه لله، أن يكون الله قد اصطفى آدم وزوجه من المملكة الحيوانية التي هي «البشر»، بدعوى أن الله تعالى قال «آل عمران / ٣٣»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟!

وكل ما ذكره د. شحرور في تأويل هذه الآية عن مفهوم الاصطفاء، بل وكل ما جاء في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، كان يتبع فيه «المنهجية الهرمنيوطيقية».

رابعًا:

إن قول الله تعالى «الكهف / ٥١»:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

يفرض على كل عاقل أن يسأل د. شحرور: من أين جئت بهذه المعلومات الغيبية عن مراحل خلق آدم التي ذكرتها «ص ٣٠٤» وهي:

١ ـ **مرحلة «آدم الأول»**: مرحلة تقليد أصوات الحيوانات والطبيعة، مرحلة التقليد أو المحاكاة، أي مرحلة «آدم الأول»، مرحلة ما قبل الكلام الإنساني، ويستند د. شحرور في ذلك إلى قوله تعالى «البقرة / ٣١»:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ويدعي أن كلمة «آدم» التي وردت في هذه الآية تعني «جنس البشر» الذي أصبح مستعدًا لمرحلة «الأنسنة». والحقيقة أن الآية لا علاقة لها مطلقًا بـ «المملكة الحيوانية» التي سبقت «المملكة الإنسانية».

٢ ـ مرحلة «آدم الثاني»: ويحكي لنا د. شحرور ما اطلع عليه وهو يعيش في «عالم الغيب»، وقت أن قال الله تعالى لآدم «البقرة / ٣٣»:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾.

حيث ظهر «التقطيع الصوتي» في هذه المرحلة بواسطة فعل الأمر «أَنبَأَهُمْ»، وأصبح البشر إنسانًا.

٣ ـ مرحلة «آدم الثالث»: حيث يقوم الإدراك الفؤادي بربط الأسماء بالأشياء ربطًا قائمًا على الحواس وعلى رأسها حاستي السمع والبصر، ثم الانتقال من هذا الربط إلى علاقة اصطلاحية قائمة على الاسم والشيء فقط، أي إلى مرحلة «التجريد»، استنادا إلى قول الله تعالى «البقرة / ٣٧»:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي أن «آدم» سمع فعل أمر من صوتين أو ثلاثة أصوات مقطعة كقوله «تب» «فتاب عليه»!!

إن ما عرفه المؤمنون المسلمون من السياق القرآني عن قصة آدم، عليه السلام، لا علاقة له مطلقًا بكل ما قاله د. شحرور عن هذه القصة، فآدم، عليه السلام، الذي ورد ذكره في التنزيل الحكيم، شخص واحد اسمه «آدم» هو الذي علمه الله الأسماء كلها «البقرة ٣١»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

وهو الذي أنبأ الملائكة بهذه الأسماء «البقرة ٣٢»:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾.

ونحن نفهم كلمات هذه الآيات على ظاهر معناها الذي تؤيده مراجع اللغة العربية وعلم السياق القرآني، فهذه هي إمكاناتنا في عالم الشهادة، والتي بها نفهم الآيات التالية:

أ: قوله تعالى «مريم / ٢٠»:

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾.

فهل كانت مريم عليها السلام، من فصيلة «البشر الحيواني» ثم بعد أن نفخ الله من روحه في فرجها، فقال تعالى «الأنبياء / ٩١»:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أصبحت إنسانة؟!

ب: ثم كيف نفهم الآية التي بيّنت أن بداية خلق «الإنسان» من طين، وليس من «بشر» كان يعيش قبله، فقال تعالى «السجدة ٧»:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾؟!

ج: وهل عندما أمر الله رسوله محمدًا أن يقول لقومه «الكهف / ١١٠»:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾.

هل كان رسول الله، عليه السلام، يقصد أنه وقومه مازالوا في «المرحلة الحيوانية»، حسب المعادلة الشحرورية التي تقول: «بشر + وحي = إنسان»؟!

د: وهل عندما يقول «آل عمران / ٧٩»:

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ... ﴾.

فهل هذا معناه أن الله أنزل «الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» على بشر من «المملكة الحيوانية» قبل أن يتحولوا إلى «المملكة الإنسانية»؟!

هـ: وكيف يُفسر د. شحرور قول فرعون وملئه بشأن موسى وهارون، عليهما السلام «المؤمنون / ٤٧»:

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؟!

و: وماذا عن قوله تعالى «ص / ٧١-٧٢»:

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾.

فهل الذي خلقه الله من طين هو:

ـ **الإنسان:** «وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ»

ـ **أم البشر:** «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ»؟!

وهل يُعقل أن يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لبشر من «المملكة الحيوانية» قبل أن ينفخ فيه «الروح»، ليصير إنسانًا عاقلًا واعيًا؟!

* «أَفَلاَ يَعْقِلُونَ»؟!

خامسًا:

يقول د. شحرور «ص ١٠٩»:

لنستعرض الآن آيات «الروح من أمر ربي»:

يقول الله تعالى «الإسراء ٨٥»:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

يقول الله تعالى «الشورى / ٥٢»:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾.

يقول الله تعالى «غافر / ١٥»:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾.

يقول الله تعالى «النحل / ٢»:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾.

يقول الله تعالى «القدر / ٤»:

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾.

ثم قال: «فالله أعطانا الروح **من ذاته**، وليس من المادة الكونية المكونة للإنسان، ولذلك سمى الأحكام روحًا لأنها ليست حقيقة مجسمة وإنما هي سلوك واع».

*** أقول:**

١ ـ يبدو أن د. شحرور قد اطلع على الغيب، فعلم أن «الروح» من «ذات الله»، والحقيقة أن علم السياق القرآني يكذب ذلك، ويبيّن أن هذه الآيات التي ذكرها د. شحرور، جاءت تتحدث عن «مهمة الروح» وما يحمله من أوامر إلهية، وليس عن «الروح» ذاته الذي خلقه الله لينفذ أوامره، والذي أشار إليه قوله تعالى «البقرة/ ٩٧»:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ثم جاءت القرينة بدلالتها القطعية على أن «جبريل» هو الذي سمّاه الله تعالى «الروح»، فقال تعالى مبيّنا ومفصلًا الآية السابقة «الشعراء / ١٩٢-١٩٤»:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

ونلاحظ ونتدبر الجمل:

«... لِّـ (جِبْرِيلَ) فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ»

«نَزَلَ بِهِ (الرُّوحُ) الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ...»

ولذلك لا نجد التعبير عن «جبريل» أو عن «الروح» بصيغة التأنيث مطلقًا، فلماذا لم يقم د. شحرور بتفعيل علم السياق في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، لينجو من هذا التخبط، ومن هذه «المنهجية العشوائية»؟!

٢ ـ وفي إطار هذه «المنهجية العشوائية»، وغياب «علم السياق»، يجد د. شحرور

نفسه مضطرا للقول إن «الروح» هو «جبريل» ويستخدم صيغة التذكير، فيقول «ص ١١٠»:

«ولا يمكن أن تتم المعرفة الإنسانية دون قالب لغوي، فعندما عبر الله سبحانه وتعالى عن نفخة الروح في آدم قال «البقرة / ٣١»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

إن في هذه الآية مفتاح فهم الروح، وتأويلها مهم جدًّا في تحول البشر إلى إنسان.

عندما ورد السؤال عن الروح جاء الجواب «الإسراء / ٨٥»:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ = «أوامر».

«وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا» = «معلومات».

لاحظ الربط بين الأوامر والمعلومات «الحقائق العلمية».

وجاءت بقية الآيات بالمعنى نفسه.

ونلاحظ أن الآية «النحل / ٢»:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ ﴾.

سبقها قوله تعالى «النحل / ١»:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

٣ ـ والآن نتدبر ماذا قال د. شحرور بعد ذلك:

«وسمى جبريل روحًا لأنه كان يقوم بمهمتين هما:

أ: نقل الأوامر والنواهي «أم الكتاب»

ب: ونقل الحقائق العلمية «القرآن»

ونراه يقول «ص ٣٢٥»:

«وسُمّي جبريل روحًا لأنه كان ينقل الأوامر، أي الرسالات، والمعلومات، أي

النبوات، ولذلك كانت الروح هي أوامر رب العالمين في الرسالات والمعلومات الموحاة في النبوات، قال تعالى «الإسراء / ٨٥»:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾.

❊ أقول:

نتذكر أن د. شحرور قسّم التنزيل الحكيم إلى:

- «الكتاب المحكم = الآيات المحكمات = الرسالة = أم الكتاب.
- «الكتاب المتشابه = الآيات المتشابهات = النبوة = القرآن.
- «الكتاب اللامحكم واللامتشابه» = تفصيل الكتاب.

والسؤال:

إذا كانت مهمة جبريل هي نقل الأوامر والنواهي «أم الكتاب»، ونقل الحقائق العلمية «القرآن»، فمن الذي نقل إلى رسول الله، عليه السلام، الكتاب اللامحكم واللامتشابه الذي هو «تفصيل الكتاب»؟!

٤ ـ ثم نتدبر ماذا قال د. شحرور «ص ١١١»:

«ويجب أخيرًا أن نعلم أن الروح هي القاسم المشترك بين الله والإنسان، وأنها سر التقدم الإنساني والرقي، وأن الإنسان فقط له روح، فعندما نفخ الله الروح في آدم، وهي **من ذاته**، أسجد الله له الملائكة، لأنه من هذه النفخة أعطاه الخلافة، أي حرية التصرف».

❊ أقول:

أ: نلاحظ أن د. شحرور عاد واستخدم صيغة التأنيث وقال «إن الروح هي القاسم المشترك».

ب: في ضوء ما بيّناه عن حقيقة «الروح» وأنه «جبريل» عليه السلام، ومع قبول أن «الروح» هو القاسم المشترك بين الله والإنسان باعتبار أن الإنسان جاء بأمر من الله لـ «جبريل»، وبآلية لا يعلمها إلا الله، فإن السؤال:

كيف يكون «الروح» من «ذات الله»، كما يدعي د. شحرور، وليس من «أمر الله»، أليست هذه هي فلسفة «وحدة الوجود»؟!

ج: عندما يتعامل المؤمن المسلم مع آيات تتعلق بفعاليات أسماء الله الحسنى في هذا الوجود، يجب أن يتعامل معها من منطلق «التنزيه المطلق» لله تعالى عما لا يليق بكمال الله وجلاله، وعن أي صفة يتصف بها المخلوق.

فعندما يقول الله تعالى «الحجر / ٢٩»:

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

فهل لله تعالى «روح» تُنفخ؟!

أم أن المقصود «نَفَخْتُ فِيهِ» عن طريق من تشرف أن ينسبه الله تعالى إليه وهو «رُوحُ الْقُدُسِ»، وهذا ما أفاده قوله تعالى «النحل / ١٠٢»:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾؟!

د: وهل هناك غير «جبريل» نزل بالتنزيل الحكيم على رسول الله محمد، وأيد الله به رسوله عيسى، عليهما السلام، فقال تعالى «المائدة / ١١٠»:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾؟!

ألم يرسل الله تعالى «جبريل» إلى مريم ليهب لها عيسى، عليهم جميعًا السلام، فقال تعالى «مريم / ١٧-١٩»:

﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾.

٥ ـ لقد اختلط على د. شحرور الفرق بين «الروح» المذكر، و«النفس» المؤنثة، وأن «النفس» هي التي تفارق الجسد عند النوم وعند الموت، وليس «الروح»، فقال الله تعالى «الزمر / ٤٢»:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ـ وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ـ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ـ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ـ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

و«النفس» تأتي في السياق القرآني بمعنين:

أ: جوهر الإنسان «المعنوي» الذي يفارق الجسد، وهو ما أشارت إليه الآية السابقة «الزمر / ٤٢»، ويشير إليه قول الله «الواقعة / ٨٣-٨٥»:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾.

ونلاحظ أن «**النفس**» هي التي «بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ»، ولذلك استخدمت تاء التأنيث، ولو كان «الروح» هو الذي يفارق الجسد لقال تعالى «فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَ الْحُلْقُومَ».

و«النفس» هي التي تحمل صحيفة أعمال الإنسان، وتتحمل مسؤوليتها كاملة يوم الحساب، لقوله تعالى «الشمس / ٧-١٠»:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

ب: ذات الإنسان «المادية»، وهي ما أشار إليه قوله تعالى «المائدة / ٤٥»:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ...﴾.

سادسًا:

يقول د. شحرور «ص ١٨٣»

«فالحق في القرآن يقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هو «الله»، يقول الله تعالى «لقمان / ٣٠»:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ ـ هُوَ ٱلْحَقُّ ـ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ـ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

والقسم الثاني: هو «الموجودات»، أي العالم المادي الموضوعي، وهو عين كلام الله «الأحقاف / ٣»:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ـ وَمَا بَيْنَهُمَآ ـ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

ثم يقول: «فالله والعالم الموضوعي كلاهما حق، وموجود خارج الوعي الإنساني»

١ ـ أقول: ماذا يعني د. شحرور بقوله: «فالله والعالم الموضوعي كلاهما حق»؟!

فنحن إذا كنا نعلم «الحق» المتعلق بـ «العالم الموضوعي» الذي تدركه الحواس خارج الوعي الإنساني، فلا نعلم شيئًا عن «الله الحق» الذي لا تدركه حواسنا في هذا «العالم الموضوعي»؟!

فيقول د. شحرور بعدها: «إن معرفة هذا الوجود الحقيقي لله، ومعرفة الموجودات التي تؤدي إلى معرفة وجود الله، خارج الوعي الإنساني، هي التي أخذت طابع التطور، فكلما تقدمت المعارف الإنسانية زادت معرفة الناس بالموجودات، وبالتالي زادت معرفتهم بالله».

٢ ـ أقول: نلاحظ كيف ألحد د. شحرور في آيات الله عندما قال:

أ: إن هناك وجودًا حقيقيًا لله خارج الوعي الإنساني، وهو يعلم أن المعارف الحقيقية الموجودة خارج الوعي الإنساني تدركها الحواس، إذن فـ «االله» تدركه الحواس خارج الوعي الإنساني.

ب: إن تقدم المعارف الإنسانية يزيد من معرفة الناس بالموجودات، وبالتالي تزداد معرفتهم بالله الموجود معها خارج الوعي الإنساني، والمفترض أن تدركه الحواس.

٣ ـ ثم تعالوا نتدبر ماذا قال د. شحرور «ص ٢٦٣»:

«لقد عبر القرآن عن الحق بمصطلحين:

المصطلح الأول: «الله»: حيث عبر عن الله بأنه «وجود موضوعي» خارج الفكر الإنساني، وليس من نتاج الفكر الإنساني، بقوله «الحج / ٦»:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لقد عبر القرآن عن الوجود الإلهي بأنه «وجود موضوعي حقيقي» خارج الوعي الإنساني، ولكن هذا الوجود ليس مثل وجود الأشياء «الشورى / ١١»:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

٤ ـ أقول:

كيف يكون وجود «الله» وجودًا موضوعيًا تدرك الحواس مع باقي الموجودات خارج الوعي الإنساني، ثم يستغفل د. شحرور عقول الناس بمجرد جملة يقولها وهي: «ولكن هذا الوجود ليس مثل وجود الأشياء «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»»؟!

إن هذا الذي يقوله د. شحرور هو ما يُسمى بـ «وحدة الوجود» وأن «الذات الإلهية» قد حلت في الموجودات، ويصبح إدراكنا للموجودات إدراكًا لـ «الذات الإلهية» الموجودة داخل هذه الموجودات.

٥ ـ ثم يستكمل د. شحرور حديثه ويقول:

«**المصطلح الثاني**: كلمات الله: التي هي عين الموجودات المخلوقة «يونس / ٨٢»:

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

*** أقول:**

أ: وهذا تأكيد من د. شحرور بأن «كلمات الله» هي عين الموجودات المخلوقة التي حل «الله» فيها، ويصبح إدراك الموجودات هو نفسه إدراك «ذات الله» التي حلت فيها.

وحتى لا يُتهم بأنه أقام قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم» على «نظرية وحدة الوجود»، استقطع جملة «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» من سياقها، وأقام عليها كلامًا مرسلًا لا وزن له في ميزان العلم، ظنًا منه أنه بذلك سيخرج من دائرة الاتهام.

ب: إن جملة «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» جاءت في سياق الآية «الشورى / ١١»:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ـ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ـ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ـ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ـ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ـ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

إن قوله تعالى «فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ» يتعلق بـ «الله الحق» الذي خلق هذا

الوجود، والذي «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، لا في ذاته ولا في فعاليات أسمائه الحسنى التي تعمل بـ «آلية الجعل»:

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾.

ج: ولذلك قال الله تعالى «الحشر / ٢٤»:

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ـ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ـ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ـ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقال تعالى «الحج / ٦»:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ـ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ـ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فنحن هنا أمام:

ـ **الله الحق**: الذي خلق كل ذرة في هذا الكون.

ـ **الموجودات الحقة**: التي خلقها الله، والتي تعمل في هذا الكون وفق آليات وفعاليات أسماء الله الحسنى.

ويقول الله تعالى «الإسراء / ١٠٥»:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ ـ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ـ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

فإن «الله الحق»، الذي «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، هو الذي أنزل هذا «التنزيل الحكيم»، كما أنزل كل «الموجودات» بأمره، قال تعالى «الأعراف / ٢٦»:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وقال تعالى «المؤمنون / ١٨»:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

وقال تعالى «الحديد / ٢٥»:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ـ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِٱلْقِسْطِ ـ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ـ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾.

إذن ففرق بين:

١ ـ «**الله الخالق**»: الذي لا يُحيط بذاته ولا بـ«علمه» ولا بـ«كلامه» ولا بـ«كلماته» إنس ولا جان، وهذا معنى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، ولذلك يستحيل أن يكون لـ «ذات الله» أي وجود موضوعي خارج الوعي الإنساني.

٢ ـ «**الموجودات**»: التي خلقها الله تعالى ولها «وجود موضوعي» بين الناس، ومنها «التنزيل الحكيم».

ولقد تعمد د. شحرور أن يضع الله تعالى داخل «العالم المادي الموضوعي» الذي تدركه الحواس «خارج الوعي الإنساني»، مع إضافة جملة «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» حتى لا يُفهم أنه من أنصار «نظرية وحدة الوجود».

ثم جاء بآيات قرآنية لإثبات «الوجود الإلهي الموضوعي»، منها ما يتعلق برؤيا يوسف يوم أن كان صغيرا «يوسف / ٤»، والتي لم يعلم تأويلها إلا بعد أن رفع أبويه على العرش، وأخرى تتعلق بفعاليات أسماء الله الحسنى بين الناس «آيات من سورة الحج».

وحاول أن ينفي عن نفسه اتباعه لـ «نظرية وحدة الوجود» بكلام مرسل فلسفي منقول من كتب «التفسير المادي للوجود، ولا وزن له بميزان أصول البحث العلمي، للتفريق بين «الثنائية» التي قام عليها الوجود الموضوعي، و«الأحادية» التي لا يتصف بها إلا «الوجود الإلهي الموضوعي»!!

٣ ـ إن «ذات الله تعالى» لا علاقة لها مطلقًا بهذا «العالم المادي الموضوعي» الذي يدركه الناس بحواسهم، والذي هو آيات الله في الآفاق والأنفس، ذلك إن السياق القرآني عندما يتحدث عن «ذات الله» يكون ذلك على سبيل «المجاز» وليس «الحقيقة»:

أ: يقول الله تعالى «البقرة / ١٨٦»:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾.

ب: ويقول الله تعالى «التوبة / ٤٠»:

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾.

ج: ويقول الله تعالى «الحديد / ٤»:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثم يقول د. شحرور: «كلمات الله هي عين الموجودات المخلوقة».

فكيف يحصر د. شحرور «كلمات الله» في «العالم المادي الموضوعي»؟!

ألم يقرأ قول الله تعالى «الكهف / ١٠٩»:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾.

وقول الله تعالى «لقمان / ٢٧»:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

ومن له دراية بعلوم اللغة العربية يعلم أن أسلوب الآيتين أسلوب «مجازي» جاء لبيان أن «كلمات الله» يستحيل حصرها ولا الوقوف على ماهيتها، ولا على فعالياتها، سواء كان ذلك في الوجود المادي أو غير المادي؟!

كما يعلم من على دراية بحقيقة الوحدانية، وبفعاليات أسماء الله الحسنى، أن الله تعالى وحده هو الذي يعلم الغيب، «الغيب» حسب وروده في السياق القرآني، وليس حسب قراءة د. شحرور المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم».

ولذلك لا يصح مطلقًا قول د. شحرور:

«ولكي يعبر عن أن الوجود المادي الكوني خارج الوعي الإنساني، الأشياء، عبارة عن حقيقة وليست تصورات، قال، «يقصد الله تعالى»، «الحجر / ٨٥»:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

ويُعقب على الآية بقوله:

«هنا بين بشكل واضح أن السماوات والأرض، وما بينهما، مخلوقات موضوعية، لها وجود خارج الوعي، وليست تصورًا، لذا استعمل الحق مع حرف الجر الباء (بالحق)، أي أنها مخلوقة بكلماته».

٤ ـ ثم من أي المصادر المعرفية جاء د. شحرور بهذه «المعلومات الغيبية»، وكيف عرف أنه توجد بين السماوات والأرض «مخلوقات موضوعية» لها وجود خارج الوعي تدركها الحواس؟!

هل عرف هذه المعلومة من وجود كلمة «خَلَقْنَا» في سياق الآية وفَهم منها وجود مخلوقات موضوعية في «السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا»؟!

يستحيل أن يفهم ذلك أي إنسان يعلم ما هو «الفراغ»، وهل يمكن أن توجد في هذا «الفراغ» أي مخلوقات موضوعية تدركها الحواس؟!

أما إذا كان د. شحرور قد اطلع على الغيب، فعلم بوجود مخلوقات موضوعية بين السماوات والأرض، فإن أصول البحث العلمي تفرض عليه أن يبدأ حديثه ببيان ما هي المخلوقات الموضوعية التي شاهدها بين السماوات والأرض، والتي أكدت أن جملة «وَمَا بَيْنَهُمَا» تعني وما بينهما من مخلوقات موضوعية.

ولكن يبدو أن د. شحرور لا يعلم أن «الفراغ في حد ذاته» شيء من الأشياء التي خلقها الله، والله تعالى يقول «الفرقان / ٢»:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

ويقول الله تعالى «الأنعام / ١٠١»:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ولذلك كان من المنطقي أن يقول الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

إن «الله تعالى» وجودًا موضوعيًا ولكن ليس بـ «ذاته» التي قال تعالى عنها «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، وإنما بـ «فعاليات أسمائه الحسنى»، لذلك لا يصح القول إن «الحق» ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: «الحق»: الذي هو «الله»، وهو «الوجود الموضوعي».

القسم الثاني: «الحق»: الذي هو «كلمات الله» وهي عين «الموجودات».

لا يصح أن يكون «الله تعالى» قسمًا من أقسام «الحق»، وأن يكون هو و«كلماته» وجودًا موضوعيًا هو «عين الموجودات».

سابعًا:

يقول د. شحرور «ص ٢٠١»: عند حديثه عن قول الله تعالى «الزمر / ٦»:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

«هذه الآية تحمل فكرة متكاملة، فالفكرة هي تاريخ خلق البشر ومراحل تطوره حتى أصبح الشكل الذي نراه عليه الآن، وهذا الموضوع لا يمكن فهمه وإخراج نظرية نشوء الإنسان على الأرض إلا من خلال الترتيل أولًا، ثم فهم كل آية على حدة لأنها تحوي حلقة كاملة في نظرية الخلق».

❊ أقول:

وهنا أعلن د. شحرور صراحة أنه يقرأ التنزيل الحكيم قراءة معاصرة على مذهب «داروين» صاحب «نظرية النشوء والارتقاء»، فيقول:

«وإخراج نظرية نشوء الإنسان على الأرض... ثم فهم كل آية على حدة لأنها تحوي حلقة كاملة في نظرية الخلق».

وهذه الحلقة تبدأ بـ «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا»: أي أن أساس الخلق أحادي دون قانون الزوجية، فعندما وجدت الحياة على الأرض وجدت خلية واحدة، تكاثرت

عن طريق الانقسام الذاتي، لا عن طريق التلاقح الزوجي، وبعد ذلك تطورت وحيدة الخلية هذه لتصبح كثيرة الخلايا مع اختلافها بالنوع لذا قال «الإنسان / ٢»:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾.

*** أقول:**

١ ـ يستدل د. شحرور بآية قرآنية تتحدث عن النفس: «خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ»، وهو يتحدث عن الخلية: «فعندما وجدت الحياة على الأرض وجدت خلية واحدة تكاثرت».

٢ ـ آلية «الجعل» في «ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» منسوبة إلى الخالق عز وجل، وآلية «تكاثر الخلية» منسوبة إلى الانقسام الذاتي، أي إلى «لا إله والحياة مادة»!!

٣ ـ ثم ما علاقة «النطفة»، التي جعلت الإنسان «سَمِيعًا بَصِيرًا»، كما قال تعالى في الجملة القرآنية التي لم يأت بها د. شحرور:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

والتي مصدرها آدم عليه السلام، والتي كانت سببا في الوجود البشري عن طريق «قانون الزوجية»، ما علاقة هذه «النطفة» بـ «الخلية» التي وجُدت من غير موجد، حسب ما قال د. شحرور وبنى الفعل للمجهول فقال «وُجِدَت خلية واحدة تكاثرت عن طريق الانقسام الذاتي»؟!

٤ ـ ولماذا لم يضع د. شحرور أمامه قول الله تعالى «النساء / ١»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾.

ليعلم الفرق بين:

أ: «آلية الخلق»: التي تكون بكلمة «كن فيكون»، بالنسبة لقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

ب: «آلية الجعل»: التي عن طريقها يحدث «الزواج» ومجيء الذرية، بالنسبة لقوله تعالى «الزمر / ٦»:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ـ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ـ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

فما علاقة خلق الله الإنسان بـ «كلمة كن» ثم مجيء ذريته بـ «قانون الزوجية»، بخلق «أي خلية» وتكاثرها وفق مشيئة الله تعالى؟!

٥ ـ وبناء على قاعدة «ما بُنِي على باطل فهو باطل»، يسقط كل ما ذكره د. شحرور بعد ذلك عن مراحل الخلق الثلاث، ومحاولته أسلمة «نظرية داروين» بدعوى أن عطف قول الله تعالى:

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

على قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

قد أفاد أن أصل الإنسان من فصيلة الحيوانات، وهذا ما ذكره «ص ٢٠٢» فقال:

«فإذا أردنا أن نبحث عن بداية ظهور البشر نوعًا مميزًا على سلم التطور والنشوء، فعلينا أن نبحث في مرحلة ظهور الأنعام على نفس السلم، حيث كانت غذاء له حتى وهو في مرحلته الحيوانية».

٦ ـ إن فعل «يَخْلُقُكُمْ» في قوله تعالى:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

فعل مضارع دال على الحال والاستقبال والحركة المتجددة، يحقق نفس الهدف من الفعل الماضي «خَلَقَكُمْ» في قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

ذلك أن الضمير في «يَخْلُقُكُمْ» وفي «خَلَقَكُمْ» يعود على الوجود البشري، لبيان سنة الخلق المتكررة دومًا إلى قيام الساعة، وليس لبيان المراحل الثلاث لنظرية النشوء والارتقاء الداروينية.

٧ ـ وحسب علم السياق، فإن الآية التي جاء بها د. شحرور وقال إنها تحمل فكرة متكاملة عن تاريخ خلق البشر ومراحل تطوره، وهي «الزمر / ٦»:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ـ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ ـ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ـ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ـ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ـ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

يجب أن تُفهم في إطار مجموعة الآيات التي تحدثت عن مراحل خلق الجنين في بطن أمه، وهي منظومة من آيات الأنفس التي نزلت لبيان دلائل «الوحدانية» وفعاليات «أسماء الله الحسنى» في هذا الوجود.

ولذلك فإن من الخطأ الكبير تفسير معنى «فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ» بمعزل عن فعاليات أسماء الله الحسنى وقول الله تعالى «آل عمران / ٥»:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾.

وقوله تعالى بعدها «آل عمران / ٦»:

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

تمامًا كما نريد أن نفهم الظلمات التي وردت في سياق بيان أعمال الكافرين، في قوله تعالى «النور / ٤٠»:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ـ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ـ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ـ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

٨ ـ إن قول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾.

تُكتب فيه المجلدات، ويكفي أن أقول في هذا السياق كلمة عن مسألة «خلق الإنسان» التي يعلمها الناس جميعًا من خلال عالم الشهادة الذي يعيشون فيه، وليس من خلال عالم الغيب الذي يعيش فيه «داروين» و«د. شحرور»:

إنه لولا «الحلقة المفقودة» في نظرية داروين «النشوء والارتقاء» لتحولت هذه النظرية من نظرية «فلسفية جدلية» في الكتب، إلى نظرية «علمية معتبرة» في أرض الواقع.

واللافت للنظر والغريب حقًا، أن د. شحرور يعلم تهافت وسقوط «نظرية داروين» على أرض الواقع بسبب هذه الحلقة المفقودة، ومع ذلك جعلها قاعدة أقام عليها قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم في الوقت الذي يقول فيه «ص ٢٠٣»:

«وفي حال المطابقة الجزئية، مثل آيات خلق البشر، فقد تم تأويلها في هيكلها العام من قبل العالم الكبير «تشارلز داروين»، لكن هذه النظرية غير كاملة لاشتمالها على «حلقة مفقودة»، ففي هذه الحالة يتم التأويل بتصحيح النظرية إن كان فيها أخطاء وإتمامها إن كان فيها نواقص».

أ: لقد احتوى التنزيل الحكيم على آيات الآفاق والأنفس للفت نظر الناس إلى دلائل الوحدانية في هذا الوجود وفعاليات أسماء الله الحسنى، وهذا ما جاءت خاتمة الآية «الزمر / ٦» لبيانه:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ـ ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

ب: إن السياق القرآني هو الحاكم على معاجم اللغة العربية، ولذلك لا يصح الوقوف عند كلمات التنزيل الحكيم وبحثها لغويًا بمعزل عن علم السياق، فنتعامل مع جملة «فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ» في إطار مجموع الآيات التي تتحدث عن آية خلق الجنين في بطن أمه داخل منظومة من العوازل المظلمة التي تحميه من كل ما يمكن أن يؤذيه، ومن هذه الآيات قول الله تعالى «المؤمنون / ١٢-١٤»:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ـ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ـ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ـ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ـ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ـ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٤)﴾.

٩ ـ عندما اعتمد د. شحرور على «نظرية داروين» و«الفلسفة المادية للوجود» كان ذلك وهو يعلم أن كل هذه النظريات الفلسفية لم تصح على أرض الواقع وتهافتت، ولذلك نراها «يمسك العصا من المنتصف» ويقول، على سبيل المثال، عن «نظرية داروين»: «لكن هذه النظرية غير كاملة لاشتمالها على حلقة مفقودة، ففي هذه الحالة يتم التأويل بتصحيح النظرية، إن كان فيها أخطاء، وإتمامها إن كان فيها نواقص».

وهذه «المنهجية العشوائية» التي يتبعها د. شحرور إن صحت في مجال العلوم الفلسفية، لا تصح مطلقًا عند التعامل مع «التنزيل الحكيم» الذي يقوم على «منهجية علمية» مستنبطة من آياته، فإذا حدث خطأ في التطبيق يكون ذلك من القائمين عليه، وليس من ذات المنهجية القائمة على قواعد راسخة من آيات الذكر الحكيم.

ومثال ذلك «المنهجية العلمية» التي أقمت عليها توجهي الديني «نحو إسلام الرسول» والتي تحمل أدوات مستنبطة من ذات التنزيل الحكيم، وليس من خارجه، وهي الأدوات الخمس التي أنقض بها في كتابي هذا قراءة د. شحرور المعاصرة.

فتعالوا نرى الفرق بين منهجية د. شحرور العشوائية، ومنهجية «نحو إسلام الرسول»، في تأويل د. شحرور لسورة القدر، فيقول «ص ٢٠٦»:

«في ضوء ما تقدم سنطرح تأويلًا لسورة القدر «القدر / ١ ـ ٥»:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

لقد قلنا: إن الإنزال هو دخول الشيء في عالم المدركات، وهذا إما أن يكون له وجود مسبق غير مدرك فتغير في صيرورته فأصبح مدركًا، وفي هذه الحالة ينطبق عليه فعل الإنزال والجعل معًا، وهذا ما حصل للقرآن دفعة واحدة في ليلة القدر، حيث غير في صيرورته بشكل أصبح قابلًا للإدراك، وفي هذا نقول:

إن الإنزال والجعل تلازما في القرآن حيث إن القرآن مخزن في لوح محفوظ وإمام مبين، وهذه الصيغة القابلة للإدراك الإنساني هي الصيغة اللسانية العربية حيث أنها في لفظها الصوتي هي الذكر وفي محتواها المعرفي هي القرآن ولذا قال عن الذكر إنه محدث».

١٠ ـ بصرف النظر عن هذه «المنهجية العشوائية» وهذا «الكلام الفلسفي المرسل»، فهناك منهج متبع ألزم د. شحرور به نفسه عند التعامل مع التنزيل الحكيم، ويجب عليه احترامه وتطبيقه، وهو المنهج اللغوي القائم على «مقاييس اللغة لابن فارس»، والذي كان يجب أن يرجع إليه عند حديثه عن «سورة القدر».

أ: لا توجد كلمة واحدة في «التنزيل الحكيم» نزلت على قوم رسول الله محمد إلا وكانوا يعلمون معناها من قبل نزولها، هذا المعنى الذي حفظه الله في مراجع اللغة العربية بين الناس إلى يوم الدين، وإلا ما كانت للآية التالية «الحجر / ٩» أي فعالية:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾؟!

ب: لقد خاطب الله تعالى قوم النبي محمد، عليه السلام، بلسانهم العربي، لأنه سبحانه القائل «إبراهيم / ٤»:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

والسؤال:

هل عندما نزلت الآيات على قوم النبي فهموا معنى كلماتها، أم كانوا ينتظرون ظهور د. شحرور ليُبيّن لهم معناها؟!

ـ فعندما نزل قول الله تعالى «الفرقان / ٤٧»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

هل كان قوم النبي، عليه السلام، يعلمون معنى كلمة «اللَّيْلَ» من قبل نزول القرآن، أم سألوا النبي عن معناها؟!

ـ وعندما نزل قول الله «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»، هل كان قوم النبي يعلمون معنى «ليلة القدر»، أم سألوا النبي عن معناها؟!

ـ وهل كانوا يعلمون أن الضمير في «أَنزَلْنَاهُ» يعود إلى التنزيل الحكيم كله، أم يعود فقط إلى «الآيات المتشابهات» التي يتبعها الذين في قلوبهم زيغ، والتي تمثل «القرآن» و«النبوة»؟!

١١ ـ وهل كان قوم النبي محمد، عليه السلام، وهم سكان الجزيرة العربية، يعلمون أن كلمة «الفجر» في قوله تعالى:

﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾.

تعني «الانفجار الكوني» وعليه يكون هذا «السلام» قد انتهى بـ «مَطْلَعِ الْفَجْرِ»، كما يدعي د. شحرور فيقول «ص ٢٣٤»:

«فالخلق الأول بدأ بانفجار كوني هائل حيث قال «الفجر / ١-٣»:

﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ ﴾.

حيث إن «الْفَجْر» هو الانفجار الكوني الأول، «وَلَيَالٍ عَشْرٍ» معناه أن المادة مرت بعشر مراحل للتطور حتى أصبحت شفافة للضوء، لذا أتبعها قوله «وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ» حيث إن أول عنصر تكون في هذا الوجود وهو الهيدروجين وفيه الشفع في النواة والوتر في المدار».

أ: وعليه كيف فهم قوم النبي، أهل اللسان العربي، معنى «الفجر» الذي جاء في سياق «الآيات المحكمات»، أي الآيات التي حملت أحكاما كما يدعي د. شحرور، كقول الله تعالى في سياق بيان آداب الاستئذان «النور / ٥٨»:

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾؟!

وكيف فهم قوم النبي، أهل اللسان العربي، قول الله تعالى «البقرة / ١٨٧»:

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾؟!

وهل كان تعهد الله تعالى بحفظ «الذكر» يشمل حفظ معاني كلمات القرآن ودلالاتها في معاجم اللغة العربية إلى يوم الدين، أم ترك حفظها لغير أهلها فألحدوا فيها؟!

ب: ومثال آخر على الإلحاد في آيات الله ودلالات كلماتها، يقول د. شحرور «ص ٢٠٦»:

«لنأخذ أولًا مفهوم القدر حيث جاءت في اللسان العربي من قدر وهي تدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، يقال قدره كذا، أي نهايته. (مقاييس اللغة مادة قدر).

وبما أن محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء، والقرآن هو خاتم النبوات، وفي عهد النبي ﷺ وصل اللسان العربي إلى مرحلة اللسان العربي المبين، فوصل إنزال القرآن إلى مبلغه وغايته.

ثم لنأخذ الآن مفهوم ليلة فهل هي الليل؟!

فإذا كانت ليلة القدر تعني الليل، فالسؤال في أي ليل هو؟!

هل هو ليل مكة أم ليل لوس أنجلوس وكلاهما على الكرة الأرضية، حيث يوجد في الكرة الأرضية بشكل مستمر ليل ونهار معًا وعلى هذا لا يستقيم المعنى؟!

إما إذا فهمنا الليل على أنه الظلام كقوله تعالى «الأنعام / ١»:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وقوله تعالى «الفجر / ١-٢»:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

فهذا يعني أن اللوح المحفوظ والإمام المبين لا يخضعان لمفهوم الليل والنهار ولكن بما أن الظلام في الوجود سبق النور حيث إنه بعد الانفجار الكوني الأول مرت المادة بعدة مراحل للتطور حتى أصبحت شفافة للضوء وظهر النور.

هذا الإنزال حصل في وقت يقابله عندنا في الأرض شهر رمضان، ولكن رمضان من أية سنة؟! لا ندري».

١٢ـ إن هذا الذي قاله د. شحرور هو خير مثال على «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي لم تولد إلا لهدم أصول الأديان وقواعدها.

فإذا ذهبنا إلى «ابن فارس» للوقوف على معنى كلمة «الليل» وكلمة «القدر»، نجده أورد أكثر من معنى، وكان يجب على د. شحرور أن يختار المعنى الذي يوافق السياق، ولكنه اختار الذي يوافق هواه.

يقول «ابن فارس»: «باب اللام والياء واللام «كلمة»: «ليل»: خلاف النهار، يقال «ليلة وليلات».

وإذا بحثنا عن كلمة «القدر» نجده يقول: «باب القاف والدال وما يثلثهما «قدر»: «القاف والدال والراء، أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته... والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها»

والسؤال:

أ: لماذا لم يختر د. شحرور المعنى الذي أجمعت عليه مراجع اللغة العربية، ومنها «مقاييس اللغة» ليصبح معنى الآية:

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ: التنزيل الحكيم.

فِي لَيْلَةِ: خلاف النهار.

الْقَدْرِ: «حيث يُقدّر الله من القضاء ما يشاء»؟!

ب: ثم متى كان فهم كلمات التنزيل الحكيم يقوم على مراجع اللغة العربية بمعزل عن «علم السياق» و«منظومة التواصل المعرفي»؟!

إن هذه «المنهجية العشوائية الهرمنيوطيقية» هي التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، وهي التي دفعته إلى مزيد من الإلحاد في آيات الله وأحكامها، فنراه يقول «ص ٢٠٥»:

«ليلة القدر: مصطلح يعني صدور أمر رب العالمين بإشهار القرآن بلسان عربي مبين، أي تم إنزال القرآن وجعله عربيًا، ففي هذا انتقل إلى صيغة قابلة للإدراك الإنساني، أي أنه لم يعد سرًا بل تم اشهاره، لذا قال:

«لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ»

ثم نتدبر ماذا قال د. شحرور بعد ذلك:

«وهنا شَهْر لا تعني الشهر الزمني، كأن نقول ألف شهر، ٨٣ سنة وثلث، أما إذا فهمناها على أنها من الشهرة والإشهار فيتطابق المعنى مع مفهوم الإنزال والجعل».

ثم وجد د. شحرور مشكلة في كلمة «أَلْفِ»، فألحد فيها أيضًا وقال:

«وهنا كلمة أَلْف: إما أن تعني أن اشهار القرآن خير من ألف إشهار آخر، حيث قال في سورة الدخان إنه في ليلة القدر تصدر أوامر كثيرة، وليس فقط أمر إشهار القرآن...

أو تعني تأليف الأشياء بعضها مع بعض... فنفهم أَلْفِ شَهْرٍ على أنه إذا جمعت كل الأوامر الأخرى الصادرة من رب العالمين وتألفت بعضها مع بعض، فإن أمر إشهار القرآن خير منها جميعًا، وأنا أميل إلى هذا المعنى».

١٣ ـ إن «شهر رمضان» الذي أنزل الله فيه القرآن شهر محدد، عرفه قوم رسول الله محمد من قبل نزول الآيات التي تأمر المسلمين بصيامه، ومن قبل أن يعلموا أحكامه، ولقد ظل هذا الشهر معروفًا على مر العصور عبر «منظومة التواصل المعرفي» إلى يومنا هذا. فما علاقة الآية التي حملت الأمر بوجوب صوم «شهر رمضان»، وهي قوله تعالى «البقرة / ١٨٥»:

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾.

بمسألة «الشُهْرَة» و«الإِشْهَار»، وأن الله تعالى وضع ليلة القدر بمثابة موسم لإصدار الأوامر، كالعفو؟!

يقول «ابن فارس»، المعجم اللغوي الأساس عند د. شحرور:

أ: عن معنى كلمة «شَهْر»: «شهر: الشين والهاء والراء أصل صحيح يدل على وضوح في الأمر وإضاءة، من ذلك «الشَّهر»، وهو في كلام العرب «الهلال»، ثم سمّي كلُّ ثلاثين يومًا باسم الهلال، فقيل شهر».

ب: عن «الشُهْرَة والإِشْهَار»: «والشُّهرة: وضوح الأمر... وقد شُهِر فلانٌ في الناس بكذا، فهو مشهور، وقد شَهَرُوه».

فماذا أقول في د. شحرور الذي وعد القارئ بأن يحترم عقله، كما ذكر في مقدمة كتابه، ثم إذا بصفحات كتابه لا تخلو من استغفال عقول الناس بقراءات إلحادية للتنزيل الحكيم، ووجه الاستغفال فيها أنها حملت آلاف الآيات واجهة توحي للقارئ أنها حقًّا قراءة للتنزيل الحكيم.

ثامنًا:

وفيما يلي يعرض د. شحرور أصول «الفلسفة المادية للوجود» التي أقام عليها قراءته المعاصرة في ثوبها الإسلامي المسمى «جدل الكون والإنسان»، استنادا إلى آيات التنزيل الحكيم، وتحديدا إلى «الآيات المتشابهات» التي أطلق عليها اسم «النبوة ـ القرآن».

١ ـ يقول د. شحرور «٢١٩»:

«يقوم الجدل على ثنائية، والثنائية أنواع:

أ: ثنائية تلازمية في الشيء المادي الواحد، وهو جدل هلاك شكل الشيء باستمرار.

ب: ثنائية تقابلية بين شيئين ماديين يتواجدان معًا في علاقة ما، وهو جدل تلاؤم الزوجين.

ج: ثنائية تعاقبية بين ظاهرتين لا تلتقيان أبدًا، وهذا هو جدل تعاقب الضدين.

د: ثنائية تلازمية بين نقيضين غير ماديين يتواجدان معًا في الدماغ الإنساني، ويقع تحت هذا الباب جدل الفكر الإنساني، وجدل النفس الإنسانية.

ويتعلق هذا الباب بالمواضيع الرئيسة لـ «النبوة - القرآن»، وهي الوجود الكوني ومشكلة المعرفة الإنسانية».

*** أقول:**

لقد كان الفيلسوف الألماني «هيجل» يؤمن أن للكون خالقًا، وأن الخالق جعل ذرات الكون تتحرك حركة ارتقائية إلى أن يفنى، قائمة على ما يُسمى بـ «الديالكتيك»، أي على «صراع المتناقضات والأضداد».

وجاء «كارل ماركس» واتبع «هيجل» في فلسفته دون الإيمان بوجود خالق لهذا الكون، وادعى أن الكون ما هو إلا مادة أزلية متطورة تطورًا ذاتيًا تلقائيًا يخضع لـ «الديالكتيك».

ثم جاء د. شحرور وسار على فلسفة «كارل ماركس» ونظرته المادية للوجود، وأقام عليها قراءته المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»، ودوّنها في كتابه «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة»، وأعلنها بكل صراحة في الباب الثاني «جدل الكون والإنسان».

والفرق بين «هيجل» و«ماركس» و«شحرور» أن الأخير يعلن إيمانه بالله ورسوله واليوم الآخر، وبـ «التنزيل الحكيم» الذي أراد قراءته قراءة معاصرة على مذهب «كارل ماركس» فخرجت بلا لون ولا رائحة، والسبب:

أن الترجمة العربية لمصطلحات «الفلسفة المادية للوجود» يصعب جدًّا على القارئ العربي فهمها، وأظن أن د. شحرور نفسه لو لم يكن قد اطلع على المراجع الأجنبية المتعلقة بهذا الموضوع، وقرأ هذا الباب «جدل الكون والإنسان» في أي كتاب، فلن يفهم منه شيئًا.

٢ ـ يقول د. شحرور «ص ٢٢٣» تحت عنوان: «الثنائية التلازمية: الجدل الداخلي في الشيء الواحد: جدل هلاك الشيء»:

إن صراع العنصرين المتناقضين داخليًا، الموجودين في كل شيء يؤدي إلى تغير

شكل كل شيء باستمرار، ويتجلى في هلاك شكل ذلك الشيء وظهور شكل آخر، وفي هذا الصراع يكمن السر في التطور والتغير المستمرين في هذا الكون ما دام قائمًا».

❊ أقول:

تعالوا نرى كيف سيقوم د. شحرور بإسقاط هذه الفلسفة المادية على آيات التنزيل الحكيم بدعوى القراءة المعاصرة، فخرجت بلا لون ولا رائحة، فيقول:

«هذا هو ما يسمى بالحركة الجدلية الداخلية التي أطلق عليها في بعض الترجمات مصطلح النفي ونفي النفي، وقد أطلق عليها القرآن مصطلح التسبيح «الإسراء/ ٤٤»:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وقوله تعالى «الحشر/ ١، الصف/ ١»:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وقوله تعالى «الجمعة/ ١، التغابن/ ١»:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

والتسبيح جاءت من «سبح» وهو الحركة المستمرة «كالعوم في الماء»، كقوله عن حركة كل شيء «الأنبياء/ ٣٣»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾.

هذا الصراع يؤدي إلى التغير في الأشياء، وينتج عنه مقولة أن الموت حق، والله حي باق.

وهكذا نفهم معنى الآية «القصص/ ٨٨»:

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

وسيبقى هذا القانون سائدًا حتى يهلك هذا الكون المادي عند النفخة الأولى في

الصور = الساعة»، لينشأ على أنقاضه كون آخر جديد مؤلف من مادة ذات خصائص جديدة «عند النفخة الثانية في الصور التي تؤدي إلى البعث».

وفي ضوء ذلك تتضح مقولة «البعث حق».

وقولنا «سبحان الله» في صلاتنا هو إقرار العاقل بهذا القانون، حيث ورد التسبيح في القرآن في حالتين:

ـ حالة تسبيح الوجود.

ـ وحالة تسبيح العاقل: أي حالة إقرار العاقل بقانون التطور.

٣ ـ إن د. شحرور يرى أن العاقل هو الذي يُقر بـ «قانون التطور»، أي بـ «قانون داروين» الذي يقول إن أصل الإنسان فصيلة حيوانية، والذي يؤمن بأن معنى «التسبيح» في السياق القرآني هو: «الحركة الجدلية الداخلية ـ النفي ونفي النفي ـ الثنائية التلازمية ـ الجدل الداخلي في الشيء الواحد ـ صراع المتناقضات».

هذا الكلام المترجم الذي لا محل له من الإعراب:

أ: في الحقيقة أنا لا أعلم كيف يحدث «صراع المتناقضات» والمنطق السليم يقول باستحالة اجتماع النقيضين أصلًا، إذ لو أمكن اجتماع النقيضين لأمكن اجتماع النفي والاثبات، والكذب والصدق، أي أن تكون القضية كاذبة وصادقة في نفس الوقت.

ب: ثم يأتي د. شحرور كعادته بالآيات القرآنية التي يرى أنها تؤيد مفهومه لـ «التسبيح»، وتعالوا نتدبر ماذا قال بعدها ليتناغم قوله مع «نسبية الأخلاق وتغيرها» التي تقول بها «الفلسفة المادية الماركسية»، فيقول:

«أما القول بأن سبحان الله هو تنزيه الله من النقائص والعيوب فهو قول قد مضى زمانه، حيث إن النقائص والعيوب تحمل معنى معرفيًا ومعنى اجتماعيًا إنسانيًا، فهي تحمل مفهوم النسبية حيث تتغير هذه المفاهيم من مكان لآخر ومن زمن لآخر».

٤ ـ ويقول د. شحرور «ص ٢٢٦»:

أ: «لقد عبر القرآن بشكل مباشر عن قانون صراع المتناقضات الداخلي في قوله «الأنعام / ٩٥»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

وفعل فلق في اللسان العربي أصل صحيح يدل على فرجة وبينونة في الشيء، وعلى تعظيم شيء، والفلق هو الخلق كله، كأنه شيء فلق عنه شيء آخر حتى أُبرز وأُظهر.

وفي الآية جاءت فالق بمعنى شيء أبرز وأظهر منه شيء آخر، ومعنى الفلق قريب من معنى الخلق لأنهما يشتركان في حرفين ويتميزان بحرف واحد».

❊ أقول:

لماذا لم يذكر د. شحرور ما ورد في «مقاييس اللغة» بعد جملة «وعلى تعظيم شيء»، وقبل جملة «والفلق هو الخلق كله»، حيث قال «ابن فارس»: «ومن ذلك: فَلَقْتُ الشيء، أفلقه فلقًا، والفلق: الصبح، لأن الظلام ينفلق عنه... ثم قال والفلق: الخلق كله...»

فما الفرق إذن:

ـ بين قول الله تعالى «الأنعام/ ٩٦»:

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾.

وقد قال ابن فارس: والفلق: الصبح، لأن الظلام ينفلق عنه.

ـ وقول الله تعالى «الأنعام/ ٩٥»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾.

ـ وبين قول د. شحرور:

وفي الآية جاءت «فالق» بمعنى شيء أبرز وأظهر منه شيء آخر، ومعنى «الفلق» قريب من معنى «الخلق» لأنهما يشتركان في حرفين ويتميزان بحرف واحد؟!

❊ أقول:

إن مسألة اشتراك الكلمات في الحروف، ليست قاصرة على خلَقَ وفلَقَ، فهي موجودة في كلمات كثيرة، ولكن القضية:

كيف نقرأ التنزيل الحكيم قراءة معاصرة استنادا إلى المعاجم اللغوية بمعزل عن السياق القرآني، والوقوف على المقاصد العليا للآيات، وفي مقدمتها بيان دلائل الوحدانية وفعاليات أسماء الله الحسنى في هذا الوجود؟!

ب: ويستمر د. شحرور في إسقاط قوانين «الفلسفة المادية للوجود» على آيات التنزيل الحكيم، متبعا المنهجية الانتقائية عند تعامله مع المعاجم اللغوية، واختيار المعاني التي توافق هواه بمعزل عن سياقها القرآني، بهدف إثبات أن نظرية داروين «النشوء والارتقاء» تباركها آيات التنزيل الحكيم، ولذلك نجده يقول «ص ٢٢٧»:

«ومن هنا نفهم أن الكائنات الحية قد ظهر بعضها من بعض، وخضعت لقانون التطور والارتقاء».

ويقول «ص ٢٢٩»:

«وهكذا نرى أن المتناقضات الداخلية المذكورة في الآيات السابقة هي السر الكامن وراء التطور في الكائنات الحية النباتية والحيوانية منذ بداية الحياة على الأرض، وهكذا أيضًا نفهم قوله تعالى «نوح / ١٣-١٤»:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

وطبعا يريد د. شحرور أن يقول، إن قوله تعالى «وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا» يعني خلقكم وفق نظرية «النشوء والارتقاء».

٥ ـ ويُبيّن د. شحرور مفهومه لـ «نظرية المعرفة الإنسانية» فيقول «ص ٢٥٢»: «هي فك الالتباس بين الحقيقة الموضوعية والوهم، (الحق الباطل)، وذلك بإدراك العالم الموضوعي الرحماني، (الحقيقة)، على ما هو عليه، حيث إن وجود الأشياء خارج الوعي هو عين حقيقتها.

فالمعرفة الإنسانية تبدأ بالمشخص الجزئي وتنتهي بالمجرد العقلي والذي يسمى بالقوننة، (الكلي)، وهي التي مكنت الإنسان من تسخير الأشياء لمصلحته، فهي عملية انتقال مستمر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

*** أقول:**

نفهم من كلام د. شحرور:

أ: أن الحقيقة الموضوعية: هي الأشياء المادية التي تدركها الحواس، الموجودة خارج وعي الإنسان.

ب: وعي الإنسان الحق: هو إدراك ذهن الإنسان الأشياء المادية الموجودة خارجه.

ج: وعي الإنسان الباطل «الوهم»: أن يتصور ذهن الإنسان أشياءً ليس لها وجود مادي خارجه.

والسؤال:

إذا آمن شخص بـ «الله»، والله تعالى ليس له وجود مادي تدركه الحواس، فهل يعتبر إيمانه هذا باطلًا ووهمًا لأنه قام على تصور شيء ليس له وجود مادي، وبناء عليه يكون إيمان د. شحرور بالله واليوم الآخر والحساب والجنة والنار... باطلًا؟!

وماذا عن قول الله تعالى «البقرة/ ١-٣»:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

وتعتبر هذه الآية القاعدة التي أقام عليها د. شحرور بدعة التفريق بين «الكتاب» و«القرآن»، واللافت للنظر أن أول صفة من صفات المتقين المهتدين بهدي التنزيل الحكيم هي «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ».

و«**الإيمان بالغيب**» لا علاقة له بالعالم المادي والوجود الموضوعي، ومثال ذلك الإيمان «بِاللّهِ ـ وَمَلآئِكَتِهِ ـ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»، فما موقف المعرفة الإنسانية من أصول الإيمان التي يؤمن بها المسلمون؟!

يجيب د. شحرور ويقول:

«إن الصور الموجودة في الأذهان يجب أن تكون مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان «خارج الوعي» حيث إنه ليس من الضروري أن تكون الصور الموجودة في

الأذهان مطابقة للأشياء الموجودة في الأعيان، وهنا يكمن الالتباس الأساسي بين الحق والباطل أي بين التصديق والتصور، أي يجب أن تكون التصورات والتصديقات متطابقة:

فإذا كان لدينا تصور ما عن الحياة، ونظرنا إلى الحياة فوجدناها غير ذلك، فما علينا إلا أن نعدل هذه التصورات لكي نجعلها مطابقة للتصديقات، وإن مصداقية هذه المطابقة هي في مقدار طواعية هذه الموجودات لإرادة الإنسان، وبتعبير آخر هي في مقدار استجابة هذه الموجودات لتكون مُسَخّرة له».

❋ أقول:

يرى د. شحرور أن:

أ: «التصور»: يتعلق بصور الأشياء الموجودة في الأذهان.

ب: «التصديق»: يتعلق بوجود هذه الأشياء في الأعيان.

ج: «موضوعية المعرفة الإنسانية»: لا تتحقق إلا إذا كانت التصورات والتصديقات متطابقة.

وهذا الكلام غير دقيق علميًا: **فـ «التصور»**: إدراك الشيء إدراكًا خاليًا من الحكم عليه، إثباتًا أو نفيًا، ولذلك لا يصاحبه الإذعان واليقين.

و«التصديق»: إدراك الشيء إدراكًا قائما على البراهين المثبتة لوجوده، والتي على أساسها يكون الإذعان واليقين والإيمان به.

إذن فـ «التصديق» يجب أن يقوم على «براهين علمية» مثبتة لحقيقة المعرفة، وليس على مجرد تصور وجودها:

إن المسلمين يؤمنون بوجود «الله»، ولا يوجد عندهم تصور ذهني لـ «ذات الله» يُطابق وجوده على أرض الواقع، فهل معنى هذا أن يكفروا بـ «الله» لعدم مطابقة التصورات والتصديقات؟!

لقد آمن المسلمون بوجود «الله» بناء على دلائل الوحدانية التي تحمل «البراهين العلمية» المثبتة لوجود «الله»، من غير تصور لـ «ذات الله» ولا تصديق لتصور غير موجود أصلًا.

٦ ـ لقد فرضت «الفلسفة المادية للوجود» على د. شحرور أن يقرأ التنزيل الحكيم قراءة معاصرة على مذهبها الذي يرى «الحق» فيما له وجود مادي موضوعي تدركه الحواس، وما عدا ذلك فباطل.

أ: وهذا ما دفع د. شحرور أن يقول «ص ١٠٦»:

«علمًا بأن آيات خلق آدم كلها قرآن، فهي من الآيات المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل، وخير من أول آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير تشارلز داروين».

ب: وأن يقول «ص ١٩٣» عن «الراسخين في العلم»: «أي الراسخون في العلم يعلمون ما هي النظريات والحقائق العلمية التي يمكن استنتاجها من الآية القرآنية، كل حسب اختصاصه وحسب الأرضية المعرفية لعصره، وحيث يمكن استنتاج نظريات علمية جديدة تعتبر قفزات هائلة في المعرفة الإنسانية مثل نظرية النشوء والارتقاء لداروين لأنها تعد نموذجًا حيًا ممتازًا للتأويل».

ج: وأن يقول «ص ٢٥٢» في سياق بيان «نظرية المعرفة القرآنية»:

«إن هذا الفهم المادي لنظرية المعرفة القرآنية يرد على أوهام ذوي الفهم المثالي للقرآن، الذين يرفضون نظرية التطور والارتقاء، ويسخرون من نظرية داروين، بزعم أنها غير علمية، وحجتهم في ذلك قائمة على التساؤل التالي: «لماذا تطور الإنسان من القرد، وبقي القرد قردًا»؟!

وجوابنا هو: أن الله تعالى نفخ الروح في البشر، وهو فصيلة من المملكة الحيوانية، فأدى ذلك إلى أنسنته وارتقائه عن عالم المملكة الحيوانية، ولو أنه نفخ الروح في فصائل أخرى لارتقت أيضًا».

ثم تعالوا نرى ماذا قال د. شحرور بعد ذلك ليوافق العلماء الذين أثبتوا تهافت نظرية داروين «النشوء والارتقاء» بسبب سقوط حلقة من سلسلة تطور «البشر» إلى «إنسان»، فقال:

«إن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة في نظرية داروين حول الأنسنة».

إذن فمن أي المصادر المعرفية عرف د. شحرور أن «الإنسان» جاء نتيجة تطور «البشر»، والحلقة التي تثبت هذا التطور وهي «نفخ الروح» مفقودة؟!

٧ ـ يقول د. شحرور «ص ٢٥٥»: «وبما أن القرآن يشرح قوانين هذا الكون والكون الذي يليه فهو رحماني لذا قال «الرحمن / ١-٢»:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

والقوانين الرحمانية «قوانين الجدل» الخلق ووحدة وصراع المتناقضات في الشيء الواحد:

ـ وجدل الأزواج في الأشياء عبارة عن قوانين مخزنة في اللوح المحفوظ الذي يشتمل على القوانين العامة الناظمة لهذا الكون.

ـ وجدل الأضداد في ظواهر الطبيعة عبارة عن قوانين جزئية متغيرة «ثابت ومتحول» مخزنة في «الإمام المبين» الذي يحتوي على قوانين التصرف في ظواهر الطبيعة وكذلك السلوك الإنساني بعد حدوثه مخزنٌ في «الإمام المبين».

والسؤال:

من أين جاء د. شحرور بهذه المعلومات الغيبية؟!

ويقول: «ومن خلال القوانين الرحمانية، والتي تعتبر قوانين الجدل (قانون التطور وتغير الصيرورة وقانون الزوجية ـ التكيف) من أساسياتها، ولد هذا الكون وتشيأ أي أصبح أشياء متميزة بعضها عن بعض، وفي هذا الكون لا يوجد شيء اسمه فراغ بدون مادة أي أن ما نقول عنه الآن الفراغ الكوني هو فراغ مادي رحماني لذا قال «السجدة/ ٤»:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي أن الفراغ هو شكل من أشكال المادة».

*** أقول:**

أ: إذا كانت «المادة»، التي بين «السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ»، تحوي «ذرات» إذن لم تعد فراغًا، فكيف فهم د. شحرور من كلمة «بَيْنَهُمَا»، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أنها «فراغ مادي رحماني»؟!

والجواب هو ما قاله «ص ٤٣»:

«لا يعترف العلم ـ بوجود عالم غير مادي ـ يعجز العقل عن إدراكه».

وعليه، كان لابد أن يلحد د. شحرور في جملة «وَمَا بَيْنَهُمَا» لتوافق «الفلسفة المادية للوجود» التي تُعرّف «الحق» بأنه الوجود الموضوعي المادي خارج الوعي الإنساني:

ب: إن د. شحرور عندما عرّف «موضوعية المعرفة الإنسانية»، واشترط إدراك الحواس للوجود المادي خارج الوعي الإنساني، لم يستثن من ذلك «أصول الإيمان» المتعلقة بـ «عالم الغيب».

ج: هل الحواس «السمع والبصر والفؤاد...» تعتبر من عناصر المعرفة الإنسانية، كما يدعي د. شحرور، أم هي آليات الوصول إلى المعرفة؟!

د: وهل عندما قال د. شحرور «ص ١٠٨»:

«لا بدّ من الإشارة إلى أننا نرى أن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان».

هل يعقل أن يقول «ص ١٩٢»:

«إن نظرية النشوء والارتقاء لداروين تعد نموذجًا حيًا ممتازًا للتأويل»؟!

ألا يُعتبر اعتراف العلماء بوجود حلقة مفقودة في نشأة «آدم» برهانًا على سقوط «موضوعية المعرفة الإنسانية» التي أقام عليها د. شحرور إيمانه بأن «آدم» جاء من «فصيلة حيوانية»، ويهدم كل ما كتبه عن «فلسفة التأويل»؟!

٨ ـ حتى «الْغَيْب»، الذي لا يصح إسلام المرء إلا بالإيمان به، قال تعالى «البقرة/ ١ –٣»:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

فقد ألحد د. شحرور في عشرات الآيات ليثبت أن «الْغَيْب» شيء مادي في الوجود الموضوعي إن غاب عنهم اليوم سيشاهدونه غدا:

أ: يقول د. شحرور «ص ٢٦٨»:

«والآن يمكن لنا أن نُعرّف الغيب كالتالي:

الغيب: هو وجود لأشياء مادية أو أحداث طبيعية أو إنسانية غابت عن المعرفة الإنسانية الحضورية أو العقلية غيابًا جزئيًا أو كليًا».

ثم قال: «فالغيب الكلي والجزئي متحرك دائمًا باتجاه المعرفة، وبالتالي باتجاه التقلص، وقد غدا هذا الأمر واضحًا بعد التقدم الذي حصل في ميدان المعلومات والتقدم الهائل في انتقال المعلومات من مكان إلى مكان آخر».

ب: ثم ذهب د. شحرور يتحدث عن «مفاتيح الغيب»، وأعطى ظهره للإيمان بوجود الله في عالم الغيب، وقال:

«أما ما اختص به الله سبحانه وتعالى فهو مفاتيح الغيب، وهي مجموعة من القوانين إذا عرفها الإنسان أصبح مؤهلًا لأن يكون كامل المعرفة، والتي لا يطلع عليها إلا من ارتضى من رسول حيث قال «الجن / ٢٦-٢٧»:

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

ج: إذن فـ «الملائكة»، على سبيل المثال، إذا لم يشاهدها الناس اليوم بحواسهم، قد يشاهدونها غدا في عالمهم المادي، حتى قول الله تعالى «الأنعام / ٥٩»:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

قام بتأويله لصالح «الفلسفة المادية للوجود»، مثل مئات الآيات التي حملتها صفحات كتابه، فجعل «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ» عبارة عن «قوانين» من عرفها أصبح كامل المعرفة.

والسؤال:

عندما يقول الله تعالى «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ» فإلى أي شيء يعود الضمير في كلمة «عِندَهُ»، هل يعود إلى «الله» في الغيب الكلي أم الجزئي؟!

٩ـ ويقول د. شحرور «ص ٢٦٩»: «ففي عطف الموصوفات قال «البلد / ٨-١٠»

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

هنا نلاحظ في الآيات الثلاث من سورة البلد كيف ذكر الأعضاء فبدأ بالعينين ثم تلا ذلك اللسان والشفتين ولم يقل بصرًا ولسانًا أو بصرًا وشفتين».

ثم نتدبر النتيجة التي توصل إليها د. شحرور من ذلك، وفق قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، قال: «وهنا تأتي النتيجة المباشرة بأن النجدين هما أعضاء، وهنا بمعنى الثديين، يدلك على هذا وضع النجوم بين الآيات الثلاث، إذ لم يضعها في آية واحدة، لتبيان اختلاف الوظائف لهذه الأعضاء».

*** أقول:**

ما علاقة الثديين «الماديين»، بالنجدين «المعنويين»؟!

هكذا هي «الفلسفة المادية للوجود»، فتعالوا نتدبر عمل «الواو» في هذه الآيات، وعلاقة الجمل ببعضها:

أ: لقد جاء فعل «الجَعْل» متعلقًا بأشياء مادية «العينين واللسان والشفتين»، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾.

ب: ثم جاء فعل آخر يتعلق بشيء معنوي وهو الهداية «هَدَيْنَاهُ» فقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

فانفصل فعل الجعل «المادي» لأعضاء الجسم، عن فعل الهداية «غير المادي» وهو من عالم الغيب، الأمر الذي استحال معه أن يكون «النجدان» ماديّين بمعنى «الثديان».

ج: إن «الواو» في «وَهَدَيْنَاهُ» تسمى «واو ابتداء»، أي ابتداء جملة مختلفة تمامًا عما قبلها، وليست هي «واو العطف» التي تعطف موصوفات بعضها على بعض، كما فهم صاحب القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم.

د: فإذا ذهبنا إلى اللسان العربي، وعلم السياق، الأمر الذي لم يفعله د. شحرور، وجدنا:

ـ **في لسان العرب**: الأرض المرتفعة، وجمعه نجود، و«استعير» النجدان لـ «الخير والشر»، وجعلا نجدين لأن كل نجد صعب باعتبار، فطريق الخير صعوبته في سلوكه، وطريق الشر صعوبته في عواقبه.

ـ **في علم السياق**: بعد أن قال تعالى «البلد / ٨-١٠»:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

قال تعالى «البلد / ١١-١٦»:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾.

وفي الحقيقة أنا لا أعلم، كيف ولماذا، فهم د. شحرور «النَّجْدَيْنِ» بمعنى «الثديين»؟!

١٠ ـ ثم يقول د. شحرور «ص ٢٧٠»:

«وبما أن السمع والبصر هما وظائف لأعضاء، وبما أنه عطف الفؤاد عليهما، نستنتج أن الفؤاد وظيفة لعضو وليس عضوًا»

*** أقول:**

فإذا كان «الفؤاد» وظيفة لـ «عضو»، وليس «عضوًا»، فلماذا لم يذكر لنا د. شحرور اسم هذا العضو، وذهب يحدثنا عن شيء آخر فقال:

«فالفؤاد هو الإدراك الناتج عن طريق الحواس مباشرة، وعلى رأس هذه الحواس السمع والبصر، لأن التفكير الإنساني بدأ بهما، أي الإدراك المشخص بحاستي السمع والبصر، وهو المقدمات المادية للفكر الإنساني».

فهل معنى هذا أن «الفؤاد» وظيفة لأكثر من عضو، وفي مقدمتها «السمع والبصر»، وليس لعضو واحد؟!

كان ممكن أن نقبل منه هذا لولا أنه قال بعدها:

أ: إن «الفؤاد» في مجال التنزيل هو:

تبليغ القرآن للنبي بشكل مباشر عن طريق الوحي، حيث إن القرآن لم يأت للنبي عن طريق «السمع والبصر».

ب: ثم أين يوجد هذا «العضو» الذي تلقى النبي «وحي القرآن» عن طريقه، أليس هذا إقرار من د. شحرور بوجود مصدر معرفي «غيبي» يتلقى الإنسان «المعلومات» عن طريقه، ويكون بذلك قد خالف «الفلسفة المادية للوجود» التي أقام عليها قراءته المعاصرة لـ «التنزيل الحكيم»؟!

ج: وإذا كان «الفؤاد» هو تبليغ «القرآن» للنبي بشكل مباشر، و«القرآن» عند د. شحرور هو «الآيات المتشابهات» فقط، وليس آيات «التنزيل الحكيم» كلها، فكيف تلقى النبي باقي الآيات؟!

د: ثم ما معنى ما قاله د. شحرور «ص ٢٧١» عن الفؤاد:

«والحواس وعلى رأسها السمع والبصر هي مصدر بداية المعلومات، فالفؤاد الإدراك المشخص، يعتبر المقدمات المادية للفكر الإنساني المجرد.

وقد أعطى الكتاب معنى قياسيًا للفؤاد حيث هو في اللسان العربي من فأد، وهو أصل صحيح يدل على حمّى وشدة حرارة... وقد سمي بذلك لأنه المرحلة الأولية من مراحل الفكر الإنساني... هو بمثابة الصاعق المحرض، أو مرحلة الإقلاع للفكر الإنساني». إلى آخر ما ذكره د. شحرور في هذا الباب، وما استدل به من آيات لا محل لها من الإعراب في هذا السياق، وما ذكره في عشرات الصفحات عن القلب والصدر والعقل والفكر.

١١ ـ إلا أننا نتوقف عند حديث د. شحرور عن «البشر والإنسان»، ذلك أن هذا هو المحور الأساس الذي دارت حوله قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، وكيف

ألحد في آيات الله لصالح «الفلسفة المادية للوجود»، ولصالح نظرية داروين «النشوء والارتقاء»، والذي سيقف عليه القارئ الكريم دون تعليق مني:

أ: يقول د. شحرور «ص ٢٨١»:

«وقد بيّن أن الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح، وأن البشر كان منتشرًا قبل مرحلة الأنسنة، وأن البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان حيث إن الإنسان هو كائن بشري مستأنس غير مستوحش «اجتماعي».

ب: وقد أجمل خلق الإنسان في بداية التنزيل في قوله «العلق / ٢»:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾.

فـ «**العلق**» هو أن يعلق شيء بشيء آخر، ومفردها «علقة» لذا قال «الحج / ٥»:

﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ﴾.

فوضع العلقة بعد النطفة وهي مفرد وتعني دخول الحيوان المنوي إلى البويضة «تعلق شيء بشيء آخر»، وهذا ما نسميه اللقاح وهو ما نقول عنه الآن في المصطلح الحديث علاقة».

ثم نتدبر كيف ألحد د. شحرور في معنى كلمة «عَلَق» التي هي آية من آيات الأنفس، فيحولها إلى «علاقة» لصالح نظرية داروين ويقول:

«فالعلق جمع علقة «أي علاقات» وقوله «العلق / ٢»: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾.

أي أن الإنسان مخلوق من مجموعة من العلاقات، هذه العلاقات التي نقول عنها في المصطلح الحديث علاقات فيزيائية وكيميائية معدنية وعضوية وبيولوجية الخ.

ثم لنلاحظ أن قوله «خَلَقَ الإِنْسَان مِنْ عَلَقٍ» قد جاءت في بداية الوحي للتنويه بأن الوجود المادي هو مجموعة كبيرة من العلاقات المتداخلة بعضها ببعض، ومن هذه العلاقات لا من خارجها تم خلق الإنسان، وذلك للدلالة على أن الوجود المادي خارج الوعي الإنساني هو مجموعة من العلاقات».

❊ أقول:

تعالوا نتدبر قول الله تعالى «الحج / ٥»:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ ... ﴾.

هنا نلاحظ أن كلمة «عَلَقَةٍ» جاءت بعد كلمة «نُّطْفَةٍ» لبيان أن بعد التقاء ماء الرجل «المني» بماء المرأة، يتجمد بعض الدم مكونًا قطعة صغيرة تُسمّى «العَلَقَة»، تتحول إلى قطعة لحم صغيرة تُسمى «مُّضْغَة»، وهذا هو الذي اتفقت عليه مراجع اللغة العربية، وأن «الدم المتجمد» الذي يظهر بعد خلق «النُّطْفَة» هو «العَلَقَة».

ج: وكعادته يأتي بعشرات الآيات ويُلحد في معناها لصالح الفكرة المسيطرة على ذهنه، ويعطي ظهره للسياق الذي يثبت تهافت فكرته، ومن هذه الآيات:

ـ قول الله تعالى «آل عمران / ٤٧»:

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾.

وهل كانت مريم، عليها السلام، تقصد بكلمة «بشر» من فصيلة «الحيوان»؟!

ـ قول الله تعالى «الشورى / ٥١»:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾.

فهل المقصود بـ «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ» أي «وما كان لحيوان»؟!

ـ قول الله تعالى «الكهف / ١١٠»:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾.

أي «إنما أنا حيوان مثلكم يوحى إليّ»؟!

إلى آخر الآيات التي وردت فيها كلمة «بشر»، والتي علق عليها د. شحرور بقوله: «هنا نلاحظ في تلك الآيات السابقة ذكر البشر في مجال الجنس الفيزيولوجي المادي»!!

د: وعند حديثه عن «الإنسان» جاء د. شحرور بكثير من الآيات التي ألحد فيها كعادته، ليصل إلى النتيجة التي ذكرها «ص ٢٨٥» فقال:

«نلاحظ الفرق الواضح بين البشر والإنسان:

فالبشر هو الوجود الفيزيولوجي المادي للإنسان ككائن حي ضمن مجموعة مخلوقات حية.

إن القردة كائنات حية، والأنعام كائنات حية، لذا عندما ندرس جسم الإنسان في الجامعة ككائن حي فقط، نقول كلية الطب البشري ولا نقول كلية الطب الإنساني.

فالبشر هو تباشير الإنسان أوله حيث تباشير كل شيء أوائله، وعندما نقول العلوم الإنسانية فإننا نقصد علوم اللغات والتاريخ والفلسفة والحقوق والشريعة والسياسة والاقتصاد وعلم النفس والفنون بأنواعها.

أي العلوم التي تتعلق بالإنسان ككائن حي عاقل له سلوك واع».

هـ: إذن فجميع الآيات التي وردت فيها كلمة «بشر»، والتي ألحد د. شحرور في معناها، تتحدث عن «تباشير» لشيء حي غير عاقل، تزامن وجوده مع ظهور الأنعام، ثم نفخ الله فيه «الروح» فأصبح إنسانا، فإذا سألنا د. شحرور:

هل فعلا نفخ الله «الروح» في «البشر» فأصبح «إنسانا»؟!

قال: الحقيقة هذه هي «الحلقة المفقودة» في نظرية داروين!!

وإذا سألناه، وهل عندما قال الله تعالى «الحجر ٢٨ ـ ٢٩»:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

وجد إبليس أن هذا البشر حيوان مخلوق من صلصال من حمإ مسنون لذلك لم يسجد له، وهذا ما أفاده قول الله تعالى «الحجر / ٣٣»:

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾؟!

و: الحقيقة أن كل ما ذكره د. شحرور لإثبات أن «نظرية داروين» هي التأويل الصحيح لآيات الخلق، ساقطٌ من قواعده للأسباب التالية:

ـ يقول الله تعالى «الروم / ٢٠»:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «ص / ٧١ ـ ٧٢»:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «الحجر / ٢٨»:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

*** أقول:**

فأين «الخلية» التي خُلق منها «البشر»؟!

ثم ماذا سيقول د. شحرور في خلق «الإنسان» من صلصال من قبل أن ينفخ الله فيه الروح، فقال تعالى «الرحمن / ١٤»:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾؟!

إذن فالله تعالى خلق الوجود البشري من تراب الذي تحول إلى طين، ثم إلى «صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ»، ثم إلى «صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ»، ثم نفخ الله تعالى فيه «الروح»، وأمر الملائكة أن يسجدوا لهذا «البشر»، ولا توجد أي علاقة مطلقًا بين مراحل خلق البشر، وقصة الخلية الداروينية.

١٢ ـ يقول د. شحرور «ص ٢٩٠»:

وكأنه قام بتصوير وإخراج فيلمًا سينمائيًا، وجاء يُعطي للناس فكرة عن بعض مشاهده، فقال:

«من هنا نستنتج:

أ ـ أن البشر وجد على الأرض نتيجة تطور استمر ملايين السنين «البث» حيث إن المخلوقات الحية بث بعضها من بعض طبقًا للقانون الأول للجدل، وتكيفت مع الطبيعة وبعضها مع بعض طبقًا للقانون الثاني للجدل. وقد وجد البشر وانتشر في مناطق حارة مغطاة بالغابات حيث يوجد في هذه الغابات مخلوقات حية أخرى كان يفترسها البشر «وَيَسْفِكُ الدِّمَاء» وكان يسلك سلوك الحيوانات الأخرى أي كان كائنًا غير عاقلٍ، إذ لم تظهر فيه ظاهرة العمل الواعي وهو بشر.

ب ـ يجب علينا أن نفهم قوله «اهْبِطُواْ مِنْهَا» على أنه انتقال من مرحلةٍ إلى مرحلة أخرى، وليس المعنى «انزلوا منها» ونحن نقول:

إن الله أنزل ونزل القرآن، ولا نقول أهبط وهبط القرآن.

وقد استعمل الكتاب فعل في مجال الانتقال المكاني أو الكيفي؛ في مجال الانتقال المكاني أي من مكان إلى آخر على الأرض في قوله «هود / ٤٨»:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ترى أين كان نوح عندما قال له «اهْبِطْ»، هل كان في السماء؟!

*** أقول:**

أ: هذا هو ما يؤمن به د. شحرور وفهمه من كلمة «بشر» في السياق القرآني، وأن هذا البشر كان «يسلك سلوك الحيوانات الأخرى، أي كان كائنًا غير عاقلٍ، إذ لم تظهر فيه ظاهرة العمل الواعي وهو بشر»، وكان على د. شحرور أن يُسقط هذا المعنى على كل الآيات التي حملت كلمة «بشر» في التنزيل الحكيم.

ب: عندما قال الله تعالى لنوح، عليه السلام:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾.

كان هذا الهبوط رفع منزلة بقرينة السياق، أما الهبوط المتعلق بآدم، عليه السلام، فكان عقوبة من الله، فكيف يُحوّل د. شحرور العقوبة على المعصية إلى مكسب ينقلهم من المستوى الحيواني إلى المستوى الإنساني الأعلى «الأنسنة»؟!

١٣ ـ ويقول د. شحرور «ص ٢٩١»:

«شرح قوله تعالى «العلق / ٤»: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.

قلم: في اللسان العربي أصل صحيح يدل على تسوية شيء عند بريه وإصلاحه، من ذلك قلمت الظفر، ومن هذا الباب سمي القلم قلمًا... وعندما قال «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» أتبعها بقوله «عَلَّمَ الإِنْسَان مَا لَمْ يَعْلَمْ».

ونلاحظ أيضًا أنهما آيتان منفصلتان بينهما نجمة، وكان من الممكن أن يقول «الذي علم الإنسان بالقلم»، ولقد جاء فصل الآيتين للدلالة على أن التعليم بالقلم مطلق للإنسان ولغيره، ومن جملة المخلوقات التي تم تعليمها بالقلم الإنسان».

ثم يقول د. شحرور عن الأصل اللغوي لكلمة «قلم»:

«إذا نظرنا للأصل اللغوي وهو التسوية والإصلاح والتهذيب، فعندما نقص أغصان الشجر فإننا نقلمها، وعندما نقص ونهذب طرف العود الصغير فنسميها قلمًا. فالقلم هو قص الأشياء بعضها عن بعض وتهذيبها، وهذا ما نقول عنه اليوم التمييز «التعريف»... فالتقليم هو تمييز الأشياء بعضها عن بعض وهذه العملية هي العمود الفقري للمعرفة الإنسانية، وبدونها لا تتم أية معرفة... ولولا هذا التقليم الذي هو صفة الحواس لما كان هناك علم حيث إن الحواس تقلم وهي نفسها مقلمة إلى خمسة حواس».

ويقول د. شحرور:

«فإذا أخذنا الآيات الواردة في الكتاب والتي ذكر فيها القلم رأيناها كالتالي:

ـ قول الله تعالى «لقمان / ٢٧»:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

هنا جاء القلم بالمعنى الثاني وهو آلة الكتابة «الخط» وقد شرحت مفهوم التقليم في الكتابة».

❊ أقول:

وبصرف النظر عما قاله د. شحرور عن «مفهوم التقليم في الكتابة»، والذي سأكشف عن تهافته بعد ذلك، فإن الذي يهمنا هنا هو اعترافه بأن «القلم» هو آلة الكتابة «الخط»، وهذا هو المعنى الصحيح في التنزيل الحكيم كله، وكل ما سيلحد فيه بعد ذلك لا قيمة له.

ولذلك عندما جاء الحديث عن الآية «القلم / ١»:

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

قال: «هذه الآية لها بحث خاص بها سيأتي».

فماذا قال د. شحرور في بحثه الخاص؟!

لقد تعمدت أن أنقل لكم ما قاله د. شحرور مع طول إلحاده وتفاهته، لنعلم كيف يلف الملحد ويدور ساعات كي يصل إلى هدفه، فإذا به يجده سرابًا، فيقول د. شحرور «ص ٣٣٥»:

«بما أن أساس لمعرفة الإنسانية هو التمييز، القلم، حيث إنه في الإدراك الفؤادي، العين تقلم الألوان والأبعاد والأشكال ضمن مجال إمكانياتها، والأذن تقلم الأصوات ضمن مجال إمكانياتها السمعية، وكذلك بقية الحواس.

ثم بعد ذلك يأتي الفكر المجرد وتقلم العلاقات المجردة بعضها عن بعض بواسطة اللغة المجردة أولًا، ثم بواسطة اللغة المجردة والأعداد والرموز ثانيًا، وهذه اللغة المجردة والرموز تقوم على علاقات منطقية.

ولكن عندما بدأ الإنسان بالكلام كان لا يميز الذكر عن الأنثى في المتكلم والمخاطب ولا يميز العدد أيضًا، فقد ظهر هذا التمييز في فترات لاحقة، فالكتاب يخبرنا أن إحدى وسائل التمييز التي لعبت دورا في الكلام الإنساني المجرد هو صوت النون، وذلك في قوله تعالى «القلم / ١»: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾.

فنرى في اللسان العربي أن الصيغة العامة التي تشمل العاقل وغير العاقل هي صيغة «ما»، كقوله «النحل / ٤٩»:

﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾.

ثم استعملت النون لتمييز العاقل فقط بلفظة «من»، كقوله «الرعد / ١٥»:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾.

«ما»: صيغة عامة سبقت في الاستعمال التاريخي.

«من»: صيغة خاصة للعاقل جاءت بعد «ما»، وقد استعمل فيها صوت النون.

وكذلك لعبت النون دورا في التمييز بين الذكر والأنثى، وذلك في «نون النسوة»، حيث «أنتم» صيغة عامة للذكور والإناث سبقت «أنتن» صيغة للإناث فقط، أي أن ميم الجماعة سبقت نون النسوة في الاستعمال التاريخي.

وهكذا نجد أن صوت النون في السياق التاريخي كان له دور كبير في التمييز «التقليم»، لذا أتبع هذا الصوت في الآية بقوله «وَالْقَلَمِ» وبزيادة التقليم زاد التصنيف للأشياء وهذا ما يسمى بالتسطير لذا أتبعها بقوله «وَمَا يَسْطُرُونَ».

وقد جاءت «يَسْطُرُونَ» من فعل «سطر» وهو في اللسان العربي له أصل مطرد يدل على اصطفاف الشيء كالكتاب والشجر وكل شيء اصطف».

ثم نتدبر كيف وصل د. شحرور إلى هدفه، بعد هذا المشوار الطويل، فقال:

«فصوت النون زاد في تقليم الأشياء بعضها عن بعض وزيادة التقليم أدت إلى التصنيف، لذا قال «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ»!!

فتعالوا نفهم قول الله تعالى «لقمان / ٢٧»:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

مستعينين بـ «منظومة التواصل المعرفي»، وبعلم «السياق»، وأن الله تعالى يخاطب قومًا كانت آلة الكتابة عندهم يصنعونها من خشب الأشجار.

لقد جاءت الآية بأسلوبها البياني البليغ، بضرب المثل المعبر عن فعاليات أسماء الله الحسنى التي لا حصر لها ولا تحدّها حدود.

١٤ ـ ويقول د. شحرور «ص ٣٠٤»:

«قد عبر القرآن عن مراحل نشأة الفكر ونفخة الروح بنشأة الكلام الإنساني كالتالي:

* **المرحلة الأولى**: مرحلة تقليد أصوات الحيوانات والطبيعة: وقد عبّر القرآن عن هذه المرحلة بقوله تعالى «البقرة / ٣١»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

ثم قال د. شحرور:

وهنا يجب ألّا نفهم أن التعليم «عَلَّمَ» وحي «إلهام» لأن الوحي يحتاج إلى لغة مجردة، ويجب ألا نفهم أن الله جلس مع آدم وعلمه كما نعلم الأطفال، بل يجب أن نفهمها فهمًا «ماديًا رحمانيًا»، أي أنه أصبح يميز بواسطة الحواس «السمع والبصر» ويقلد بواسطة الصوت «السمع».

* **أقول:**

أ: إن «آدم» الذي يتكلم عنه د. شحرور هو الذي كان من الفصيلة الحيوانية ثم نفخ الله فيه «الروح» فأصبح «إنسانا» بدأ يتعلم بتقليد أصوات الحيوانات والطبيعة، وهذا كلام ساقط من قواعده بشهادة د. شحرور نفسه، وذلك لغياب البرهان العلمي الدال على تحول «البشر» إلى «إنسان» عن طريق «نفخ الروح».

ب: أما بالنسبة لقوله تعالى «البقرة / ٣١»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

فكان يجب على د. شحرور أن يخبرنا أولًا كيف اخترق «عالم الغيب» وعَلِمَ أن تعليم «آدم» المذكور في الآية كان «تعليمًا ماديًا رحمانيًا»؟!

ج: والحقيقة أن كل ما قاله د. شحرور تحت عنوان:

«كيف عبر القرآن عن مراحل نشأة الكلام الإنساني ونفخة الروح».

ساقط بسقوط بدعة التفريق بين البشر والإنسان، وخاصة أنه يرى أن «آدم» اسم جنس وليس اسم فرد، دون أن يأتي بآية واحدة دالة على صحة أن «آدم» قد سبقه «أوادم».

ولذلك فإن السؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق:

إن الله تعالى يقول «آل عمران / ٣٣-٣٤»:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

فإذا كان الله تعالى قد اصطفى «آدَمَ» المذكور في الآية من «أوادم» سبقته، في الوقت الذي يعلم فيه د. شحرور أن الحلقة الدالة على تحول «البشر» إلى «إنسان» عن طريق «نفخ الروح» حلقة مفقودة.

فهل كانت ذرية «ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ» آدم ونوح وآل إبراهيم من آدم الأول «البشر الحيوان» أم من «آدم العاقل أبو الإنسان» المتكيف مع الطبيعة من حيث «الأنسنة»؟!

ثم أين البرهان العلمي الدال على أن «آدم العاقل أبو الإنسان» جاء من صلب «آدم البشر الحيوان» وحلقة «نفخ الروح» الدالة على ذلك مازالت مفقودة إلى يومنا هذا؟!

*** أقول:**

أ: يستحيل أن نجد إشارة واحدة في التنزيل الحكيم تدل على صحة هذه القراءة الشحرورية الداروينية المعاصرة للتنزيل الحكيم.

فعندما قال الله تعالى للملائكة «البقرة / ٣٠»:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

جاء بعدها قوله تعالى «البقرة / ٣١»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

ليفهم من الآيتين، ومن آيات أخرى، أن الله تعالى سيخلق بشرًا إنسانًا اسمه «آدم»، تخلفه ذريته، وهذ معنى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً».

وكان من مقتضى ذلك أن يُعلّم الله آدم «الأَسْمَاء كُلَّهَا»، وأن يأمر الملائكة أن يسجدوا له لعظم مهمة استخلافه التي لا يعلمها الملائكة، ولذلك قال الله لهم «البقرة / ٣٠»:

﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ب: إن قول الله تعالى «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً» لا يعني «خليفة الله»، ولا يعني «خليفة عن الله»، ذلك أن «الخليفة» هو من يخلف غيره ويقوم مقامه، وهذا مستحيل أن يكون هو المعنى المراد بالنسبة لله تعالى.

ويستحيل أن يكون هو المعنى المراد بالنسبة لـ «آدم»، فـ «آدم» لم يُخلق بعد، فسيخلف من ليقوم مقامه، كما أن فعل «الجعل» يعني آلية الخلافة، الأمر الذي يُفهم منه أن المقصود آلية استخلاف ذرية «آدم»، وكلمة «خليفة» تصلح اسما للواحد والجمع، كما تصلح للذكر والأنثى.

فإذا تدبرنا السياق القرآني نجد أن ما سبق بيانه هو فعلا الذي حملته كلمة «خليفة» وآلية «الاستخلاف»:

يقول الله تعالى «الأعراف / ٦٩»:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ...﴾.

ويقول الله تعالى «الأعراف / ٧٤»:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ ...﴾.

ويقول الله تعالى «النمل / ٦٢»:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

وبمعنى «آلية الاستخلاف»، يقول الله تعالى «الأنعام / ١٣٣»:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾.

ويقول الله تعالى «الأعراف / ١٢٩»:

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

ويقول الله تعالى «هود / ٥٧»:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

ويقول الله تعالى «النور / ٥٥»:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

ج: **المرحلة الثانية:** ولذلك لم يكن غريبًا على منهجية د. شحرور العشوائية الداروينية أن تفتري على الله تعالى الكذب، وتدعي وجود مراحل لنشأة الفكر ونفخة الروح «الحلقة المفقودة في نظرية داروين» ونشأة الكلام الإنساني، وأن المرحلة الثانية هي:

* «**مرحلة آدم الثاني**»: فتعالوا نتدبر ماذا قال د. شحرور عن المرحلة الثانية، ولا ننسى خلال تدبرنا أن حلقة «نفخ الروح» التي حولت البشر إلى إنسان أصلًا مفقودة إلى يومنا هذا، وإلى يوم الدين:

يقول د. شحرور:

«وهي مرحلة فعل الأمر الوارد في قوله تعالى «البقرة / ٣٣»:

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

وهي مرحلة بداية الكلام الإنساني، وبداية ظاهرة العمل والتواصل بين اثنين مع البقاء على استعمال الأصوات المقطعة المكتسبة من تقليد أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، لذا اعتبرها القرآن فترة انتقالية مؤقتة بقوله تعالى «البقرة / ٣٦»:

﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾.

د: **المرحلة الثالثة**: وهي «مرحلة آدم الثالث»:

وهذه المرحلة تعتبر القفزة الهائلة في (نفخة الروح) كقفزة قانون ربط النقيضين بعدم التناقض، وهي قفزة «التجريد» حيث إن الإدراك الفؤادي يقوم بربط الأسماء بالأشياء ربطًا قائمًا على الحواس وعلى رأسها حاستي السمع والبصر».

ثم يسأل د. شحرور:

«كيف بدأ التجريد عند الإنسان لأول مرة علمًا أن الطبيعة خالية من التجريد أي أنه لم يأت تقليدًا لظاهرة ما في الطبيعة»؟!

ويجيب بقوله:

«لقد جاءت قفزة التجريد من الله مباشرة، أي أن آدم سمع أصواتًا مجردة لها معنى التوبة، والتوبة من المفاهيم المجردة وليست من المشخصات، أي أنه سمع فعل أمر من صوتين أو ثلاثة أصوات مقطعة، كقوله (تب)، فـ (تاب عليه)، وهذا ما أفاده قوله تعالى «البقرة / ٣٧»:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

هـ: ثم يقول د. شحرور «ص ٣٠٩»

«والآن ما علينا إلا أن نؤكد الحقائق التالية في أذهاننا: ومن هذه الحقائق قوله عن أصول «الفلسفة المادية للوجود»: «إن قانون الربط بين النقيضين بقانون عدم التناقض والربط المنطقي بين المقدمات والنتائج القائم على عدم التناقض هو القانون الذي لا يخضع للتطور أبدًا، وهنا تكمن نفخة الروح».

❋ أقول:

يقول د. شحرور:

«وهنا تكمن نفخة الروح»، يقصد وهنا يكمن البرهان قطعي الدلالة على سقوط «نظرية داروين» من قواعدها، وهو الحلقة المفقودة الخاصة بـ «نفخ الروح»، والتي يعترف بها في قوله بعد ذلك:

«حيث إن التطور جاء منهما، وهذا القانون لم يتولد من علاقة إنتاجية أو من طبقة أو من علاقة اقتصادية، بل به تميز الإنسان كجنس، وقفز من المملكة الحيوانية، وهو الحلقة المفقودة عند داروين»!!

و: **المرحلة الرابعة:** وهي «مرحلة الهبوط الثاني»:

بعد أن تلقى آدم الثالث القفزة الأساسية، وهي بداية التجريد، حصل الهبوط الثاني وهو الانتقال إلى مرحلة اكتمال التجريد، وبداية العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية في أشكالها البدائية، لذا قال تعالى «البقرة / ٣٨»:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ويسأل د. شحرور:

وهل يمكن أن يكون هناك وحي من الله لإنسان دون أن يملك الإنسان لغة مجردة «لسان» لكي يوحي له بها؟!

❋ أقول:

فأي وحي هذا «من الله للإنسان» يتحدث عنه د. شحرور، وهو الذي اعترف حالا بأنه لا يعلم إذا كان الإنسان قد قفز من المملكة الحيوانية إلى المملكة الإنسانية لأن هذه هي «الحلقة المفقودة عند داروين»؟!

ز: والغريب حقًّا أن يأتي د. شحرور «ص ٣١٦» ويسأل:

«ماذا يخبرنا القرآن عن الفترة الواقعة بين آدم ونوح؟!

ويجيب: «لقد اعتمد التعليم بعد آدم على المشخص، وذلك بأن أرسل الله من

الملائكة رسلًا تُرى بالعين المجردة وتسمع بالأذن، لذا عندما بعث نوحًا، وكان هنا لغة مجردة في شكلها الأولى، قال له قومه «المؤمنون / ٢٤»:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

*** أقول:**

ويفتري د. شحرور على الله وعلى القرآن بقوله:

«وذلك بأن أرسل الله من الملائكة رسلًا تُرى بالعين المجردة وتسمع بالأذن».

والقرآن، الذي يُلحد د. شحرور في آياته، يشهد باستحالة أن يُرسل الله تعالى رسلًا من غير البشر، لدعوة الناس إلى اتباع رسالته، لسبب بدهي وهو: كيف يعلم القوم أن هذا الرجل الذي جاء يدعوهم إلى اتباع رسالة الله، من «الملائكة»؟!

لذلك قال الله تعالى للرد على الملحدين في آيات الله «الأنعام / ٩»:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾.

* لذلك أقول: «أَفَلَا يَعْقِلُونَ»؟!

١٥ـ فماذا قال د. شحرور «ص ٣٥٩»:

يستمر د. شحرور في ترجمة الأصول التي قامت عليها «الفلسفة المادية للوجود»، ويلبسها ثوبًا إسلاميًا معاصرًا، محاولة منه لأسلمة «نظرية داروين» فيقول تحت عنوان فلسفي: «جدل الأضداد في معرفة آيات الله ـ العقل الرحماني والعقل الشيطاني».

كلامًا طويلًا لا يستحق التعليق عليه، إلا أني سأتوقف عند حديثه عن «الخلط بين قدرة الله ومشيئته» وقوله: «إن الذين أولوا آيات خلق الإنسان، وهي كلها آيات متشابهات ـ قرآن، هم أناس كانوا يقفون على أرضية علمية ضعيفة، وكان المستوى المعرفي لعصرهم لا يسمح لهم بالتوصل لاستنتاجات حقيقية»

*** أقول:**

وماذا فعل «داروين» بنظرية «النشوء والارتقاء»، وهناك حلقة مفقودة «إلى يوم الدين» في صلب نظريته، وهي حلقة تحول البشر إلى إنسان عن طريق «نفخ الروح»؟!

فيكون حل هذه المعضلة عند د. شحرور هو أن ينسب تأخر اكتشاف هذه الحلقة المفقود إلى مشيئة الله، وإن شاء الله سيكتشف العلماء هذه الحلقة في يوم من الأيام، فيقول «ص ٣٥٩»:

يقول الله تعالى «الأنعام / ٦٧»:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ويقول الله تعالى «ص / ٨٨»:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾.

لذا نستنتج أنهم كانوا عاجزين عن التأويل العلمي المقنع لنا، وذلك لعجز الأرضية العلمية ومنهج البحث العلمي لديهم ووسائله.

ونحن حين نتكلم عن خلق الإنسان لا نتكلم عن القدرة، بل نتكلم عن المشيئة، أي كيف تمت مشيئة الله في خلق الإنسان، وقد تأخذ هذه المشيئة ثانية واحدة، وقد تأخذ مئات الملايين من السنين.

فإذا اكتشف «داروين» أن هذه المشيئة أخذت مئات الملايين من السنين، فهذا لا يعني أنه إلحاد أو كفر وكأن الله لا علاقة له بهذا».

*** أقول:**

وماذا ينفع القول بأن الله تعالى «شاء» أن يكون تحوّل البشر إلى إنسان بعد مئات الملايين من السنين، والبرهان على هذه المشيئة «شاء الله» ألا يعلمه أحد من الإنس والجن، ليعلم الناس جميعًا كذب «داروين» وكذب «شحرور» الذي قال بعدها: «وأمثل بقضية أخرى فأقول:

لقد طغى على الأذهان أن عمر الإنسان ثابت منذ أن يخلق في بطن أمه، إن هذا الاعتقاد يلغي كل العلوم الموضوعية في الطب والإحصاء التي تقول عكس ذلك.

فإذا قلنا إن عمر الإنسان مفتوح ورزقه مفتوح وعمله مفتوح وغير مكتوب سلفا، ذهب ظن الناس السامعين فورا إلى أن الله لا علاقة له بعمر الإنسان ورزقه وعمله، وبالتالي فقولنا كفر وإلحاد.

علما بأن الكتاب يقول إن الأعمار والأرزاق مفتوحة بالنسبة للإنسان وغير مكتوبة عليه سلفا، وسنفصل القول في ذلك في مبحث الأعمار والأعمال والأرزاق في هذا الباب».

فإذا ذهبنا إلى «مبحث الأعمار والأعمال والأرزاق في هذا الباب» لن نجد غير آيات مستقطعة من سياقاتها، مع إلحاد في معاني كلماتها، بنفس «المنهجية العشوائية» التي قام د. شحرور بتأليف كتابه «الكتاب والقرآن» على أساسها.

وهذا ما أكده د. شحرور بعدها، وهو يُصر على أن يكون محور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم هو «نظرية التطور»، فقال «ص ٣٦٠»:

«فإذا أردنا أن نتخلص من هذا الوهم، فما علينا إلا أن نعلم أن نظرية التطور في كل شيء هي نظرية التسبيح وهي العمود الفقري لنظرية القرآن في الوجود.

وأن معرفة الإنسان عبارة عن معرفة نسبية بالموجودات تتطور مع الزمن، وأن القرآن حوى الحقيقة المطلقة ككلمة إلهية، والفهم النسبي كمعرفة إنسانية، لذا ففهمه يخضع للتطور والحركة وهنا السر الأكبر في إعجازه».

وكما علمنا من النواقض السابقة، فإن د. شحرور يقصد بـ «إعجاز القرآن» إعجاز جزء من التنزيل الحكيم فقط، وهو «الآيات المتشابهات»، ويدعي أن هذه «الآيات المتشابهات» هي التي حفظت باقي الآيات من أن يأتيها الباطل.

والسؤال:

متى كانت «نظرية التطور الداروني» مصدرًا معرفيًا لفهم آيات الآفاق والأنفس؟!

ثم كيف تكون «نظرية التطور الداروني»، الساقطة علميًا، هي العمود الفقري لنظرية القرآن في الوجود، وبين «داروين» و«التنزيل الحكيم» مئات القرون؟!

١٦ ـ ثم يدخل د. شحرور دائرة «علم الله» بدون خوف ولا حرج، فيقول «ص ٣٨٦»:

«والآن نسأل السؤال التالي: هل علم الله يقيني أم احتمالي؟!

نقول هو الاثنين معًا، فعلم الله يقيني كامل بالأشياء والأحداث القائمة والموجودة فعلا كقوله «الأنعام / ٨٠»:

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.

*** أقول:**

أ: واللافت للنظر والغريب حقًّا، هو استدلال د. شحرور بآيات تبيّن أن علم الله تعالى وسع «كل شيء»، ومع ذلك يُصر على تقسيم علم الله إلى علم يقيني وعلم احتمالي، في الوقت الذي لا توجد فيه آية واحدة من هذه الآيات تقول بهذا الذي قاله: «وعلينا هنا أن نميز بين نوعين من علم الله:

النوع الأول: علم الله بالأشياء وظواهرها وحركاتها.

النوع الثاني: علم الله بالسلوك الإنساني الواعي وبالاختيار الإنساني.

وقال «ص ٣٨٩»:

«إن الالتباس يكمن في أنه إذا نوى زيد غدا القيام بأمر ما، فإن الله منذ الأزل يعلم أن زيدًا في يوم كذا وساعة كذا وثانية كذا سينوي القيام بهذا الأمر». ثم قال:

«إننا ننظر إلى الأمر نظرة مغايرة ولتبيانها نقول:

أولًا: لنناقش أنه لو كان يدخل في علم الله منذ الأزل ماذا سيفعل زيد في حياته الواعية، وما هي الخيارات التي سيختارها زيد منذ أن يصبح قادرا على الاختيار إلى أن يموت، فالسؤال: لماذا تركه إذا كان يعلم ذلك»؟!

فلنا أن نتخيل كيف يذهب تفكير د. شحرور إلى درجة توجيه مثل هذا السؤال، الذي يعني: إذا كان الله تعالى يعلم اختيارات الناس، والتي قد تكون ضارة بهم، فلماذا يتركهم يفعلونها؟!

ب: إن د. شحرور ينكر علم الله بـ «الخيارات» التي سيختارها الإنسان عندما يصبح قادرًا على الاختيار، وأن فلانًا سيكون مؤمنا ثم يختار الكفر، والآخر سيكون كافرا ثم يختار الإيمان، ويقول: «إن هذا الطرح لا يترك للخيار الإنساني الواعي معنى، وإنما يجعله ضربا من الكوميديا الإلهية مهما حاولنا تبرير ذلك».

*** أقول:**

ما علاقة «علم الله الأزلي» بكل ما يفعله الإنسان طوال مسيرة حياته، وأن هذا هو ما يجب على المسلم الإيمان به، لقوله تعالى «الحشر / ٢٢»:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

ومن «الغيب»: كل ما غاب عن الإنسان إلى يوم الدين، ومن ذلك اختياراته وتصرفاته وأعماله وماذا يكسب غدا، فتدبر «الأنعام / ٣»:

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

ما علاقة «علم الله الأزلي» بـ«سُنّة الاختيار» التي خلق الله الإنسان عليها، ليتخذ قراراته بإرادته وهو لا يملك أي وسيلة تُطلعه على ما كُتب عن هذه القرارات في علم الله الأزلي؟!

ج: فإذا ذهبنا إلى ما قاله د. شحرور «ص ١٥٢»، وجدناه ينكر علم الله «الكيفي» ويؤمن بعلم الله «الكمي»، ويقول:

«إن علم الله بالموجودات هو علم كمي بحت، فالإحصاء هو التعقل، والعدد هو حال الإحصاء».

واللافت للنظر أن كثيرًا من الآيات التي استدل بها على فهمه هذا تشير إلى علم الله المستقبلي والكيفي:

يقول الله تعالى «محمد / ١٩»: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾.

ويقول الله تعالى «غافر / ١٩»: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾.

ويقول الله تعالى «البقرة / ٢٣٥»: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾.

وقوله تعالى «المزمل / ٢٠»: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾.

د: وتزداد جرعة الإلحاد إلى درجة وصف علم الله بـ«العلم الرياضي»، فيقول د. شحرور «ص ٣٨٩»:

«إننا نعني أن الله كامل المعرفة بالأشياء وأحداثها الطبيعة وظواهرها لأن علمه رياضي: «وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» ـ «وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ».

وعلمه رياضي لأن الرياضيات اليوم هي أرقى أنواع العلوم...، وما دمنا لا نعرف علمًا أرقى من الرياضيات فإننا نذهب ولا نتحرج إلى أن علمه رياضي، دلنا على ذلك العقل المصوغ من روح الله».

❊ أقول:

أ: وهذه هي «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي تلبس الحق بالباطل والباطل بالحق، باستخدام تعبيرات تؤثر على مشاعرهم كقول د. شحرور إن البرهان على أن علم الله علم رياضي هو «العقل المصوغ من روح الله».

فعقل من هذا الذي صيغ من روح الله، عقل المؤمن، أم عقل المنافق، أم عقل الكافر، أم عقل الملحد؟!

ب: ثم كيف يساوي د. شحرور بين «علم الله المطلق» الذي لا يطلع عليه إنس ولا جان، و«علوم البشر»، مثل الرياضيات، ثم من أي المصادر المعرفية جاء د. شحرور بهذه المعلومة: «علم الله تعالى علم رياضي كمي بحت»؟!

يجيب د. شحرور، ويبدو أنه اطلع على «عالم الغيب»، فيقول «ص ٣٩٠»:

«فعلم الله بالطبيعة إما:

ـ علم مبرمج سلفا في «اللوح المحفوظ ـ القرآن المجيد» والذي يحوي قوانين جدل الطبيعة الأول والثاني والخلق والتطور والساعة والبعث واليوم الآخر والجنة والنار، أي قوانين «الجدل المادي» لهذا الكون والكون الذي يليه.

ـ وإما علم في كلية الاحتمالات لظواهر الطبيعة الجزئية القائمة على الأضداد، والتي نفهمها من خلال «الرياضيات» والتي سماها «كتاب مبين».

❊ أقول:

معلوم أنه إذا وجد الاحتمال سقط الاستدلال، ود. شحرور قال عن «علم الله بالطبيعة» إما... وإما... ولم يقل لنا وماذا بعد «إما»، لنقف حائرين أمام هذه «المنهجية الهرمنيوطيقية».

ولذلك لم يكن غريبًا أن نقرأ هذا التعليق على الآيات التي يستدل بها ويقول «ص ٣٩٢»:

«في هذه الآيات قد يظن البعض أنا لله ناقص المعرفة، علما بأن هذه الآيات ليس لها علاقة بكمال المعرفة حيث إن كمال المعرفة كلي.

وهذه الآيات تدخل تحت باب المعرفة الجزئية والتي هي جزء من المعرفة الكلية أي لا تحتوي على عنصر المفاجأة ولكن تدخل تحت باب التصنيف الجزئي».

ثم تعالوا نتدبر هذا المثل الذي جاء به، والمترجم من «الفلسفة المادية للوجود» في لباس إسلامي، وهل سنفهم ماذا يريد أن يقول د. شحرور:

«فالإنسان مثلا يختار الجهاد والإيمان، فهذا الاختيار يصنف في كتاب هذا الإنسان حصرا، أي ينتقل من (باب المعرفة الجزئية) والتي هي جزء من المعرفة الكلية، أي لا تحتوي على عنصر المفاجأة، ولكن تدخل تحت باب التصنيف الجزئي.

فالإنسان مثلا يختار الجهاد والإيمان، فهذا الاختيار يصنف في كتاب هذا الإنسان حصرا، أي ينتقل من (باب المعرفة الكلية) للاحتمالات جميعها، إلى باب التصنيف الشخصي لأعمال الإنسان، التي يختارها أصلًا من ضمن المعرفة الكلية لله».

«أَفَلاَ يَعْقِلُونَ»؟!

وبناء على ما سبق:

أ: تسقط بدعة التفريق بين «البشر والإنسان»، من حيث التسمية.

ب: تسقط بدعة انتشار البشر مع كائنات حية أخرى، ثم بعد آلاف السنين، وكنتيجة طبيعية لنظرية التطور، أصبح البشر إنسانًا عاقلًا.

ج: تسقط بدعة قراءة د. شحرور المعاصرة لآيات التنزيل الحكيم.

هـ: يسقط كتاب د. شحرور «الكتاب والقرآن» الذي قام من أوله إلى آخره على «الفلسفة المادية للوجود».

الباب الثاني

نحو إسلام الرسول

إسلام: دين الإسلام

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران / ٨٥]

دين الإسلام
ونقض منهجية القراءة المعاصرة

إن «دين الإسلام» هو النظام الإلهي الحاكم لحياة الناس من لدن آدم، عليه السلام، القائم على إسلام الوجه لله، والذي ختم الله سلسلته الإيمانية ببعثة رسوله محمد، عليه السلام، وأصبح هو الدين الذي لن يقبل الله غيره، وهذا ما بيّنه الله بقوله تعالى «آل عمران / ٨٥»:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾.

لقد نزلت الرسالة الخاتمة تدعو كل الملل والنحل الموجودة في عصر التنزيل إلى الدخول في «دين الإسلام» واتباع النبي الخاتم، رسول الله محمد، عليه السلام، فقال تعالى «آل عمران / ١٩»:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

ولقد بدأت الآية بأداة التوكيد «إِنَّ» لبيان أن نظام حياة الناس المقبول «عِندَ اللّهِ» هو فقط النظام القائم على «دين الإسلام» الذي بعث الله به رسوله محمدا، عليه السلام، وعلى «الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ»، الذين يدّعون أنهم على «دين الإسلام»، أن يؤمنوا برسول الله محمد ويتبعوه.

ولكن د. شحرور يرى أن معظم أتباع الملل والنحل «مسلمون»، فيقول «ص ٧١٩»:

«لذا فقد ورد الموقف الإلهي من الناس كافة في قوله تعالى «البقرة / ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

نلاحظ هنا أن هذه الآية تنطبق على كل أديان أهل الأرض السماوية منها وغيرها، والشرط الأساسي هنا: «الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح».

❊ أقول:

والحقيقة أن د. شحرور لم يذكر في كتابه «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة» شيئًا عن هذه الآية إلا ما ذكره سابقًا، على أساس أنه سيخصص كتابا مستقلا بعنوان «الإسلام والإيمان ـ منظومة القيم» محوره الأساس هو فهمه لهذه الآية.

فيقول د. شحرور «ص ٣٨» من كتابه «الإسلام والإيمان ـ منظومة القيم»:

«ومن هذه الآيات وغيرها كثير، نفهم أن الإسلام هو التسليم بوجود الله، وباليوم الآخر، فإذا اقترن هذا التسليم بالإحسان والعمل الصالح، كان صاحبه مسلمًا.

سواء أكان من أتباع محمد «الذين آمنوا» أو من أتباع موسى «الذين هادوا» أو من أنصار عيسى «النصارى» أو من أي ملة أخرى غير هذه الملل الثلاث، كالمجوسية والبوذية: الصابئين».

الأمر الذي جعلني مضطرا إلى نبدأ مع د. شحرور إلحاده في مثل هذه الآيات من أول الطريق، حسب ما ورد في كتابه «الإسلام والإيمان ـ منظومة القيم».

أولًا: «الإسلام والمسلمون»

١ ـ يقول د. شحرور «٣١»:

«نعود إلى التنزيل الحكيم ونحن متفقون على أنه صادق خال من الحشو، لنقرأ فيه:

قول الله تعالى «الأحزاب / ٣٥»:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ...﴾.

وقول الله تعالى «التحريم / ٥»:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ...﴾.

وقول الله تعالى «الحجرات / ١٤»:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾.

ونفهم من الآيات أمرين:

الأول: أن المسلمين والمسلمات شيء والمؤمنين والمؤمنات شيء آخر.

الثاني: أن الإسلام يتقدم دائمًا على الإيمان ويسبقه.

*** أقول:**

كيف يتقدم الإسلام دائمًا على الإيمان ويسبقه، ومن أي المصادر المعرفية جاء د. شحرور بهذه «الهرمنيوطيقية»، ولا توجد آية قرآنية واحدة تقول بأن الإسلام يسبق الإيمان؟!

إن «الإيمان»: هو تصديق وإقرار القلب وشهادته شهادة علمية بالوحدانية وبأصول الإيمان وصدق النبوة.

و«الإسلام»: هو الإذعان والتسليم والخضوع لما أمر به الله تعالى.

وهذا ما أفادته سياقات التنزيل الحكيم، ومنها قول الله تعالى «البقرة / ١٣٦»:

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

لقد بدأت الآية بالإقرار بأصول الإيمان، ومنها الإيمان بالله وكتبه ورسله، ثم انتهت ببيان مقتضى هذا الإيمان وهو التسليم «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، وهذه سُنّة جميع الأنبياء والرسل.

ويقول الله تعالى «النساء / ٦٥»:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

إن البرهان على صدق الإيمان «لا يُؤْمِنُونَ» يكمن في كلمة «حَتَّى» أي لن يصدق قولكم آمنا حتى نرى مقتضى هذا الإيمان عمليا بتسليم الجوارح لحكم الله، من صلاة وزكاة وصيام وحج «وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا».

فالإيمان أولًا «لا يُؤْمِنُونَ»، ثم التسليم «وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»، وعندما يكون الإيمان صادقًا يكون الإسلام والتسليم لحكم الله صادقًا.

أما «المنافقون» فهم الذين يُظهرون «الإسلام» باعتباره الجانب العملي في «دين الإسلام»، ويبطنون «الكفر» في قلوبهم، الأمر الذي بينه الله لرسوله في قوله تعالى «المنافقون / ١»:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ـ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ـ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾.

ولم يحدث مطلقًا في التنزيل الحكيم أن سبق «الإسلام» «الإيمان» وانفصل عنه إلا في حالة المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم «الحجرات / ١٤»:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ـ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ـ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ـ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ـ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

إذن «**الإيمان**» محله القلب: «وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ»

و«**الإسلام**» العمل بمقتضى هذا «الإيمان» سلوكًا عمليًا بطاعة الله ورسوله: «وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا»

ويستكمل د. شحرور حديثه ويقول «ص ٣٢»:

ونقرأ قوله تعالى:

ـ «الجن» مسلم: «الجن / ١٤»:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾.

- «إبراهيم» مسلم: «آل عمران / ٦٧»:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

- «يعقوب» مسلم: «البقرة / ١٣٢»:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

- «يوسف» مسلم: «يوسف / ١٠١»:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾.

- «سحرة فرعون» مسلمون: «الأعراف / ١٢٦»:

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾.

- **«فرعون» مسلم**: «يونس / ٩٠»:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

- «الحواريون» مسلمون: «آل عمران / ٥٢»:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

- «نوح» مسلم: «يونس / ٧٢»:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

- «لوط» مسلم: «الذاريات / ٣٥-٣٦»:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

ونفهم من الآيات في تسلسلها أعلاه، أن الجن وإبراهيم ويعقوب والأسباط ويوسف وسحرة فرعون والحواريون ونوحًا ولوطًا، كانوا من المسلمين، وأن فرعون حين أدركه الغرق نادى بأنه منهم، وهؤلاء جميعًا لم يكونوا من أتباع محمد «ص».

ونفهم من هذا كله أن الإسلام شيء والإيمان شيء آخر، وأن الإسلام متقدم على الإيمان سابق له، وأن المسلمين ليسوا أتباع محمد «ص» حصرًا، ونصل أخيرًا إلى السؤال الكبير: إن كانت الشهادة برسالة محمد «ص»، والشعائر من أركان الإسلام، فكيف يصح إسلام فرعون وهو لم يلتق إلا بموسى، وإسلام الحواريين وهم لم يعرفوا سوى المسيح عيسى بن مريم، وإسلام غيرهم ممن أثبت التنزيل الحكيم إسلامهم فيما ذكرنا من آيات، وهم جميعًا لم يسمعوا بالرسول الأعظم، ولم يصوموا رمضان، ولم يحجوا البيت؟!»

*** أقول:**

لقد فهم د. شحرور من منهجيته العشوائية الهرمنيوطيقية أن الإسلام شيء والإيمان شيء آخر، والسؤال:

ومن قال إن الإسلام والإيمان شيء واحد، إن لكل كلمة دلالتها:

«**الإيمان**»: تصديق القلب.

«**الإسلام**»: الصورة العملية لمقتضى تصديق القلب.

ولا ينفصلان إلا عند المنافق.

ثم إن الآية التي استدل بها د. شحرور على إسلام فرعون تشهد بأن فرعون نفسه كان يعلم من قبل د. شحرور:

أن «**الإيمان**»: تصديق القلب، فقال «آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ».

وأن «**الإسلام**» استسلام وخضعوا لرسالة الله التي أمر بني إسرائيل باتباعها، لذلك قال «وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

ثم هل لم يقرأ د. شحرور يومًا الآية التي بعدها، والتي تبين ماذا قال الله بعد أن أعلن فرعون إيمانه وإسلامه، وهي قول الله تعالى «يونس / ٩١»:

﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾؟!

الحقيقة إن ما سبق بيانه هو القاعدة القرآنية العلمية الحقة التي يقوم عليها مفهوم «الإيمان» ومفهوم «الإسلام»، وعليه فإن كتاب د. شحرور «الإسلام والإيمان ـ منظومة القيم» والمكون من «٤٠٥ صفحة»، يسقط من قواعده من أوله إلى آخره، وكان يكفي في الرد عليه ما سبق.

ولكن تعالوا نرى كيف تعمل «المنهجية الهرمنيوطيقية» في مئات الصفحات من مؤلفات د. شحرور، بضرب بعض الأمثلة من كتابه هذا «الإسلام والإيمان ـ منظومة القيم».

٢ ـ يقول د. شحرور «ص ٣٣»:

يقول تعالى في محكم تنزيله «البقرة/ ١١١ ـ ١١٢»:

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

فاليهود يحصرون الجنة باليهود، وما عداهم في النار، والنصارى يحصرون الجنة بالنصارى وما عداهم في النار، والتنزيل يعتبر ذلك كله أوهامًا منهم لا برهان عليها، ويصحح لهم أوهامهم بصراحة لا لبس فيها، قائلًا إن الجنة يدخلها كل من «مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ»

وتأتي أركان الإسلام الموضوعة لتقول: لا يقوم الإسلام إلا على التصديق برسالة محمد، وعلى الصلاة والزكاة والصيام والحج، وهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله، في زعمهم، غيره، ولا يدخل الجنة إلا أصحابه.

ونسأل نحن: أليس هذا بالضبط ما قالته اليهود والنصارى، فتصدى لهم سبحانه في التنزيل؟!

*** أقول:**

إن د. شحرور لم يفهم معنى قوله تعالى:

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

لذلك ذهب إلى أن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن، فهو في الجنة، وإن لم يؤمن برسالة النبي الخاتم محمد، عليه السلام، فتعالوا نتدبر قوله تعالى «آل عمران/ ١٩»:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

إن قول الله تعالى «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ» من لدن آدم وإلى بعثة رسول الله محمد، عليه السلام، فما علاقة «الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ» بهذا القرآن، وبرسول الله محمد، حتى تذكرهم هذه الآية؟!

لقد بيّن الله تعالى هذه العلاقة في الآية التالية «آل عمران / ٢٠»:

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

ولقد حملت هذه الآية البرهان على تهافت قول د. شحرور: «إن كل من أسلم وجهه لله وهو محسن، فهو في الجنة، وإن لم يؤمن برسالة النبي الخاتم محمد، عليه السلام»

وإلا فما معنى أن يُخيّر الله تعالى «الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ» بين الإيمان برسالة رسوله محمد والتسليم له تسليما: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ﴾.

وبين الكفر: «وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ»؟!

ثم يستكمل د. شحرور حديثه فيقول «ص ٣٤»:

«لقد تم اعتبار الصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيع من أركان الإسلام، فإذا ما فتحنا التنزيل الحكيم، وجدناه يكلف المؤمنين بهذه الشعائر، وليس المسلمين، واقرأ معي:

قوله تعالى «البقرة / ١١٠»:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقوله تعالى «البقرة / ١٨٣»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقوله تعالى «النساء / ١٠٣»:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

وقوله تعالى «النور / ٥٦»:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ونجد أنفسنا أمام سؤال كبير: لماذا تم استبعاد الجهاد، والقتال، والقصاص، والشورى، والوفاء بالعقود والعهود، والعديد العديد من الأوامر والتكاليف، من أركان الإسلام، مع أن حكمها واحد في الآيات، كحكم الصلاة والزكاة والصيام والحج؟!

ويستكمل د. شحرور حديثه ويقول «ص ٣٥»:

ونقرأ قوله تعالى «البقرة / ١٧٨»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾.

وقوله تعالى «المائدة / ١»:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾.

وقوله تعالى «الأنفال / ٧٤»:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وقوله تعالى «النور / ٢٧»:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

وقوله تعالى «الحجرات / ١٥»:

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

كما نجد أنفسنا، مع أركان الإسلام المزعومة التي تضم الشعائر فقط، أمام تحريف خطير لما ورد في التنزيل الحكيم، فالدين عند الله الإسلام، لا يقبل دينًا غيره...، ولكن الدين الإسلامي عند الله دين الفطرة الإنسانية التي فطر سبحانه الخلق عليها، بدليل قوله تعالى «الروم / ٣٠»:

﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

ولا بد أن تكون أركان هذا الإسلام، بدليل قوله تعالى، فطرية مقبولة، تتماشى بشكل طبيعي مع ميول الخلق، فهل الشعائر (إقامة الصلاة ـ الصوم ـ حج البيت ـ الزكاة) التي افترضوا أنها من أركان الإسلام، فطرية، تتجه إليها النفوس والأرواح والعقول مدفوعة بفطرة الخلق؟!

لنأخذ الزكاة مثلًا، لنجدها ضد الفطرة الإنسانية تمامًا، فالزكاة إخراج للمال وإنفاق له، بينما جبل الله خلقه على كنز المال وحبه، كجزء من أجزاء غريزة حب البقاء: يقول تعالى «الفجر / ٢٠»: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾.

ويقول تعالى «البقرة / ١٧٧»:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾.

ولننظر إلى الصوم كمثل آخر، لنجده يتعارض مع الفطرة، ومع غريزة حب البقاء، تعارضًا عموديًا، فالأصل في الفطرة أن يأكل المرء حين يجوع، ويشرب حين يعطش، ويطلق للسانه العنان سبًا وشتمًا حين يغضب.

أما الصوم فهو تهذيب لهذه الوجوه الوحشية البهيمية من الفطرة، وقمع لهذه الغرائز التي أوجدها الخالق في الخلق لحماية النوع والحفاظ على البقاء.

ثمة مثال ثالث، لم يرد عند واضعي أركان الإسلام، رغم أنه تكليف أمر الله به المؤمنين، هو القتال، في هذا المثال يوضح سبحانه «البقرة / ٢١٦»:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ...﴾.

إن القتال كتب على المؤمنين كما كتب على الذين من قبلهم، مما يذكرنا بآية الصوم «البقرة / ١٨٣» التي تنص على أن الصيام كتب على المؤمنين كما كتب على الذين من قبلهم، ويذكرنا بأن الصلاة «كتابًا موقوتًا».

لكن «البقرة / ٢١٦» تزيد فتوضح بما لا يقبل الشك بأن الله يأمر المؤمنين بالقتال وهو كره لهم، صدق الله العظيم، فالقتال ضد الفطرة، والزكاة ضد الفطرة، والصيام ضد الفطرة.

وباختصار، الشعائر كلها ضد الفطرة، ولو كانت من الفطرة لما أنزلها تعالى في محكم كتابه، وكلف المؤمنين بها تكليفًا، ولترك الخلق يؤدونها بفطرتهم دون أمر منه، تمامًا كما تمتنع البقرة عن أكل اللحم، بفطرتها التي فطرها الله عليها.

لقد اقتصرنا حتى هذه لسطور، على دحض مزاعم واضعي أركان الإسلام الخمس، وعلى تنبيه القائلين بها إلى مخالفة ذلك للتنزيل الحكيم، ولكن هل وضع التنزيل أركانًا للإسلام، فما هي؟!

نقرأ قوله تعالى «البقرة / ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله تعالى «البقرة / ١١٢»:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

❊ أقول:

تعالوا نقوم بتفعيل «علم السياق» لنقف على من هم الذين ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهل هم الذين كفروا بـ «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، ولم يتبعوه؟!

إن أصحاب الجنة الذين «لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» هم:

ـ الذين اتبعوا «هدى الله» الذي أنزله الله على جميع الرسل:

يقول الله تعالى «البقرة / ٣٨»:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تدبر: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ـ هم الذين أقاموا إسلامهم على أصول الإيمان الخمسة وعملوا الصالحات على مر جميع الرسالات: يقول الله تعالى «البقرة / ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تدبر: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ـ وليس من أهل الجنة الذين قالوا البقرة «١١١ ـ ١١٣»: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

إلا إذا أسلموا وجوههم لله تعالى، لذلك قال بعدها:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تدبر: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم قال تعالى بعدها:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

فعلى أي أساس منطقي، قبل أن يكون شرعيًا، يُدخل هؤلاء «الجهال» اليهود والنصارى الجنة، وهم يكفرون بنبوة رسول الله وبكتابه؟!

ـ هم الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله: يقول الله تعالى «البقرة / ٢٦٢»:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تدبر: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فلماذا لا يعقلون؟!

لقد قال الله تعالى في «الآية ٦٢ / البقرة»:

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم جاء في الآية «البقرة / ٢٦٢» وأضاف «الإنفاق في سبيل الله»، ثم قال تعالى:

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فهل دخول الجنة يكون لـ «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا» أم هناك فريضة أخرى مستقلة عن «العمل الصالح» اسمها «الإنفاق في سبيل الله» يجب الالتزام بها؟!

ـ الذين ينفقون أموالهم سرا وعلانية: يقول الله تعالى «البقرة / ٢٧٤»:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وهذه فريضة أخرى اسمها «الإنفاق سرا وعلانية»، قال الله عن جزاء المنفقين:

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقد قال تعالى في «الآية ٦٢ / البقرة»:

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فما الفرق؟!

ـ الذين اتبعوا «هدى الله» كاملًا، ولم يكتفوا باتباع بعض أصول الإيمان كـ «الإيمان بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ»، وإنما أقاموا «هدي الله» بكل ما حمله من أحكام، وفي مقدمتها إقام الصلاة:

يقول الله تعالى «البقرة / ٢٧٧»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تدبر: بعد أن أضاف «وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ» قال تعالى:

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ـ الذين يُقتلون في سبيل الله:

يقول الله تعالى «آل عمران / ١٦٩ ـ ١٧٠»:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تدبر: بعد أن أضاف «القتال في سبيل الله» قال تعالى:

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فلماذا لم يتدبر د. شحرور آيات التنزيل الحكيم؟!

ويستكمل د. شحرور سرد الآيات فيقول:

وقوله تعالى «النساء / ١٢٥»:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾.

وقوله تعالى «يونس / ٩٠»:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وقوله تعالى «الأنبياء / ١٠٨»:

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

وقوله تعالى «فصلت / ٣٣»:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

ومن هذه الآيات وغيرها كثير، نفهم أن الإسلام هو التسليم بوجود الله، وباليوم الآخر، فإذا اقترن هذا التسليم بالإحسان والعمل الصالح، كان صاحبه مسلمًا، سواء أكان: من أتباع محمد «الذين آمنوا»، أو من أتباع موسى «الذين هادوا»، أو من أنصار عيسى «النصارى» أو من أي ملة أخرى غير هذه الملل الثلاث، كالمجوسية والبوذية: الصابئين.

فإذا قرأنا في ضوء ما تقدم قوله تعالى «البقرة / ١-٣»:

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

نفهم أن الغيب هنا هو الله واليوم والآخر، وأن العمل الصالح والإحسان هو أركان الإسلام.

فإذا فهمنا ذلك كله، رأينا منطقيًا وطبيعيًا أن يقول سبحانه إن الدين عنده هو الإسلام، وأنه لا يقبل دينًا غيره، إذ كيف يقبل الخالق من عباده دينًا هو غير موجود فيه بالأصل؟!

وإذا فهمنا ذلك، ورأينا هذا، انتبهنا إلى أن التنزيل الحكيم حين يتكلم عن الإيمان، وعن الذين آمنوا، فهو يتحدث عن نوعين من الناس، أو لنقل نوعين من الإيمان:

أولهما: الإيمان بالله واليوم الآخر: وهو الإسلام.

ثانيهما: الإيمان بمحمد «ص» ورسالته: وهو الإيمان.

إن التنزيل يضع للإسلام أركانًا ثلاثة هي:

أ: الإيمان تسليمًا بوجود الله.

ب: الإيمان تسليمًا باليوم الآخر، ويعني ضمنًا التسليم بالبعث.

أي أن «الإيمان بالله واليوم الآخر» هي المسلمة التي لا تقبل النقاش عند المسلم، وهذه هي تذكرة الدخول إلى الإسلام.

ج: العمل الصالح والإحسان.

ونتبين في هذه الأركان الثلاثة جانبين:

الأول: جانب نظري بحت: هو الإيمان بالله واليوم الآخر

والثاني: وجانب منطقي عملي: هو العمل الصالح والإحسان

إذ لا معنى للإيمان النظري دون سلوك عملي ينعكس فيه ويتجلى من خلاله.

❊ أقول:

واتباعًا لـ «المنهجية الهرمنيوطيقية» عزل د. شحرور بعض الآيات عن سياقاتها ليتخذها دليلًا على أن جميع الملل والنحل تدخل الجنة وإن لم تتبع النبي الخاتم محمدًا، مادامت تؤمن بالله، واليوم الآخر، وتعمل صالحا، استنادًا إلى الآيات التالية:

١ ـ قوله تعالى في سورة البقرة «الآية ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٢ ـ قوله تعالى في سورة المائدة «الآية ٦٩»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

٣ ـ قوله تعالى في سورة الحج «الآية ١٧»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وللرد على هذا الإلحاد في الآيات، علينا أن نتدبر السياق الذي وردت فيه كل آية من هذه الآيات الثلاث:

أولًا:

قوله تعالى في سورة البقرة «الآية ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

لقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وكيف قابلوا نعم الله بالكفر، فاستحقوا الذلة والمسكنة والغضب، فقال تعالى «الآية ٦١»:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى «الآية ٦٢»:

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم استكمل السياق الحديث عن بني إسرائيل فقال الله بعدها «الآية ٦٣»:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ...، ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ ...، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ...﴾.

لقد جاءت الآية «البقرة / ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ..﴾.

وسط سياق يخاطب ذرية بني إسرائيل الموجودين في عصر الرسالة، المعاصرين لرسول الله محمد، عليه السلام، والذي يبدأ بقوله تعالى «البقرة / ٤٠»:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

إن قوله تعالى «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» لا يخاطب الموجودين في عصر موسى، عليه السلام، وإنما يخاطب ذريتهم المعاصرين لرسول الله محمد، يذكرهم بمواقف أسلافهم من الرسل، وكفرهم بنعم الله عليهم، لعلهم يراجعون أنفسهم، ويؤمنون بالنبي الخاتم محمد، ويتبعون رسالته.

وإن «الَّذِينَ آمَنُوا» و«الَّذِينَ هَادُوا» و«النَّصَارَى» و«الصَّابِئِينَ»، هم الذين اتبعوا رسلهم، كلٌ في عصره، ثم تمسكوا بعد وفاة الرسل بهذا الاتباع ولم يشركوا بالله شيئًا، وعملوا الصالحات، حتى بعث الله رسوله محمدا، عليه السلام.

وهؤلاء الذين اتبعوا كل رسول في عصره، والذين اتبعوا النبي الخاتم، عليه السلام، هم الذين وعدهم الله بقوله:

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ذلك أن الله أرسل نبيه الخاتم محمدًا، عليه السلام، للناس جميعًا فقال تعالى «المائدة / ١٥»:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾.

فما معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾؟!

إن «أَهْلَ الْكِتَابِ» مأمورون باتباع النور والكتاب الخاتم الذي جاء به رسول الله محمد، عليه السلام.

ويقول الله تعالى «المائدة / ١٩»:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾.

إن «أَهْلَ الْكِتَابِ» مأمورون باتباع النور والكتاب الخاتم الذي جاء به رسول الله محمد، عليه السلام.

ثانيًا:

قول الله تعالى «المائدة / ٦٩»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

ولقد جاءت هذه الآية في سياق يبدأ بالآية «٦٨»:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

ثم قال تعالى «الآية ٦٩»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾.

ثم قال تعالى بعدها «الآية ٧٠»:

﴿ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴾.

وهكذا نرى أن هذه «المائدة / ٦٩» قد جاءت في سياق بيان تذكير «أَهْلَ الْكِتَابِ» بما فعله أسلافهم مع رسلهم وقتلهم الأنبياء بغير حق، ولذلك نقول فيها ما قلناه في الآية «البقرة / ٦٢».

ثالثًا:

قول الله تعالى «الحج / ١٧»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

ولقد جاءت هذه الآية في سياق يبدأ بالآية «١٥»:

* ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

ثم قال تعالى «الآية ١٦»:

* ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾.

ثم جاءت الآية «١٧»:

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

وجاءت بعدها «الآية ١٨»:

* ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

وهنا نلاحظ اختلاف السياق عن سياق آيتي البقرة والمائدة، ذلك أنه يتحدث عن تأييد الله ونصره للمؤمنين أتباع الدين الحق، وبيان أن الفصل بين أهل الملل المختلفة سيكون يوم القيامة، وأضاف إلى الملل المجوس والمشركين.

ولم يذكر في هذا السياق جملة: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا».

التي ذُكرت في آيتي البقرة والمائدة، ذلك أن المجوس والمشركين لا يؤمنون «بالله واليوم الآخر» ولا يوحدون الله تعالى، فالمجوس يعبدون إلهين: إلها للخير، وإلها للشر، والمشركون يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا.

كما لم يذكر جملة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ذلك أن آية سورة الحج لا تتحدث عن الشروط الواجب توافرها للنجاة في الآخرة، وإنما عن الفصل بين الملل المختلفة يوم القيامة، فهي خارج موضوع آيتي البقرة والمائدة.

رابعًا:

وحسب ما يقتضيه علم السياق، كان علينا أن نتوقف عند قوله تعالى:

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الذي ورد في آية سورة البقرة، وقوله تعالى:

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الذي ورد في آية سورة المائدة، وعلاقتهما بسياق سورة البقرة، الذي يخاطب الله تعالى فيه «أَهْلَ الْكِتَابِ» ويبدأ بالآية «البقرة / ٤٠-٤١»:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾.

فما معنى قول الله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

إذن فـ «الَّذِينَ هَادُوا»، مأمورون بالإيمان بالنبي الخاتم محمد، عليه السلام، واتباع كتابه.

ثم بعد بيان جانب من قصة بني إسرائيل مع رسولهم موسى، عليه السلام، وضع الله القانون العام للحساب في الآخرة، فقال تعالى «الآية ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم استكمل السياق قصة بني إسرائيل، وأنهم افتروا على الله الكذب، وقولهم «الآية ٨٠»:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم ذكر الله كيف يكون الحساب في الآخرة، فقال تعالى «البقرة / ٨١-٨٢»:

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وعلينا أن نتذكر أن «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» هم الذين آمنوا بالرسل جميعًا كلٌ في عصره، ثم بالنبي الخاتم محمد، عليه السلام، كما بيّنت الآية «البقرة/ ٤٠».

ثم يستكمل السياق قصة بني إسرائيل وموقفهم من رسلهم، فيقول الله تعالى «البقرة / ٨٧-٨٨»:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

ونتدبر قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾.

وهو البرهان على أن أتباع الرسل السابقين مأمورون أن يؤمنوا بكل رسول يرسله الله إليهم واتباع رسالته.

ولقد كانت آخر الرسالات هي رسالة رسول الله محمد، عليه السلام، القرآن الكريم، وهذا ما بيّنه الله بعد ذلك بقوله «البقرة / ٨٩-٩١»:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

* ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ويستكمل السياق قصة بني إسرائيل، ويؤكد على وجوب الإيمان بالنبي الخاتم واتباع رسالته، فيقول الله تعالى «البقرة / ٩٩-١٠١»:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم ينتقل السياق للحديث عن ملل الكفر التي كانت موجودة في عصر الرسالة، فيقول الله تعالى «البقرة / ١٠٥»:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ثم يبين السياق كيف كانت هذه الملل تفتري على الله الكذب، فيقول تعالى «البقرة / ١١١»:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ثم يبين الله ميزان الحساب في الآخرة فقال تعالى «البقرة / ١١٢»:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وعند هذه الآية نكون قد وصلنا إلى المحور الأساس لفهم الموضوع وهو أن هذا الوعد:

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ينطلق من قاعدة إسلام الوجه لله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

فهل هذه الملل التي وعدها الله بهذا الوعد، في سياق الآيات «البقرة / ٦٢، المائدة / ٦٩» ظلت متمسكة بإسلام الوجه لله تعالى بعد وفاة الرسل؟!

وتعالوا نقف على معنى «إسلام الوجه لله»: يقول الله تعالى «آل عمران / ١٩ ـ ٢٠»:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

ونلاحظ قوله تعالى: «فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ».

ثم بيّن الله ما يجب أن تفعله الملل التي كانت موجودة في عصر الرسالة بقوله: «فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا».

إذن فـ «إسلام الوجه لله» بعد بعثة النبي الخاتم وإلى يوم الدين، يقوم على الإيمان به، عليه السلام، واتباع الكتاب الذي أنزل عليه «فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا»، وهذا ما بينته الآية «آل عمران / ٨٤»:

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

ونلاحظ قول الله تعالى «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» ثم قوله بعدها «آل عمران / ٨٥»:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

ولقد وردت الآية «آل عمران / ٨٤» في سياق مشابه في سورة البقرة «الآية ١٣٦»، وقال الله تعالى بعدها:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وبمقابلة الآيتين نعلم وبالدلالة القطعية، أن الله تعالى أمر جميع الملل والنحل التي كانت موجودة في عصر الرسالة، الإيمان برسول الله محمد، واتباع رسالته، وهذا ما جاءت الآية «النساء / ١٧٠» تؤكده، فيقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

والسؤال:

إذا كان جموع الناس، بجميع مللهم ونحلهم، الذين خاطبهم الله بهذه الآية في عصر الرسالة، مأمورين بالإيمان برسول الله محمد «فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ» وباتباع رسالته:

﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

فكيف يدعي د. شحرور أن دخول الجنة لا يُشترط فيه الإيمان بالنبي الخاتم، عليه السلام، واتباع رسالته؟!

٣ ـ ويقول د. شحرور «ص ٣٩»:

تحت عنوان «الإجرام والمجرمون»:

«فإذا أردنا تعميق فهمنا للإسلام والمسلمين في التنزيل الحكيم، فما علينا إلا أن ننظر في تعريف المصطلح المضاد للإسلام وهو الإجرام، والمصطلح المضاد للمسلمين وهو المجرمين.

يقول الله تعالى «القلم / ٣٥ ـ ٣٦»:

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

لقد ورد الأصل «جرم» ومشتقاته ٦٧ مرة في التنزيل الحكيم، وهو أصل واحد في اللسان العربي يعني القطع، ومنه سميت الأجرام السماوية أجرامًا لأنها منفصلة مقطوع بعضها عن بعض، ومنه جاء قوله تعالى «النحل / ١٠٩»:

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْخَسِرُونَ ﴾.

أي أن خسارتهم في الآخرة أمر مقطوع مبتوت به.

وإذا كان المصطلح القانوني المتداول اليوم، يسمي السارق والقاتل والغاضب مجرمًا، فإن الأصل في ذلك أن المجرم هو الذي قطع صلته بالمجتمع وقوانينه وانطلق يجري على هواه، تمامًا كالمجرم في التنزيل الحكيم، الذي قطع صلته بالله، فأنكر وجوده، وكفر باليوم الآخر، وكذب بالبعث والحساب، وهو ما نطلق عليه بمصطلحنا المعاصر اسم «الملحد»:

يقول الله تعالى «القصص / ٧٨»: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

ويقول الله تعالى «يس / ٥٩»: ﴿ وَٱمْتَـٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾.

ويقول الله تعالى «الرحمن / ٤١ ـ ٤٣»:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴿٤٣﴾﴾.

ونحن هنا مع الآيات أمام صور تصف مجرمين ينكرون البعث، ويكفرون بوجود الله، ويكذبون باليوم الآخر، قاموا من أجداثهم بعد نفخة الصور الثانية، فرأوا رأي العين ما كانوا يكذبون بوجوده، فبهتوا دهشة، وبأن ذلك على وجوههم، إلى حد لا يحتاجون معه إلى سؤال وجواب، فهم يؤخذون بدلالة ما ارتسم على وجوههم، ليصلوا النار التي كانوا بها يكذبون.

أما لماذا لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم، فسببه واضح تمامًا:

أولًا: لأن المجرم إنسان ملحد لا يؤمن بوجود الله، وهذا وحده كاف لأن يعطيه تذكرة مرور إلى جهنم دونما حاجة إلى ميزان أو حساب، إذ ليس له بالأصل أي حساب مفتوح عند الله بحكم قطعة لصلته به.

وثانيًا: لأن الذنوب مع الله كترك الصلاة وإفطار رمضان وإخسار الكيل وتطفيف الميزان، ذنوب قابلة للأخذ والرد والتكفير والمغفرة، لو أن صاحبها آمن مبدئيًا بالله واليوم الآخر.

أما مع المجرم فلا حاجة للسؤال عن الذنوب، وقد تحقق الاجرام بالله والتكذيب بيوم الدين، وقطع الصلة مع الله واليوم الآخر، ومن هنا، من قولنا بقطع الصلة، نفهم قوله تعالى «المدثر / ٣٩ ـ ٤٧»:

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

الصورة هنا لأصحاب اليمين في الجنة، يسألون المجرمين ماذا أوصلكم إلى النار؟!

فيجيب المجرمون:

لأننا لم نعتنق الإسلام نظريًا وعمليًا، لم نسلّم بوجود الله فقطعنا صلتنا به «لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ»، ولم نسلّم باليوم الآخر «وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ»، ولم نقدم عملًا ينفع الخلق «وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ» بل عملنا ما يسيء ويضر «وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ» إلى أن رأينا يقينًا كل ذلك حاضرًا، فانتهينا إلى ما ترون.

ثم يقول د. شحرور «ص ٤١»:

«ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المصلين في الآية هم مقيمو الصلاة، إلا أننا حين رجعنا إلى آيات التنزيل الحكيم، لم نجده يطلق اسم المصلين على القائمين بالصلاة هذا من جهة، من جهة أخرى ترك الصلاة أو الصيام لا علاقة له بالإيمان بالله واليوم الآخر، ومرتكبوها ليسوا مجرمين، بحيث ينطبق عليهم وصف التنزيل الحكيم.

نقول هذا ونحن نستذكر قوله تعالى «الماعون / ١ ـ ٧»:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

فالشبه كبير بين سورة المدثر وسورة الماعون، لأن التكذيب بيوم الدين كالكفر بوجود الله، يخرج الإنسان من دائرة الإسلام إلى دائرة الإجرام.

ولهذا فنحن أميل إلى أن المقصود في السورتين بالمصلين، هو «الصلة» وليس من الصلوة «الركوع والسجود».

ويقول د. شحرور «ص ٤٦»:

«إن للمجرمين في التنزيل الحكيم صفات مميزة يعرفون بها:

١ ـ فهم لا يخفون أنفسهم «الرحمن / ٤١»:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

٢ ـ ويضحكون من المسلمين المؤمنين بالله واليوم الآخر ويستهزئون بهم «المطففين / ٢٩»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾.

٣ ـ وقطعوا كل صلة لهم بالله، بدلالة تسميتهم مجرمين.

٤ ـ ليس لهم وقفة أمام الله في الآخرة، وليس لهم حساب مفتوح عنده، إذ ليس مع الإجرام ذنب «القصص / ٧٨»:

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وهذه الصفات التي اختاروها لأنفسهم، هي التي تدخل بهم إلى أعمق وديان جهنم، وتميزهم عن المسلمين المؤمنين الذين شاب صلوتهم المكتوبة سهو أو غفلة لسبب أو لآخر.

ونختم مقالنا بقولنا: إن الإسلام لا يتم إلا بالصلة بالله: «الإيمان بالله واليوم الآخر»:

وقد ورد ذلك في قوله تعالى «الأنعام / ١٦٢ ـ ١٦٣»:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

نلاحظ في آيتي الأنعام أن الصلاة جاءت من الصلة وجاء في آخر الآية ذكر المسلمين.

أما قوله «وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»:

فتعني أن الإسلام الذي بدأ بنوح آل إلي، أي انتهى بي، وإلا فكيف يكون نوح من المسلمين وإبراهيم أبا المسلمين، ثم يصبح محمد أول المسلمين؟!

هنا الأول بمعنى النهاية والمآل، وهذا ينطبق مع قوله تعالى: «وأنا أول المسلمين = اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا».

«وأنا أول المسلمين = ولكن رسول الله وخاتم النبيين».

كما ورد في سورة المعارج وهي مكية قوله تعالى «المعارج / ١٩-٢٣»:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وكذلك قوله تعالى «المعارج / ٣٣-٣٥»:

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ونلاحظ أن الصلاة جاءت في الحالتين من «الصلة» وليس من «الصلوة»، لأن سورة المعارج من السور المكية.

*** أقول:**

إن كل ما ذكره د. شحرور سابقًا، ما هو إلا «قص ولصق» لآيات مستقطعة من سياقاتها لصالح «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي اتبعها في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

ألم يفكر د. شحرور يومًا لماذا سبق الإيمان العمل الصالح في معظم آيات التنزيل الحكيم؟!

لقد سبق الإيمان العمل الصالح لأن العمل هو «الإسلام»، أي هو الصورة العملية لـ «الإيمان» وليس العكس، «الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ»، فلا عمل صالح دون إيمان يسبقه، ولذلك خاطب الله تعالى «الذين آمنوا» بأحكام الشريعة.

ولن نجد مطلقًا أن الخطاب جاء لـ «الذين أسلموا»، ذلك أن الالتزام بأحكام الشريعة يجب أن يسبقه «إيمان» بمن أنزل هذه الأحكام، وإيمان بمن بلغها.

إن المنافقين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ويعيشون بين المسلمين باعتبارهم منهم «البقرة / ١٤»:

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾.

وكانوا يقولون لرسول الله محمد، عليه السلام، «المنافقون / ١-٣»:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

ونلاحظ العلاقة بين «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ»، والذي هو عمل يُظهر «الإسلام والتسليم»، وقوله تعالى «إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم يأتي البرهان قطعي الدلالة على أن «الإيمان» محله القلب، وأنه يسبق «العمل» والخضوع والتسليم، فقال تعالى بعدها:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

إن المنافقين يُظهرون التسليم والعمل بأحكام الشريعة، ولذلك فعملهم هذا ليس عملا صالحا لأنه لم يقم على تصديق القلب: «الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ».

إن وصف «العمل» بأنه «صالح» لا يتحقق إلا إذا سبقه تصديق القلب، وإلا كان عملا كأي عمل يقوم به الناس وإن صعدوا به إلى القمر، فأحكام الشريعة لا يخاطب الله تعالى بها إلا «الَّذِينَ آمَنُواْ»:

يقول الله تعالى «البقرة / ١٧٢»:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

إن قوله تعالى «إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» يتعلق بتصديق القلب، وقوله تعالى «كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» يتعلق بتصديق الجوارح، أي بـ «الإسلام والتسليم».

ويقول الله تعالى «البقرة / ١٨٣»:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

فهذا حكم من أحكام الشريعة، يقابله بعد ذلك بيان للقاعدة التي يجب أن ينطلق منها، فيقول الله تعالى بعد بيان أحكام الصيام «البقرة / ١٨٦»:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

فأين نذهب يا د. شحرور بقول الله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾؟!

٤ ـ ويقول د. شحرور «ص ٥١»: بعنوان «الإيمان والمؤمنون»:

«نبدأ القول في الإيمان، فنقرأ قوله تعالى «النساء / ١٣٦»:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ... (١٣٦) ﴾.

وقول الله تعالى «التوبة / ١٢٤-١٢٥»:

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾.

وقول الله تعالى «الحديد / ٢٨»:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وقول الله تعالى «محمد / ٢»:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾.

ونلاحظ في الآيات الثلاث الأولى أن فعل آمنوا يتكرر مرتين في كل آية، فلماذا؟!

ما معنى أن يخاطب تعالى الذين آمنوا، فيأمرهم بأن يؤمنوا بالله ورسوله، إلا إذا كان هؤلاء لم يؤمنوا بعد برسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله؟!

وما معنى أن يأمر تعالى الذين آمنوا بأن يتقوا الله ويؤمنون برسوله، إلا إذا كان المخاطبون ليسوا من المتقين، ولم يؤمنوا بعد برسوله؟!

وما معنى أن يأمر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن يؤمنوا بما نزل على محمد، إلا إذا كان هؤلاء لم يصدقوا بالرسالة المحمدية بعد؟!

ولا نحتاج مع هذه الآيات إلى تأمل كثير، لربط دلالاتها مع ما قلناه عن الإسلام والمسلمين، فإذا فهمنا أن «الإسلام» هو: «الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»

فهمنا أن المقصود بالذين آمنوا في الآيات الثلاث هم: «الذين آمنوا بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»

وأن الله يطلب منهم أن يؤمنوا برسوله محمد وما نزل على محمد.

هنا يتضح ما قلناه من أن التنزيل إيمانين، ونوعين من المؤمنين، وأن في التنزيل كفرين مقابلين لهما وردا في قوله تعالى «النساء / ١٣٧»:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾.

❊ أقول:

سأبدأ بما انتهى إليه د. شحرور، لمزيد بيان لهذه «المنهجية الانتقائية العشوائية» التي يتبعها في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم.

يقول د. شحرور:

«هنا يتضح ما قلناه من أن التنزيل إيمانين، ونوعين من المؤمنين، وأن في التنزيل كفرين مقابلين لهما»

وجاء بالبرهان على ذلك وهو قول الله تعالى «النساء / ١٣٧»:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾.

ظنا منه أن «الَّذِينَ آمَنُواْ»، التي وردت مرتين، تعني «إيمانًا حقيقيًا»، والحقيقة أنها تعني «نفاقًا حقيقيًا»، ولا علاقة لها مطلقًا بسياق الاستدلالات العشوائية التي جاء بها د. شحرور، ويبدو أن نظره لم يقع على الآيتين «النساء / ١٣٨-١٣٩» بعدها، وقول الله تعالى:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾.

ثم هل لم يسمع د. شحرور يوما عن قول الله تعالى «الأنفال / ٢»:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ـ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ـ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ـ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾؟!

٥ ـ ويقول د. شحرور «ص ٥٣»:

«والفطرة هي الإسلام، فالفطرة التي توحي للنمل أن يدخل مساكنه كيلًا تدوسه الأقدام، وتوحي للسلاحف أن تحفر على السواحل لتضع بيوضها، هي ذاتها التي توحي للإنسان أنما إلهه إله واحد، ونقرأ قوله تعالى «الكهف / ١١٠»:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

وقوله تعالى «النحل / ٦٨»:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾.

ولما كانت الفطرة من صنع الله الذي فطر الناس عليها، فلا منة لأحد غيره فيها، وذلك واضح في قوله تعالى «طه / ٣٧-٣٨»:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ﴾.

والفطرة لا تحتاج إلى رسالة سماوية ولا إلى تعليم، لكن الإيمان من حيث هو شعائر، ومن حيث هو سلوك وعمل، يحتاج إلى هداية وتعليم، والفضل فيه لله الذي أرسل الرسل بالهدى ونور الحق، يعلمون الناس الشعائر التي تقرب العباد من ربهم.

وهكذا نفهم أيضًا قوله تعالى عن الذين كفروا بمحمد (ﷺ) بأن الإسلام هو الحد الأدنى المطلوب من الناس، وذلك في قوله تعالى «الحجر / ٢» ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾.

من هنا نرى أن «أركان الإيمان» لا تتضمن: «التسليم بوجود الله واليوم الآخر والعمل الصالح».

فتلك «أركان الإسلام» كما أسلفنا، التي يجب أن تتوفر في الإنسان المتقدم من دائرة الإسلام إلى دائرة الإيمان.

*** أقول:**

إن هذه «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي يتعامل بها د. شحرور مع آيات التنزيل الحكيم بدعوى «المعاصرة»، منهجية ساقطة من قواعدها، ذلك أن كل مراجع اللسان العربي الذي نزل به القرآن، لا تحمل دليلًا واحدا يشهد بصحة هذه المنهجية.

فكيف يتقدم الإنسان من دائرة الإسلام، «أي التسليم»، إلى دائرة الإيمان، «أي التصديق»؟!

هل الإنسان يُصدّق أولًا ثم يتخذ قراره، أم يتخذ قراره ثم يُصدّق؟!

إن «الإسلام» ليس «التسليم بوجود الله وباليوم الآخر»، ذلك أن «التسليم» يكون لشيء موجود في «عالم الشهادة»، والله تعالى والملائكة واليوم الآخر، من عالم الغيب الذي نؤمن به كأصل من أصول الإيمان.

ثم يستكمل د. شحرور حديثه ويقول:

يقول تعالى «الأحقاف / ١٥»:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ

عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

ونرى أن الإنسان يتجه بفطرته بادئ ذي بدء إلى وجود الله الخالق، فيقوده ذلك إلى الاعتقاد بأن لهذا الكون المخلوق نهاية، بعد ذلك يبحث عن الطريق إلى الله، للتعرف على ما يريده ربه منه، فيصدق بكتبه ورسله التي ترسم له هذا الطريق، ويبدأ بتطبيق الوارد فيها.

وعلى هذا تصبح أركان الإيمان بمحمد (ﷺ) ورسالته تقوم على محاور، نلاحظ أنها توجهت جميعًا في التنزيل الحكيم إلى: «المؤمنين بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»:

أ: الإيمان بمحمد (ﷺ) وبما أنزل عليه «محمد / ٢»:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

ب: إقام الصلاة «النساء / ١٠٣»:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

ج: إيتاء الزكاة «المؤمنون / ١-٤»:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

د: صوم رمضان «البقرة / ١٨٣»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

هـ: حج البيت «آل عمران / ٩٧»:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

و: الشورى «الشورى / ٣٨»:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

ز: القتال في سبيل الحرية ورفع الظلم ولا إكراه في الدين «البقرة / ٢١٦»:

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

❋ أقول:

سأتوقف عند آية واحدة، وهي «الشورى / ٣٨»، لأنها تكفي لإسقاط حجية كل الآيات التي استقطعها د. شحرور من سياقاتها لصالح «الفلسفة المادية للوجود».

إن الله تعالى يقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

ولقد جاءت هذه الآية في سياق بيان صفات المؤمنين، فالآية التي قبلها تقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾.

والآية التي بعدها تقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾.

وإن اسم الموصول «الَّذِينَ» يشير إلى المؤمنين الذين من «صفاتهم» أنهم بعد أن آمنوا بالله وأقروا بالوحدانية، كان من مقتضى ذلك أن يستجيبوا لكل ما يأمرهم به الله «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ»، ومن ذلك التسليم لأحكام الشريعة والالتزام بها:

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

إن التسليم لأحكام الشريعة من مقتضيات «الإيمان» وليس هو «الإيمان»، ذلك أن «الإسلام» عمل الجوارح، و«الإيمان» عمل القلب، ولذلك كان الإسلام والتسليم لأوامر الله بعد تصديق القلب، وخير برهان على ذلك قوله تعالى «الأنعام / ١٦٢ ـ ١٦٣»:

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

ونتدبر جيدا جملة «وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» فقد أسلم بعد أن سجد قلبه لله تعالى وخضع لحكمه وأمره، وهذا ما تؤكده الحالة الإيمانية التي وصل إليها سحرة فرعون بعد أن سجدت قلوبهم لـ«الآية الحسية» التي أيد الله بها موسى، عليه السلام.

يقول الله تعالى «الأعراف / ١٢٣ ـ ١٢٦»:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

إن قول سحرة فرعون «وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا» خير برهان على أن «الإيمان» تصديق القلب، وبرهان ذلك الإسلام والتسليم، وهذا ما طلبه سحرة فرعون من ربهم بعد قولهم «آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا» قالوا «وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ».

ولماذا قالوا «وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» ولم يقولوا «وَتَوَفَّنَا مؤمنين»؟!

إن الإجابة على هذا السؤال هي خير برهان على أن «الإيمان» يسبق «الإسلام».

إن سحرة فرعون لم يكن عندهم أدنى شك في صدق إيمان قلوبهم بـ«نبوة» موسى عليه السلام، وإنما كان تخوفهم من أن يفتنهم العذاب الذي توعدهم به فرعون «طه / ٧١ ـ ٧٣»:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

فماذا قالوا؟!

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ ـ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ ـ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ ـ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

ثم تأتي الآية التي تجيب على السؤال لماذا لم يقولوا «وَتَوَفَّنَا مؤمنين»؟!

لقد كان «الإيمان» راسخًا في قلوبهم، ولذلك قالوا:

«إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ـ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ـ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ـ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى»

ثم يستكمل د. شحرور حديثه فيقول:

«بعد هذا كله نخلص إلى أن الإسلام أعم من الإيمان، فهو دين عام إنساني لكل أهل الأرض، ولهذا سمي الدين الإسلامي وليس الدين الإيماني، ولهذا أيضًا قال تعالى «آل عمران / ١٩»:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾.

وقال تعالى «آل عمران / ٨٥»:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

❊ أقول:

إن «دين الإسلام» نظام ومنهج لحياة الناس، قائم على إقرارهم وتصديقهم بالوحدانية، وبأصول الإيمان، فهل يُعقل أن يأتي التسليم بالنظام أولًا، ثم بعد ذلك يأتي التصديق بالوحدانية؟!

ثم يستكمل د. شحرور حديثه فيقول:

ونخلص إلى أن «أركان الإسلام» هي:

الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»: «الأخلاق والمعاملات».

و«أركان الإيمان» هي: التصديق بالرسل والرسالات والشعائر والشورى والقتال.

وأن الله أخبر رسوله في التنزيل الحكيم بأن كل أهل الأرض لن يكونوا مؤمنين أي من أتباعه، ولا يجوز إكراههم على ذلك بقوله تعالى «يونس / ٩٩»:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

«ومن هنا نفهم الآية التي زعموا أنها تحوي أركان الإيمان وهي قوله تعالى «البقرة/ ٢٨٥»:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

هنا نلاحظ قوله المؤمنون جاءت بعد الرسول، وبما أن أتباع محمد (ﷺ) هم المؤمنون قال «وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ» وبما أن أركان الإيمان تكاليف ضد الفطرة جاءت الآية التي تليها تقول «البقرة / ٢٨٦»:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ...﴾.

*** أقول:**

حتى علم السياق د. شحرور لا يفقه فيه شيئًا:

الرسول + المؤمنون: آمنوا بما أنزله الله.

كُلٌّ، أي من الرسول والمؤمنين:

«آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ»، أي آمن بأصول الإيمان، فكيف نحول لفظ «آمن» إلى «أسلم» لنجعل «الإيمان بالله» من أركان الإسلام؟!

ثم يستكمل د. شحرور حديثه ويقول:

«وننتقل بعد أن تبين أمامنا الفرق بين الإسلام والإيمان، لإزالة التناقض بين: قوله تعالى «آل عمران / ١٠٢»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

وقوله تعالى «التغابن / ١٦»:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وقوله تعالى «البقرة / ٢٨٦»:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

ونفهم أن التقوى تكليف، ونفهم أن التكليف يتناسب مع الوسع والاستطاعة، ولكن بما أن الاستطاعات تتفاوت من إنسان لآخر، فستأتي التقوى متفاوتة من إنسان إلى آخر، وهذا يتعارض مع الآية الأولى التي تأمر الذين آمنوا بأن يتقوا الله حق تقاته، أي بغض النظر عن الوسع والاستطاعة، فما المخرج هنا؟!

والحل ببساطة يكمن في نهاية الآية الأولى وفي أولها، فهي تبدأ الخطاب موجهًا إلى الذين آمنوا، ولما كنا قد أسلفنا بوجود إيمانين في التنزيل، فأيهما المقصود هنا؟!

وتأتي نهاية الآية لتوضيح أن المقصود هم: «المؤمنون بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»: أي المسلمون.

*** أقول:**

إذن فهناك إيمان «بالله واليوم الآخر» من أقر به أصبح «مسلمًا»، وهذا يعني أن «الإيمان» يسبق «الإسلام»، وإلا قلنا:

«المسلمون بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»: أي المؤمنون.

ويستكمل د. شحرور حديثه ويقول:

«أما الآية الثانية فموجهة إلى المؤمنين بمحمد (ﷺ) ورسالته بما فيها من تكاليف، إن المطلوب في تعاليم الإسلام أن تطبق حق تطبيقها كاملة:

أ: فليس هناك إيمان بوجود الله ما استطعنا.

ب: وليس هناك إيمان نبذل فيه كل جهدنا بأن الساعة آتية.

ج: وليس هناك اجتناب لشهادة الزور وللغش في المواصفات على قدر الاستطاعة والوسع، كأن يأتينا من يقول إنه بذل جهده بألا يزني فلم يستطع، أو أنه حاول وسعه بألا يقتل فلم يقدر، فنقول له نحن: أحسنت، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

٦ ـ إن معظم الملل والنحل تدّعي «الإيمان بالله واليوم الآخر»، وهنا تظهر أهمية «علم السياق» كأداة من أدوات فهم القرآن، ذلك أن هذا «الإيمان» لا يكون أبدا بمعزل عن الإيمان بصدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، وهذا ما بينته كثير من الآيات وفي مقدمتها قول الله تعالى «الأعراف / ١٥٧»:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ـ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ـ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ـ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ـ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾.

فكيف يدخل «اليهود والنصارى» الجنة، بدون اتباع رسول الله محمد، عليه السلام، وقد اشترط الله تعالى شرطا للفلاح في الآخرة وهو وجوب الإيمان برسوله محمد فقال تعالى بعدها:

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ ـ وَعَزَّرُوهُ ـ وَنَصَرُوهُ ـ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ـ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾؟!

ثم تعالوا نتدبر ماذا قال الله تعالى بعدها «الأعراف / ١٥٧» مخاطبًا الناس جميعًا:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ ﴾. ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ـ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ـ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ـ وَكَلِمَٰتِهِۦ ـ وَٱتَّبِعُوهُ ـ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

*** أقول:**

لقد أيد الله تعالى رسوله محمدًا بـ «آية قرآنية عقلية» دالة على صدق «نبوته» وبلاغه عن الله، وجعل الله الإقرار بصدق هذه الآية هو باب الدخول في «دين الإسلام»، وخاطب الناس جميعًا بقوله تعالى «البقرة / ٢٣ ـ ٢٤»:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وبناء على الإيمان والإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية»، التي عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثلها «الإسراء / ٨٨»:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

يقوم «الإيمان والعمل الصالح» الذي بشر الله أصحابه بالجنة فقال تعالى بعد الآيتين السابقتين «البقرة / ٢٥»:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ـ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ ـ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ ـ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ ـ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ ـ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ ـ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾.

إن «الإسلام والتسليم» يقومان على «تصديق القلب»، فإذا آمن الإنسان بالله، وأقر بأصول الإيمان، فإن مقتضى ذلك أن يُسلم وجهه لله تعالى ويُسلّم لحكمه تسليما، وهذا معنى قول الله تعالى «آل عمران / ١٩»:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ـ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ـ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ ـ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ـ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ـ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

وقوله تعالى «آل عمران / ٨٥»:

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

وإن قول الله تعالى «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ»، وقوله تعالى «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ»، لا فعالية لهما بعد بعثة رسول الله محمد إلا بعد الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، الذي أنزل الله تعالى عليه «دين الإسلام» الخاتم.

٧ ـ يستند الذين حكموا بدخول «اليهود والنصارى» الجنة إذا آمنوا بالله وباليوم الآخر وعملوا صالحا دون اتباع النبي الخاتم محمد، عليه السلام، إلى قول الله تعالى «الآيات ١١٣-١١٥»:

* ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾.

* ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

* ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

فيقولون إن هذه الأمة القائمة هم «اليهود والنصارى» الذين نزل فيهم قوله تعالى «البقرة / ٦٢»:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

وأن «آيَاتِ اللّهِ» التي كان «اليهود والنصارى» يتلونها هي «التوراة والإنجيل».

فتعالوا نحصر الآيات التي وردت فيها «تلاوة آيات الله» وهل كان من بينها ما يتعلق بتلاوة «التوراة والإنجيل»:

- في سياق دعوة إبراهيم عليه السلام، يقول الله تعالى «البقرة / ١٢٩»:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

- في سياق بيان نعم الله على قوم رسوله محمد «البقرة / ١٥١»:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾.

- في سياق وصف ما أنزله الله على رسول الله محمد، عليه السلام، «البقرة / ٢٥٢»:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

- في سياق بيان وجوب الإيمان برسول الله محمد واتباع كتابه «آل عمران / ١٠١»:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

- في سياق بيان نعم الله على المؤمنين «آل عمران / ١٦٤»:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

- في سياق بيان صفات المؤمنين «الأنفال / ٢»:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

- في سياق بيان مكر الكافرين ومحاجتهم بالآيات «الأنفال / ٣١»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

- في سياق بيان موقف قوم المشركين وأهل الكتاب من القرآن «يونس / ١٥-١٦»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

- ويقول الله تعالى «الرعد / ٣٠»:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

ويقول الله تعالى «الإسراء ١٠٧»:

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾.

ونلاحظ أن «الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ» هم من أهل الكتاب الذين آمنوا بما بشرت به كتبهم ببعثة رسول الله محمد، عليه السلام، ويؤيده قول الله تعالى «القصص / ٥٢ ـ ٥٤»:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى عنهم «المائدة ٨٣ ـ ٨٥»:

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «سبأ / ٤٣»:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «مريم / ٧٣»:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «الحج / ٧٢»:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ

يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «الجاثية ٦ ـ ٨»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «الجاثية / ٢٥»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «الجاثية / ٣١»:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «الجمعة / ٢»:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ـ ويقول الله تعالى «الطلاق / ١١»:

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

ـ في سياق بيان علم الله المطلق، يقول الله تعالى «يونس / ٦١:

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

ـ وفي سياق بيان موقف المكذبين بآيات الله في الآخرة «المؤمنون / ٦٦»:

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾.

ويقول الله تعالى «المؤمنون / ١٠٥»:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾.

ويقول الله تعالى «المطففين / ١٢ ـ ١٣»:

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

ـ وفي سياق بيان أن الله لم يأمر رسوله بتلاوة غير القرآن «النمل / ٩٢»:

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾.

ـ وفي سياق بيان إيمان الذين آتاهم الله الكتاب بالقرآن «القصص / ٥٣»:

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

ـ رفي سياق الحديث عن نساء النبي «الأحزاب / ٣٤»:

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾.

ـ وفي سياق بيان تلاوة أمة من أهل الكتاب لآيات الله «آل عمران / ١١٣»:

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾.

والسؤال: فأين «القرينة» الدالة على أن قوله تعالى في هذه الآية الأخيرة «يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ» يعني تلاوة «التوراة والإنجيل» وليس تلاوة آيات التنزيل الحكيم؟!

فهل يُعقل أن يكون المعنى هو تلاوة «التوراة والإنجيل» وقد نص الله تعالى على تحريفهما «البقرة / ٧٩»:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾؟!

ألم يقل الله تعالى عن أهل الكتاب «آل عمران / ٧٨»:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ

ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾؟!

* **أقول:**

لقد قصدت بحصر الآيات المتعلقة بتلاوة آيات التنزيل الحكيم وذكرها نصا في سياق الرد على إلحاد د. شحرور في الآيات المتعلقة بوجوب الإيمان بـ «نبوة» رسول الله محمد واتباع كتابه، قصدت أن يكون ذلك نموذجا لـ «المنهجية الموضوعية» عند التعامل مع آيات التنزيل الحكيم.

والحقيقة أن عدد صفحات البابين الثاني والثالث كانت لا تقل عن عدد صفحات الباب الأول، ونظرًا لظروف النشر وتسويق الكتاب من حيث عدد صفحاته، اكتفيت بما ذكرته في البابين.

الباب الثالث

نحو إسلام **الرسول**

الرسول: الآية القرآنية العقلية

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت / ٥١]

الآية القرآنية العقلية
ونقض منهجية القراءة المعاصرة

إن «الآية» في السياق القرآني هي «البرهان» على الوحدانية وفعالية أسماء الله الحسنى في الآفاق والأنفس، وعلى صدق «نبوة» الرسل.

و«المعجزة» في السياق القرآني، هي قدرة بعض الناس على الإتيان بخوارق العادات التي يعجز الناس عن الإتيان بمثلها، كـ «أعمال السحرة».

ولم يسم الله تعالى «الآيات» الدالة على صدق نبوة الرسل «معجزات» لأنه سبحانه منزه عن أن يُعجز أحدًا أو يتحداه، وعندما طلب الكافرون من رسول الله محمد، عليه السلام، البرهان على صدق «نبوته»، وقالوا «العنكبوت / ٥٠»:

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قال الله تعالى لهم «العنكبوت / ٥١»:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

و«الآية الإلهية» تنطلق من عالم «الخلق والأمر» القائم على فاعلية أسماء الله الحسنى في هذا الوجود وقوله تعالى «يس / ٨٢»:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وقوله تعالى «الأعراف / ٥٤»:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أما «المعجزة» فتنطلق من عالم «الأسباب» القائم على قدرات البشر في استخدام وتوظيف السنن الكونية، ولذلك عندما أرادوا إحراق إبراهيم، عليه السلام، وفق عالم الأسباب، تركهم الله يفعلون ما يريدون، وأوقف فعالية الحرق بكلمة «كن»، وتحوّلت مسألة نجاة إبراهيم من الحرق إلى «آية للعالمين» بفعالية قول الله تعالى «الأنبياء / ٦٩»:

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

والبرهان على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، «آية» وليس «معجزة»، كما قد يفهم البعض من قوله تعالى «البقرة / ٢٣»:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

لقد طلب الله تعالى من الإنس والجن أن يجتمعوا و«يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ»، فماذا قال الله تعالى عن موقف الإنس والجن من هذا الطلب؟!

قال تعالى «الإسراء / ٨٨»:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

فلماذا ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾؟!

لأن الإنس والجن يعلمون أن المطلوب ليس الإتيان فقط بجمل قرآنية عربية بمعزل عن «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، ذلك أن الكلمة يستحيل فهمها بمعزل عن «مقابلها الكوني» الموجود خارجها.

ولذلك قال تعالى للناس من قبل أن يفعلوا شيئًا «البقرة / ٢٤»:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال تعالى «الإسراء / ٨٨»:

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

ولذلك عندما تعهد الله تعالى بحفظ التنزيل الحكيم، لم يقتصر الحفظ على الآيات المكتوبة «الكتاب» المقروءة «القرآن» بمعزل عن «مقابلها الكوني» الذي يستحيل تذكر الكلمة بمعزل عنه، وهذا ما أفاده قول الله تعالى «ص / ١»:

﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾.

وقوله تعالى «الطلاق / ١٠ ـ ١١»:

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ... ﴿١١﴾﴾.

إن تلاوة الرسول لـ «آيات الله المبينات» لا تنفصل مطلقًا عن «مقابلها الكوني» في الآفاق والأنفس، لأن «الحق» ليس فقط داخل التنزيل الحكيم وإنما في تفاعل ما بداخله مع العالم المشاهد:

يقول الله تعالى «فصلت / ٥٣»:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

ولذلك كان الشرط الأساس لدخول الإنسان في «دين الإسلام» هو الإيمان بصدق التفاعل بين آيات التنزيل الحكيم ومقابلها الكوني، وهو ما أسميه في توجهي الديني «نحو إسلام الرسول» باسم: «الآية القرآنية العقلية».

إذن فنحن أمام «آية» وليس «معجزة».

*** أقول:**

ومع أني لا أفضل استخدام لفظ «التحدي» أو «الإعجاز»، إلا أني مضطر في عرض هذا الموضوع إلى استخدامهما لتعود الناس عليهما منذ قرون مضت.

كما أني سأستخدم لفظ «القرآن» باعتباره «التنزيل الحكيم» الذي يبدأ بسورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس، وليس باعتباره «الآيات المتشابهات» فقط كما يدعي د. شحرور.

أولًا:

لقد وردت كلمة «آية» في التنزيل الحكيم على النحو التالي:

١ ـ بيان دلائل الوحدانية وحجية أصول الإيمان:

أ: يقول الله تعالى «يوسف / ١٠٥»:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾.

ب: يقول الله تعالى «الإسراء / ١٢»:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

ج: يقول الله تعالى «البقرة / ٢٥٩»:

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾.

٢ ـ البرهان على صدق «نبوة» الرسل:

يقول الله تعالى «الرعد/ ٣٨»:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾.

أ: **البرهان الحسي**: لقد كان الناس، قبل الرسالة الإلهية الخاتمة، يؤمنون بخوارق العادات فأرسل الله إليهم الرسل بـ «الآيات الحسية» التي يشاهدونها بأعينهم، ويدخلون في «دين الإسلام» على أساسها إقرارهم بصدقها.

يقول الله تعالى «البقرة / ٢١١»:

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ويقول الله تعالى «طه / ٢٢ ـ ٢٣»:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

ب: **البرهان العقلي**: وعندما نزلت الرسالة الإلهية الخاتمة، توقع الناس أن يؤيد الله رسوله محمدا بالآيات الحسية كما أيد الأولين:

يقول الله تعالى «الأنبياء / ٥»:

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

ويقول تعالى «العنكبوت / ٥٠»:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

ثم جاء بعدها القول الحاسم البليغ، فقال تعالى «العنكبوت / ٥١»:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

٣ ـ كما تأتي كلمة «آية» بمعنى العذاب الذي ينزله الله بالأمم:

فيقول الله تعالى «الأعراف / ٧٣»:

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ويقول الله تعالى «الشعراء / ١٥٥ ـ ١٥٦»:

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

فنلاحظ أن «الآية» في هذا السياق ليست هي الناقة، وإنما «العذاب» الذي أنزله الله على الذين تعرضوا لها بسوء:

يقول الله تعالى «الشعراء / ١٥٧ ـ ١٥٨»:

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

٤ ـ كما تأتي كلمة «آية» في سياق أخذ العظة والعبرة: يقول الله تعالى «آل عمران/ ١٣»:

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ﴾.

ويقول الله تعالى «يونس/ ٩٢»:

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾.

ويقول الله تعالى «هود/ ١٠٣»:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾.

٥ ـ وتأتي كلمة «آية» للتعبير عن جزء من «التنزيل الحكيم»: يقول الله تعالى «الرعد/ ١»:

﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.

فقوله تعالى «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ» إشارة إلى آيات سورة الرعد التي هي جزء من سور التنزيل الحكيم «وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ»، ووصفه الله بـ «الْحَقُّ» باعتبار استحالة أن يأتيه «الباطل»، وعدم استطاعة الإنس والجن أن يأتوا بمثل سورة من مثله.

ويقول الله تعالى «الحج / ٧٢»:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

٦ ـ وتأتي كلمة «آية» للتعبير عن الترف والغرور:

يقول الله تعالى «الشعراء / ١٢٨»:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾.

٧ـ وتأتي كلمة «آية» بمعنى نعم الله التي لا تحصى: يقول الله تعالى «سبأ/ ١٥»:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ثانيًا:

أ: يقول د. شحرور «ص ٣٧»:

«ونحن نرى أن التحدّي للناس جميعًا بالإعجاز إنما وقع في: الآيات المتشابهات: القرآن والسبع المثاني

وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات: تفصيل الكتاب حيث إن هذين البندين يشكلان نبوة محمد ﷺ».

ب: ويقول «ص ٣٩»:

«بعد أن أجرينا مسحًا للمصطلحات الأساسية لكتابنا في الباب الأول كانت النتيجة المباشرة لهذا المسح هي إعجاز القرآن».

ج: ويقول «ص ٥٨»:

«فلماذا جاء القرآن كله متشابهًا؟!

وما معنى تصديق الذي بين يديه؟!

هذا السؤال هو من أخطر الأسئلة التي لا يمكن بدون فهمها فهم نبوة محمد ﷺ، ولا يمكن فهم الإعجاز مطلقًا، ولا يمكن فهم كثير من الأحاديث النبوية إن صحت».

❊ أقول:

يرى د. شحرور أن التحدّي بالإعجاز وقع في «الآيات المتشابهات: القرآن والسبع المثاني»، وفي «الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات: تفصيل الكتاب»، بدعوى أن نبوة رسول الله محمد، عليه السلام، كانت فيهما فقط.

أي أن د. شحرور يرى أن التحدّي بالإعجاز كان في الآيات التي في فهمها «إشكاليات» عند الناس، لأنها ليست من «الآيات المحكمات» التي هي «أم الكتاب»، وجعل الإجابة على أخطر الأسئلة:

«لماذا جاء القرآن كله متشابهًا، وما معنى تصديق الذي بين يديه»

هي مفتاح فهم «النبوة» وفهم «الإعجاز».

والحقيقة أنه لا يوجد مسلم عاقل متدبر لآيات التنزيل الحكيم، يقول بهذا الذي قاله د. شحرور عن الآية «البرهان» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، والتي عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثل سورة من سورها، ويبدو أن د. شحرور ظن أن المقصود بـ «ٱلْقُرْآنِ» في قوله تعالى «الإسراء / ٨٨»:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

ظن أنه «القرآن» الذي ألحد في معناه وحصره في «الآيات المتشابهات»:

فماذا يقول د. شحرور في الفرق بين:

* قول الله تعالى عن القرآن «يونس / ٣٧»:

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ثم قوله تعالى بعدها «يونس / ٣٨»:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

* وقول الله تعالى عن الوحي «هود ١٢»:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾.

ثم قوله تعالى بعدها «هود ١٣»:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾؟!

والذي يعني أن «التحدي» كان بـ:

ـ «القرآن»: «وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ».

ـ وبـ «الوحي»: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ».

ـ وبـ «التنزيل الحكيم» كله، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، يوم نزل القرآن يخاطب الناس جميعًا بقوله تعالى «البقرة / ٢١ ـ ٢٢»:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فكيف يجعل الناس لله أندادا وهم يعلمون بوحدانيته وربوبيته يوم سألهم وهم في عالم الغيب «الأعراف / ١٧٢»:

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾؟!

وإذا كانت المشكلة في «النبوات»، فقد أيد الله تعالى كل نبي بـ «الآية»، أي بالبرهان الذي يثبت صدق نبوته، وكانت الآيات «البراهين» حسية، ثم جاءت بالنسبة بالنبي الخاتم رسول الله محمد «قرآنية عقلية» والتي على أساسها قال الله تعالى للناس «البقرة / ٢٣»:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾.

إن قول الله تعالى «نَزَّلْنَا عَلى عَبْدِنَا» يعني أن التحدي كان بـ«التنزيل الحكيم» كله الذي يعلم الله أن الإنس والجن لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله، لذلك قال تعالى «البقرة / ٢٤»:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ـ وَلَن تَفْعَلُواْ ـ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾.

ولقد بيّن الله تعالى جزاء الذين آمنوا بصدق «نبوة» رسوله محمد، واتبعوا «التنزيل الحكيم» كله، فقال تعالى «البقرة / ٢٥»:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

د: ويقول د. شحرور «٦٠»:

«إن إعجاز القرآن ليس فقط بجماله البلاغي كما يقول بعضهم، وليس معجزًا للعرب وحدهم، وإنما للناس جميعًا، وذلك لأن الناس كلًا بلسانه، الإنكليزي بالإنكليزية، والصيني بالصينية والعربي بالعربية...، عاجزون أن يعطوا نصًا متشابهًا، كل في لسانه الخاص، بحيث يبقى النص ثابتًا ويطابق المحتوى الأرضيات المعرفية المتغيرة والمتطورة للناس مع تطور الزمن إلى أن تقوم الساعة».

ويقول «ص ٧٢»:

«ففي الصياغة القرآنية العربية تظهر قمة الجدل الداخلي بين الحقيقة المطلقة للوجود والفهم النسبي الإنساني لهذا الوجود في مرحلة ما، وفي هذا المعنى تكمن قمة إعجاز القرآن للناس جميعًا، على اختلاف عصورهم واختلاف مداركهم تبعًا لاختلاف أرضياتهم المعرفية».

ويقول «ص ٧٧»:

«هنا نرى أن الإعجاز جاء في القرآن فقط، وليس في أم الكتاب إذ أن أم الكتاب ذاتية، وهكذا لا يمكن أن نرى في أي آية من آيات الأحكام مصطلح قال الله، هذا مستحيل».

*** أقول:**

إنه لا يمكن فصل الإعجاز البياني والبلاغي لآيات القرآن «المقروءة» عن مقابلها الكوني «المشاهد» في الآفاق والأنفس، فقد تحدى الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن، أي أن التحدي جاء في المقام الأول تحديا بيانيًا بلاغيًا ولكن دون أن ينفصل عن مقابله الكوني في الوجود الموضوعي لاستحالة فصلهما.

فعلى سبيل المثال:

الفرق بين قول الله تعالى «البقرة / ٤٩»:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى «إبراهيم / ٦»:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

حيث نجد اختلافًا في الآيتين:

«البقرة / ٤٩»: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم ... يُذَبِّحُونَ﴾.

«إبراهيم / ٦»: ﴿إِذْ أَنجَاكُم ... وَيُذَبِّحُونَ﴾.

وذلك بسبب:

ـ الفرق اللغوي في صيغة الفعل: **فالأول** «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم»: متعد بالتضعيف، وجاء بضمير المتكلم.

والثاني: «إِذْ أَنجَاكُم»: متعد بالهمزة، وجاء بضمير الغائب.

ـ الفرق الموضوعي:

في قول الله تعالى «البقرة / ٤٩»:

يخاطب الله تعالى اليهود الموجودين في عصر رسول الله محمد، عليه السلام، يذكرهم بنعمه على آبائهم، وفي مقدمتها نجاتهم من عذاب آل فرعون وكأنهم كانوا يعيشون معهم ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، ويحصر «سُوءَ الْعَذَابِ» في ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

أما في قوله تعالى «إبراهيم / ٦»:

يخاطب موسى، عليه السلام، قومه يذكرهم بنعم الله عليهم، وفي مقدمتها نعمة نجاتهم من عذاب آل فرعون «إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ»، وعند الحديث عن سوء العذاب، أضاف «يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» إلى «سُوءَ الْعَذَابِ»، فاستخدم «واو» العطف في «وَيُذَبِّحُونَ...» لبيان عظم الابتلاء الذي أنقذهم الله منه.

وتعالوا نتدبر قول الله تعالى «النور / ٣٥»:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ - مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ - ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ - ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ - يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ - يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ - نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ - يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ - وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فهل يمكن لأي إنسان فهم كلمة واحدة من كلمات هذه الآية، وبأي لغة من لغات العالم، دون أن تكون الصورة الذهنية لمقابلها الكوني مطبوعة في قلبه من قبل قراءتها؟!

ودون الدخول في تفاصيل تتعلق ببيان معنى الآية، ذلك أن هذه الدراسة ليست تفسيرا للقرآن، فإن المحور الأساس الذي تدور حوله الآية هو «نور الهداية الإلهية»:

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

وهذا «النور» بيّنه السياق القرآني في قوله تعالى «النور / ٣٦»:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

وبيّن من هم هؤلاء الذين يذكرون الله في هذه البيوت «النور / ٣٧-٣٨»:

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾.

وبيّن موقف الذين كفروا من هذا النور «النور / ٣٩»:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ - يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً - حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا - وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ - وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

ثم يبيّن الفرق بين الظلمات والنور بضرب المثل «النور / ٤٠»:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

والسؤال:

إذن فما هو هذا «النور» الذي يهدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم؟!

إنه «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، يقول الله تعالى «النساء / ١٧٤ ـ ١٧٥»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

ويقول الله تعالى في بيان أن الفلاح في اتباع النبي الخاتم رسول الله محمد، عليه السلام، «الأعراف / ١٥٧»:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

❊ أقول:

بعد هذه المقدمة، فإن ما حملته هذه الآية من أساليب بلاغية يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثلها، يحتاج إلى كتاب مستقل لبيانها.

والذي يهمنا في هذا السياق بيانه، والمتعلق بنقض منهجية القراءة المعاصرة، هو أن التفاعل البياني البلاغي بين الآيات المقروءة ومقابلها الكوني، «والذي هو موضوع الإعجاز»، يشمل التنزيل الحكيم كله، بآياته المحكمات «أم الكتاب»، وآياته المتشابهات التي لا يتبعها إلا الذين في قلوبهم زيغ.

ذلك أن النور المبين المُنزل «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا» واجب الاتباع «وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ»، وهنا يلتحم الوجود الموضوعي المشاهد الذي تدركه الحواس،

بالوجود الموضوعي الغيبي الذي لا تدركه الحواس، وهذا ما جاءت الآية «النور / ٣٥» لبيانه: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ»

هـ: ويقول د. شحرور «ص ١٠٦»:

«علمًا بأن آيات خلق آدم كلها قرآن فهي من الآيات المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل، وخير من أول آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير تشارلز داروين».

ثم قال بعدها «ص ١٠٧»:

«إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر الروح في مجال الحياة والموت بتاتًا، ولكن التشابه في آيات خلق آدم، والأرضية المعرفية للسلف جعلتهم يقولون: إن الروح هي سر الحياة، وكان هذا ينسجم مع أرضيتهم المعرفية، وفي هذا يكمن إعجاز القرآن الأكبر وهو الجدل بين النسبي والمطلق، أو الجدل بين المحتوى والمتحرك والنص الثابت».

❊ أقول:

تعالوا نعطي مزيد بيان عن «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي يتبعها د. شحرور في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، والمتمثلة في قوله: «علمًا بأن آيات خلق آدم كلها قرآن ـ فهي من الآيات المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل ـ وخير من أول آيات خلق البشر عندي هو ـ العالم الكبير تشارلز داروين».

إن د. شحرور يتعامل مع شيء من افتراء خياله سماه «آدم البشر»، يرى أنه كان من الفصيلة الحيوانية ثم تطور إلى الفصيلة الإنسانية «آدم الإنسان» عن طريق «نفخ الروح»، وكان من الطبيعي حسب «المنهجية الهرمنيوطيقية» أن يقول إن حلقة «نفخ الروح» هي الحلقة المفقودة في نظريته، التي لم يعثر عليها أحد إلى يومنا هذا.

ويرى أن «العالم الكبير تشارلز داروين» لو كان حيًا بيننا كان هو «خير من أول آيات خلق البشر»، فتعالوا نفترض أن «داروين» كان يعيش مع د. شحرور، وعرض د. شحرور عليه «آيات خلق آدم» المفترض أنها موجودة في التنزيل الحكيم، ليقوم بتأويلها وفق نظريته، فأين هي هذه الآيات؟!

لذلك سأضطر إلى ذكر الآيات التي وردت فيها كلمة «آدم» في التنزيل الحكيم، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، لعلنا نجد من بينها آية يستطيع «العالم الكبير تشارلز داروين» تأويلها حسب نظريته:

* يقول الله تعالى «البقرة / ٣١ ـ ٣٣»:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

فهل هذا هو «آدم» البشر، أم «آدم» الإنسان؟!

* يقول الله تعالى «البقرة / ٣٤ ـ ٣٧»:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

فهل هذا هو «آدم» البشر، أم «آدم» الإنسان؟!

* يقول الله تعالى «آل عمران / ٣٣ ـ ٣٤»:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

فهل هذا هو «آدم» البشر، أم «آدم» الإنسان؟!

* يقول الله تعالى «آل عمران / ٥٩»:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

فهل هذا هو «آدم» البشر، أم «آدم» الإنسان الذي خلقة الله من تراب «وليس من تطور فصيلة حيوانية» ثم قال له كُن فَيَكُونُ»؟!

علما بأنه يستحيل أن يعلم أحد من الإنس أو من الجن معلومة واحدة عن فعالية «ثم» وهل كانت بعد لحظة، أم بعد ساعة، أم بعد قرن من الزمن، ذلك أن الله تعالى يقول «الأنبياء / ٢٣»:

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.

* ويقول الله تعالى «المائدة / ٢٧ ـ ٢٩»:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

إن «ابْنَيْ آدَمَ» كانا يعلمان أن القتل محرم وأنه معصية لله تعالى، فهل كانا من ذرية «آدم البشر» أم «آدم الإنسان»؟!

* يقول الله تعالى «الأعراف / ١١ ـ ١٢»:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

فهل «آدم» الذي سجدت له الملائكة كان «آدم البشر» أم «آدم الإنسان»؟!

* يقول الله تعالى «الأعراف / ١٩ ـ ٢٣»:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا

سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

فهل الحديث هنا عن «آدم البشر» أم عن «آدم الإنسان»؟!

❊ يقول الله تعالى «الأعراف / ٢٦ ـ ٢٧»:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

فهل الحديث هنا عن «آدم البشر» أم عن «آدم الإنسان»؟!

❊ يقول الله تعالى «الأعراف / ٣١»:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

فهل الحديث هنا عن «آدم البشر» أم عن «آدم الإنسان»؟!

❊ يقول الله تعالى «الأعراف / ٣٥ ـ ٣٦»:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وهل الحديث هنا عن «آدم البشر» أم عن «آدم الإنسان»؟!

❊ ويقول الله تعالى «الأعراف / ١٧٢ ـ ١٧٤»:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

وهل حدثت هذه الشهادة «قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا» من ذرية «آدم البشر» أم «آدم الإنسان»؟!

* يقول الله تعالى «الإسراء / ٧٠»:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

هل كرّم الله تعالى ذرية «آدم البشر» أم «آدم الإنسان»؟!

* ويقول الله تعالى «مريم / ٥٨ ـ ٦٠»:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

فهل الذين أنعم الله عليهم، والذين أضاعوا الصلاة، كانوا من ذرية «آدم البشر» أم من ذرية «آدم الإنسان»؟!

* ويقول الله تعالى «طه / ١٢٠ ـ ١٢٣»:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى... ﴿١٢٣﴾﴾.

وهل عندما يقول الله تعالى «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» ألا يعني هذا أن «آدم» كان مكلفًا بأحكام الحلال والحرام، فعل يُعقل أن يكون هو «آدم البشر» الذي من الفصيلة الحيوانية؟!

❋ ويقول الله تعالى «يس / ٦٠ ـ ٦١»:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

وهل هذا العهد كان لذرية «آدم البشر» أم «آدم الإنسان»؟!

والنتيجة: أن هذه الجملة التي كتبها د. شحرور «ص ١٠٦»:

«علمًا بأن آيات خلق آدم كلها قرآن ـ فهي من الآيات المتشابهات التي تحتاج إلى تأويل ـ وخير من أول آيات خلق البشر عندي هو ـ العالم الكبير تشارلز داروين».

تكفي وحدها لإسقاط قراءة د. شحرور المعاصرة للتنزيل الحكيم، ويرجع الفضل في ذلك إلى «المنهجية الهرمنيوطيقية» التي اتبعها.

أما عن قوله «ص ١٠٧»:

«إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر الروح في مجال الحياة والموت بتاتًا، ولكن التشابه في آيات خلق آدم، والأرضية المعرفية للسلف جعلتهم يقولون: إن الروح هي سر الحياة، وكان هذا ينسجم مع أرضيتهم المعرفية، وفي هذا يكمن إعجاز القرآن الأكبر وهو الجدل بين النسبي والمطلق، أو الجدل بين المحتوى والمتحرك والنص الثابت».

❋ أقول:

وكما سبق بيانه، فإن د. شحرور ينطلق في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم من قاعدة «الفلسفة المادية للوجود» والتي من مبادئها مسألة «الجدل بين النسبي والمطلق، أو الجدل بين المحتوى والمتحرك والنص الثابت»، وقد بيّنت تهافت هذه المبادئ في النواقض السابقة، كما بيّنت إلحاد د. شحرور في معنى كلمة «الروح» وكيف أنه يتعامل مع هذه الكلمة على أنها مؤنثة.

ولذلك سأكتفي بالتعليق على كلمة واحدة وهي كلمة «التشابه» التي وردت في جملة «ولكن التشابه في آيات خلق آدم» بعدما أثبتنا أنه لا يوجد مطلقًا في التنزيل الحكيم ما يُسمى بـ «آيات خلق آدم» كما يدعي د. شحرور.

ولذلك جاء حديثه عن «التشابه» في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم مشوهًا، لا لون له ولا رائحة، والسبب أنه حديث مترجم من مراجع «الفلسفة المادية للوجود» إلى اللغة العربية، يستحيل أن يُفهم الكلام الفلسفي المترجم بمعزل عن السياق الذي ورد فيه.

فهل العرب الذين خاطبهم الله تعالى بالتنزيل الحكيم كانوا على علم بهذه المراجع الفلسفية والسياقات التي ورد فيها معنى «التشابه» وكيف تُرجمت المصطلحات الفلسفية إلى اللغة العربية؟!

وهل عندما يقول د. شحرور «ص ١٥٨»:

«والتشابه فقط في القرآن والسبع المثاني، أي أنها لا تحمل صيغة المطلق بتاتًا، وغير قابلة للتأويل، لأنها آيات لا تبصر وليس لها وجود قائم في ذاته، أي وجود مشخص، وهي آيات للسلوك الإنسان لا للوجود الموضوعي.

وهي مناط القضاء الإنساني، ففيها الرفض وفيها الإيجاب، أي أنها فرقت بين الحلال والحرام في السلوك الإنساني الواعي، ولم تفرق بين الحق والباطل، الحقيقة والوهم، في الوجود الموضوعي المطلق خارج الوعي الإنساني».

❊ أقول:

وحسب مصطلحات د. شحرور وفهمه لها، تصبح «الآيات المحكمات ـ أم الكتاب» تحمل صيغة المطلق وقابلة للتأويل، وهي «آيات الأحكام» التي لها وجود موضوعي بين الناس، وإذا كانت «الآيات المتشابهات: القرآن ـ السبع المثاني ـ النبوة» آيات لـ «السلوك الإنساني»، فإن «آيات الأحكام» نزلت أيضًا لـ «السلوك الإنساني».

ثم ما معنى أن هناك آيات، يُقر د. شحرور أنها من عند الله، فَرّقت بين الحلال والحرام ولم تفرق بين الحق والباطل، أليس الحلال «حقًّا» والحرام «باطلًا»؟!

ثم عندما يقول د. شحرور «ص ١٨٧»:

«لقد حوى القرآن الحقيقة المطلقة للوجود بحيث تُفهم فهمًا نسبيًا حسب الأرضية المعرفية للعصر الذي يحاول فهم القرآن فيه، فهو قد حوى الحقيقة المطلقة والفهم

النسبي لهذه الحقيقة بآن واحد، وهذا لا يمكن لإنسان أيًا كان أن يفعله، فالمطلق عبر عنه ماديًا في الصيغة اللغوية المحدثة، الذكر، والنسبي جاء في المحتوي المتحرك في التأويل، وهذا ما نسميه بخاصية التشابه».

فهل خاصية «التشابه» هذه، غير «المتشابه» الذي ورد في سياق الآية الأم التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم من أولها إلى آخرها، هذا «المتشابه» الذي لا يتبعه إلا الذين في قلوبهم زيغ، كما قال الله تعالى «آل عمران/ ٧»:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾؟!

ز: لقد أرسل الله تعالى الرسل جميعًا لدعوة الناس إلى شيء واحد هو «الأعراف/ ٥٩»:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

ذلك أن الأزمة الكبرى التي يعيش بداخلها الناس ليست في «إنكار وجود الله»، وإنما في «الشرك بالله».

إن كثيرا من الناس، وفي مقدمتهم أتباع «الفلسفة المادية للوجود»، يعيشون حياتهم على أساس:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: «الجاثية / ٢٤».

ومنهم من ينكرون البعث «الأنعام / ٢٩»:

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾.

ولذلك كان المرض الأكبر الذي أرسل الله تعالى الرسل لانتزاعه من قلوب الناس هو «الشرك بالله» وأول من اتخذه الناس شريكا مع الله هو «الشيطان»، فتدبر «يس / ٦٠ ـ ٦٢»:

﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ

ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وعندما يعبد الناس «الشيطان» فهذا معناه أن آليات عمل قلوبهم، آليات التفكر والتعقل والنظر..، توقفت عن العمل، ولذلك وجه الله الخطاب إليهم بقول تعالى «أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ»؟!

ولقد كان «الشيطان» وراء تغييب عمل آليات قلوب الناس وتقديسهم ما وجدوا عليه آباءهم، وكفرهم بما أنزل الله «لقمان / ٢١»:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ولذلك كان المحور الأساس الذي تدور حوله «الآية القرآنية العقلية» هو دعوة الناس إلى «الوحدانية» والإقرار بصدق «النبوة» عن طريق الآيات «البراهين» الدالة على ذلك.

لقد كان المشركون يؤمنون بوجود الله، وجاء كفرهم من باب إشراك مع الله آلهة أخرى.

يقول الله تعالى «العنكبوت / ٦١»:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ - لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ - فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

ويقول الله تعالى «العنكبوت / ٦٣»:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا - لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ - قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ - بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

لقد كان المشركون يؤمنون بأن الآلهة التي يعبدونها في «عالم الشهادة» تقربهم إلى الله زلفى.

يقول الله تعالى «الزمر / ٣»:

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾.

والملحدون في القرن الواحد والعشرين، الذين يتبعون «الفلسفة المادية للوجود»، يُنكرون وجود الله أصلًا، ويقولون «لا إله والحياة مادة»، وكان على د. شحرور، ليخرج نفسه من دائرة الإلحاد، أن يبدأ كتابه «الكتاب والقرآن» بفصل بعنوان «من هو الله»؟!

فتعالوا نعطيه نموذجًا يتعلم منه كيف يكتب كتابًا عن القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، يبدأ بهذا الفصل: «**من هو الله**»:

حيث يقوم بتعريف الناس بمن هو الله ربهم: يقول الله تعالى «البقرة / ٢١ ـ ٢٢»:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ثم يأتي بالآيات التي تحمل جملة «هُوَ الَّذِي»:

* يقول الله تعالى «آل عمران / ٦»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأنعام / ٢»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأنعام / ٦٠»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأنعام / ٧٣»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ

قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأنعام / ٩٧ ـ ٩٩»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأنعام / ١٦٥»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأعراف / ٥٧»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأعراف / ١٨٩»:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

* ويقول الله تعالى «يونس / ٥»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «يونس / ٢٢»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «يونس / ٦٧»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الرعد / ٣ ـ ٤»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الرعد / ١٢ ـ ١٣»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾.

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾.

* ويقول الله تعالى «النحل / ١٠ ـ ١٧»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾.

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

* ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الأنبياء / ٣٣»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الحج / ٦٦»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾.

* ويقول الله تعالى «المؤمنون / ٧٨ ـ ٨٠»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الفرقان / ٤٧ ـ ٥٠»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾.

﴿ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴾.

* ويقول الله تعالى «الفرقان / ٥٣»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

* ويقول الله تعالى «الروم / ٢٧»:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

* ويقول الله تعالى «غافر / ٦٨»:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الملك / ١٥»:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾.

* ويقول الله تعالى «الملك / ٢٣ ـ ٢٤»:

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

*** أقول:**

إن المتدبر لهذه الآيات يعلم أنها لا تعرض فقط دلائل الوحدانية التي يعلمها الناس جميعًا في «عالم الشهادة»، وإنما تربط هذه الدلائل بخالقها الذي لا تدركه الحواس في الوجود الموضوعي.

لذلك بدأت الآيات بـ «هُوَ الَّذِي»، أي الذي لا تدركه الحواس لأنه سبحانه من «عالم الغيب»، والذي أقام البراهين على وجوده في «عالم الشهادة» والتي كان من مقتضاها ما ذُيِّلَت به الآيات:

❋ «البقرة / ٢٢»:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

❋ «الأنعام / ٦٠»:

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

❋ «الأنعام / ٧٣»:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

❋ «الأنعام / ٩٧ ـ ٩٩»:

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

❋ «الأعراف / ٥٧»: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

❋ «يونس / ٥»: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

❋ «يونس / ٦٧»: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

❋ «الرعد / ٣ ـ ٤»: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم تعالوا نعطي مثالا عن الآيات التي لها وجود موضوعي بين الناس، من سورتي «يس» و«الروم»:

ـ سورة يس: «يس / ٣٣ ـ ٣٥»:

❋ ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ولقد اقتضت هذه الآيات تنزيه الله المطلق عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، لذلك قال تعالى «يس / ٣٦ ـ ٤٥»:

* ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

* ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

* ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وماذا بعد كل هذه الآيات المشاهدة التي لها وجود موضوعي تدركه حواس الإنسان، حسب مبادئ «الفلسفة المادية للوجود»؟!

يختم الله هذه الآيات بقوله تعالى «يس / ٤٦»:

* ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

ـ سورة الروم: يقول الله تعالى «الروم / ٢٠ ـ ٢٧»:

* ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

حيث يحمل السياق «آية الزواج».

* ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

حيث يحمل السياق آية اختلاف الألسن واللغات.

* ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

حيث يحمل السياق فعالية أسماء الله الحسنى في الوجود.

ثم نتدبر موقع وحكمة ورود «وَهُوَ الَّذِي» في ختام هذه الآيات «الروم ٢٧»:

* ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

لنصل إلى النتيجة التي خُتمت بها آيات سورة النحل، السابق الحديث عنها «النحل / ١٠ ـ ١٧»:

* ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

نعم: «أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ»؟!

إن الإجابة على هذا السؤال، تنطق بها آيات الآفاق والأنفس من لدن آدم وإلى يوم الدين، مع كل ثانية من الزمن، فلماذا يُعرض كثير من الناس عنها؟!

يقول الله تعالى «يوسف / ١٠٥»:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾.

والسبب:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ـ «يوسف / ١٠٦».

إن الناس لم تربط دلائل الوحدانية الموجودة في «عالم الشهادة» بخالقها الله عز وجل الموجود في «عالم الغيب»، فذهبوا يؤمنون بما تدركه الحواس فقط، وهم أتباع «الفلسفة المادية للوجود»، ويكفرون بما وراء الطبيعة «الميتافيزيقا».

و«**الميتافيزيقا**» كلمة يونانية تنقسم إلى كلمتين: «ميتا» بمعنى «بعد»، و«فيزيقا» بمعنى «الطبيعة».

وتهتم «الميتافيزيقا» بالبحث عن إجابات عجزت العلوم الأخرى عنها، كالبحث عن أصل الإنسان وحقيقة وجوده، والجانب الخفي منه «الروح»، وعن طبيعة الألوهية وعلاقة الوجود الموضوعي بها.

واللافت للنظر، والغريب حقًّا، أن علماء «الميتافيزيقا» ينطلقون من قاعدة نظرية فلسفية أجهدت حواسهم التي لم يخلقها الله تعالى قادرة على اختراق «عالم الغيب» والاطلاع على ما فيه، كما فعل د. شحرور حين جعل كل ما هو «غيب» شيئًا ماديا يمكن أن تدركه الحواس.

وهذا هو سبب سقوط «نظرية التطور الداروينية»، التي عاش صاحبها في عالم الخيال ثم إذا به يُعلن أن الحلقة الرئيسة في نظريته مفقودة وهي حلقة «نفخ الروح» الذي حوّل البشر إلى إنسان، وطبعا هو لا يعلم أن هذه الحلقة من «عالم الغيب» الذي يستحيل أن يطلع عليه إنس ولا جان.

نتدبر قول الله تعالى «الفرقان / ٥٤ ـ ٥٦»:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾.

إن الجنين الذي في بطن أمه، الذي جاء عن طريق التقاء ماء الرجل بماء المرأة، سَمّاه الله تعالى «بَشَرًا» وليس «إنسانًا»، وبيّن الله آلية الجعل في «فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا» في قوله تعالى «السجدة / ٨»:

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾.

وبيّن الله تعالى كيف جاءت ذرية آدم من «الماء المهين»، فقال تعالى «غافر / ٦٧»:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ـ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ـ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ـ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ـ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ـ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا ـ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ـ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ـ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وتدور مثل هذه الآيات على محور «وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

فقد خرجت من ذرية «البشر» أنسابًا وأصهارًا وشعوبا وقبائل، بعيدا عن نظرية داروين «وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا».

ولذلك ظلت «الميتافيزيقا» علمًا فلسفيًا يعيش في أذهان الفلاسفة وعلى الأوراق فقط، محاولة منهم لإيجاد علاقة بين العالم «المشاهد» الذي تدركه الحواس، والعالم «الغيبي» الذي تعجز عن إدراكه الحواس، وهذه هي إشكالية «المنهجية العشوائية» للقراءة المعاصرة.

ويكفي أن أقول: إن من ثمار «المنهجية العشوائية الهرمنيوطيقية» أن تكون هذه الجملة «وَهُوَ الَّذِي» هي التي بدأت بها الآية الأم التي أقام عليها د. شحرور قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، وهي «آل عمران / ٧»

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾.

ومع ذلك لم يلتفت د. شحرور إلى من «هُوَ الَّذِيَ» أنزل الكتاب على رسوله محمد، وجعل:

«مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»؟!

الخاتمة

يقول «شحرور» في مقدمة كتابه:

«عدم وجود نظرية إسلامية في المعرفة الإنسانية، مصاغة صياغة حديثة معاصرة، ومستنبطة حصرًا، من القرآن الكريم، لتعطينا ما يسمى إسلامية المعرفة، بحيث تعطي هذه النظرية منهجًا في التفكير العلمي لكل مسلم، وتمنحه ثقة بالنفس وجرأة على التعامل والتفاعل مع أي نتاج فكري أنتجه الإنسان، بغض النظر عن عقيدته.

إن غياب هذه النظرية، المصاغة صياغة معاصرة، أدى بالمسلمين إلى التفكك الفكري، والتعصب المذهبي، واللجوء إلى مواقف فكرية أو سياسية تراثية، مضى عليها مئات السنين، تقوم على كيل الاتهامات بالكفر والإلحاد والزندقة والهرطقة والمعتزلية والجبرية والقدرية لهؤلاء وهؤلاء، كل هذا بهدف الخروج من مأزق فكري، يقع فيه المسلم في مواجهة الفكر المعاصر، علمًا بأنه ليس كل فكر أنتجه الإنسان هو عدو للإسلام بالضرورة.

ولكن غياب المنهج المعرفي، الذي يمكن أن يواجه كل غث، ويحتوي على كل ثمين، هو الذي يؤدي بالضرورة إلى مواقف التشنج والسذاجة وضيق الأفق.

لذا فإننا في كتابنا هذا أفردنا بحثًا خاصًا لمشكلة المعرفة الإنسانية، وهو فصل جدل الإنسان، لأن مشكلة الفلسفة الكبرى هي تحديد العلاقة بين الوجود في الأعيان، وصور الموجودات في الأذهان، ولدى الخوض في هذه المشكلة وجب علينا بالضرورة أن نقف على الأرضية العلمية للقرن العشرين، لذا فإنه ليس من العبث تسمية الفلسفة بأم العلوم قاطبة».

❋ أقول:

والحقيقة أن د. شحرور لم يصدق في جملة واحدة قالها في هذه المقدمة، ذلك أن هذا البحث الذي قال إنه جاء يعالج مشكلة المعرفة الإنسانية، والذي خصص له بابا كاملا باسم «جدل الكون والإنسان»، هو بحث فلسفي استقاه من «الفلسفة المادية للوجود» التي أقام عليها قراءته المعاصرة لآيات التنزيل الحكيم.

والدارس لهذه «الفلسفة المادية للوجود»، التي تم نقض قواعدها في هذا الكتاب، يعلم أنها:

❋ مجرد «تراث تاريخي فلسفي» لم تتعد فعاليته الكتب التي دُوّن فيها، ولا علاقة له مطلقًا بالأرضية المعرفية للقرن العشرين، الذي ادعى د. شحرور أنه يقف عليها.

❋ يستحيل أن تكون هذه «الفلسفة المادية للوجود» هي التي ستقدم للناس «نظرية إسلامية في المعرفة الإنسانية، مصاغة صياغة حديثة معاصرة، ومستنبطة حصرًا من القرآن الكريم»، وخير شاهد على ذلك نواقض هذه المنهجية الشحرورية المعاصرة التي حملها هذا الكتاب.

❋ يستحيل أن تكون هذه «الفلسفة المادية للوجود» هي التي ستعالج أزمة التفكك الفكري بين المسلمين وتعصبهم المذهبي، بدعوى أن سبب هذا التعصب والتفكك اعتمادهم على تراث ديني مضى عليه مئات السنين، لأن هذه الفلسفة ذاتها قد مضى عليها مئات السنين، ولا علاقة لها بالأرضية العلمية للقرن العشرين، الذي كان يقف عليها د. شحرور يوم كتب كتابه «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة».

إن القراءة المعاصرة لآيات التنزيل الحكيم، يجب أن تنطلق من قاعدة «الآية القرآنية العقلية» التي لا يحمل المسلمون غيرها دليلًا على صدق «نبوة» رسولهم محمد، عليه السلام، والمعاصرة للناس جميعًا على مر العصور، وإلى يوم الدين، وذلك وفق المنهجية العلمية التي أشرت إليها تحت عنوان: «منهجية التوجه نحو إسلام الرسول».

القراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم
الكتاب و القرآن
محمد شحرور نموذجا
نقض المنهجية

لقد بعث الله رسوله محمدًا، عليه السلام، بكتاب يحمل «الآية القرآنية العقلية» الدالة على صدق نبوته، والتي بتفعيل نصوصها:

* يقيم المسلمون الشهادة على الناس «الحج / ٧٨»: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»

* ويخرجونهم من الظلمات إلى النور «إبراهيم / ١»: «الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

ولقد جاءت الآية القرآنية آية عقلية، «وليست حسية»، لتظل فعالياتها قائمة بين الناس بتعهد الله بحفظها، ولتكون هي الباب الوحيد للدخول في «دين الإسلام» في حياة النبي وبعد وفاته، وإلى يوم الدين.

ومنذ أن تفرق المسلمون إلى فرق ومذاهب عقدية وفقهية متخاصمة متقاتلة، وهم أسرى «تدينهم الوراثي المذهبي»، ولم يعد باب الدخول في «دين الإسلام» هو باب الإقرار بصدق «الآية القرآنية العقلية» القائمة بين الناس جميعًا على مر العصور، وإنما من باب «التدين المذهبي».

لقد أصبح «التدين المذهبي»، بسلبياته وإيجابياته، حاكمًا على حياة المسلمين الدينية، فأخذ البعض «السلبيّات» وجعلوها قاعدة ينطلقون منها نحو ما يسمونه بالحداثة والتنوير والقراءة المعاصرة للتنزيل الحكيم، دون أن يخلعوا ثوب الفِرقَة التي ولدوا فيها، والتي لم يجدوا غير أمهات كتبها لينقضوها، ظنا منهم أن «دين الإسلام» دين «الفُرْقَة والمذهبية»!

لقد جاء التوجه «نحو إسلام الرسول» لعلاج أزمة «الفُرْقَة والمذهبية»، بدعوة المسلمين جميعًا إلى الالتفاف حول «الآية القرآنية العقلية» المعاصرة للناس جميعا اليوم، والتي هي البرهان الوحيد الذي يملكونه لإثبات صدق «نبوة» رسول الله محمد، عليه السلام، استنادًا إلى قول الله تعالى «العنكبوت / ٥١»: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»

إن التوجه «نحو إسلام الرسول» يحمل منهجية علمية وأدوات لفهم آيات التنزيل الحكيم مستنبطة من ذات «الآية القرآنية العقلية»، وليس من خارجها، وهذه المنهجية وأدواتها هي التي نقضت «المنهجية العشوائية» التي اتبعها د. محمد شحرور في قراءته المعاصرة للتنزيل الحكيم، ولقد جاء هذا الكتاب لبيان ذلك.

محمد السعيد مشتهري





نيو بوك للنشر و التوزيع

Des: Amira Magdy